الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

SOCIÉTÉ ÉGYPTIENNE D'ÉTUDES HISTORIQUES

المجلة التاريخية المصرية

المجلد الحادى والعشرون ١٩٧٤

المراسلات باسم

الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

٢ شارع ناصر الدين المتفرع من شارع عبدالسلام عارف (البستان سابقاً)
القاهرة تليفون ٧١٩٧٢

مطبعة الجبلاوى
٢٠٢ شارع الترعة البولاقية

رقم الايداع بدار الكتب ٤٠٥ / ١٩٧٤

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

خطاب تأبين (*)

المرحوم الأستاذ الدكتور حسن عثمان

ألقـــاه

الأستاذ الدكتور محمد محمود السروجي
أستاذ التاريخ الحديث بجامعة الاسكندرية

إنه لمما يشق على نفسي أن أقف بين أيديكم مؤبناً أستاذاً لي ، وعالماً من علماء مصر المخلصين ، وهب للعلم جهده وماله وحياته .

ربطتني بالراحل الكريم رابطة الطالب بأستاذه منذ أن أنشئت جامعة الإسكندرية في عام ١٩٤٢ ، وكان - حينذاك - في بداية حياته العلمية يملأه النشاط والحيوية والثقة بالنفس ، والأمل في المستقبل . وجذبني إليه

(*) أقيم حفل التأبين بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية مساء الاثنين ٢٥/٢/١٩٧٤ .

إيمانه الشديد بحرية الفكر ، واحترامه لنفسه ولعلمه ، وبعده عن الصغائر ، وغزارة مادته ، واستمرت هذه العلاقة تزداد توثقاً على مر الأيام ، وكر السنين إلى قبيل وفاته - رحمه الله - بساعات معدودات .

وإذا أردنا أن نلم بجوانب تلك الشخصية الكريمة إلماما شاملا وسريعاً ، يجب أن نرجع إلى الوراء بضع عشرات من السنين ، أيام أن كان طالبا بكلية الآداب جامعة القاهرة ، ينهل من ينابيع العلم على يد الرعيل الأول من علماء مصر . وقد عرف خلال دراسته باجتهاده وبنشاطه الدائب وراء طلب العلم . ولم يكن حصوله على درجة الليسانس فى التاريخ بدرجة الامتياز، فى عام ١٩٣٢ إلا ثمرة لكفاحه من أجل الحصول على أعلى الدرجات . ورغم ذلك فقد عين فى نفس السنة مدرساً بمدرسة امبابة الابتدائية بمجلس مديرية الجيزة .

وبعد حصوله على درجة الماجستير فى الآداب بمرتبة الشرف الثانية من جامعة القاهرة فى مايو ١٩٣٤ ، سافر فى نهاية تلك السنة إلى إيطاليا كعضو بعثة لكلية الآداب جامعة القاهرة ، للحصول على الدكتوراه فى تاريخ الشرق الأدنى الحديث من جامعة روما .

وفى سبتمبر عام ١٩٣٥ حصل على دبلوم فى اللغة والأدب الإيطالى من جامعة بيروجيا للأجانب ، تمهيداً لنيل درجة الدكتوراه فى الآداب والفلسفة التى حصل عليها مع مرتبة الشرف من جامعة روما فى ديسمبر عام ١٩٣٨ .

وسرعان ماعين - عقب عودته مباشرة - مدرسا مساعدا بكلية الآداب جامعة القاهرة ، واستمر بتلك الدرجة إلى أكتوبر عام ١٩٤٢ ، حيث نقل إلى كلية الآداب جامعة الاسكندرية عند إنشائها فى تلك السنة ، ليشغل وظيفة مدرس فى التاريخ الحديث .

وفى مارس ١٩٤٧ حصل على وظيفة أستاذ مساعد بنفس الكلية ، ومكث فيها إلى أول ديسمبر عام ١٩٥٠ ، حيث نقل إلى معهد الدراسات السودانية بجامعة القاهرة كأستاذ لكرسى تاريخ السودان وآثاره . وما أظنه كان مرتاحا لهذه النقلة ، لأنه كان يحب الاسكندرية ويود ألا يفارقها أبداً .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كانت الدراسة فى المعهد المذكور بعيدة عن اهتماماته .

ومنذ عام ١٩٦٤ تولى منصب رئيس المعهد إلى أن أحيل إلى المعاش فى عام ١٩٦٨ . وظل - رحمه الله - يشغل وظيفة أستاذ تاريخ السودان حتى وفاته فى ٢٩ أكتوبر ١٩٧٣ .

فى هذه الفترة الطويلة من حياته العملية كتب العديد من الكتب والأبحاث العلمية باللغات العربية والإيطالية والإنجليزية .

وإذا تناولنا الأبحاث التى قام بها نجدها عديدة ومتنوعة ، وإن كان معظمها يدور حول الشاعر الإيطالى دانتى الذى أفنى الراحل الكريم معظم حياته من أجل نشر أهم أعماله نشراً علمياً محققاً ، وتلك الأبحاث هى :

- البحر الأحمر كطريق تجارى فى عهد البيزنطيين والعرب والمماليك .
- دير الأنبا أنطونيوس .

وقد نشر البحثان فى كتاب بعنوان « رحلة كلية الآداب إلى ساحل البحر الأحمر وبعض مناطق الآثار بالوجه القبلى » اشترك فى وضعه بعض أعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب جامعة القاهرة فى عام ١٩٣٢ .

- كتابة سبع مقالات بمجلة الرسالة تحت عنوان « كيف يكتب التاريخ » وذلك فى الفترة من أغسطس إلى ديسمبر ١٩٤١ . وكانت تلك المقالات

هى نواة كتاب « منهج البحث التاريخى » الذى صدر بعد ذلك بعامين .

وكان ـ رحمه الله ـ يفضل قبل البدء فى تأليف كتاب عن موضوع معين أن يمهد له أولا بالعديد من المقالات التى تصبح بعد ذلك الهيكل الرئيسى فى الكتاب المزمع وضعه .

ـ فخر الدين الثانى أمير لبنان وبلاط تسكانا (١٦٠٥ - ١٦٣٥) للأب بولس قرالى . وقام فى هذا البحث بعرض الموضوع ونقده ، مع تقديم وثائق لم تنشر عنه ، بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد السادس فى عام ١٩٤٢ .

ـ كتابة بعض المقالات بمجلة الثقافة عن « سافونا رولا » فى الفترة من سبتمبر ـ نوفبر ١٩٤٢ . وكانت هذه المقالات هى نواة كتابه عن سافونا رولا ، الذى نشره فى عام ١٩٤٧ .

ـ سوريا ولبنان (فى التاريخ المعاصر) لألبرت حورانى : عرض وتحليل ونقد لما جاء بهذا الكتاب . نشر بالمجلة التاريخية المصرية ، المجلد الأول ، فى أكتوبر ١٩٤٨ .

أما أبحاثه عن دانتى فكثيرة منها :

ـ دانتى اليجييرى: حياته وشخصيته ، وقد نشر بمجلة الكاتب المصرى ، المجلد الثامن ، العدد ٣١ فى أبريل ١٩٤٨ .

ـ فرنتشيسكا داريمينى عند دانتى اليجييرى ، وهى ترجمة وتحليل وشرح وتعليقات ، مع تقديم نص من « الجحيم » نشرت بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد الحادى عشر ، الجزء الأول ، مايو ١٩٤٩ .

ـ فاريناتا دلى أوبرتى ، وكافالكانتى دى كافالكانتى فى جحيم دانتى ، وهى ترجمة وتحليل وشروح وتعليقات حول هذا الموضوع ، مع تقديم نص من « الجحيم » . وقد نشرت بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد الثانى عشر ، الجزء الثانى ، ديسمبر ١٩٥٠ .

ـ الأنشودة الخامسة من مطهر دانتى ، قام بترجمتها وتحليها وشرحها والتعليق عليها ، مع تقديم نص من « المطهر » ونشرت بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد الثامن عشر ، الجزء الأول ، مايو ١٩٥٨ .

وكان لتدريسه بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية أثره فى دراسته للكوميديا الإلهية ، إذ بدأ يهتم بما ذكره دانتى عن أفريقيا فى هذه الملحمة الشعرية الكبيرة . فكتب بحثين عن أفريقيا :

<u>الأول :</u> « إفريقيا فى جحيم دانتى » قام فيه بترجمة بعض النصوص الواردة بهذا الخصوص ، مع تحليل وشروح وتعليقات . ثم قدم نصوصا من الجحيم للاستشهاد بها . وقد نشر هذا البحث فى مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، العدد العاشر فى ١٩٥٦ .

والثانى : « أفريقيا فى مطهر دانتى » ، وهو على غرار البحث الأول ، ونشر بمجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، العدد ١٤ سنة ١٩٦٠ .

وكتب باللغة الإنجليزية بحثا عن :

Dante in Arabic, in the seventy third Annnual Report of Dante Society of America, Widner Library, Harvard Univérsity, Cambridge Massachusettes, USA. 1955.

ـ مقدمة بالايطالية والعربية لكتاب الأستاذ طه فوزى عن « دانتى اليجييرى » القاهرة ، ١٩٦٥ .

Dante e il Mondo Arabo, nella rivista "Fatti e Notizia" della ' Pirelli ", agosto 1967,

أما عن الكتب التى ألفها أو ترجمها فهى :

— فخر الدين بن معن (رسالة الماجستير فى ١٩٣٤ ، وهى لم تطبع حتى الآن) .

Fakhr — ud — Din II Emero del Libano e le sue Relazioni con l'occidente, con Documenti Inediti, P. I. Roma, 1938.

(وهى رسالة الدكتوراه ولم تنشر إلى الآن) .

— تاريخ مصر فى العهد العثمانى (١٥١٧ – ١٧٩٨)، نشره بالاشتراك مع الأستاذ محمد توفيق، فى كتاب « المجمل فى التاريخ المصرى» لبعض أعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب جامعة القاهرة فى ١٩٤٢ . وهذا الجزء خلاصة مركزة لمعالم تاريخ مصر العثمانية فى الفترة السابقة لمجىء الحملة الفرنسية ، تلك الفترة التى لم تنل عناية المؤرخين بعد . ولقد ألقى هذا الجزء من الكتاب الضوء على الجوانب المتعددة من تاريخ تلك الفترة لشد انتباه الباحثين إليها .

— « منهج البحث التاريخى » ، صدرت الطبعة الأولى منه فى عام ١٩٤٣ . والكتاب على درجة كبيرة من الأهمية ، لأنه يسد ثغرة فى المكتبة العربية ، لقلة عدد الكتب العربية التى تناولت هذا الموضوع بالبحث . ومن ثم فالكتاب لا غنى عنه لأى باحث فى التاريخ ، ولاسيما فى التاريخ الحديث . وما زال الكتاب يدرس بجامعاتنا لطلبة الدراسات العليا حتى يومنا هذا . وكان رحمه الله يعتز به . وقد صدرت منه ثلاث طبعات .

— « سافونا رولا : الراهب الثائر » ، صدرت فى عام ١٩٤٧ ، وترجم إلى اللغة التركية ، وطبع باستانبول . وقد حصل هذا الكتاب على جائزة الدولة فى صورة بعثة إلى الخارج فى ١١ فبراير ١٩٤٩ . وكان هذا الكتاب يحتل منزلة خاصة لديه ، لما اتصف به سافونا رولا من خصال تستهويه .

على أن أهم عمل قام به الراحل الكريم هو ترجمته للكوميديا الإلهية . وقد قام بنشرها فى الفترة من ١٩٥٩ — ١٩٧٢ بعد دراسة استمرت قرابة العشرين عاما .

— صدر النشيد الأول : « الجحيم » فى عام ١٩٥٩ مع مقدمة وترجمة وتحليل وشروح وتعليقات ، وصدرت طبعـــة ثانية مزيدة ومنقحة فى سنة ١٩٦٧ .

— وصدر النشيد الثانى: «المطهر» ، مزودا بمقدمة وترجمة وتحليل وشروح وتعليقات وتذييل فى سنة ١٩٦٤ .

. أما النشيد الثالث والأخير من الكوميديا الإلهية وهو الفردوس ، فقد صدر فى سنة ١٩٧٢ ، مع مقدمة وترجمة وتحليل وشروح وتعليقات وملاحق وتذييل .

وقبل أن أتحدث عن هذا العمل الكبير الذى خصص له الراحل الكريم كل حياته تقريبا ، يجدر بى أن أنوه إلى حركة الترجمة فى مصر التى بدأت برفاعة رافع الطهطاوى والتى مازالت مستمرة حتى يومنا هذا .

لقد استأثر الأدب الإنجليزى والأدب الفرنسى بالنصيب الأوفى من اهتمام المترجمين ، وتليه الآداب اليونانية واللاتينية القديمة . ولكن الأدب الإيطالى لم يكن موضع جذب لهؤلاء . ولذا يعد الراحل الكريم من الرعيل الأول فى هذا الميدان .

وإذا عددنا الملاحم الخالدة فى التراث الإنسانى ، وجدناها أربع ملاحم هى: الألياذة والأوديسة للشاعر هوميروس، والأنياده للشاعر اللاتينى فرجيل أو فرجليوس ، والكوميديا الإلهية لدانتى .

فالكوميديا إذن تعد بحق إحدى هذه الروائع الخالدة ، وقد لقيت ما تستحقه من عناية وتحقيق . ونقل الكوميديا إلى العربية لا يعد مجرد نقل، أو مجرد ترجمة شأنها فى ذلك شأن الترجمات الأخرى . بل إن الأمر أخطر وأعمق من هذا بكثير . فقد تطلب هذا الأمر الرجوع إلى مختلف الطبعات التى صدرت للكوميديا باللغات الإنجليزية والفرنسية ، بالإضافة إلى اللغة الإيطالية . وكان هدفه من ذلك التعمق فى دراسة النص وفهم معناه الظاهرى والباطنى ، ليستطيع نقله إلى العربية بكل صدق وأمانة .

بل لقد ذهب إلى أبعد من هذا الحد ، فأمانته العلمية فرضت عليه أن يزور العديد من الأماكن التاريخية التى أقام فيها دانتى أو زارها ، وأن يعيش تحت سمائها ، ليحس بما أحسه دانتى ليكون أقدر على فهمه . ولم يبخل فى سبيل ذلك بجهد أو مال ، طالما كان يوصله إلى هدفه المنشود . ولذ فقد سافر العديد من المرات ، ومر بمختلف القرى والمدن ، وتسلق الجبال ، وعبر الأنهار من أجل الوصول إلى الحقيقة .

وطريقته فى الترجمة — كما أوضحها بنفسه — هو أن يجمع النص المترجم بين المحافظة على المعنى « مع روح البيان العربى بشىء من الرونق الشعرى ، الوارد فى اللغة الأصلية » .

هذا فضلا عن المقدمات والشروح والتعليقات التى تتناول النص من جميع جوانبه والتى تبرز الشخصيات الحقيقية والخيالية التى اشتمل عليها ، وكذلك أهم القضايا المتعلقة بها ، والحكمة الخافية من ورائها .

وبرغم هذا الجهد الكبير الذى بذله المرحوم الدكتور حسن عثمان العالم المحقق ، والذى استحق من أجله تكريم مختلف الهيئات الأجنبية العالمية ، فلم يعرف الغرور طريقا إلى نفسه ، وظل يحتفظ بتواضع العلماء ، هـــذا

التواضع الذى كان أهم صفة من صفاته . ويبدو هـذا من تقييمه لترجمة الـكوميديا ، إذ يقول :

« ليس من السهل أن يتحدث الإنسان عن نفسه . ومع هذا فأنا أرى عملى أو جهدى مجهودا لا بأس به ، جاء نتيجة المحبة ، والمعايشة الطويلة ، والتذوق. وأظن أن تقدير هذا العمل ، فى نظرى . باعتبارى من المشتغلين بالتدريس، يستحق سبع درجات من عشر . وأرجو أن يأتى فى المستقبل من يأتى بترجمة أفضل من هذه » .

الجوائز العلمية التى حصل عليها :

نال الراحل الكريم العديد من الجوائز تقديراً لجهوداته العلمية فى مجال الدراسات الدانتية . فحصل على ميدالية « أسكار داماليا » الذهبية الدولية ، باسم اللجنة الدولية لوحدة الثقافة وعالميتها مع أستاذين آخرين فى العالم، وذلك فى مدينة روما فى ٣ يونيه ١٩٦٥ ، بمناسبة الاحتفال بالذكرى المئوية السابعة لميلاد دانتى .

ونال جائزة الدولة التشجيعية فى فن الترجمة وقدرها ٥٠٠ جنيه مع وسام المعارف من الدرجة الأولى ، وميدالية برونزية فى ١٨ ديسمبر ١٩٦٥ .

وجائزة اللجنة الوطنية الإيطالية الدانتية وقدرها مليون ليرة إيطالية ، مع سبعة أساتذة آخرين من العالم ، فى فلورنسا فى ٣٠ أبريل ١٩٦٦ .

وجائزة من وزارة الخارجية الإيطالية وقدرها ٣٠٠،٠٠٠ ليرة، فى روما، فى ٢٨ يوليه ١٩٦٦ .

والميدالية الذهبية من المجمع العلمى للعلماء الدانتيين ، فى روما فى ٢٧ نوفبر ١٩٦٦ . وقد منحت هذه الميدالية لأربعة علماء متخصصين فى الدراسات الدانتية، كان رحمه الله أحد هؤلاء الأربعة .

والميدالية الذهبية من « جمعية دانتي اليجييرى » فى بالرمو فى ١٠ ديسمبر سنة ١٩٦٦ .

وحصل فى ٨ مايو سنة ١٩٧٣ على درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة باليرمو بصقلية .

المؤتمرات التى اشترك فيها :

اشترك الراحل الكريم فى الكثير من المؤتمرات العلمية نورد بعضها .

(ا) المؤتمر الدولى الدانتى فى فلورنسا فى أبريل ١٩٦٠ .

(ب) المؤتمر الدولى الدانتى فى أفنيون فى ١٤ و١٥ أكتوبر ١٩٦٥ .

(ج) دعى لحضور مؤتمر المائدة المستديرة فى اليونسكو فى باريس من ٢٧ - ٢٩ أكتوبر ١٩٦٥ ، ولكنه اعتذر عن الاشتراك .

(د) وحوالى عام ١٩٦٤/٦٣ سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية لإلقاء بعض المحاضرات وحضور بعض الندوات فى الدراسات الدانتية .

وكان - رحمه الله - عضوا بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، وعضوا بجمعية دانتى فى الولايات المتحدة الأمريكية ومقرها جامعة هارفارد ، وذلك منذ عام ١٩٥٤ ، وعضوا فخريا فى المجمع العلمى للعلماء الدانتيين فى روما منذ عام ١٩٦٦ .

هواياته :

عكف رحمه الله - على دراسة وتذوق الفنون التشكيلية ، والفنون الموسيقية والمسرحية فى المتاحف ، والمعارض ، والمعاهد ، والكاتدرائيات ، والكنائس ، والأديرة ، ودور العزف ، ودور التمثيل ، وفى المراجع ،

والتسجيلات الموسيقية والصوتية ، فى أثناء رحلاته العديدة إلى الخارج وبخاصة فى الفترة من ١٩٣٤ الى ١٩٦٧ .

وكانت مكتبته الخاصة تحتوى على المئات من المراجع التى تتناول مختلف الفنون ، والأسطوانات ، والأشرطة الموسيقية .

وكان يميل – بوجه خاص – إلى موسيقى الباروك أو Pre classic، وكذلك إلى المدرسة الإيطالية فى الموسيقى، ومن أعلامها تارتينى، وسكارلاتى وفرسكو بالدى وغيرهم . وحبه للموسيقى دفعه إلى ذكر الأعمال الموسيقية المتعلقة بالكوميديا فى كل مجلد من مجلداتها الثلاثة .

وقد جمع فى هذه المكتبة كل ما كتب عن دانتى، إذ حوت ما يقرب من سبعمائة مجلد فى هذا الموضوع وحده .

أعماله التى لم تتم ولم تخرج إلى حيز التنفيذ:

إذا كانت ترجمة الكوميديا الإلهية هى آخر أعماله الجيدة التى نشرها ، فلم تكن هى آخر أعماله على وجه الدقة . فما أن فرغ من ترجمته للكوميديا حتى بدأ فى ترجمة أثر آخر من آثار دانتى وهو La vita nova ، وقد انتهى منه بالفعل ، وبدأ عملية التحليل والتعليقات وإن كانت لم تتم بعد على أغلب الظن . ولذا فإنى أرجو أن يرى هذا العمل النور ، وأن تهتم الهيئات العلمية بنشره .

كذلك كان ينوى القيام بترجمة الأعمال الصغرى لدانتى أو ما تسمى بـ Les oevres Minuers. كما كان يود أن يفرغ لعمل دراسة عن العلاقة بين الموسيقى والأدب فى عصر دانتى .

ومن المشروعات التى راودته وشغلت تفكيره أيضاً ترجمة أعمال بتراركا.

كانت آماله العلمية كباراً ، ولكن المنية عاجلته قبل أن يحقق كل أحلامه. لقد عاش - رحمه الله - معظم حياته متفرغا لعلمه ، لا يشغله عنه ولد ولا زوجة ، فأعطى للعلم كل حياته . وفى عام ١٩٦٨ يشعر بحاجته إلى زوجة يسكن إليها ، فيتزوج بمن أحب لتكمل معه بقية الطريق الذى قطع الشطر الأكبر منه بمفرده .

ولكن تشاء الأقدار أن يفزع فى موتها فى ظروف غامضة ، فيحزن لفقدها حزنا شديداً ، ويبكيها بكاء مرا حتى آخر أيام حياته . ومما زاد من وقع الصدمة على نفسه تناول الصحافة هذا الأمر بما يزيد من عمق جراحه.

وتقضى مشيئة الله أن تنعاه مصر وسط أنباء معاركها وفى يوم وفاة عميد الأدب العربى المرحوم طه حسين ، فيضيع نبأ وفاته فى زحمة الأحداث .

وكأننى فى هذا الموقف أردد ما نظمه شوقى أمير الشعراء فى رثاء مصطفى لطفى المنفلوطى لوفاته يوم الاعتداء على حياة سعد زغلول ، وهياج الأمة لهذا الحادث الجلل ، قوله :

اخترت يوم الهول يوم وداع
ونعاك فى عصف الرياح الناعى
هتف النعاة ضحى فأوصد دونهم
جرح الرئيس منافذ الأسماع
من مات فى فزع القيامة لم يجد
قدما تشيع أو حفاوة ساعى

رحم الله الفقيد رحمة واسعة ، وجزاه جزاء العلماء الصابرين ، لما قدم لمصر وللعلم من خدمات .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟

بحـــوث

الألعاب الأولمبية القديمة(*)

للدكتور سيد أحمد على الناصرى
كلية الآداب — جامعة القاهرة

إن نظرة متعمقة فى تراث الإغريق الفكرى والفنى والأدبى لكافية بأن توضح حقيقة لاخلاف عليها وهى أنهم فشلوا بالارتقاء بأفكارهم السياسية إلى المستوى الذى كان ينبغى عليهم أن يصلوا إليه . لقد فشل الإغريق فى تحقيق وحدة سياسية كبرى تجمع بين أجزاء بلادهم المختلفة وربما كان ذلك بسبب جغرافية بلادهم الوعرة والتى دفعتهم إلى إيجاد نظام سياسى غريب ألا وهو إقامة وحدات سياسية صغيرة نواتها المدينة (Polis) أشبه بدويلات مدن إيطاليا فى عصر النهضة .

وتمسكت هذه المدن المتكدسة فى مساحات محدودة باستقلالها (Autonomia) وحرصت على أن تكون مكتفية ذاتيا (Autarkia) وآثرت أن تظل حرة محدودة المساحة والسكان على أن تندمج فى وحدة كبرى . وقد أحس مواطنو كل مدينة بغيرة شديدة فى أن يظلوا كذلك لأنهم كانوا يتمتعون بكلمة مسموعة فى شئونها ، يعبرون عنها فى مجلس عام يضم

(*) ألقى هذا البحث فى الدورة التدريبية لاعداد فريق مصر فى الدور الأولمبية المنعقدة فى استاد القاهرة الرياضى فى فبراير عام ١٩٧٢ تحت إشراف وزارة الشباب .

كل مواطنيها يعقد فى سوقها العامة (Agora) . كما أن كل مواطن وجد دورا له فى إدارة شئون دويلة مدينته وباختصار أصبحت الوحدة (Enosis) هى أزمة التاريخ اليونانى وقوته الطاردة . ومن العجيب أن أساطين الفلسفة الإنسانية أمثال أرسطو وأفلاطون لم يحركوا ساكنا إزاء الكف عن هذا التشبث بنظام دويلات المدن بل أيدوه ودافعوا عنه .

نعم ، لقد قامت أحلاف وحدوية بين دويلات المدن اليونانية المختلفة ولكن هذه الأحلاف فشلت لأنها كانت تنهار بمجرد إنهيار الغرض الذى قامت من أجله ، مثل حلف ديلوس الدفاعى الذى قام من أجل وقف زحف الفرس على المدن الإغريقية فى آسيا الصغرى وفى جزر بحر ايجه ، كما فشلت الأحلاف السياسية التى أقامها الإغريق فى أوقات متأخرة مثل الحلف الآخى والأيولى لأنها كانت أشبه بتحالفات الشركاء التى تغلب عليها الأنانية والتى سرعان ما كانت تنهار أمام الأزمات الكبرى وخاصة إذا دب الخلاف بينها. وبالرغم من هذا فان الدارسين ليجدوه عزاء للوحـــدة السياسية والقومية اليونانية فى اللقاءات « الدولية » بين مدن الاغريق فى مهرجانات رياضية وثقافية ربطت بين عواطفهم وأفكارهم وعلاقاتهم الفردية والجماعية . لأن « صوت الدين » كان صوتاً لا يعلى عليه بالنسبة لليونانى فقد اتخـذت هذه المهرجانات صيغة دينية فى المقام الأول وكانت قدسيتها ملزمة فكانوا يلقون بالسلاح جانبا ويهرعون إليها للاشتراك فيها حتى وإن كانوا فى أعنف مراحل الكراهية والقتال[1] .

تبلورت هذه المهرجانات الرياضية والثقافية عن أربعة كبرى ، ونظرا لروعتها وشمولها واستيعابها لأرق المستويات الرياضية وحرصها على جذب أنظار أكبر عدد من الحجاج إليها فقد أطلق عليها مهرجانات كل الاغريق (Pan-hellenic) كما لقبها إيسوقراط خطيب الوحدة الضائعة بأعياد الثناء (Panegyric) .

ونحن نوردها حسب توقيتها الزمنى على الوجه الآتى :

(أ) الدورة الأولمبية .

(ب) الدورة الأثمية Isthmian نسبة إلى خليج كورنثا .

(ج) الدورة البيثية Pythian فى دلفى .

(د) الدورة النيمية Nemean .

وكانت كل من هذه الدورات الرياضية تجىء كل أربعة أعوام يفصل بين كل منها فسحة من الزمن بحيث لا يتصادف حدوث احداها مع دورة أخرى وبحيث يكون فى كل عام مهرجان يذهب إليه الناس وغرضنا الأساسى فى هذه البحث هو تناول كل من هذه المهرجانات ومعالجتها على حدة ثم استنتاج فكرة عامة شاملة نستخرجها من هذه الدراسة ومن الطبيعى أن نبدأ بالحديث عن الدورة الأولمبية لأنها أكبرها وأعمها وأشملها .

(أ) الدورة الأولمبية :

كانت مهرجانات الدورة الأولمبية تقام أساسا لتكريم زيوس Zeus رب الأرباب الاغريقية وملك آلهة الأولمبوس Olympus . وكان هذا المهرجان يقام فى قرية أولمبيا Olympia الواقعة فى أقصى الجانب الغربى من البيلوبونيز (Peloponese) أو شبه جزيرة المورة . كانت هذه القرية من أعمال مدينة Pisa التى كانت تسيطر على إقليم شاسع نسب إليها Pisatis وكان المهرجان يقام فى بقعة مقدسة لزيوس عند ملتقى نهرى كلاديوس Cladeus والفايوس Alphaeus الشهيرين . وقد ظلت مدينة بيسا Pisa تنفرد بشرف إدارة المهرجان حتى نزعت منها مدينة مجاورة وهى ايليس Elis حق هذا الشرف وتمكنت منذ عام ٥٧٢ ق.م من إدارة هذا المهرجان وكانت مدينة ايليس لا تقل قوة وبأسا عن مدينة Pisa وكانت تتحكم فى إقليم شاسع نسب إليها (Elatis)[٢] .

تتضارب الأساطير اليونانية حول الأشخاص الذين ابتدعوا هذه المهرجانات ودخلت الغيرة والأنانية وراء هذه الأساطير[3] فمثلا إدعى أهل دويلة بيسا أن مؤسس مدينتهم وهو الملك بيسوس هو الذى ابتدعها . وادعى الآخيون ورثة الحضارة الموكينية أن الملك بيلوبس Peleps هو الذى أوجدها وأن ألعابا جنائزية كانت تقام فى ذكراه بعد موته .وادعى الدوريون الذين غزوا شبه جزيرة الموره فى نهاية الألف الثانية ق.م وقضوا على حضارة الآخيين أن بطلهم الأسطورى هيراقليس (Heracles) هو أول من كسر إحتكار القبائل الآخية لهذا المهرجان وأعطى للعناصر الدورية دوراً فيها ، كما زعم الأسبرطيون وهم من سلالة الدوريين أيضاً أن مشرعهم الأسطورى لكرجوس(Lykurgos)هو واضع التعديل السابق ومن الطبيعى أن يدعى أهل دويلة مدينة إيليس Elis أن مشرعهم الأسطورى إيفيتوس هو مبدع هذا المهرجان . وأغلب الظن أن هذا المهرجان نشأ من تلقاء نفسه حول بقعة دينية وشاركت فيه كافة العناصر الاغريقية[4] ثم تنازعت إدارته مدينتا بيسا وايليس . ومهما كان الأمر فقد تعارف الإغريق على جعل هذه المهرجانات يونانية شاملة . ولما كانت هذه الأعياد تستمد قوتها وقداستها من الدين اليونانى فقد اتفق الاغريق على مراعاة قدسية الأمن والسلام إبان حدوثها والتوقف عن أعمال القتال أو الاقتتال حتى تنتهى هذه الدورة . حيث ترفع الأيدى عن السلاح (Eccheira) .

وكانت الرسل والمنادون يخرجون من القرية الأولمبية ليعلنوا بداية الأيام الحرم ولذا لقبوا برسل الهدنة (Spondophoroi) .وكان المقصود بهذا الأمن هو تمكين الرياضيين ووفود الحجاج من السفر عبر البحر والبر دون أن يتعرض لهم أحد من أعدائهم بسوء . وما أن يعلن الرسل الهدنة حتى كان الرياضيون وجماهير النظاره والمتفرجون وكذلك الوفود الرسمية ورجال الأدب والفن والفكر والشعراء والخطباء والسياسيون وغيرهم من طالبى الشهرة، يولون وجوههم نحو القرية الأولمبية وسرعان ما تزخر حول البقعة

المقدسة مدينة غامرة من الأكواخ والخيام تسمع فيها اللغة اليونانيـــة بكافة لهجاتها .

هكذا ظل هذا المهرجان عزاء اليونانيين وعوضهم عن تحقيق الوحدة إبان مجد بلادهم أو إنهيارها وسقوطها تحت براثن الاستعمار الرومانى حتى اعتبره الامبراطور الرومانى المسيحى ثيودوسيوس Theodosius رجسا من عمل الوثنية فألغاه عام ٣٩٤ ميلادية .

كان المهرجان الأولمبى يقام كل أربع سنوات فى القمر الثانى(٥) والثالث من أشهر الصيف أى مابين شهرى يوليو وأغسطس والأول بداية السنة الونانية والآخر هو نهايتها . وقد قبل المؤرخون الإغريق التاريخ الذى وضعه تيمايوس Timaeus وهو عام ٧٧٦ ق . م كتاريخ لأول دورة أولمبية أقيمت كما وضع هذا المؤرخ نظام تاريخ الحوادث برقم العيد الأولمبى مما يجعلنا قادرين على تحديد تواريخ الحوادث بدقة متناهية وعلى أى حال كان المهرجان يستغرق خمسة أيام وصلت فى العصر الكلاسيكى إلى سبعة .

كان المهرجان يقام على ساحة مقدسة تسمى Altis تقع عند سفح تلال كرونوس والد الرب زيوس وهى تلال متوسطة الارتفاع لا يزيد ارتفاعها عن ٤٠٣ أقدام .

وكانت القرية الأولمبية مقامة على مساحة من الفضاء يبلغ طولها ٧٥٠ قدما وعرضها ٥٠٠ قدما ومحاطة بأسوار ضخمة نسبت الأساطير إقامتها إلى بطل الإغريق هيراقليس . وكان لهذه القرية بوابتان واحدة من الشمال الغربى والأخرى من الجنوب الغربى ويتوسط القرية مذبح زيوس العتيق وهو عبارة عن قاعدة إسطوانية يبلغ قطرها ١٢٨ قدماً وقد روت الأقاصيص أنها قد بنيت من رفات الشهداء معجونة بماء نهر الفايوس . ويحيط بالمذبح أربعة معابد

أكبر معبد زيوس الشهداء والذى بدأ بناءه مهندس من إيليس Elis إسمه ليبو Libon ولم يكتمل بناؤه إلا عام ٤٥٠ ق . م وهو مصمم على الطراز الدورى وقد قام فنان أثينا الأول فيدياس Pheidias بنحت تمثال لزيوس وهو جالس على عرشه ، من العاج والذهب وقد شهر هذا التمثال الفنان كما شهر الفنان المعبد ، وبعد ذلك يجى معبد هيرا زوجة زيوس وهو المعبد الذى عرف باسم الهيرايوم Heraeum وهو أقل أهمية وحجما ثم معبد الربة الأم Matroön ومحراب الملك الأسطورى بيلوبس Pelops . وحول هذه المعابد كانت تقوم الأبنية الخاصة بإدارة المهرجان واستقبال الوفود الرسمية ومقار الاداريين والمشرفين على الفرق وغيرها .

هذا بالاضافة إلى آلاف النصب التذكارية والتماثيل الجميلة التى كان الفائزون يقيمونها كقرابين للآلهة وامتنانا للوقوف بجانبهم ساعة إحراز الفوز ومن أشهر هذه التماثيل تمثال بايونيوس Paeonious والذى أقامه أهل مسينيا Messenia وناوباكتوس Naupactus إحتفاء بانتصارهم على الاسبرطيين فى بيلوس عام ٤٢٥ ق.م بمساعدة حلفائهم الآثينين وهى عبارة عن ربة النصر وهى تهبط من السماء يحملها نسر كبير لتحط على صخرة بينما تدفع الريح ثيابها .

وحول المنطقة الحرام كانت تقوم ملاعب الرياضة حيث تقام المباريات. فمن ناحية الغرب يقع الجمنازيوم Gymnasium بينما يقع ملعب سباق الخيل (Hippodrome) من ناحية الشرق كذلك ملعب سباق الجرى Stadium ويبلغ طوله ٦٠٠ قدم أولمبى أوما يعادل ١٩٢,٢٧ مترا (لأن القدم الأولمبى يبلغ ٠,٣٢٠٤ من المتر) . وبالرغم من أن فيضان نهر الفايوس قد ألحق به الكثير من الأضرار إلا أن الزائر لهذه المدينة القديمة يستطيع أن يتعرف على علامات محفورة فى الحجارة كان الرياضيون يثبتون أقدامهم عليها قبل إعطاء إشارة البدء فى جانبى الملعب وعددها عشرون علامة

أى أن الاستاد كان يتسع لعشرين لاعبا وكان يفصل بين كل لاعب وآخر علامات مقامة كل أربعة أميال أولمبية أى كل ١,٢٨ مترا .

كان المهرجان الأولمبي ينقسم إلى جزئين رئيسيين هما : —

(ا) الطقوس والشعائر الدينية :

وفيها يقيم المشتركون فى المباريات الرياضية وذويهم صلوات الشكر وتقديم القرابين والأضاحى بأسمائهم وباسم الدولة المضيفة . كما كانوا يؤدون قسما أمام محراب الإله زيوس حامى العهود Horkios [6] . وكأن القسم يتلى على ضحية هى فى الغالب خنزير برى مجزور لأربعة أجزاء وكان ينضم إليهم فى القسم المقدس وذووهم رمزا لوحدة الأسرة اليونانية وتماسكها. ويقول الأديب الرحالة باوسانياس الذى وصف هذا المشهد « ولم يدر بخاطرى أن أسأل عما كانوا يفعلون بلحم الخنزير (الضحية) بعد أن يتلو الرياضيون القسم لأنه طبقا لعرف موضوع منذ قديم الزمن كان يحرم لحم أى ضحية يتلى قسم فوقها [7] .

وكان القسم يتضمن تعهدا بأن كل لاعب قد قضى فترة كافية لا تقل عن عشرة أشهر بغرض الاشتراك فى هذا المهرجان وانهم لن يسلكوا سلوكا غير مشرف أو مناف لقواعد الرياضة والعرف والأخلاق أما القاصرون فكان يقوم أولياء أمورهم بالقسم نيابة عنهم وقددونت المخالفات والعقوبات منظومة فى شعر اليجى على لوحة برونزية وضعت تحت قدمى تمثال لزيوس حامى العهود وكان تمثالا برونزيا ضخما لهذا الإله وهو يشيح بصولجانه الذى يرسل منه الصواعق على من يحنث اليمين ، وكان هذا التمثال مقاما أمام برلمان المدينة Bouleterion [8] كما كان يقام فى مدينة إيليس معسكر إعداد لتدريب الذين يشتركون لأول مرة ولتعويدهم على السلوك الرياضى المتبع .

(ب) المباريات :

كان الإعلان عن بدء المباريات يجيء بعد أداء القسم وذلك بنفخ الأبواق وبصيحات المنادين (Kerykes)[9] ، ثم يلي ذلك استعراض المتسابقين في الاستاد حيث يعلن المنظمون عن اسم كل مشترك وعن المدينة التي ينتمي إليها .

ويقال أن الدورة الأولمبية الأولى كانت أساساً سباقاً للجري داخل الاستاد لمسافة لم تزد عن ٢١٠ ياردة . وكان المتسابقون يجرون في تشكيلات كل تشكيل يتكون من أربعة عدائين ثم تجرى تصفية ويقتصر السباق الثاني على أوائل التشكيلات وكذا حتى يتبقى الفائز الأول الذي يعلن اسمه على الملأ عن طريق المنادين، وفي عام ٧٢٤ ق.م أصبح المتسابقون يدورون حول حقل الاستاد مرتين بالعودة إلى نقطة البداية (diaulos) . وهذا السباق أشبه بسباق ربع الميل الحالي . وفي عام ٧٢٠ ق . م زيد السباق إلى مسافة أطول حيث أصبح المتسابقون يدورون حول الاستاد عدة دورات يتراوح عددها ما بين ٦ ، ٧ ، ٨ ، ١٢ ، ٢٩ مرة وهو يعرف بسباق المسافات الطويلة وتبلغ جملة المسافة التي يجريها المتسابقون ما بين ميلين إلى ثلاثة أميال .

ومن الجدير بالذكر أن المهرجان الأولمبي القديم لم يعرف ما يسمى الآن بسباق الماراثون[10] . وفي عام ٧٠٨ ق . م أدخلت مباريات الألعاب الخمسة (Pentathlon) وهي تشمل القفز العالي (haltuma)[11] حيث كان كل متسابق يقفز إلى أعلى حاملا في يديه مثلات تحفظ توازنه haltues ، ثم رمي القرص وهي التي يعبـــر عنها تمثال ميرون الشهير لرامي القرص (discobolus)[12] والذي كان صيحة جديدة في الانطباع الطبيعي في الفن الأغريقي عام ٤٥٠ ق.م وقد بقيت منه نسخ كثيرة صنعها الرومان كما أطنب

فى الحديث عنه كتاب الإغريق والرومان . وخاصة الكاتب بترونيوس Petronius ، ثم يجىء بعد ذلك رمى الرمح[١٣] وكان المقصود به مدى إرسال السهم وليس دقة تسديده ، ويلى رمى السهم المصارعة (Pale)[١٤] وكان يشترط أن يطرح المتصارع خصمه أرضاً ثلاث مرات لكى يعلن فوزه عليه ، ولم يكن هناك قيود حول الإمساك بالمتصارعين كما هو فى حالة المصارعة اليوم . وأخيراً تأتى الملاكمة Pygme[١٥] والتى أدخلت إلى الألعاب الأولمبية عام ٦٨٨ ق . م . وكان المتلاكمون يلفون حول قبضات أيديهم ومعصمها خيوطاً جلدية لتصنع قفازاً يقلل من صلابة القبضة حتى لا تحدث إصابات كبيرة . وخير تعبير عن ملامح الملاكم ذلك التمثال البرونزى الذى يرجع إلى العصر الهللينسى ، عصر الواقعية وهو يصور ملاكماً كث اللحية جالساً ليستريح قليلا وملتفتاً ليستمع إلى نصائح مدربه وقد نسب هذا التمثال إلى اثينى يدعى أبوللونيوس Apollonios حوالى عام ١٥٠ ق . م[١٦] .

وكانت الملاكمة تستمر حتى تخور قوى أحد المتلاكمين فيعلن عن عدم مقدرته على إتمـام المباراة ويتضح من تمثال أبو للونيوس مدى القسوة فى الملاكمة والتى تتضح على وجه الملاكم ومن قطرات الدم التى تسيل من جرح أصيب به خلف أذنيه[١٧] .

أضيف إلى الألعاب الخمسة لعبـــة جديدة وغريبة هى البانكراتيوم Pancrateum[١٨] وهى مزيج من المصارعة والملاكمة ،أو المصارعة التى يسميها الرياضيون بالإنجليزية Go – as – you – please ومن الواضح أنها لعبة صعبة وقاسية وشديدة الغرابة .

وفى عام ٦٨٠ ق . م أدخل سباق العربات التى تجرها الخيول . وعرف المعمار الأغريق نظام بناء ملاعب سباق الخيول Hippodrome . وملعب

سباق الخيل بلغ ضعف مساحة استاد الجرى حيث كانت العربات المتسابقة تقطعه مجيئة وذهابا ما بين ثمان مرات واثنتى عشرة مرة. وفى البداية اشترط أن يجر العربة أربعة جياد ولكن سمح بعد عام ٥٠٠ ق . م بأن تجرها البغال ثم عادوا إلى الخيول مرة أخرى بعد عام ٤٠٨ ق . م بشرط أن يجر كل عربة جوادان فقط . وقد سجل الفن اليونانى سباق العربات على الواجهة الشرقية لمعبد ذيوس المقدس بأولمبيا وكان السباق بين الملك بيلوبس والملك أوينومانوس Oenomanos بينما وقف زيوس نفسه فى الوسط ليحكم المباراة[١٩] كما أخرجت لنا حفائر دلفى مجموعة من تماثيل أقامها بوليزالوس Polyzalos شقيق جيلون طاغية سيراكوزة بعد فوزه فى سباق العربات هناك فى عام ٤٧٨ أو ٤٧٤ ق . م .

وبقى من المجموعة تمثال سائق العربة الشهير Charioteer الذى يقف معتدلا منتبها وهو يرتدى الزى الخاص بقواد عربات السباق ويمثل روعة الفن الكلاسيكى وجماله .

كما عرف المهرجان الأولمبى سباق الجياد وقد اشترط منذ عام ٦٤٨ ق.م أن يقفز المتسابقون من فوق ظهور الجياد قبل نهاية المباراة ثم يكملون المسافة جرياً وهم يمسكون بأزمتها . ثم أدخل فى عام ٥٢٠ ق . م المبارزة وكان المتبارزون يتوشحون بالدروع ويضعون فوق رؤوسهم الخوذة ويحمون سيقانهم بأغطية . كما وجد المنادون ونافخوا الأبواق مكانا فى هذا المهرجان .

شروط الاشتراك فى المباريات :

كان يشترط أن يكون الرياضى رجلا بالغا ولكن سمح باشتراك الصبيان بعد عام ٦٣٢ ق . م بشرط أن يضمنهم أولياء أمورهم وقد أصرت اللوائح أن يكون المتسابق يونانيا حراً[٢٠] حميد السيرة والسلوك نظيف الماضى حتى لا يدنس طهارة الشعائر كما اشترط عليه أن يكون عضوا فى مجتمع

سيامى .وقد حرمت لوائح المهرجان اشتراك الأجانب أو غير الاغريق الذين لقبوهم بالبرابرة (Barbaroi) فيما عدا الرومان الذين خشى الاغريق بأسهم فلم يعتبروهم برابرة (أى أجانب) . كما حرم إشراك العبيد فى المباريات ولكن سمح لهم بحضور المباريات فقط بقصد المشاهدة بعد استئذان السلطات وكذلك الحال بالنسبة لغير الاغريق. أما النساء فقد حرمت اللوائح دخولهن للمحراب المقدس حتى لا يدنسونه وبالتالى حرم عليهن مشاهدة المباريات الرياضية ويقول باوسانياس Pausanias [٢١] أن ذلك كان قائما بالنسبة للمتزوجات منهن ولكن يبدو أن الحظر كان شاملا واستثنى من ذلك خامينى Chamyne كاهنة الربة ديميتر Demeter . لأنها كانت رمزا لطهارة الربة وعضوا شرفيا فى المهرجان .

نظام التحكيم :

كان مواطنو مدينة ايليس ينتخبون مجلسا من قضاة الاغريق ليقوموا بالتحكيم بين المتسابقين Hellenodikai وفى البداية كان يقوم بالتحكيم قاض واحد ثم زيد العدد إلى عشرة ثم إلى اثنى عشرة قاض ولكنه أصبح عشرة مرة أخرى بعد عام ٣٤٨ ق . م وكان أعضاء لجنة التحكيم يتميزون بعباآتهم الأرجوانية وبأكاليل أغصان الزيتون على هاماتهم ، كما خصص لهم مقاعد خاصة تطل على الاستاد . وكانت مهمتهم أساسا هى الإشراف على المهرجان وتطبيق القانون والنظام ومنع أى انفعال يؤدى إلى فوضى أو اضطرابات وقبل هذا وذاك التحكيم بين المتبارين دون تحيز لأحد .

العقوبات والجزاءات :

إذا ثبت لدى القضاة أن لاعبا قد فاز بوسائل الغش أو الخداع أو مخالفة لقوانين اللعبة اعتبر خاسرا وحرم من الاشتراك مدى الحياة فى المباريات الأولمبية بالإضافة إلى غرامة مالية كبيرة يدفعها لسلطات معبد زيوس .

ومن أموال الغرامات المتراكمة أقام أهل إيليس صفاً من تماثيل برونزية لزيوس باسم مجموعة « العقاب » كانت مقامة فى مواجهة الأسوار الشرقية والشمالية .

سير المباريات :

بعد القسم والاستعراض يعين القضاة الفرق والأفراد المتنازلة ثم يستبعد الخاسر وتستمر المباريات بين المنتصرين حتى يتبقى فائز واحد يعلن فوزه Olympianikos وإذا لم يجد لاعبا منازلا فإنه ينتظر حتى ينازل الفائز فى التصفيات . وكانت المباريات تتم على أنغام المزامير حيث يتنافس المتبارون بحماس شديد طمعاً فى الشهرة وتعطشا للمديح ورغبة فى الإحساس بأن الآلهة راضية عنهم بوقوفها معهم، ويجوز الفوز إذ ما امتنع رياضى أن يقبل التحدى من جانب معين . وبعد فوز الرياضى كان المتبارون يعلنون عن اسمه واسم البلد التى يجىء منها .

هكذا كانت المباريات تستمر لخمسة أيام متتالية وفى اليوم الأخير توزع الجوائز على الفائزين فى حفل كبير تشهده جموع النظارة الذين كانوا يستقبلون الفائزين بالهتـــاف والتصفيق ويصيحون لهم بأنهم أبطال المهرجان الأولمبى (Olympianikoi) ثم تتلى أسماؤهم فيتقدم كل منهم لتسلم جائزته وهى عبارة عن أغصان شجرة الزيتون المقدسة التى روت الأساطير(٢٢) أن هيراكليس قد أتى بها إلى هذا المكان . وكانت أغصان شجرة الزيتون تقطع بطريقة دينية معينة وعن طريق صبى يختار من أسرة نبيلة يكون والده على قيد الحياة وعلى مائدة القرابين المشهورة المطعمة بالذهب والعاج كانت تصف الأكاليل قبل تسليمها للفائزين للفائزين ويصبح الفائزون بعد ذلك متوجين Stephanitai agones . ثم يختتم المهرجان بحفل كبير يقدم فيها الفائزون الأضاحى والقرابين فوق مذبح زيوس

وفوق رؤوسهم الأكاليل ثم يتبع ذلك بولمية تقام على شرفهم فى قصر الرياسة Prytaneum .

وعندما يعود الفائز إلى مدينته كانت المدينة تخرج عن بكرة أبيها لاستقباله لأنه رفع رأسها وكرامتها بين باقى المدن وكان البطل يدخل المدينة ملتفا بعباءة أرجوانية يركب عربة تجرها أربعة جياد بيضاء وتحيط به جموع المدينة هاتفة راقصة تنشد أهازيج النصر له التى كان ينظمها كبار الشعراء خصيصاً لهذه المناسبة [٢٣] .

ثم يتوجه الركب إلى المعبد الرسمى حيث يخلع البطل الاكليل من فوق رأسه ويقدمه قربانا لهذا الإله وبعد ذلك يذهب البطل لتسلم جائزته وكانت فى العادة جائزة ثمينة ففى أثينا كان الفائز يحصل على خمسماية [٢٤] دراخما (حوالى عشرين جنيها إسترلينياً) وهو مبلغ باهظ بالنسبة لذلك العصر . وإلى جانب الجائزة المالية كان الفائز يعطى عدة امتيازات شرفية أخرى كالجلوس فى أماكن الشرف فى المسارح والمباريات وفى أسبرطة كان يسمح للفائز بشرف القتال بجوار شخص الملك .

(ب) الألعاب البيثية فى دلفى : Pythian games

وتلى الألعاب الأولمبية فى الأهمية وكانت تقام فى مدينة دلفى Delphi مدينة الإله أبوللون Apollo رب الشعر والموسيقى والشباب والعرافة ولهذا فكانت تقام على شرفه وقد قيل أنها تأسست بعد الحروب الدينية الأولى عام ٥٨٢ ق . م[٢٥] (٥٨٦ ق . م) وقد نشأ هذا المهرجان من احتفالات دينية للإله أبوللو كانت تقام فى دلفى حيث يتبارى المنشدون فى مديح هذا الإله بإنشاد مديح منظوم فى وزن بيانى[٢٦] Panean وعلى أنغام القيثارة وتحت إشراف كهنة دلفى . وبعد الحروب البيثية الطاحنة أصبح سهل كريسا Crisa فى حوزة كهنة أبوللون وبعد إنشاء حلف الأمفكتيون

الدينى Amphictyoni عدل هذا المهرجان فأصبح يشمل مباريات رياضية تماماً مثل الألعاب الأولمبية حيث كان العداءون يتسابقون فى مباريات إلى جانب مباريات العزف والإنشاد على القيثارة وعلى أنغام المزامير وقد نشأت المباريات الموسيقية من أسطورة تتحدث عن صراع الإله مع التنين بيثون رمز الشر (وقد عادله الإغريق بالإله ست عند المصريين) وانتصاره عليه بعد أن أمطره بسهامه القاتلة. وكان هذا المهرجان الموسيقى الرياضى يقام كل أربعة سنوات فى شهر بوكاتيوس (Bucatius) (منتصف أغسطس من السنة اليونانية وبعد ثلاث أعوام من مهرجان أولمبيا وتماما كما فى هذا المهرجان إعتاد كهنة دلفى إرسال مندوبين لإعلان السلام Spondophoroi إلى كافة المدن اليونانية. وبعد انتهاء المباريات كانت الجوائز تقدم للفائزين فى المباريات بعد قرار لجنة التحكيم التى تنتخب من جانب الحلف الأمفكتيونى. وكانت الجائزة المعتادة إكليلا بسيطاً من شجرة الغار المقدسة عند أبوللون وكانت موجودة فى وادى تمبى الشهير Tempe بإقليم تساليا Thessalia فى شمال اليونان إلى جانب سعف النخيل. وقد أعطت شعبية أبوللون وشهرته فى إعطاء النبوءات هذا المهرجان أهمية خاصة ولذا حرصت جماهير النظارة على مشاهدته والحج إليه وأغلب الظن أن الإغريق توقفوا عن إقامة هذا المهرجان بعد عام ٣٩٤ م

(ج) المهرجانات الاسثمية Isthmian games:

وكانت المهرجانات الاسثمية تقام على شرف الإله بوسيدون Poseidon رب البحار والمحيطات فى ساحته الشهيرة عند خليج كورنثا ومن ثم فقد اتخذت منه إسمها. وقد تمكن الأثريون حديثاً من التعرف على مكان هذه الساحة. وبالطبع أشرف أهل كورنثا سيدة البحار على هذا المهرجان ولكنهم أعطوا للأثينيين منزلة خاصة فى إدارته. أمام

موعده فكان الربيع المتأخر (مابين إبريل ومايو) وقد اتبعت فيه نفس الاجراءات السابقة وذكر المؤرخ Thucydides أن الحروب البيلوبونيزية الكبرى توقفت عام ٤١٣ ق . م وقاراً لهذا المهرجان حتى ينتهى بالرغم من أنها كانت فى أحرج مراحلها .

وكانت هذه الدورة تأتى فى العام التالى مباشرة للألعاب الأولمبية وجوائزها إكليل من شجرة البلوط .

(د) المهرجانات النيمية :

كانت المهرجانات النيمية تقام فى سهل نيميا الذى يقع فى حوزة مدينة صغيرة هى كليوناى Cleonae إحدى مدن إقليم أرجوليس حيث يوجد معبد وغابة لزيوس . وقد قيـــل أنه نشأ أساسا من ألعاب جنائزية (Funeral games) كانت تقام على روح صبى اسمه Archimarus سقط إبان حملة السبعة ضد طيبة وهى أسطورة قديمة .

ثم طورها هيراكليس لتصبح ألعابا تكريمية لزيوس رب الأرباب . وعلى أى حال فقد بدأ هذا المهرجان يشتمل على مباريات رياضية منذ عام ٥٧٥ ق.م على نمط مهرجان أولمبيا أما وجه الخلاف[٢٧] بين الدارسين فهو عن عدد المرات التى كان يقام فيها هذا المهرجان فقد قيل أنه كان يقام مرتين كل أربع سنوات (وهى الدورة الرياضية المعتادة) مرة فى الشتاء ومرة فى شهر أغسطس كما دار الجدل حول هل كان احتفال الشتاء ألعابا إقليمية محلية أو دولية[٢٨]؟ بينما لا يذكر بعض أساتذة الحضارة اليونانية عن ذلك شيئاً[٢٩] وجدير بالذكر أن هذا المهرجان ليس له علاقة بهيراكليس رغم ارتباط وادى نيميا بأسطورة قتل هذا البطل الأسد الذى كان يعيش فى هذا الوادى ويهدد حياة الإنسان والحيوان . كما ذكرت الأساطير أن هذا الوادى كان يحتوى على شجرة السرو Cypress التى كان لها عند زيوس قداستها والتى كان

يصنع من غصونها تيجات الفائزين ولا جدال فى أن هذا المهرجان كان عيد ثناء Panegyric لكافة الإغريق .

هكذا يتضح أنه لم يكد يمر عام حتى كان هناك مهرجان رياضى ولقد صدق المثل الرومانى القائل « العقل السليم فى الجسم السليم Mens sans Corpore Sano ولذا كانت أسمى أمنية عند الرياضى هى أن يتوج فائزا فى إحدى هذه المهرجانات ويوم يفوز فيها جميعاً فإن الرياضى يعتبر نفسه قد وصل إلى غاية أمانيـــه وأحلامه لأنه يلقب ببطل الدورات Periodonikes وهو شرف يرفعه إلى مرتبة التقديس والتأليه وفى ذلك يروى لنا باوساينياس قصة طريفة عن ثياجنيس Theagenes بطل جزيرة ثاسوس Thasos الذى فاز فى كل مباريات الملاكمة فقدسه شعبه ونسبوا أبوته للإله أبوللون نفسه عن طريق الاتصال المقدس (hierogamy) مع أمه . ويروى باوساينياس أن ثياجنيس أعلن بطلا اثنين وعشرين مرة ، تسع فى أعياد نيميا وتسع فى الاسثموس وثلاث فى بيثيا ثم فى أولمبيا عامى ٤٨٠ ق.م و ٤٧٦ ق . م فأقيمت له التماثيل فى كل من أولمبيا ودلفى وكذلك فى وطنه جزيرة ثاسوس ونظمت فيه أشعار (٣٠) تغنت بفوزه فى ١٣٠٠ جولة كما أشاد خروسستوموس وبلوتارخوس بمهارته فى تسديد الضربات وعنفه عندما يغضب ويستطرد باوسانياس فيروى أنه بعد موت هـذا البطل اعتاد أحد الحاقدين عليه أن يأتى كل ليلة إلى تمثاله البرونزى فيقرعه بقضيب من حديد معتقداً أن هـذا يؤلمه وذات يوم انتقم التمثال لنفسه بأن سقط على هذا المعتدى فقتله وأقام أبناء القتيل دعوى جنائية ضد هذا التمثال طبقاً لقانون دراكون الجنائى والذى كان يبيح ذلك ونفذ أهل ثاسوس حكم الإعدام بأن حملوا التمثال وألقوا به فى البحر ولم يمض وقت قليل إلا وأصاب الجدب والفقر أرض هذه الجزيرة وأسرع أهلها يطلبون تفسيرا لذلك من كاهنة الإله أبوللون التى أمرتهم بإرجاع من أقصوهم عن المدينة ولم يتردد شيوخ

المدينة فى إصدار قرار بذلك ولكن الجدب والقفر استمرا فى الجزيرة فعاد أهل الجزيرة يسألون الكاهنة وذكروا لها أنهم أطاعوا نبوءة الرب وأجابتهم بقولها « ولكنكم قد نسيتم بطلكم ثياجنيس ! عندئذ بلغت قلوبهم الحناجر وحاروا كيف يستعيدون هذا التمثال من قاع البحر ولكن مشيئة الآلهة أرادت أن يلتقط نفر من صيادى السمك هذا التمثال فى شباكهم فجروه إلى الشاطئ فعم الفرح أهل المدينة وأعادوا نصب التمثال إلى مكانه . وقدموا له القرابين كما لو كان إلها وقديسا ويدعم هذه الرواية النقوش الكثيرة التى تتحدث عن أبطال الرياضة وعلى رأسهم ثياجنيس مابين نهاية القرن الخامس وأوائل القرن الرابع أى فى عنفوان المدن اليونانية .

لقد ساعدت عملية « الجهرة والتجمع » الحضارة اليونانية كثيرا ولذا بدأت هذه المهرجانات تتخذ شكلا وأهمية خاصة كوسيلة إعلام واستعلام وكمناسبة لبث الدعايات وتعريف الناس بموضوعات معينة ولذا حرص الأدباء الناشئون والفنانون المصورون على حضورها آملين فى كسب الاعتراف بمقدرتهم والوصول إلى الشهرة . فقد كانت جموع النظارة تتدفق على أماكن المهرجانات متحملين مشقة السفر لا من أجل مشاهدة أبطالهم الرياضيين المفضلين فحسب بل من أجل مشاهدة مشاهير رجالات الفكر والفن وكبار الشخصيات السياسية[٢٢] . فنحن نعلم أن الخطيبين لوسياس وايسوقراط استعرضنا بلاغتهما الخطابية فى هذه المهرجانات .

وكثيرا ما كانت المهرجانات الثقافية والفنية تجرى فى نفس الوقت الذى تقام فيه المباريات. كما أن هناك أدلة واضحة على أن بعض كبار الشخصيات مثل القائد الاثينى ، ثيمتوكليس Themistocles والفيلسوف أفلاطون قد زاروا القرية الأولمبية ويقول لوكيان Lucianus أن هيرودوت قرأ فيها

على الناس لأول مرة كتبه التسع فى التاريخ ثم أعطى لكل كتاب اسم ربة من ربات الفنون Musae ويروى باوسانياس أنه شاهد تمثالا للفيلسوف السوفسطائى جورجياس (Gorgias) فى أولمبيا تكريماً لامتاعه الناس ببلاغته ومقدرته على الجدل .

وعلى أى فقد كانت هذه التجمعات لأيام طويلة تؤدى إلى المصاهرات والتآلف بين الإغريق بعد أن يتناسوا خلافاتهم وحروبهم ولو لوقت قصير . وباختصار كان هذا التجمع لعناصر كل الإغريق تجسيما حيا للقومية اليونانية بكامل أشكالها(٣٣) وقد نشر الخطيب إيسوقراط — نبى الوحدة اليونانية وخطيبها — خطبة بمناسبة المهرجان الأولمبى المئوى وضح فيها أهمية هذه المهرجانات لقضية الوحدة يقول فيها ينبغى علينا أن نثنى على هؤلاء الذين أوجدوا لنا أعياد الثناء Panegyric (ويقصد المهرجانات الرياضية) وخلفوا لنا هذا التراث، فبفضلهم أصبحنا نلتقى فى مكان واحد بعد أن نعلن هدفه و نتوقف عن الاقتتال ، فنتلوا الصلوات ونقدم للآلهة الأضاحى ونحس فى نفوسنا إحساسا واحدا بأننا من أصل واحد. هناك يحسن كل منا معاملة الآخر من أجل المستقبل ونعيد ممارسة علاقاتنا المضيافة القديمة بل ونكون علاقات جديدة . وليست هذه اللقاءات مضيعة للوقت لا لجماهير النظارة ولا لشخص الرياضى لأن هذا الأخير كان يستعرض أمام الإغريق المجتمعين مواهبه الطبيعية أما الجمهور فإنه كان يجد لذة وسرورا فى مشاهدة هذه الألعاب وليس هناك ما يجعل أحدهما يضيق بالآخر ذرعا لأن كل فريق يجـــد ما يرضى كبرياؤه وذلك عندما يدرك المشاهدون أن الرياضيين يبذلون أقصى طاقاتهم لادخال السرور عليهم ويدرك الرياضيون أن كل هذه الجموع قد جاءت لتعبر لهم عن إعجابهم بهم(٣٤) . لقد كانت

جوائزهم بسيطة ، ولكن كان على كل رياضى أن يتسلمها أمام جماهير ممثلة لكل بلاد اليونان ، وفى محراب رب الأرباب وبحضور رجالات الدولة .

لقد كانت كل أسرة تفخر بانتصارات أبنائها فى مجالات الرياضة الأولمبية وغيرها . يحدثنا شيشرون فى كتابه مجادلات تسكولية « أن رياضياً من جزيرة رودس اسمه دياجوراس Diagoras اشتهر بفوزه فى مباريات الملاكمة ، حتى أن بنداروس تغنى بإحدى انتصاراته فى الدورة الأولمبية السابعة — ويستطرد شيشرون فيروى أن هذا الملاكم عاش حتى بلغ به العمر أرذله ، وعاش ليرى ويسمع بنبأ فوز ولدين له فى الملاكمة فى أولمبيا . وذات يوم دخل عليه رجل من لاكونيا واقترب منه ، وبعد أن هنأه على فوز ولديه قال له « تستطيع أن تموت الآن يا دياجوراس لأنك لن تعرف مرة أخرى بهجة ربانية مثل هذه البهجة[٣٥] . ومن الواضح أن هذا اللاكونى أراد أن يحذر هذا الشيخ المسن من غيرة الآلهة وحنقها إذا ما عاش ليشاهد انتصارات أخرى يحققها أبناؤه . هكذا كان الإغريق يقدرون الرياضة وأبطالها .

المراجـــع

(١) F. E. N. Gardiner, Athletics of the Ancient world, Oxford 1930. part IV. p. 25, 29 ff. qlso p. 32 - 33.

(٢) op. cit p, 33 – 36. ff.

(٣) Op. cit p. 31 ff.

(٤) op. cit P. Pl: p. XVIII, 222 ff.

(٥) F. A. Petrie, An Introduction to Greek History, Antiquities and literature, 2nd edition, Oxford University Press (1962) p. 130 also p. 97.

F. N. Cardiner, op. cit. p. 232.

(٦) F. Gardiner, op cit p. 124.

(٧) F. Pausanias V, 24. 10.

(٨) F. Chamoux Greek Civilization Paris, 1962, p. 244.

(٩) F. E. N. Gardiner, op. cit p, 137 ff.

(١٠) ارتبط اسم الماراثون بقصة طريفة يجـدر ذكرها . عندما تمكن الملك دارا عام ٤٩٠ ق . م من عبور بحر إيجة بقصد احتلال أثينا التى كانت تسعى لتحرير المدن اليونانية من نير الاحتلال الفارسى . وتمكن الفرس من النزول فى سهل الماراثون Marathon والذى يقع على مسافة ست وعشرين ميلا من المدينة . ولما شاع نبأ نزول قوات الملك دارا ساد الذعر العاصمة ، ولكنهم أنزلوا العقاب برسل الملك الذين جاءوا يملون شروطهم وأسرع الاثينيون يعدون حيشاً يوقفون بتقدم الفرس لحين وصول نجدة من أسبرطة وحلفائها وتطوع عداء أثينى للجرى من سهل الماراثون حتى مدينة أسبرطة فى شبه جزيرة المورة وهى مسافة وعرة لا يصلح لها أى من دواب الحمل فضلا على أنها تزيد عن مائة وأربعين ميلا . وأشارت الروايات أن هذا العداء كان يدعى فيديبيديس Pheidippides . وقطع فيديبيديس المسافة فى يومين كاملين ذهاباً وإياباً ، ولكنه عاد بأخبار خيبت آمال الأثينين وذلك آن الأسبرطيين لم يتمكنوا من إرسال نجدة سريعة قبل اكتمال القمر لأنهم كانوا يحتفلون بأعياد مقدسة حرام فيها الحرب .

وحز ذلك كثيراً فى نفوس الأثينين وصمموا على الصمود ومقاتلة الفرس حتى م لهم تحرير أثينا وطرد الفرس بعد معركة حامية الوطيس فى سهل الماراثون وقد كرم الأثينيون هذا العداء بأن ذكروا أنه هو الذى حمل نبأ الانتصار فى معركة ماراثون إلى سكان المدينة وسقط شهيداً وهو يقول للاثينين :

(لقد انتصرنا . . . . لقد انتصرنا) . وعندما أعاد العالم الحديث فى إقامة أول مهرجان أولمبى عام ١٨٩٦ جعلوا سباق الماراثون جزءاً منه وهو سباق يجرى فيه المتسابقون فى نفس الطريق ، ومن الطريف أن الذى فاز فى هذا السباق الأول لم يكن عداء محترفاً بل أحد الرعاة اليونانيين وعلى أى حال أصبحت كلمة (ماراثون) تعنى سباق طويل المسافة ملىء بمشقة الطريق ووعورتها .

(١١) F.E. Norman Gardiner, op cit p. 144 ff—156 f.f.

(١٢) لمعلومات تفصيلية عن رمى القرص أنظر المرجع السابق س ١٥٤ وما بعدها .

(١٣) Op. cit. p. 169 ff.

(١٤) Op. cit. p. 181 ff. ; p. 197 ff.

(١٥) F. J. Barren, Greek Sculpture London 1967, p. 70, 74.

(١٦) Op. cit p. 17, Ibidem.

(١٨) F. Gardiner op. cit p. 212. ff.

(١٩) John. Barron op cit p. 61

(٢٠) يذكر هيرودوت لنا قصة طريفة عندما أرسل أهل ايليس سفاره إلى المصريين إبان عصر بسامتيخوس يسألونهم عما يقترحون من أجل إقامة الألعاب الأولمبية بطريقة عادلة فطالب المصريون بأن يسمح لمواطنيهم بالاشتراك فى هذه المباريات ولما سمع أهل ايليس بذلك أصدروا قراراً أعطوا فيه الحق لكل الأغريق أيا كانت مدينتهم بالاشتراك فى الألعاب الأولمبية وأجابوا على اقتراح المصريين بأنه ليس من العدل أن تحرم هذه الألعاب اليونانية على الإغريق ويسمح بها للمصريين انظر :

Herodotus 11, 100.

(٢١) F· Norman Gardiner op· cit p. 35—36.

قيل ان الذى صنعها هو أحد الذين تعلموا على يدى فيدياس وعملوا معه ، وقد ظهرت هذه المائدة على وجه عملة ايليس التى صكت عام ١٣٣ ميلاديه فى عهد الامبراطور هادريان .

(٢٣) ترك بنـــدار لنا أربع وأربعين أنشودة نصر epinicia أربع عشرة قيلت فى مناسبة الألعاب الأولمبية واثنتى عشرة فى الألعاب البيثية وأحد عشر فى الألعاب النيمية وسبع أسثمية .

(٢٤) F. Gardiner op. cit p. 37.

(٢٥) F. Chamoux, op. cit p. 246. also F. Oskar Seyffert : A. Dictionary classical Antiquities London 1957. p. 53.

(٢٦) E. Gardiner op. cit p. 30, 36.

(٢٧) Hermes, XIV. (Draoysen).

(٢٨) F Philologus XXXIV, 5 (unges).

(٢٩) F. Chamoux, op. cit. p. 247.

(٣٠) Gardiner op. Et. p. 37.

(٣١) مثل الشاعر الأبجرامى بوسيديبوس Posidippos من مدينة بيللا Pclla الذى تحدث عن شراهته وقدرته على التهام ثور بمفرده .

(٣٢) E. N. Oardinar, op. Et p. 224.

(٣٣) F Chamoux, op. cit p. 245 ; Gardiner op. cit pp. 36—37.

(٣٤) F. Isocrates, Panegyries.

(٣٥) Cicero, Disputationes. Tusculanae. S, 46, iii

الإسلام والحضارة العربية
فى شرق أفريقيا

دكتور عبد الرحمن زكى

الوجود العربى فى ساحل شرق أفريقيا

جاء العرب إلى ساحل شرق أفريقيا فى هجرات متتابعة متبعة نفس الطرق الملاحية التجارية التى سلكها العرب وغيرهم فى المحيط الهندى وبحر العرب منذ أقدم العصور ، وترجع هذه الهجرات إلى أسباب شتى ، منها الاقتصادى والسياسى والدينى ، وتمكن العلماء بوساطة القصص المحلية ومن أطلال المدن القديمة المتناثرة ، ومن الآثار التى كشف النقاب عنها — أن يقفوا على معالم الحضارة العربية أو الفارسية التى ازدهرت فى هذا الساحل ، وقد كان لما سجله الجغرافيون والرحالة العرب فى العصور الوسيطة أهمية فى تحقيق ما كانت عليه تلك المدن العربية .

وهكذا استطعنا أن نكتب تاريخ تلك البلاد ونتعرف على مجتمعاتها ، وسنتناول بإيجاز الكلام عن تلك الهجرات العربية التى كان لها الفضل فى قيام الإمارات والدول العربية حتى وقعت فريسة الغزو الاستعمارى تحت سطوة البرتغاليين أو من جاءوا بعدهم من إيطاليين أو ألمان أو بريطانيين .

الهجرات العربية

(١) هجرة سليمان وسعيد (بين ٦٩٦ و ٧٠٤م) :

يقال أنه سبقتها هجرة لم تصلنا أنباء مفصلة عنها . وكانت هذه هي الهجرة الثانية ، وتعتبر أول استيطان عربي وصلنا عنه بعض المعلومات فى أوائل القرن الثامن فى أثناء حكم الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٨٥ — ٧٠٥ هـ) . فقد نهض شعب عمان وموطنه الأصلي عند الشاطيء للخليج العربي الفارسي تحت زعامة زعيمين هما سليمان وسعيد بثورة ضد الخليفة وقد فاز الثائرون فى بداية الأمر ثم تغلبت عليهم قوات الحجاج في عمان (٦٩٥ م) واضطر سعيد وسليمان إلى الفرار للخلاص بحياة رجالهم تاركين وطنهم وهاموا فى جموع من أسراتهم وقبائلهم مولين وجوههم شطر الساحل الأفريقي ولا يعلم تماما أين نزلوا على البر ، ويحتمل أن يكونوا نزلوا فى باتا فى أرخبيل لامو.

(٢) هجرة الزيديين (قرابة ٧٥٠ — ٧٦٠م) :

وفرت الجماعة الثانية من مهاجرى العرب أثر نشوب نضال بين الشيعة وكان ذلك فى بداية القرن الثامن عندما انشقت صفوف الشيعة إلى طائفتين متخاصمتين ، وقد كان على رأس الطائفة الأولى زيد أكبر أحفاد الإمام على زوج بنت الرسول ، وأطلق على هذه الجماعة أهل زيد . وقد هزم رجال الخليفة تلك الجماعة فى عام ٧٢٩ — ٧٤٠ وقتل زيد واضطر أتباعه إلى الفرار وجاء بعضهم إلى ساحل شرق أفريقيا ، حينئذ استقروا عند ساحل بنادر (الصومال الشرقى) بالقرب من موقع مقديشو عند شنجايا .

(٣) هجرة الأخوة السبعة من الإحساء (بعد ٩٠٣/٩٠٤ بقليل) :

وفى خلال المائتى سنة تمكن أتباع زيد أن يسيطروا على ساحل بنادر حتى وصلت طوائف أخرى من ولاية الإحساء فى شرق الجزيرة العربية وكان على رأسهم سبعة إخوان جاءوا فى ثلاثة سفن ونزلوا عنـــد شاطىء بنادر حيث شيدوا مدينتى مقديشو وبروة (٨٠٩) ورفض أتباع زيد الاعتراف بسيادة هؤلاء وفضلوا الانسحاب إلى قلب البلاد واختلطوا بالأهالى .

(٤) هجرة حسن بن على وأبناؤه الستة (قرابة ٩٧٥ م) :

يتلخص تاريخ حسن بن على الذى جاء إلى الساحل الأفريقى يصحبه أبناؤه وعدد كبير من أتباعه ، أنه كما قيل كان ابن سلطان شيراز فى فارس أو أنه كان السلطان ذاته ولا تعلم الأسباب التى أدت به إلى مغادرة شيراز فى عام ٩٧٥ م . وصلوا فى سبع سفن متواليات ونزلوا فى عدة أماكن على الشاطىء الشرقى . واحدة منها فى منبسة ، وثانية فى پمبا ، وثالثة فى كاوه ، وهى التى كان عليها حسن بن على ، ورابعة فى جوهانا . والمعروف أن على بن الحسن هو الذى استوطن كاوه وأقام فيها المدينة الإسلامية وخضعت مافيا له .

وعلى أثر وصول تلك الجماعات بدأ الأهالى من الإفريقيين يدخلون تدريجا فى الإسلام . ثم استوطن العرب إقليم سفالة جنوبى موزمبيق بين عامى ٩١٠ و ١٢٢٠ م ، كما انتشر هؤلاء فى جزيرة مدغشقر لاسيما فى الشمال الشرقى والجنوب الغربى وتكون من الإفريقيين والعرب والملايو سكان مدغشقر الجنس الملجاشى ، وعلى مر الأيام أوغل عرب الشاطىء الأفريقى فى أنحاء المناطق القريبة والمحاذية للساحل وشقوا سبيلهم شمالا إلى الحبشة

وإلى أوغندا وتنجانيقا وإلى نياسالند ومن المدن التى شيدها العرب على الساحل الشرقى : مالندة ومنبسة وزنجبار وكلوه وسفالة وغيرها من المستوطنات الصغيرة .

(٥) غزوة آل النبهانى (قرابة ١٢٠٣ م) :

وفى فجر القرن الثالث عشر ، قام من عمان سليمان بن سليمان بن مظفر النبهانى على رأس أتباعه الكثيرين وقصدوا جزيرة باتا ثم تزوج من ابنة زعيم سواحلى اسمه إسحق حاكم باتا ، ومن ثم آلت إليه السلطنة فأسس الأسرة النبهانية التى تولت حكم شطر كبير من الساحل الأفريقى حتى القرن التاسع عشر .

وهكذا نرى أنه فى المدة التى توسطت وصول حسن بن على (قرابة ٩٧٥) ووصول البرتغاليين عام ١٤٩٨ وهى قرابة خمسمائة سنة أطلق على هذا الساحل الذى تناثرت فيه المدن والمستوطنات الإسلامية بلاد الزنج وقد ازدهرت فى أثناء تلك الحقبة دويلات من أصل عربى أو فارسى ونشأت أيضا سلطنات وكان لدولة كلوه الشيرازية العربية السيادة على بعض الدويلات الساحلية الأخرى وفى خلال تلك المدة ازدهرت تجارة العاج والذهب والدقيق بين الشاطىء الأفريقى وآسيا ثم اتسعت المدن التى اقتبست الطابع العربى ، وبلغت مستوى راقيا فى الحضارة ويشهد بذلك ما سجله العرب والبرتغاليون وغيرهم فى مؤلفاتهم .

الطابع العربى

لمدن الساحل الشرقى الأفريقى

سنتحدث فى الصفحات التالية عن الطابع العربى الذى يسود بعض مدن ساحل شرق أفريقيا ، لاسيا الآثار الدينية والمدنية التى يرجع تاريخ أقدمها

إلى القرن الثالث عشر الميلادى وأحدثها إلى القرن الثامن عشر . تتناثر تلك الآثار فيما بين مضيق باب المندب المواجه لليمن الجنوبية ، ونهر لمبوبو فى الجنوب . وبالإضافة سيشمل هذا المقال ــ الآثار الإسلامية الباقية فى جزر بمبا وزنجبار والقمر وملجاشى (مدغشقر) . وقد تأثرت حضارة هذا الشاطىء (ثلثاه من الشمال) بحضارات أقرب البلاد إليه المطلة على بحر العرب والمحيط الهندى وأهمها شبه الجزيرة العربية والخليج العربى وجنوب فارس وغرب الهند وجزر الأرخبيل الإندونيسى خلال الألفى سنة الأخيرة. ومع ذلك فلم يتم بعد أى تنقيب على نطاق كبير أدى إلى العثور على أطلال تعود إلى أيام ماقبل الحضارة العربية أو الإسلامية . ويمكن أن نقول ذلك أيضا عن مخلفات الحضارة الإندونيسية باستثناء ما خلفته فى لغات بعض قبائل مدغشقر . والحقيقة الأولى التى ينبغى أن نضعها فى اعتبارنا فيما يتعلق بتاريخ تلك الآثار الإسلامية فيما بين مضيق باب المندب وملجاشى ، هى أن أقدم أثر هو ذلك النقش الكتابى القائم فى جامع كيزمكازى (Kizimkazi) فى زنجبار الذى يرجع تاريخه إلى عام ٥٠٠ هـ (١١٠٧م) وقد أعيد تثبيت تلك اللوحة التاريخية لما أعيد بناء المسجد من جديد فى القرن الثامن عشر . ويمكن القول بأن القصر المعروف باسم حصون كبوا (Husuni Kubwa) ، والمبنى الذى يجاوره المعروف باسم حصون ندجور (Husuni Ndogo) اللذان قام بالتنقيب عنهما عالم الآثار نفيل تشيتيك (Neville Chittic) بأنهما يرجع تاريخهما أيضا إلى القرن الثانى عشر .

أيدت الأبحاث التاريخية وبعض التنقيبات الأثرية القليلة التى أجريت عند مواقع تلك الآثار أن بناة غالبية هـــذه المبانى كانوا من المهاجرين الآسيويين من عرب وشيرازيين ممن استوطنوا الشريط الساحلى الأفريقى منذ القرن الثامن الميلادى أو سلالتهم وهم ثمرة استيطان هؤلاء بعد تزاوجهم

واختلاطهم بالأسرات الأفريقية . لكن مما لاشك فيه أن هؤلاء العرب أو الشيرازيين الذين قدموا إلى الساحل فى هجرات سابقة منذ القرن الثامن هم الذين شيدوا مقديشو أولى المستوطنات العربية فى القرن التاسع ، وبراوة التى أسسها رجال هجرة الأخوة السبعة الذين قدموا من الأحساء فى القرن التاسع أيضاً ، ومدينة لامو (Lamu) أقدم الإمارات الإسلامية ، ومدينة پات (Pate) فى أوائل القرن العاشر ، وما لندى (Malindi) القديمة فى القرن العاشر ، ومدينة ممباسا (Mombasa) وليدة القرن العاشر أيضاً ، مدينة كلوة (Kilwa) التى بناها رجال الهجرة الرابعة تحت زعامة حسن ابن على وأبنائه الستة الذين قدموا من شيراز إلى الساحل الأفريقى قرابة عام ٩٧٥م أو عقب ذلك ، ومدينة سفالة (Sofala) فى أوائل القرن الحادى عشر ، وزنجبار القديمة ، وغيرها من المنازل والمستوطنات العربية .

وما ينبغى أن نضعه فى اعتبارنا بخصوص الذين بنوا تلك المدن العربية أو ما أقاموه فيها من الآثار سواء ما بقى منها أو ما أصبح أطلالا ، أنهم كانوا وهؤلاء القادمين إلى الساحل ممن اتخذوه موطنا لهم . وليس بناتها من الأفريقيين الذين لم تكن لهم فى ذلك الحين معرفة بأصول البناء بالحجر حينما قدم هؤلاء الآسيويون . نعم ، لم يكن لهم باع يذكر فى أصول البناء وللعمارة وما تتطلبه هذه الصناعة المتقدمة من تخطيط دقيق وأعمال بناء وحرف أخرى . والمعروف أن الآسيويين هم الذين جلبوا إلى هذا الساحل ــ الدين الإسلامى واللغة العربية وحضارة العرب ، وجلبوا معهم أساليب الزراعة المتقدمة ، فأدخلوا إليه أنواعا شتى من النباتات كقصب السكر والقمح والقرنفل والبصل والقرع والموز ، وربما شجر النخيل ، وكذلك جلبوا معهم فصائل شتى من الحيوان المستأنس كالماعز والغنم والحمام الأنيس والثور ذى السنام .

ويلاحظ عامة ندرة الآثار الإسلامية التى ترجع إلى ماقبل القرن الرابع

عشر . تلك التى تتسم ببساطة فى التصميم والأسلوب البنائى غير المعقد . كما يلاحظ أيضاً أن أكثر ما بقى من تلك المبانى، هو المساجد الكبرى ، وأقدمها: جامع كلوة الكبير الذى ينسب إلى القرن الخامس عشر ، وربما يعتبر مسجد فخر الدين بمقديشو أقدم من جامع كلوة .

وقبل أن نأتى بثبت (List) هذه الآثار الإسلامية الآسيوية الأصل، ينبغى أن نذكر أسماء بعض العلماء الأجلاء الذين أسهموا فى التنقيب عن بعض آثار الساحل الشرقى الأفريقى وهم : نيفيل تشيتك «وجيرفيس ماثيو»، «وفريمان جرنفيل» ، وجيمس كيركمان » و« جراى » ، وألمورا رونيسون. كما ينبغى أن نعترف بفضل الرحالة العربى ابن بطوطة الذى زار معظم مدن هذا الساحل فى أوائل القرن الرابع عشر وسجل لنا مشاهداته المفيدة .

فبعد أن زار ابن بطوطة أثناء رحلته المشهورة عدن قرابة عام ١٣٣٢ م قصد زيلع شمال الصومال ، فبات فى السفينة ليلة واحدة ثم غادرها إلى مقديشو عند وصوله إليها رحب به شيخ المدينة ، وكان اسمه أبو بكر بن الشيخ عمر. وكان رحالتنا قد لاحظ أن الواحد من أهل مقديشو يأكل قدر ما تأكله الجماعة منا عادة ، وهم فى نهاية من ضخامة الجسوم وسمنها » . ثم قصد الرحالة جزيرة منبسة، فقال عن أهلها أنهم شافعية المذهب ، أهل دين وعفاف وصلاح ومساجدهم من الخشب محكمة الإتقان . وبعد مبيت ليلة فيها غادرها إلى مدينة كلوة وقد بهرت ابن بطوطة عظمتها ، فكتب عنها : « وهى مدينة عظيمة ساحلية أكثر أهلها الزنوج المستحكمو السواد ، ولهم شرطان فى وجوههم ، ومدينة كلوة من أحسن المدن وأتقنها عمارة وكلها بالخشب ، والأمطار بها كثيرة ، وأهلها أهل جهاد والغالب عليهم الدين والصلاح وهم شافعية المذهب. وكان سلطان كلوا على زمان ابن بطوطة أبو المظفر الحسن وقد تكلم عنه كثيراً .

الآثار الإسلامية فى صوماليا

ولنتحدث عن أهم الآثار الإسلامية الباقية فى الصومال ، فأول ما يقابلنا منها فى مقديشو منارة الجامع الكبير الأسطوانية الشكل وقد بدىء فى بناء الجامع فى أول المحرم عام ٦٣٦ هـ . (١٤ أغسطس ١٢٣٨) ويؤيد صحة هذا التاريخ تلك الكتابة التاريخية المنقوشة بخط النسخ والمثبتة فوق أحد أبواب الجامع القديم الذى اندثر وشيد فوق مكانه المسجد الحالى فى القرن التاسع عشر . وفى مقديشو مسجدان قديمان . مسجد فخر الدين ، ومسجد أربع الركن . وفى المسجد الأول قبلة تحتوى على لوحة من الرخام تحيط بها كتابة باسم الحاج ابن محمد بن عبد الله (من المحتمل أن يكون اسم الصانع الذى صنعها) ، وتاريخ الصنع وهو نهاية شعبان ٦٦٧ هـ (٢٧ أبريل — ٦ مايو ١٢٩٦) . وينسب بناء هذا المسجد إلى أول سلاطين مقديشو أبو بكر بن فخر الدين ، وتطل واجهة المسجد الرئيسية تجاه الشرق وله ثلاثة أبواب وعلى أعتابها ثلاثة نقوش واضحة ، وعلى مقربة من هذا المسجد يقوم مسجد أربع الركن ، وقد نقش على محرابه كتابة باسم مشيده « خسرو بن محمد الشيرازى » والتاريخ الهجرى ٦٦٧ هـ (١٢٦٨/٦٩) . وهناك مساجد أخرى أحدث عهدا بالإضافة إلى ما شيد حديثا .

آثار مدينة مركا (Merca)

تقع مركا جنوب مقديشو . والجزء القديم منها عبارة عن أطلال يقوم فيه الجامع الكبير ويوجد حول المحراب كتابة منقوشة تشمل تاريخ عام ١٠١٨ هـ (١٦٠٩) . ويبدو أن الجامع شيد بعد هذا التاريخ . ومسجد الشيخ عثمان وبه تاريخ منقوش يقرأ لعام ١٥٦٠ . والجدير بالذكر أن مركا مدينة قديمة ذكرها الجغرافيون : الادريسى وابن سعيد وياقوت . والمدينة اليوم - لا تحتوى على أثر ما يرجع إلى القرنين الثانى عشر أو الثالث عشر .

آثار مدينة براوة (Barawa)

تقوم براوة جنوب مقديشو وشمال نهر جوبا ولم يذكرها واحد من جغرافيي العرب ، وتتفق معظم المراجع على أن الذين شيدوها كانوا الأخوة السبعة الذين قدموا من الأحساء بعد عام ٩٠٤ هـ بقليل . ويوجد في جامعها الكبير نقش كتابي تاريخه القرن التاسع الهجري (١٥ م) ، وهناك جامع آخر ينسب إلى القرن الثاني عشر الميلادي . والمعروف عن سكان براوة أنهم قاوموا ببطولة الغزاة البرتغاليين لاسيما في الرحبة التي يطل عليها الجامع . وهناك عدد من الصور التي تتميز بأعمدة مدببة الشكل تقريبا . ويقابلنا في راسيني (Rasini) أجمل محراب وذلك في جامعها وهو قريب الشكل بمحراب منجاني (Mangan) بالقرب من جيدي (Gedi) . ولم تجر فيها تنقيبات ويحتمل أن يعثر فيها على بيان ترجع إلى ما قبل القرن الرابع عشر .

الآثار الإسلامية في ساحل كينيا

إن أهم ما في أرخبيل لامو (Lamu) ، بات (Pata) ، فهي أكبر الجزر ومنها ثلاثة مدن رئيسية : بات وفازة وسيو (Siyu) . وقد استقر حكم بات في أسرة النبهاني من عام ١١٥٤ إلى عام ١٤٠٦ ولقد فقدت المدينة العظمى مكانتها المجيدة منذ قرون ، فهدم سورها وجامعها القديم وبنى آخر في مكانه وآلت أهميتها إلى منافستها فازة التي عرفها البرتغاليون باسم أمبازة (Ampaza) وأهم آثارها أطلال مسجدين قديمين ، أولهما بوانا شالي فتاني ، وفيه محراب رائع ، وثانيهما مسجد موينى نجومبي ، ويمتاز أيضا بشكله اللطيف ، ويرجع تاريخ إنشائهما إلى القرنين ١٨ و ١٩ . ويقوم في تندوا (Tandwa) أطلال مسجد ، ومثله في تكوا (Tkowa) . كما أن هناك أطلال جامع كبير في ماندا (Manda) وأطلال مسجد صغير .

لامـــو

ليس فى لامو أية آثار قديمة وتقع المدينة على عرض ٢ جنوبى خط الاستواء وعلى الجانب الشرقى من الجزيرة التى تحمل الاسم نفسه ، ونظرا لانفصالها عن جسم القارة الأفريقية فهى تأمن الخطر من هجوم القبائل التى سببت دمار المدن الساحلية أكثر من مرة فيما قبل وهى كذلك بعيدة عن خطر الأمواج المحيط . ولامو عربية الطابع ، فشوارعها ضيقة وبيوتها عالية الجدران وليس لها نوافذ خارجية ويدخلها الضوء عن طريق أفنية داخلية . ويسكن لامو قرابة سبعة آلاف نسيمة ثلثاهم من أصل عربى ومعظمهم من عمان [1] وحضرموت . وهم ما يزلون يحتفظون بأسماء أسراتهم العربية كالمعاوى والعلوى والخطيب والجها ضحى وجميعهم مسلمون ومعظمهم يتبعون المذهب الشافعى ، وفى المدينة أقلية إباضية وجميعهم حريصون على إداء فروض الدين . وفى لامو على صغرها أربعة وعشرون مسجداً ومعظمها فى حالة صالحة للاستعمال وفى بعضها مدارس ملحقة بها يتعلم فيها الأطفال القراءة والكتابة العربية والسواحلية وأصول الإسلام والتاريخ العربى والنحو والتدريس فيها بالمجان [2] .

وفى لامو كلية دينية إسلامية يتوافد إليها التلاميذ من أرجاء ساحل شرق أفريقيا وتتراوح فيها مدة الدراسة بين عامين وخمس أعوام ، ومؤسس الكلية الحبيب صالح جمال الليل وفد إلى لامو فى عام ١٩٢٨ من جزائر القمر وصار له أثر فعال فى الحياة الثقافية فى لامو .

وفى جنوب لامو تقوم أنجوانا (Unguona) وهى بلدة ساحلية من أروع مدن الأطلال على الساحل الشرقى ، وتغطى هذه الأطلال مساحة خمسين فداناً وعليها جامعان كبيران ومساجد صغرى شتى ، يحتوى واحد

منها على محراب جميل وفيها بعض الدور الخاصة وسور وعدة قبور . وقد أمكن إزالة أنقاض الجامعين فظهرت ملامحها . وفى موانا (muana) جامع كبير يبدو أنه كان رائع البنيان ، ومسجد آخر صغير .

وفى مالندى (malindi) وتقع على ساحل كينيا عدة قبور ذات عمد التى يمتاز بها ساحل شرق أفريقيا وربما كان الشيعة الأول هم الذين جاءوا بهذا الطراز إلى الساحل منذ القرن التاسع عشر أو بعده . وأقدم هذه القبور ذات العمد فى جزيرة كليبو (Kilepoa)وربما شيدت فى القرن الرابع عشر . وهذا العمود مثمن الأضلاع وليس مستديراً كالعمد الأخرى . والمعروف أن على بن حسن وأبنائه الستة حينما قدموا على سفنهم إلى الشاطىء الشرقى خربوا بلدة مالندى ثم شيدوا مالندى الجديدة فى مكان يقع بالقرب من المدينة التى أحرقوها ، وكان ذلك قرابة عام ٩٧٥/٩٧٦هـ وقد وصل إليها البرتغاليون عام ١٤٩٧ . ويقع بالقرب من مالندى مدينة جيدى القديمة (Gedi) التى تتسم بالأسلوب الفارسى .

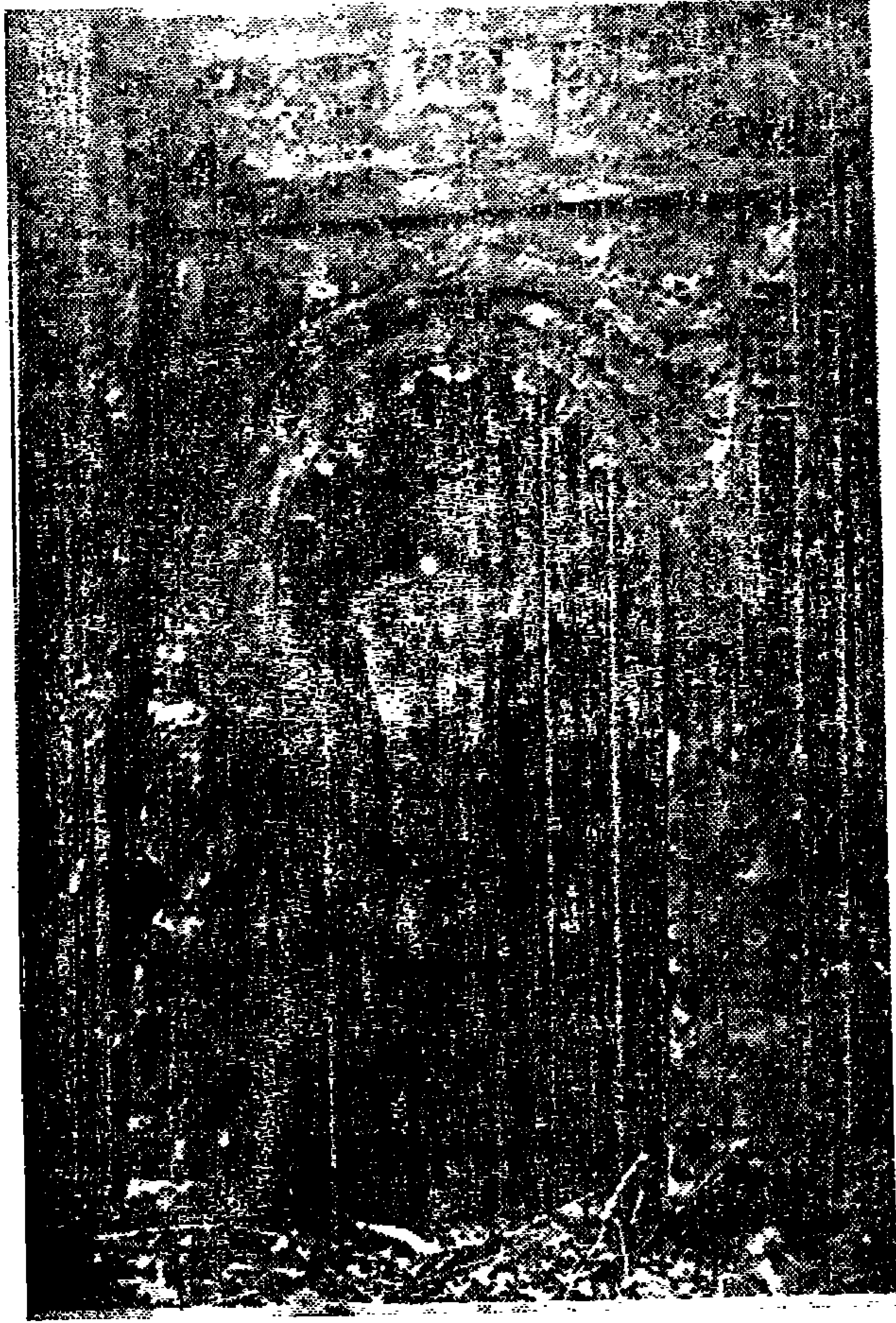
والعمد فى جيدى ذات قنوات ومنها ماهو مثمن القطاع أو سداسى . وبعض ما تبقى من أطلال مالندى يتسم بالطراز الفارسى لا سيما تلك القبور وقطعات الخزف التى عثر عليها المنقبون . ويقع قريباً من مالندى — كيليفى (Kilifi) ذكرها مؤرخو البرتغال كثيراً وتشمل أطلالها الباقية مسجدين ، أحدهما اشتهر بجمال هندسته فى شرق أفريقيا لاسيما زخارفه المرجانية التى تتوسط العقود (Carued coral bosses). وفى جنوب كيليفى وعلى الشاطىء الممتد إلى منبسة تتناثر أطلال المساجد والقبور القديمة، وعلى سبيل المثال يوجد فى متوانا لا جومبى (mtwana) ومتوابا (mtwapa) مسجدان خربان وبقايا بعض الدور .

مدينة جيدى الزهراء (Gedi)

نصل إلى مدينة جيدى التى تقع على بعد ٦٥ ميلا شمال منبسة وبها أطلال المدينة القديمة جيدى . وقد كشف العلامة كركمان (kirkman) القناع عن تلك المدينة الرائعة .. فبدت مساجدها وقصورها ودورها وسوقها وسورها وأبوابها ... ولا يعرف على وجه الدقة متى تخلى أهلها عنها وتركوها للناهبين ولأشجار الغابة فتخفيها عنا سنين طويلة .. وتضم الأسوار الخارجية قرابة خمسة وخمسين فداناً ، تناثرت فيها فى تخطيط جيد : قصر عظيم وجامع كبير ، وسبعة دور وثلاثة مقابر ذات عمد . وقد كشف معظم مبانى المدينـة ومنها الجامع الكبير الذى يرجع بناؤه إلى القرن الخامس عشر ثم أعيد بناؤه بعد مائة سنة من تشييده وهو نموذج مثالى لعمارة الجامع الكبير فى شرق أفريقيا بناء مستطيل الشكل ومحراب فى جداره الشمالى وفيه منبر له ثلاث درجات ويشتمل كل جدار طويل على ثلاثة أبواب . وفى الجانب الغربى غرفة ،وفى شرقه توجد شرفة ، وفى الصحن تقوم الميضأة ، وسقف الجامع مصنوع من التربيعات المرجانية التى لصقت بملاط الجير والرمل بعناية . وعلى بعد بضع مئات من الياردات يوجد القصر بملحقاته التى تفصلها عنه طريق ، ومدخل القصر جميل الهندسة كما أنه يحتوى على عـــدد كبير من القاعات الفسيحة والمتوسطة ، وفيه بهو صالح للاجتماعات وآخر للاستقبال . ويشتمل أيضاً على عدد من الأفنية ، والمجال لا يتسع لحديث مسهب عن آثار جيـــدى الإسلامية التى يعود الفضل فى كشفها للعلامة كيركمان .

آثار منبسة (Monbasa)

نصل إلى منبسة ، والمعروف أن على بن حسن وجماعته هم الذين بنوها فى القرن العاشر . زارها ابن بطوطة (١٣٣١) فى رحلته الأفريقية ويربط



قبلة مسجد مجانجانی بالقرب من جدی
لم يحقق تاريخ إنشائها بعد

جزيرة منبسة بالمدينة الساحلية جسر طويل وتتسم المدينـــة اليوم بطرازها العربي وتتخللها المسالك الضيقة وبها المساجد والدور القديمة التي تلقي الضوء على طراز عمارتها منذ ثلاثة قرون وفيها قلعة شيدها البرتغاليون . أمضى ابن بطوطة في منبسة ليلة واحدة ثم ركب البحر قاصداً كلوه في الجنوب .

وعبر مسافة طويلة جنوب منبسة تناثرت الدور العربية الصغيرة ونشاهد أطلال المساجد الصغيرة وبعض المقابر . فإذا ما وصلنا إلى موونجي (Muunge) شاهدنا مسجداً صغيراً يعلو محرابه شريط من الزخارف يذكرنا بالشريط الموجود في محراب تشواكا (Chwaka) في جزيرة بمبا . كما أن هناك عدة مساجد شيد معظمها في القرن الثامن عشر . وعلى بعد قرابة خمسين ميلا جنوب منبسة نصل إلى فومبا (Vumba) التي كانت دويلة هامة نهضت قرابة عام ١٢٠٤م . ومن سوء الحظ أن المخطوط الفريد الذي احتوى على تاريخها وعنوانه « أخبار فومبا كو » تلف في أثناء أحداث عام ١٨٩٥ التي خربتها وكانت أهم مدنها « فومبا كو » ويمكن اعتبارها من المدن العظيمة، ويدل على على هذا ما خلفته من الأطلال التي تشاهد اليوم في قلب منطقة من الغابات الكثيفة(٣) .

آثار زنجبار وبمبار وتومباتو

مازالت المعلومات الأثرية عن أماكن أثرية كثيرة في جزر زنجبار غير كافية . ونقصد بها تلك التي اتصلت بالعصور الوسطى . حقاً أن هناك بعض الأطلال التي ترجع إلى العصر المعروف بالشيرازي توضح قيام مدن شتى في الجزر الثلاث واشتملت على بعض المباني المشيدة من الحجارة ومنهـــا جوامع كبيرة . ففي بلدة كزيمكازي في جنوب جزيرة زنجبار مسجد قديم من أعجب المباني في شرق أفريقيا وفوق محرابه نقش كوفي نصه :



(اليمين) قبلة جامع شنغيجو فى جزيرة بمبا (القرن ١٥)
(اليسار) قبلة الجامع الكبير بشواكا فى بمبا (القرن ١٥)

« بأمر الشيخ السيد ابن عمران مقوم (ملك) الحسن بن محمد أطال الله حياته المديدة اللهم أقضى على أعدائه . تم بناء هذا المسجد فى يوم الأحد من شهر ذى القعدة سنة خمسمائة من الهجرة (الموافق ١١٠٧م)[٤] .

وفى تومباتو وهى الجزيرة الصغيرة التى تقع شمال غربى جزيرة زنجبار أطلال تحتل مساحات كبيرة وهى تدل على أن المدينة التى شغلت موضعها فى الأصل كانت أكبر مدن الساحل الشرقى ويعرف هذا الموضع اليوم باسمين هما: كيدارينى وماكوتانى[٥] . ويشتمل على بقايا أسوار ومساجد وقصر وحصن ودور شتى[٦] . وليس بجزيرة بمبا (الخضراء) تاريخ خاص بها وهى تفخر بخصوبة أرضها الزراعية وبما احتوته من الدور القديمة . ومن أهم آثارها الباقية تلك التى تشاهد أطـــلالها فى رأس مكومبو فى غربها ، وفى تشواكا وپوجينى على ساحلها الشرقى ، كما خربت تماماً ما كانت منها باقية فى مكيا وانجومبى[٧] . وكان من بينها مسجـــد متقن البناء اشتمل على ثلاثة أروقة ومحراب ذى عقد ، وقد شاهد العالم الآثارى كركمان فى الجانب الشرقى من بمبا مجموعة من المساجد الخربة .

الآثار الإسلامية فى ساحل تنجانيقا

أهم مجموعات الآثار فى تنجانيقا موزعة بين ثلاث محافظات : تانجا شمالا ، وتنجانيقا الشرقية ، فالجنوبية . وأهم المواقع الأثرية فى الشمال تونجونى[٨] مركز الامارة القديمة « متانجاتا » وتشتمل الأطلال هنا على مسجد ومجموعة من المقابر ذات الأعمدة التى يرجع تاريخها إلى القرنين ١٤ و ١٥ وليس قبل ذلك ، والمسجد فسيح وحيد البناء . وإلى جنوب تونجونى تقع ندومى[٩] . داخل سور ، وإلى جنوبها بانجاتى[١٠] ويليها كيونجاتى . ويقابلنا فى المحافظة الشرقية (الوسطى) كاؤلى حيث نجد مسجدين ومجموعة من المقـــابر



قبلة جامع سنجو منارة .
(القرن ١٥ أو ١٤)

التقليدية وبعض الدور المخربة ، ولأحد المسجدين وهو الأكبر محراب بسيط دون زخارف وفيه غرفتان وميضأة . أما المسجد الآخر فإنه أصغر من الأول وفى بندريني [١١] وماكونجو دوجو [١٢] . مسجدان صغيران ، ولثانيهما باب نموذج فى الرشاقة الزخرافية . وفى مساساني [١٣] .عدة مقابر . ثم يقابلنا مسجداً فى مبوماجي [١٤] . ونجد على مدخله نقشاً تاريخياً يرجع إلى عام ١٠١٧هـ (١٦٠٨/٩) ربما كان لمسجد أقدم . وفى الطرف الجنوبى لمحافظة الجنوب ومقابل نهر روفيجي مجموعة جزر مافيا وقد عثر فيها على مجموعة ظريفة من عملة كلوا . وقد أثمرت التنقيبات التى أجريت فى كيسيماني مافيا عام ١٩٥٧ عن مسجد له طوابق شتى يرجع تاريخه إلى مابين نهاية القرن الثالث عشر ونهاية الرابع عشر . وفى جزيرة جوانى بأرخبيل مافيا ، نجد موقع كوا [١٥] الفسيح وفيه بقايا قصر وخمسة مساجد وبعض الدور ، ولم يصف أحد آثار هذا الموقع وصفاً علمياً من قبل . نشاهد جامع الجمعة وله محراب مزخرف وجميل وقريب الشبه للمسجد النبهاني القائم فى جزيرة سونجو منارة ، ويبدو أنه رمم مرات شتى . وبالقرب منه مسجد ضيق له محراب يشبه المحراب الأول وربما ينسب إما إلى القرن ١٤ أو ١٥ . ومن الصعب إعطاء رأى صحيح عن المساجد الأخرى لحالتها السيئة . أما القصر فما زالت بعض أجزائه سليمة وهو لا يشبه القصور الأخرى القائمة فى جيدى وبيت وكلوه أو فى سونجو منارة [١٦] .

وعلى بعد أميال قليلة جنوب نهر روفيجي حدود المحافظة الجنوبية حيث تنهض بقايا مدينة كلوا العظيمة التى كانت حتى القرن السادس عشر خير تعبير للحضارة الاسلامية التى سادت هذا الساحل الشرقى . وأرخبيل كلوا يحتوى على جزر كلوا — سونجو منارة وسانجي يا كاتى ويرجع تأسيس كلوا إما إلى القرن العاشر أو إلى القرن الثاني عشر في رأى آخر حينما وصل الزعيم

مدن وثغور الساحل التانجانيقي

على بن سليمان بن أحد سلاطين شيراز إليها قادماً من الخليج العربى أو أحد المنازل الاسلامية على الشاطىء الأفريقى ويعتبر أول سلاطـــين كلوا من الجماعة الشيرازية ، كما تؤيد قطع العملة التى عثر عليها هناك فى كلوا[١٧] .

تفخر كلوا بعصرها الذهبى الذى امتد ما بين القرن الثالث عشر والرابع عشر حينما كانت المدينة عروس الشاطىء الافريقى ، ولما كانت تجارتها الزاهرة فى حاجة إلى سك النقود ، فقد لجأ سلطان كلوا إلى سك عملة خاصة ضربها من النحاس ، وما زالت تشاهد إلى اليوم فى متاحف علم النميات . وقد عثر فى كلوا ومافيا وزنجبار على قرابة ١٠٠٠٠ قطعة عملة نحاسية منها . قال ابن بطوطة عن كلوا حينما زارها عام ١٣٣٢ « أنها مدينة عظيمة ساحلية ، ومن أحسن المدن وأتقنها عمارة ، كلها بالخشب والأمطار بها كثيرة ، وهم أهل جهاد لأنهم فى بر واحد متصل مع كفار الزنوج ، والغالب عليهم الدين والصلاح وهم شافعية المذهب » . والجدير بالذكر أن «جيالان» الضابط الفرنسى البحرى (النصف الأول من القرن ١٩) كان أول من لفت الأنظار إلى تاريخ كاوه الذى دوّنه دى باروس فى كتابه[١٨] بالبرتغالية .

وبالرغم عن اختلاف المراجع التاريخية عن بداية تاريخ أول سلاطين كلوه فيمكن القول أنه بفضل التنقيبات الأثرية الأخيرة ، ونتيجة لفحص قطع العملة الخاصة بكلوا ، فقد اتضح أن منتصف القرن الثانى عشر يمكن اعتباره تاريخاً صحيحاً لتأييد كاوا ، وأن أول سلطان عظيم لها هو سليمان حسن بن داود الذى حكم كاوا وبمبا فى منتصف القرن الثالث عشر . وكانت خاتمة كلوا فى ٢٣ يوليه عام ١٥٠٥ حينما وطأت أقدام جنود فرانسسكو الميدا بر كلوا وفر السلطان من قصره بالمدينة ومن ثم استولى عليها البرتغاليون ونهبوها ثم شيدوا حصناً بالقرب من الميناء .

MOÇAMBIQUE

Moçambique

Angoche

Tete

Sena

Quilimane

Sofala

Inhambane

Lourenço Marques

مدن ساحل موزمبيق

وآثار كلوه الهامة عبارة عن مبان عامة تتألف من ثلاثة حصون هى : حصون كبـــوا[١٩] وحصون ندوجو (٢) وجريزة[٢١] والجامع الكبير ، والمسجد ذى القبة ، ومسجد مالندى والمسجد القائم من السور . وليس فى هذا الموقع الأثرى قبور ذات عمد ، وهذا يدعم رأى القائلين بأن هذا النوع من المقابر محلى وليس قادماً من العالم الإسلامى الخارجي ولكن هناك مجموعتين من المقابر العادية .

آثار كلوه

بدأ التنقيب فى كلوا فى عام ١٩٥٨ فقط وهو ما زال مستمراً ، واتضح إلى الآن أن أقدم أثرين أهمها هى حصون كبوا والجامع الكبير بقبابه الثمانية عشرة وبأقبائها الثمانية عشرة ، وجميعها تجعل هذا الجامع أروع مخلفات الآثار الاسلامية فى الساحل الافريقى الشرقى . وينقسم الجامع إلى قسمين : القسم الشمالى وفيه المحراب ، ولهذا القسم سقف مستو ، والقسم الجنوبى بقبابه الصغيرة وأقبائه المستديرة . وقد نهض العالم الآثارى نيفيل تشيتك بالتنقيب فيه ويرجع الفضل إليه فى إعادة تاريخ هذا الموقع الأثرى ويتفق العالم كركمان معه فيما وصل إليه .

ويشتمل أقدم أجزاء المسجد على القسم الشمالى الذى يحتوى على الميضأة فى ناحية الغرب ، والممر المقبي(Vaulted)فى ناحية الشرق . ويحتمل أن هذا الجزء من المسجد كان مغطى بسقف مستند يقوم على أعمدة خشبية ويرجع تاريخ هذا الجزء فى الغالب إلى القرن الثانى عشر ، وفيما بعد ضوعفت الجدران الشرقية والغربية فى المسجد القديم ، ثم امتد ناحية الجنوب وذلك بإقامة عمد مؤلفة من قطعة واحدة ، فتألفت الأروقة حول الصحن وغالباً ما كان هذا شكل الجامع فى أيام سليمان بن حسن أعظم سلاطين كلوا ، وقد اشتهر بأنه

كان يهيم بالبناء . ثم أضيف أخيراً البناء ذو القبة القائم بالجنوب الشرقى وكان يتعبد فيه السلطان المظفر حسن ، الذى التقى ، الرحالة ابن بطوطة وقد تدهور الجامع فى بداية القرن الرابع عشر حتى أعيد بناؤه فى أيام سليمان بن محمد (١٤٢١ — ١٤٤٤) . وفى هذه المرة بنى سقف جديد فوق الجزء الشمالى وأعيد بناء القسم الجنوبى وذلك بإضافة القباب والممرات المقباة وكانت تحملها الأعمدة المثمنة الأضلاع ، وهكذا كان شكل الجامع كما رآه البرتغاليون وشاهده « هانزماير » الألمانى وقال عنه أنه يشبه جامع قرطبة الكبير . وكان يتصل القسم الجنوبى للمسجد بالقسم الشمالى بوساطة رواق فى الشرق ورواقين فى الغرب وهناك على مسافة صغيرة غرب الجامع توجد بئر ماء فى غرفة ذات قبو يعلو حوالى تسعة أقدام ، وربما أخذ المسجد فى التدهور للمرة الأخيرة أثناء القرن السادس عشر . وعلى مسافة قليلة غرب الجامع الكبير ، يقوم مسجد ذو قبة وله تسعة أروقة ، ويشتمل على قاعة عند كل من جانبه الشرقى والجنوبى ، وله حوض للغسيل فى الركن الغربى ، وأجزاء السقف منوعة البناء ففيه القباب والقبوات ... الخ وكان المحراب وقبوتان وقبة المجاز الأوسط يعلوها الطلاء الفخارى الأزرق وربما يرجع بناء هذا المسجد إلى القرن الخامس عشر .

يقع إلى غرب المسجدين - القصر وهو مؤلف من طابقين وله عدة أبواب تفتح على الفناء الكبير . ويقع فى جزئه الغربى المقر السلطانى وفى الجانب الشمالى والجنوبى مجموعتان من الغرف . وفى الركن الجنوبى الغربى مربع مستطيل الشكل وتتصل به أسوار أخرى ذات شرفات . وقد شيدت أجزاء القصر فى فترات متعاقبة . ومع ذلك فإن أقدمها لا تتجاوز القرن الثامن عشر .

وفى الجانب الآخر من مدينة كلوه عند البحر ناحية تقوم القلعة (جريزة)

وهى مشيدة على جرف من المرجان يبرز فى البحر وقد شيدت القلعة فوق الموقع الذى كانت تشغله قلعة سنتياجو البرتغالية فى أخريات القرن الثامن عشر . وهنا كانت مدينة كلوا القديمة . وما تبقى منها اليوم هو مسجد مالندى والمقابر المجاورة ومحراب هذا المسجد يرجع إلى القرن ١٨ ولكن المسجد يعود إلى القرن الخامس عشر .

وعلى مسافة قرابة ميل يقع مبنيان هما حصون كبوه وحصون ندوجو ، ويعتبران من أروع مبانى الساحل الشرقى وأطرفها . وتقوم مصلحة آثار تنجانيقا منذ عام ١٩٦١ بالتنقيب فيها تحت إشراف المعهد البريطانى للتاريخ والآثار والأستاذ نيفل تشيتك ، ولم يصدر بعد التقرير الختامى عن أعمال التنقيب .

تقوم حصون كبوا على شرف عال يرتفع قرابة خمسين قدماً فوق سطح البحر ويحمى هذا الموقع ثلاثة منحدرات من حوله وتغطى مساحة فدان تقريباً . وقد عثر فيها على أجزاء من كتابات منقوشة يقرأ عليها اسم الملك المنصور حسن بن سليمان الذى استضاف ابن بطوطة . ويرجع تشيتك بناء حصون كبوا إلى قرابة عام ١٣٠٠ أو نهاية القرن الثالث عشر .

أما حصون ندوجو فتقع شرق حصون كبوا وهى عبارة عن بناء مستطيل الشكل تتخلله الأبراج فى جميع الأجناب ولا توجد الآن مبانى قائمة داخل الحصون أو بقايا مبانى يحتمل أن تكون على شىء من الأهمية وربما كان هناك فى ذات يوم مسجد مكشوف .

وفى داخل الخليج الذى تقع فيه جزيرة كلوا توجد جزيرة أخرى اسمها سونجو منارة أو سونجو رونجاو فيها أطلال قصر كبير وبعض الدور الكبيرة وجميعها ترجع إما إلى القرن الرابع عشر أو الخامس عشر . بالقرب من القصر

نجد مسجداً صغيراً له قبلة ذات حنية مضلعة (fluted) ، كما أن هناك مسجداً يعرف بالمسجد النبهاني ، من المحتمل أنه شيد بعد غزو « بيت » لكلوا فى القرن ١٤ ، وقد شاهده الرحالة برتون (Burton) حينما زاره وشاهد قبلته وكانت مغطاة بالخزف الأزرق المطلى بالميناء وقد اختفى هذا الخزف الآن . ولم يقم بعد أحد بالتنقيب علمياً فى سونجو منارة ولكن عثر على بقايا كثيرة من الخزف المهشم الصينى .

وفى البر الأفريقى شمال بلدة كلوا ، يقابلنا موقع متيتميرا (Mtitmira) جنوب كلوكيفنجى ، وفى ذلك الموقع مسجد صغير وإلى الجنوب من كلوا بعض الأطلال التى قد تنسب إلى القرن التاسع عشر ، ولعل أهمها موقع مجاو موانجا(٢٢) الذى يشتمل على عقد ذى أضلاع كثيرة وفى داخل محراب المسجد ويعرف الموقع باسم مونجالو (٢٣) ويرجع إلى آخر القرن الثامن عشر أو بداية القرن التاسع عشر وكانت مركزا تجاريا .

التأثيرات المعمارية الآسيوية :

نعلم جيداً عن الصلات التجارية بين البلاد العربية والخليج العربى — الفارسى والهند والصين من ناحية ، وبين مدن ساحل شرق أفريقيا من ناحية أخرى ، ولكن ماذا عن الصلات المعمارية ؟ إذا سلمنا بأن بعض هذه المدن كان فيها مقيمون من العرب وبعضها مقيمون من أهل شيراز الفرس وأنهم لم يكونوا مستعمرين بالمعنى المعروف الآن . ولكن المسلم به كانوا فى جميع الأحوال مسلمين وكانت لغتهم الرسمية المكتوبة هى اللغة العربية (٢٤) ثم شاركتها اللغة السواحلية التى اقتبست الكثير من العربية والفارسية والهندية ، وأخيراً الألمانية والانجليزية والبرتغالية .

ذكرنا أن التنقيبات الأثرية فى كلوه أخذت تجلو بعض الحقائق المعمارية وأهم ما لاحظه العالم « جيرفيس » أن مبانى كلوا خالية من التأثيرات

الأفريقية[٢٥] وأن عمارتها ترتبط بطراز ينسب إلى أكثر من بلد فى العصر الإسلامى المبكر ، وأن الحاكم الذى شيد القصر فى كلوا لا بد أنه كان على ثراء موفور ، فاستطاع جلب الصناع والفنانين المهرة من العراق أو مصر ، وعلى ذلك يقول جيرفيس أن بناء القصر كان نتيجة الثروة الجديدة التى تدفقت على كلوا بعد عام ١١٧٠م بعدما أشرفت على تجارة الذهب إلى بلاد الشمال من الساحل . ولكن قد يرد على هذا الرأى بأن النقش الكتابى الذى ذكرناه وعليه اسم الحسن بن سليمان الذى حكم كلوا فيما بين (١٠٠٥ - ١٠٤٢) ، فإذا صح هذا ، كانت كلوا عاصمة دولة عظمى لمدة قرن قبل أن أصبحت تشرف على الطريق التجارية التى تبدأ من سفالة جنوب كلوا .

والآن لنفحص الأصول المعمارية لكل من حصون كبوا وحصون ندوجو . وقبل كل شىء فإننا نلاحظ أن حصون ندوجو تختلف فى عمارتها عن عمارة أى مبنى فى الساحل الشرقى جميعه . فأسوارها الخارجية تشبه كثيرا تلك الأسوار التى أقيمت فى المبانى التى شيدت فى البلدان العربية تحت حكم الخلفاء الأمويين (٦٦١ - ٧٥٠م) وأوائل حكم العباسيين ومنها على سبيل المثال قصر المشتى فى الأردن ، وجامع الرقا الكبير (القرن ٨ م) بالرغم أن عمارة حصون ندوجو فى مستو أقل نسبيا . وبينما نلاحظ أن حصون ندوجو من بعض النواحى ليست غريبة عن أسلوب المبانى الأخرى التى نسب إلى العصور الوسطى فى الساحل الشرقى ، فإن لها أيضا بعض الخصائص التى لا نجد شبيها لها . فمثلا حوض السباحة الموجود فى حصون كبوا يشبه من ناحية تخطيطه ذلك الحوض الموجود فى صحن جامع حران الكبير الذى نقب عنه عالم الآثار البريطانى رايس ، كذلك الممشى أو الإضافة التى حول الحوض المذكور يمكن أن نقابلها بالممشى الموجود فى ضريح قبة الصليبية فى سامراء التى يرجع تاريخها إلى القرن التاسع ، وإحدى القباب الموجودة فى حصون

كيوا طرازها غير عادى ، فأضلاعها الداخلية وحافاتها المستديرة فى الخارج تشبه تلك التى على قبة جامع القيروان الكبير الأموى الأصل . وهكذا نلاحظ تأثيراً معماريا أمويا وعباسيا على عمارة كلوا . والجدير بالذكر أنه وصلت هجرات متتالية من البلدان العربية فى القرنين الثامن والتاسع حينما كان كان يحكمها الأمويون ثم العباسيون وليس بخاف أنه لا يوجد شبيه لهذا الطراز المعمارى فى أى من مدن الخليج ، فعمارة مسجد سوق الخميس مثلا فى جزيرة البحرين ، والمسجد المخرب الموجود فى أطلال سيراف وما تبقى من المبانى التى لاتزال تشاهد فى هرمز — جميعها ليس فيها ما يشبه مبانى تلك المدن الساحلية من حيث أسلوب عمارتها .

ومع ذلك فإن حصون ندوجو ، مع أنها ليست مرتبطة معماريا بأى من المبانى التى شيدت فى العصور التالية على الساحل ، فأننا نلاحظ كثيرا من خصائص حصون كبوا استخدمت فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر وقد ذكر منها الكثير فى التقرير السنوى الذى أصدرته مصلحة الآثار فى تنجانيقا رقم ٦ عام ١٩٦٠ (مجلة التاريخ الأفريقى ، مجلد ٤ ، جزء ٢ عام ١٩٦٣ ص ١٩٠) .

التأثيرات الثقافية العربية

ولنتكلم بإيجاز عن التأثيرات الثقافية العربية فى هذا الساحل ، فنقول :

١ — تطورت أحوال أهالى الساحل الشرقى بعد أن أخذ العرب المقيمون هناك بأيديهم فى مسالك الحضارة الإسلامية ، وأضفى الإسلام على حياة الذين اعتنقوه طابعا اجتماعيا وحضارياً بعد أن استعربوا ، وكان التزاوج المستمر سببا فى ظهور جماعات كثيرة خلطت دماؤهم العربية بالدماء الزنجية ويمثل هذا الامتزاج الجنسى السواحليون .

٢ — أختلطت اللغة العربية والفارسية بلهجات قبائل البانتو ، فتولدت اللغة السواحلية التى اشتملت على عدد كبير من الألفاظ العربية وأصبحت تكتب بالحروف العربية ، ويتكلم هذه اللغة اليوم قرابة خمسين مليونا .

٣ — كان من تأثير إزدهار التجارة بين بلدان غرب آسيا والساحل ، ان عم الرخاء سكان تلك المناطق الساحلية ، فارتقت مستويات حياتهم . وليس بخاف أن العرب بذلوا جهودا طيبة فى إدخال الزراعة وتطويرها وتوسيع الرقعة الزراعية وإدخال زراعة الغلات وقصب السكر . وفضلا عن ذلك أدخل الهنود كثيراً من الحرف والصناعات كالحلى وصناعة التعدين والحياكة وغيرها .

وهكذا نرى أن دين أفريقيا الشرقية لبلدان غرب آسيا دين حضارى عظيم شمل الكثير من مجالات الفكر والعلم والعمران . . .

المراجـــع

(١) عصام عيسى غيدان بنيروبى : العرب فى بلد السواحل الأفريقية — مجلة العربى — عدد ١٦٨ بتاريخ نوفبر ١٩٧٢ ، ص ١٦٤ — ١٧٢ .

(٢) عثر الأستاذ (هيتشينز) على كتاب ألفه شيبير فرج بن أحمد الباقورى عنوانه (أخبار لامو) ، عرض فيه لتاريخ لامو والهجرات الأولى التى تدفقت إليها فذكر أن الهجرة الأولى كانت فريقاً من أهل الشام لم يرضوا عن سياسة الحجاج بن يوسف فرحلوا الى أفريقيا وأخضعوا هؤلاء السكان الأصليين وفى عقب هـــذه الهجرة جاءت جماعة من أهل عمان كان منهم سليمان وسعيد من أبناء عباد الجلندى وكانوا أعلنوا الثورة فى وجه الخليفة عبد الملك بن مروان ولما غلبوا على أمرهم فروا الى شرق أفريقيا ولما وصل سعيد اعترف له المهاجرون السابقون بزعامته عليهم . فرسم لهم أن تقسم لامو الى أحياء صغيرة لكل منهم شيخها وشيوخ الأحياء كلهم يؤلفون مجلس للشورى ، فكانت امارة لامو هـــذه أقدم الإمارات الإسلامية ظهوراً فى ساحل شرق أفريقيا .

Hitchens : Islam in East Africa, p. 110. in Islam To-day.

(٣) Hollingworth, L.W. : A. Short history of the East Coast of Africa, p. 52

(٤) Flury, S. : The Kufic Inscriptions of the Kisim Kazi mosque J. R. Asiatic Society, 1922:

(٥) Kidarini, Makutani.

(٦) Prins, A. H. J. The Swahili-Speaking Peoples of Zanzibar and The East African Coast. Inter. Afr. Inst. p. 37.

(٧) Intiawa Ingombe.

(٨) Tongoni.

(٩) Indumi.

(١٠) Pangani

(١١) Banderini.

(١٢) Makungo Dogo.

(١٣) Masasani.

(١٤) Moboamaji,

Kua . (١٥)

Songo Mnara. (١٦)

Barros, J. de : Decadas – da Asia, ed. A. Baiao, (١٧)
Coimbra, 1930.

Chittick, N. : The Shirazi Colonization of East (١٨)
Africa. J. African History, vol. VI, 3, (1965), pp. 275 — 294.

Husuni Kubwa. (١٩)

Husuni Indogo. (٢٠)

Gereza. (٢١)

Ingao Inwango (٢٢)

Mongallou . (٢٣)

History of East Africa, vol. I, p, 116. (٢٤)

There is no trace within it of any African (٢٥)
influence,

الرنوك على عصر سلاطين المماليك

الدكتور أحمد عبد الرازق أحمد

كلية الآداب — جامعة عين شمس

مما يدعو إلى الدهشة حقاً أن نجد على التحف المملوكية رسوما معينة عرفت فى العصر المملوكى باسم (الرنوك) وهى الشارات التى اختص بها السلاطين والأمراء وكبار رجال الدولة.

والرنك كلمة فارسية بكاف معقودة كالجيم المصرية بمعنى لون [1]. وقد استعمل المماليك هذه الكلمة فى مصر وسوريا منذ القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) للدلالة على الشارة [2]، أو الشعار أو العلامة التى يتخذها الشخص لنفسه وينفرد بها دون غيره وذلك عند تأمير السلطان له.

وكان الرنك عبارة عن رسم لشىء معين — حيوان أو طائرة أو أداة كالبقجة والدواة والسيف. وقد يتألف من منطقة واحدة أو ينقسم إلى منطقتين أو ثلاث مناطق أفقية، أكبرها عادة المنطقة الوسطى وهى تسمى باسم شطا أو شطف أو شطب [3].

والرنك قد يكون من لون واحد أو أكثر من لون وهو إما بسيط أو مركب

وكان يوضع على البيوت والأماكن المنسوبة إلى صاحبه كمطابخ السكر وشون الغلال والأملاك والمراكب وغيرها . ويوضع على قماش خيوله من جوخ ملون مقصوص وعلى قماش جماله من خيوط صوف ملونة تنقش على العبي والبلاسات (٤) ونحوها وربما جعل على السيوف والأقواس والأدوات المعدنية والخشبية والزجاجية وغيرها (٥) .

وعلى الرغم من أن الرنوك قد لعبت دوراً هاماً فى عصر المماليك إلا أنها لم تحظ بعناية المؤرخين العرب فى العصور الوسطى الذين نجـــدهم لم يتعرضوا لها إلا فى بعض الحالات القليلة فى سياق كلامهم عن بعض الحوادث أو تراجم بعض الأمراء (٦) . الأمر الذى يدفع إلى الترجيح بأن الرنوك كانت أمراً مألوفاً لديهم فلم تستلفت النظر شأنها شأن الأشياء الشائعة فى ذلك الوقت .

وفى ضوء هذه المعلومات القليلة التى وردت فى المصادر العربية فى العصور الوسطى ومن خلال ما كشفت عنه الأبحاث الأثرية أمكن التعرف على بعض الرنوك التى كانت فى الغالب ذات صلة وثيقة بالوظيفة التى يشغلها المملوك حين تأميره ومنحه الرنك . ومن ثم أصبح هناك اشتراك فى الرنوك إذ أن هذه الوظائف كانت حقاً مشاعا بين المماليك الأمراء جميعاً (٧) .

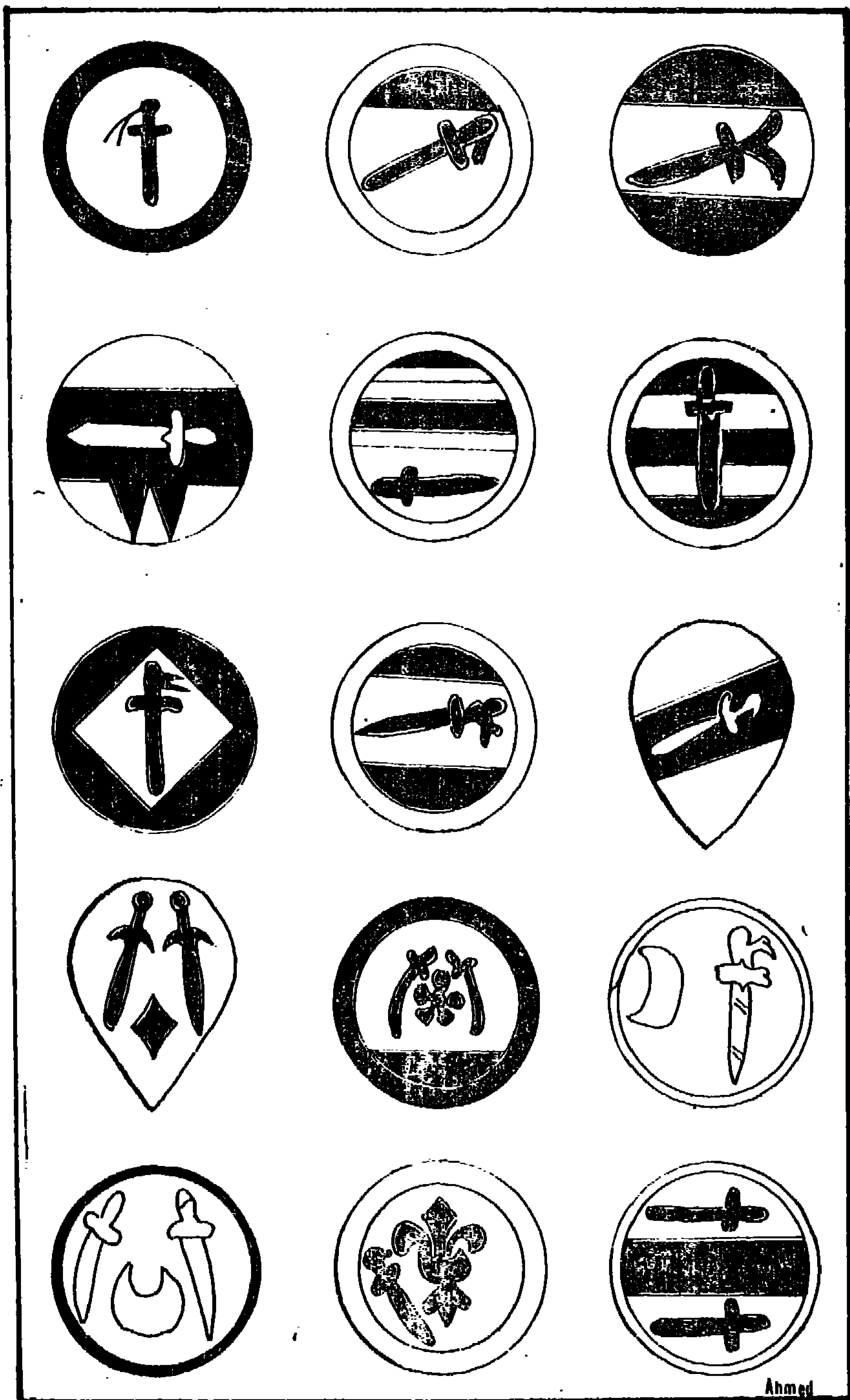
وعلى هذا يمكننا القول بأن شعار الدوادار (٨)، الدواه (٩)، والطشتدار (١٠)، المسنية (١١) والسلحدار (١٢) السيف (١٣) ، والبندقدار (١٤) ، القوس (١٥) ، والأميراخور (١٦) ، حدوة الفرس (١٧) ، والجمدار (١٨) بقجة (١٩) وعلامة الجاويش (٢٠) قبة ذهب (٢١) والساقى (٢٢) شعاره الكأس (٢٣) والجوكندار (٢٤) شعاره عصوان البولو والكرة (٢٥) والجاشنكير (٢٦) شعاره خونجه (٢٧) ، والعلمدار (٢٨) شعاره علمين (٢٩) والطبل دار (٣٠) شعاره طبلة وزوج من العصى (٣١) والبشمقدار (٣٢) شعاره على هيئة النعل (٣٣) والجمقدار (٣٤) شعاره

الدبوس(٣٥) والبريدى(٣٦) شعاره درع مستدير مقسم إلى ثلاثة أقسام(٣٧) ولا يبعد أيضاً أن يكون الطبردار(٣٨) قد إتخذ لنفسه شعاراً على هيئة الفأس(٣٩) أسوة بالجمقدار حامل الدبوس .

والدواة رنك الدوادار نجدها رسمت على أشكال متعددة إلا أنها كانت تتألف فى الغالب من أربعة عناصر رئيسية هى جزئين مستطيلين أو ثلاثة يوضحان موضع الأقلام البوص التى كانت تستعمل فى الكتابة وصندوق صغير يمثل ساعة رملية ودائرتين صغيرتين تمثلان موضعى الحبر والنشا، وأخيراً فراغ على شكل نصف دائرة خصصت لقطعة من القماش كانت تستخدم غالباً فى تنظيف الأقلام وكثيراً ما كان هذا الشعار يضم معه شعارات أخرى تمثل رنوكا مركبة .

وقد وصلتنا تحف متنوعة تتضمن هذا الرنك . والطشت رنك الطشتدار وإن كنا لم نعثر على أية تحف تحمل هذا الشعار . أما السيف رنك السلحدار فقد وجد على أشكال متعددة(٤٠) ، فتارة نراه على هيئة حربة مستقيمة لها عارضة (وقاء) بعد المقبضين وتارة نراه سيفا مستقيما طويلا له عند مقبضه ذؤابتان وأحياناً نجده منحن يمثل مائل الوضع أو قائماً . وقد يضم الرنك سيفا أو اثنين(٤١) أو أكثر وقد يأتى مركبا مع شعار آخر فى وسطه أو إلى جانبه وقد يكون سيفان يحميان رمزا آخر(٤٢) انظر شكل (١) .

والقوس رنك البندقدار غالباً ما رسم على التحف المملوكية فى وضع رأسى سواء أكان بمفرده أومصحوبا بسهمين قد يكونا إلى يسار القوس(٤٣) أو إلى يمين القوس . وفى بعض الأحيان نجـــد الرنك يتضمن قوسين متعاقبين(٤٤) . ولقد وردت هـذه الوظيفة مصحوبة برنك القوس على رقبة مشكاة من مصر ترجع إلى سنة ٦٤٥ هـ محفوظة بمتحف المتروبوليتان وكان الرنك على هيئة قوسين ذهبيين متقاطعين(٤٥) .



شكل زقم (١)

رنك السيف

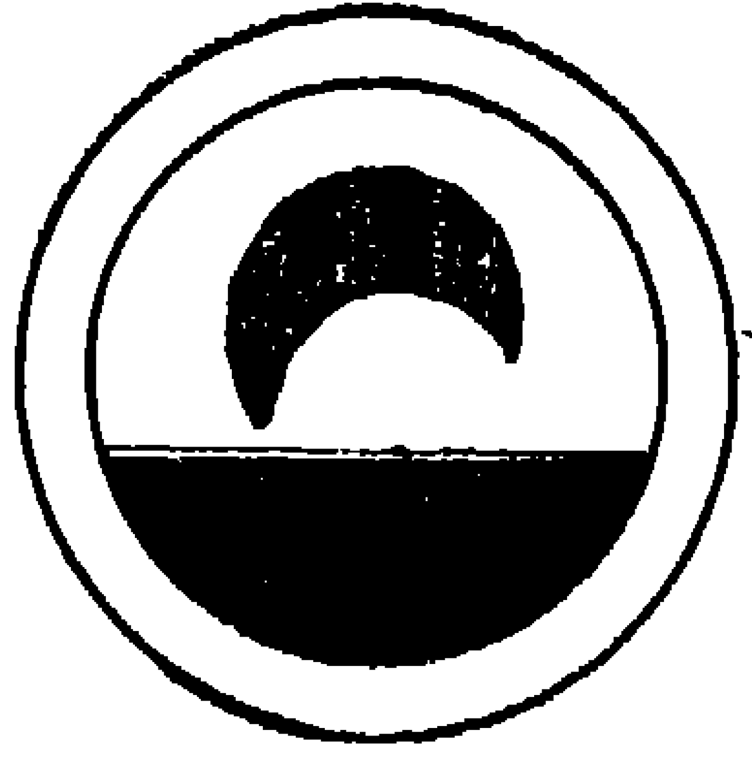
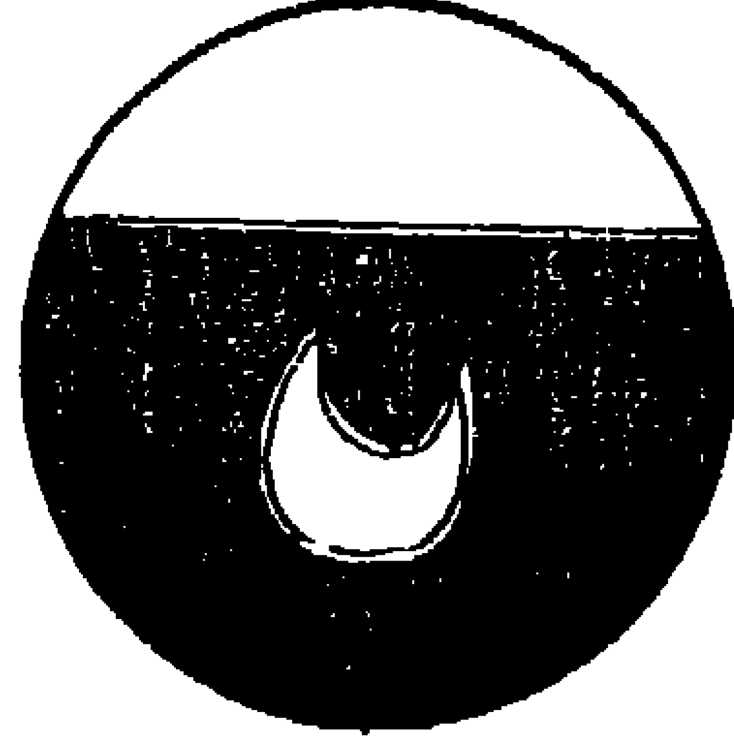
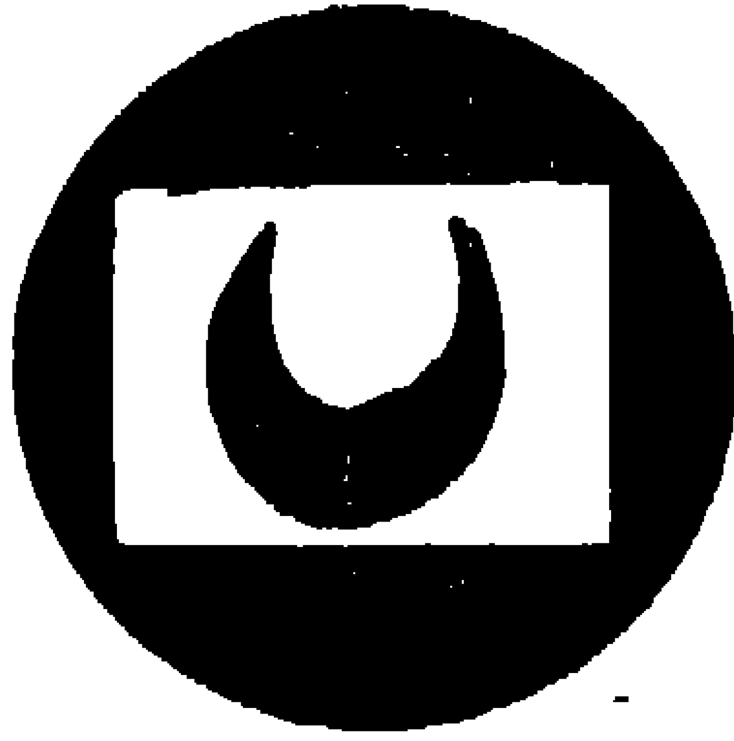
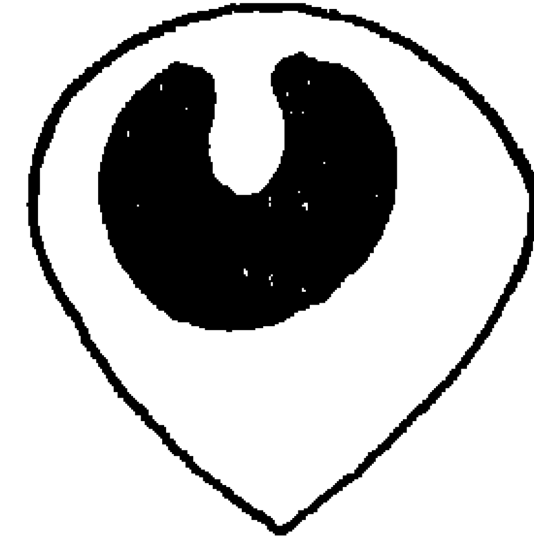
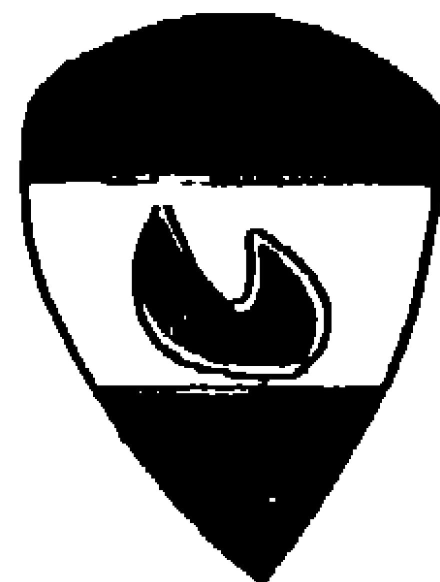
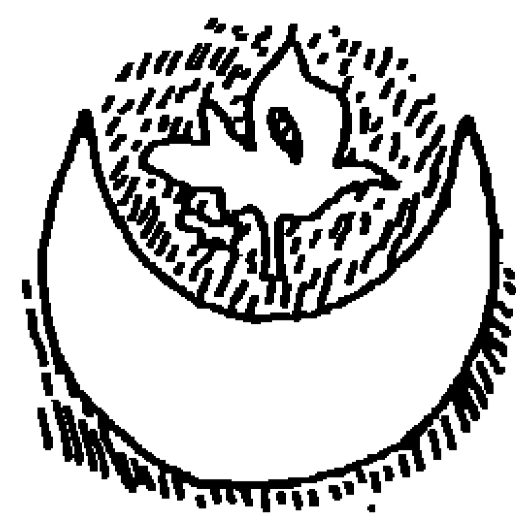
وحدوة الفرس رنك الأمير أخور فقد ورد بكثرة على التحف المملوكية وكثيراً ما كان يرسم على هيئة دائرة مفتوحة من جزئها العلوى أو السفلى أشبه بالهلال وكثيراً ما كان يصاحبه رموز أخرى مثل السيف أو بعض الحيوانات انظر شكل (٢) .

والبقجة رنك الجمدار(٤٦) غالبا ما ترسم على هيئة مربع ذى أركان مرتفعة أو معين يمثل قطعة النسيج المربعة التى تطوى أطرافها تجاه الوسط والتى كانت توضع فيها الملابس المعدة للارتداء وقد يرسم فوق الوسط هذا دائرة صغيرة وهى إما ترسم مفردة أو ترسم مشتركة مع رموز أخرى كأن تكون محصورة بين سيفين(٤٧) أو يتضمن الرنك بقجتين أحدهما تعلو الأخرى وهى فى الحالة الأخيرة تمثل رنوكا مركبة انظر شكل (٣) .

والكأس رنك الساقى يعتبر أكثر الرنوك انتشاراً على التحف المملوكية(٤٨) وهو إما يمثل مفردا «أى كأسا واحداً» أو مركبا «عدة كئوس مع عناصر أخرى» لاسيما الدواة والسيف وقرون الباورد والنسر(٤٩) انظر شكل (٤) .

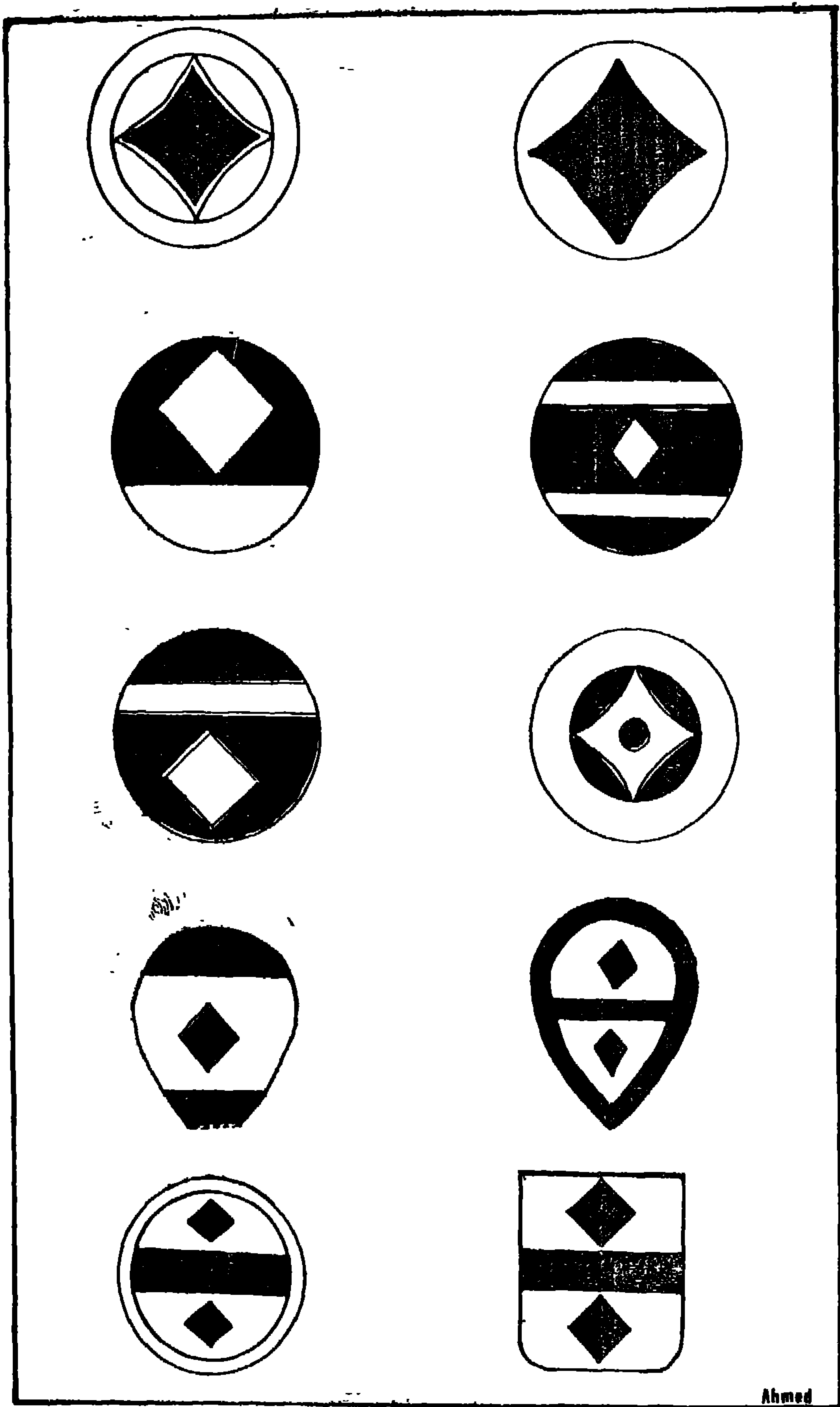
ولعل كثرة هـــذا الشعار مرجعها عناية الصناع بوضعه على ما يصنع لأصحابه من أدوات وما يبنى لهم من عمائر(٥٠) — وربما ترجع أيضاً إلى كثرة عدد السقاة من الخاصكية كثرة تفوق غيرهم من ذوى الوظائف الأخرى(٥١) . ومن المرجع أيضاً أن ابن الساقى كان يرث أحيانا عند تأميره رنك الكأس عن أبيه ولو لم يكن هو نفسه ساقيا مثل أحمد بن بكتمر ومحمد بن كتبغا وحسين بن قوصون(٥٢) .

أما عصوان البولو والكرة رنك الجوكندار فكانتا تشير إلى لعبة الجوكان أو الاكرة أو الكرة وهى اللعبة المعروفة باسم البولو . والجوكان عبارة عن عصا مدهونة طولها نحو أربعة أذرع وبرأسها خشبة مخروطة محدوبة تنيف عن نصف ذراع(٥٣) . ولقد وصلتنا أشكال مختلفة لهذا الرنك فهو إما يرسم بدون كرات أو تميز بوضع دوائر فى مواضع مختلفة كأن توضع دائرة أو كرة

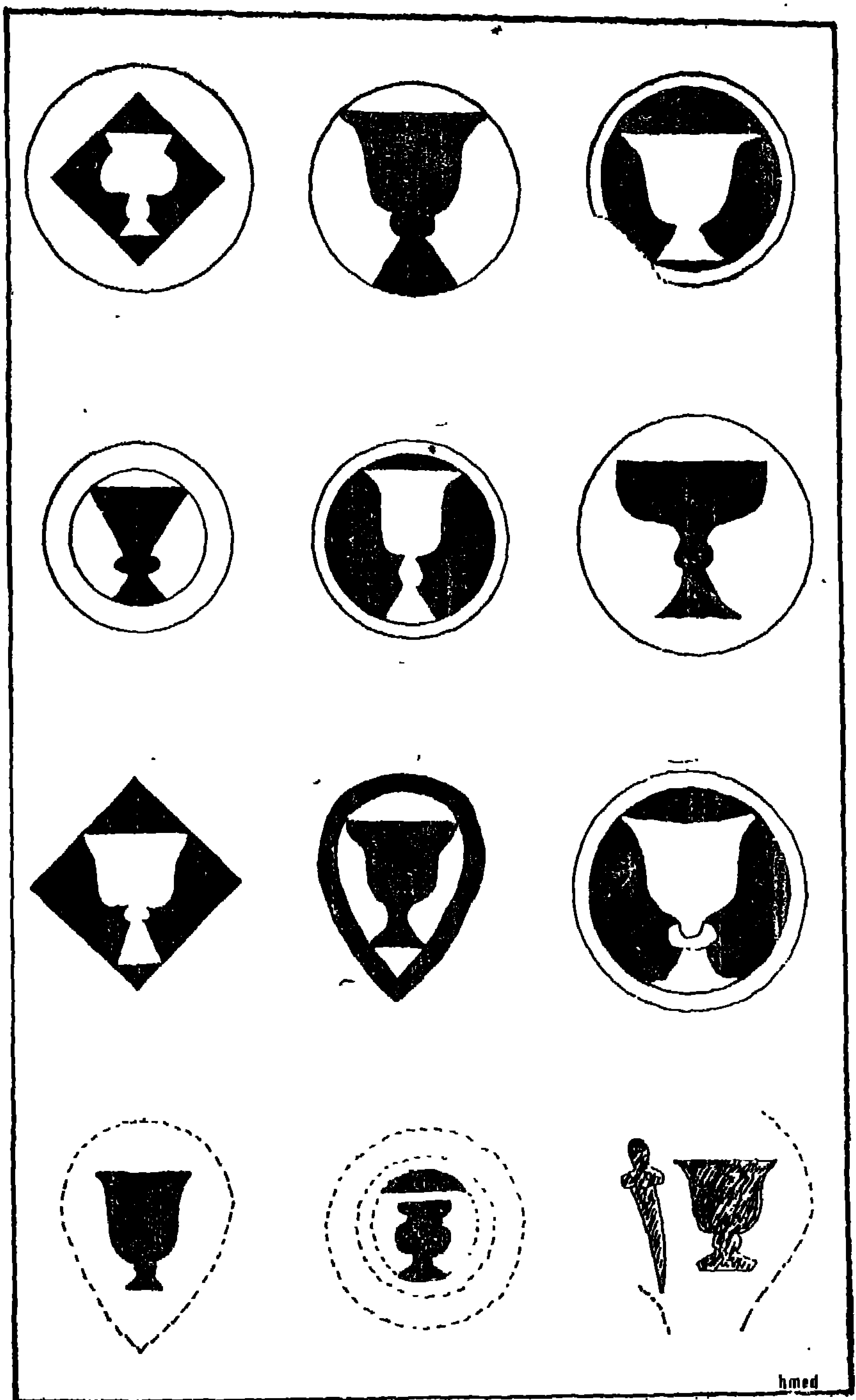







Ahmed

شكل رقم (٢)
رنك الحدوة



شكل رقم (٣)
رنك البقجة



شكل رقم (٤)
الكأس

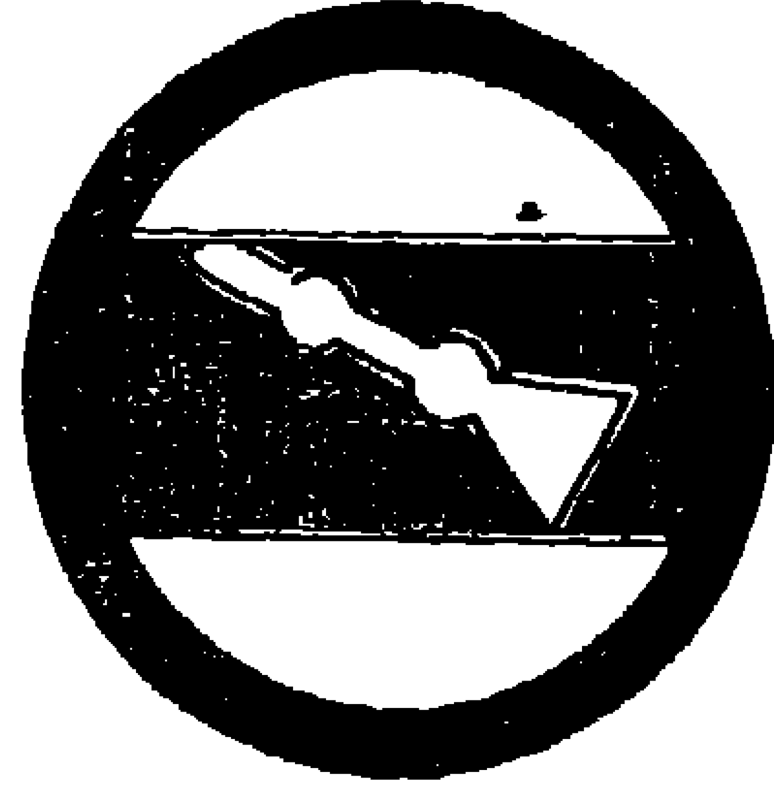
عند كل عكفة عصا أو بين العصوين فى أعلى وقـــد تقطع الدائرة بوترمن أعلى(٥٤) .

والخونجة رنك الجاشنكير فلا زالت موضع أخذ ورد بين العلماء بالنسبة لشكلها رغم أنه وصلتنا كتابة أثرية باسم بكتوت القرمانى الجاشنكير بتاريخ سنة ٧٠٩ / ١٣٠٩ من ضريح الشيخ مسعود بالقاهرة ومحفوظة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة(٥٥) وكان رنكه على هيئة خوان « خونجا »(٥٦) فى حين أشار مارتن إلى شكل آخر يزين سلطانية محفوظة بمتحف برلين واعتبرها خونجة ونسبها إلى أيبك(٥٧) .

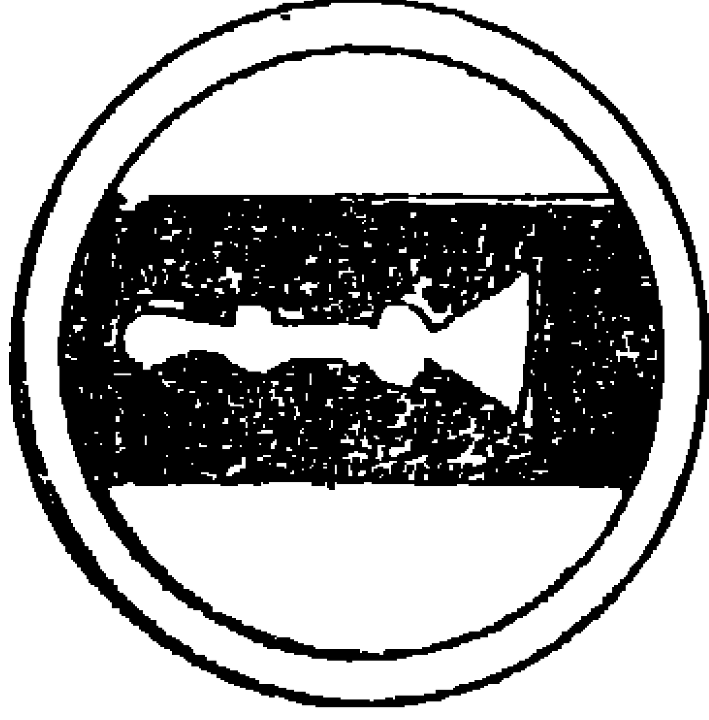
كذلك أشار أرتين إلى شكل ثالث(٥٨) يشبه تلك القواعد المعدنية(٥٩) والفخارية المطلية التى تعرف عادة باسم الكراسى وهى ذات أشكال أسطوانية قطر فتحتها العليا والسفلى أوسع من قطرها فى الوسط وكانت تستخدم فيما يبدو لوضع الصوانى التى يقدم عليها الطعام . فترى أى من هذه الأشكال كان يرمز إلى رنك الجاشنكير ؟ يبدو لنا أن الشكل الأخير الذى أشار إليه أرتين هو أقرب هذه الأشكال إلى الخونجة رنك الجاشنكير ، وذلك اعتماداً على ما ذكره الرحالة ابن بطوطة عنها إذ يقول : « مائدة نحاس يسمونها خونجة ويجعل عليها طبق نحاس يسمونه الطالم(٦٠) » . أما بالنسبة لذلك الرنك الذى ورد مصحوبا بكتابة أثرية باسم الجاشنكير فليس بقياس إذ كثيراً ما ترد رنوكا مصحوبة بوظائف لا تمت إلى الرنك بأى صلة(٦١) .

والعلم رنك العلمدار فقد وصلتنا بعض أمثلته على بعض التحف المملوكية وهو إما يمثل على هيئة علمين متدابرين يخترقان أقسام الرنك الثلاثة فى وضع عمودى أو يمثل على هيئة علم واحد تتجه رايته جهة اليمين(٦٢) انظر شكل (٥) هـ، و .

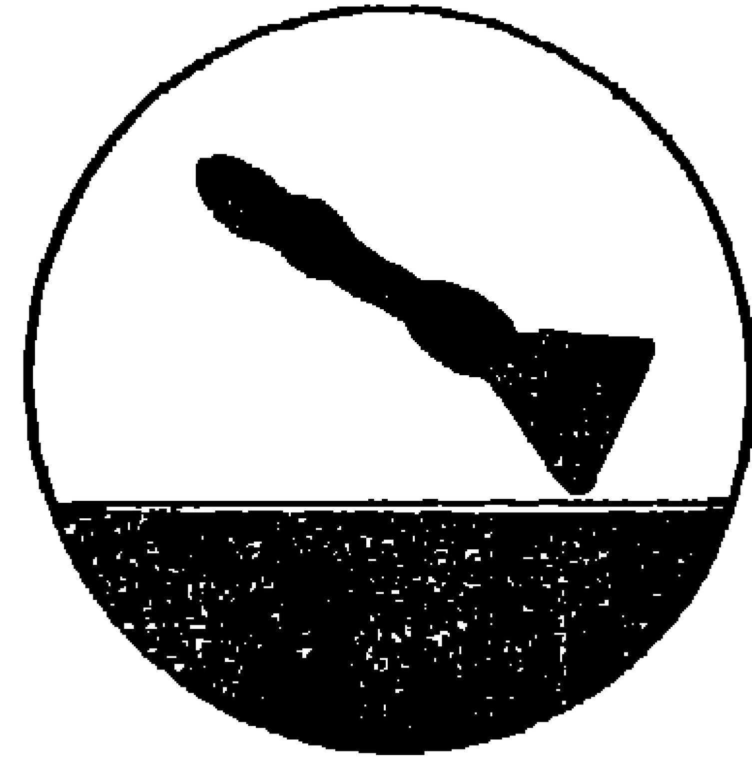
والطبلة رنك الطبلدار فقد وصلتنا بعض أمثلتها على التحف والآثار



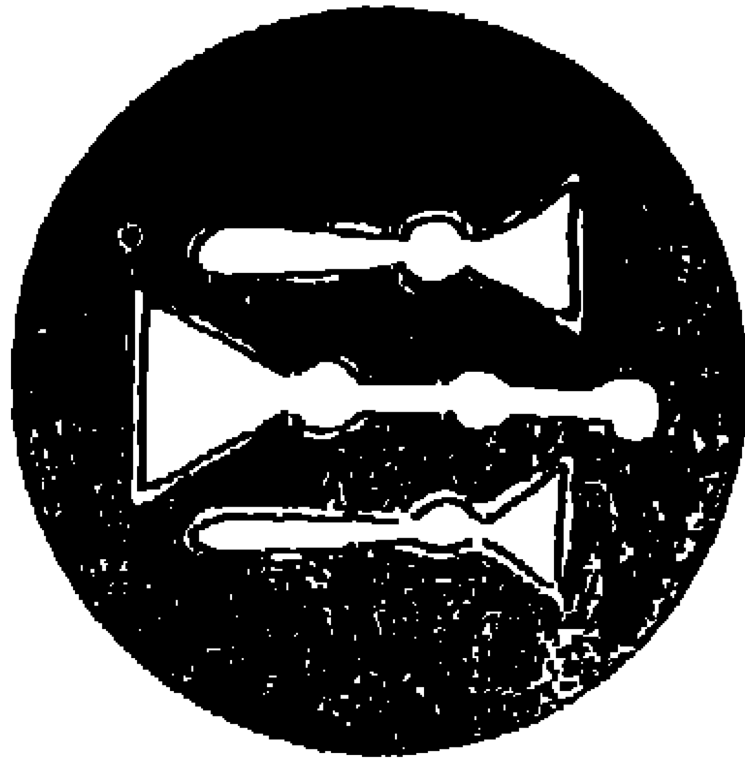
أ



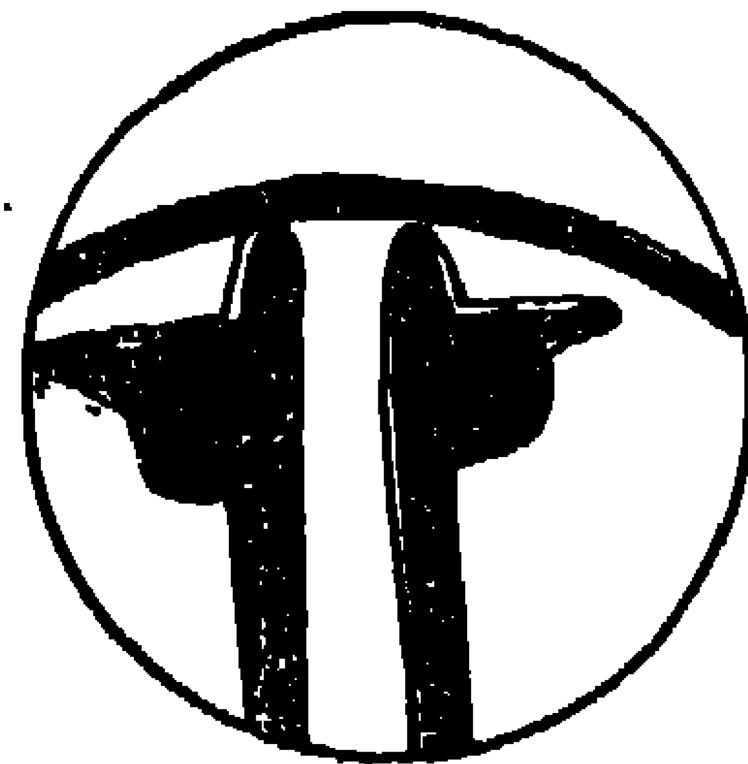
ب



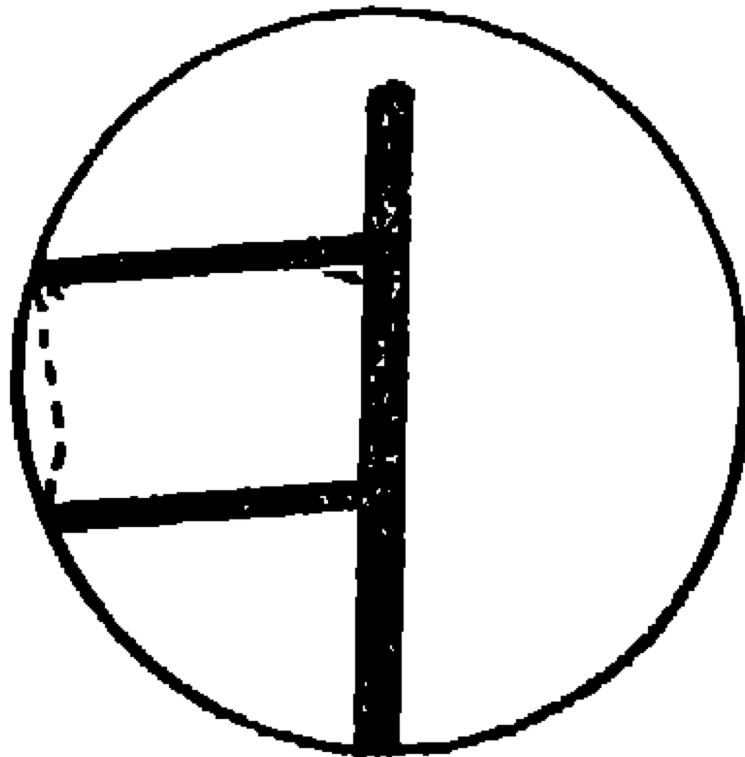
جـ



د



هـ



و

Ahmed

شكل رقم (٥)
رنك البوق والعلم

العربية وهى غالباً ما تمثل على هيئة الترس أو الدرع المدبب الطرف فوق المنطقة الوسطى من مناطق الرنك الثلاث(٦٣) وفى بعض الأحيان يحف بها زوجان من العصى .

والنعل رنك البشمقدار لم نصادفه على أى من التحف والآثار العربية ولعل هذا راجع إلى ضآلة مركزه(٦٤) .

والدبوس رنك الجمقدار يمثل آلة من آلات الحرب فى العصور الوسطى تشبه الإبرة كانت تصنع من عود طوله نحو قدمين من الخشب الغليظ فى أحد طرفيه رأس من حديد قطرها ثلاث بوصات تقريبا(٦٥) وقد ورد بكثرة على التحف المملوكية إما مفردا يتوسط الرنك فى وضع أفقى أو فى وضع مائل(٦٦) أو فى وضع عمودى وقد وصلتنا كسرة من الفخار المطلى تتضمن رنك الدبوس وكتابة باسم الخليلى الجمقـــدار كانت بمجموعة غالب بك بالقاهرة(٦٧) وهو غالبا مايمثل فى هيئة تبدو أشبه بالبرق .

ومن الرنوك التى كانت ذات صلة بالوظيفة التى يشغلها الأمير يمكننا أن أن نضيف العلامة التى على شكل قرن والتى فسرها ماير بأنها تدل على القرن الذى كان يحفظ فيه البارود(٦٨) وذلك لأن أول ظهورها كان فى رنوك الثلث الأخير من القرن الخامس عشر الميلادى عندما عم استعمال البارود فى الأسلحة ويحتمل أنها كانت شعارا للفرقة التى كانت تشرب كأس الفتوة وترمى البندق باسمه وكانت تقوم بألعابها خارج المدينة من أهمها رمى الحمام وكانت خاضعة للسلطان له أن يدخل فيها من يشاء ويخرج من يريد(٦٩). ومن الملاحظ أن هذا الرمز قلما وجد منفردا وإنما يجىء غالبا يحف بأحد الرموز الأخرى من كلا الجانبين وجدير بالذكر أن هذا الرنك لم يرد على بعض التحف المملوكية التى بين أيدينا الآن .

وهناك أيضا رنك البوق وقد ورد بكثرة على التحف المملوكية ولعله

بمجرد إشارة للأمرة إذ كان من شارات الأمرة البوق والعلم(٧٠) أنظر شكل (٥) أ ، ب ، ج ، د . وإلى جانب هذه الرنوك التى شاع استخدامها فى العصر المملوكى وأمكن تفسيرها لارتباطها بالوظائف فى البلاط المملوكى وجدت مجموعة من الرموز الغامضة تزين التحف العربية المملوكية ولعل أهمها رسم البغل الذى يطلق عليه البعض شارة بغل البريدى(٧١) . رغم أن رنك البريدى كان يمثل عادة على هيئة درع مستدير مقسم إلى ثلاث أقسام وقد ورد هذا الرنك مصحوبا بالكتابة الأثرية باسم علاء الدين البريدى(٧٢) .

إلا أنه يبدو لنا أن رنك البريدى كان بهذه الهيئة فى بادىء الأمر ثم جاء بعض الأمراء ممن تقلدوا هذه الوظيفة ولم يرق لهم هذا الرنك الغفل من الرمز فأخذوا من بغل البريد رنكا لهم ليرمز إلى وظيفتهم لاسيما وأن لفظة برد جمع بريد يقال أنها فارسية معربة وأصلها بالفارسية بريده دم أى مقصوص الذنب وقد سمى بذلك لأن بغل البريد عند الفرس كان يقص ذنبه علامة على أنه من بغال البريد(٧٣) .

ومن الرموز التى تبدو غامضة أيضا رسم رقعة الشطرنج(٧٤) التى غالبا ماتمثل على هيئة منطقة مستديرة . ترى إلى أى شىء كانت تشــــيراً ؟ من المعروف أن سلاطين المماليك قد شغفوا بلعبة الشطرنج كما قاموا بلعبها مع المقربين إليهم من الأمراء والعلماء والأدباء(٧٥) بل حرص بعضهم إذا خرج فى أسفاره أن تحمل معه كيبة ضخمة من العاج برسم خرط الشطرنج حتى إذا لعب السلطان بشطرنج مرة أخذه بعد ذلك أرباب النوبة وجدد غيره للسلطان(٧٦) .

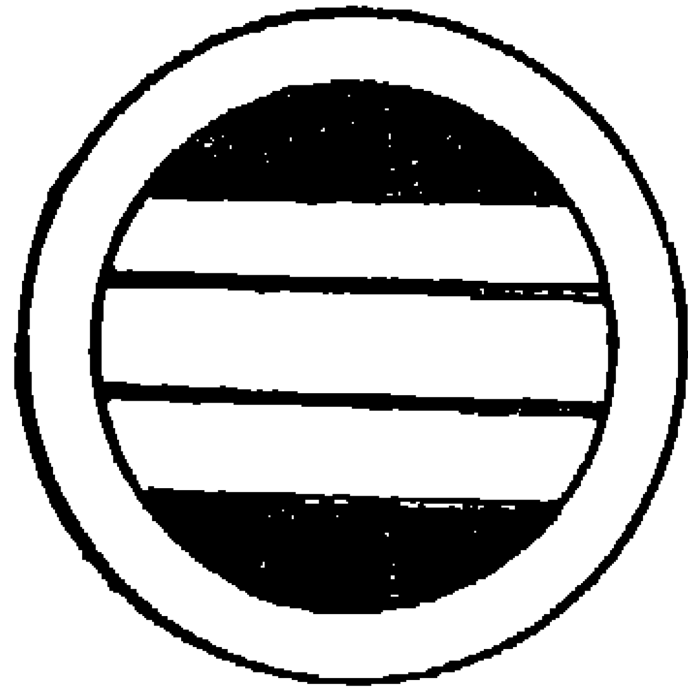
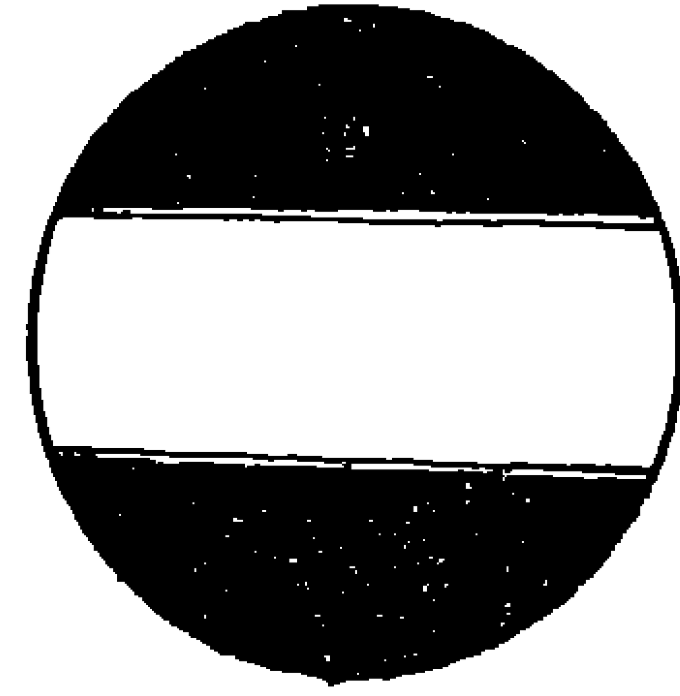
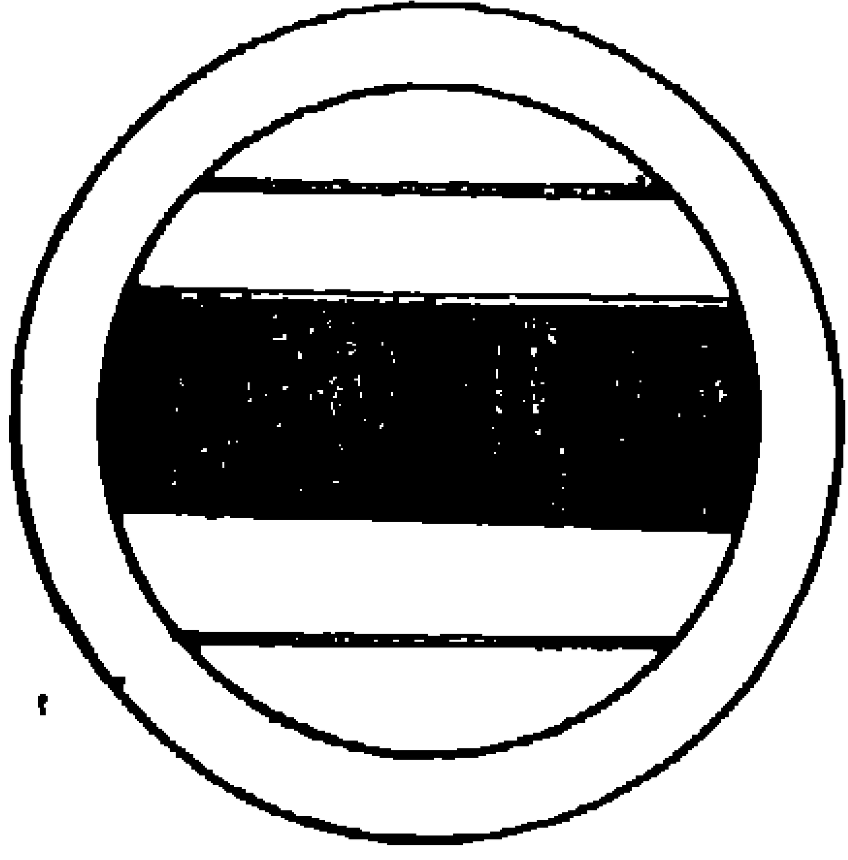
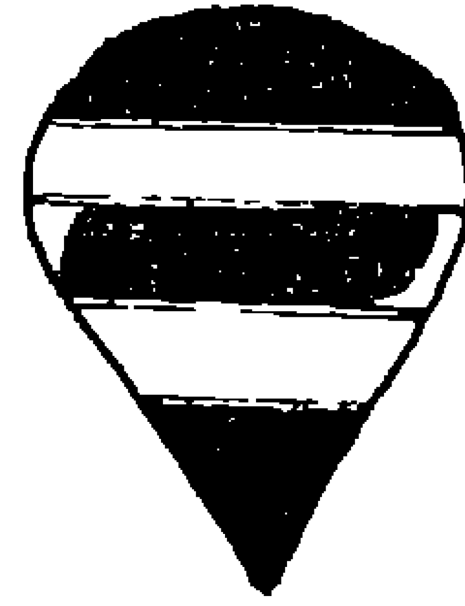
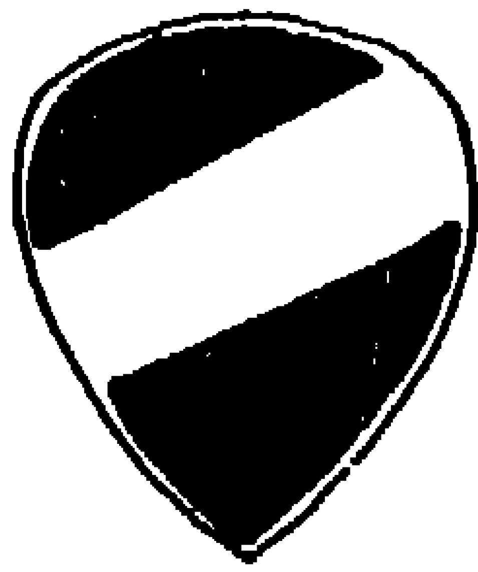
كذلك من المعروف أن المماليك الذين كانوا يقومون عند مبيت السلطان بالسهر على حراسته وتقسيم الليل بينهم ، حرصــــوا على القيام بلعب الشطرنج(٧٧) ، أثناء قيامهم بنوبات الحراسة حتى يصرفون النــوم عن

أجفانهم . ومن هذا يتضح لنا أهمية هذه اللعبة البالغة إبان ذلك العصر كوسيلة من وسائل التسلية فلا غرو أن يكون المشرف على الشطرنج السلطانى قد اتخذ من رقعة الشطرنج رنكا له شأنه فى ذلك شأن أغلب موظفى البلاط السلطانى الذى كان يتخذ كل منهم رنكا يشير فى الغالب إلى وظيفته .

ومن الرنوك الغامضة أيضاً الرنك الذى يتألف من خمسة قضبان على درع مستدير انظر شكل (٦) وهو كثير الورود على الآثار العربية والتحف المملوكية . والواقع أنه لا يمكننا القول بأنه كان يعنى وظيفة بعينها إذ أنه ورد على ثلاث من التحف تشير كل منها إلى وظيفة متنوعة : الأولى على سلطانية من النحاس تتضمن كتابة أثرية باسم « الجناب العالى السيفى سيف الدين بهادر استادار مولانا الملك الأمراء كافل الممالك الشريفة بالشام المحروس(٧٨) » . والثانية على سلطانية من النحاس أيضاً تحمل كتابة باسم « الجناب العالى المولوى الأمير الكبير . السيفى سيف الدين قشتمر شاد الدواوين بالديار المصرية عز أنصاره(٧٩) » .

والثالثة على أبريق محفوظ بمتحف بولوينا عليه كتابة أثرية نصها « برسم الجناب العالى طرنطاى الطباخى(٨٠) » . الأمر الذى يدفعنا إلى اعتباره مجرد شكلا زخرفيا أو أنه كان يشير فى بادىء الأمر إلى وظيفة بعينها إلا أنه بعد أن ترك للأمراء حرية إختيار رنوكهم . اتخذه عدد منهم من ذوى الوظائف المتنوعة كما تشير بذلك الكتابات الواردة على التحف الثلاث السابق الاشارة إليها .

وإلى جانب هذه الرنوك التى تدل فى الغالب على الوظائف وجدت رنوك أخرى من الصعب تعليل إختيارها فهناك رنك الهدف ورنك الصليب ورنك زهرة اللوتس أو الزنبق(٨١) ورنك الوريدة .. والهدف كان مستعملا فى لعبة الرماية المعروفة باسم القبق(٨٢). ولعبة القبق هى أن ينصب صار طويل من خشب


شكل رقم (٦)
رنك الشطف (البريدي ؟)

يكون فى رأسه شكل قرعة من ذهب أو فضة بمثابة هدف ويكون فى القرعة طير حمام ثم يأتى اللاعبون للمباراة فى رمى الهدف بالنشاب أو السهام وهم على ظهور الخيل فمن أصاب القرعة وأطار الحمام حاز السبق وأخذ القرعة المعدنية نفسها مكافأة له(٨٣) . الأمر الذى يدفعنا إلى الترجيح بأن هذا الرنك لا يشير إلى وظيفة معينة وانما يبدو لنا أنه كان بمثابة هدية أو منحة من السلطان للملوك أو الأمير الذى يجيد التصويب ويحرز الهدف تميزا له على غيره من الأمراء. وهو غالباً مايمثل على هيئة هدف التصويب سواء على شكل قرص مستدير أو على هيئة مروحة موضوعة على قاعدة مثلثة وفى جزئها العلوى يوجد ثقب يتدلى منه سهم متحرك ولقد ورد هذا الرمز بكثرة على التحف المملوكية .

ووصلتنا آنية تتضمن هذا الرنك وتحمل كتابة باسم أحد أمراء السلطان الناصر محمد بن قلاوون يدعى فرجى(٨٤) .

أما الصليب فمن المعروف أنه يعتبر من أقدم الرموز استعمالا منذ القرن الثالث الميلادى حيث أصبح بمثابة الرمز الكامل للمسيح أو بمثابة علامة الدين المسيحى عامة ويعنى غفران الخطايا والخلاص .

ومن المعروف أن للصليب أشكال متعددة إلا أن أهم أشكاله اثنين هما الصليب اللاتينى والصليب اليونانى . أما اللاتينى فهو بمثابة عمودين متعامدين ونقطة تقابلهما تكون فى الوسط وله ثلاثة أطراف متساوية . أما الطرف الرابع وهو السفلى فأطول ويقال أن المسيح صلب على صليب من الشكل اللاتينى وهو نادر الوجود على بعض التحف المملوكية .

أما الصليب اليونانى فهو ذو أربعة أضلاع متساوية ويستعمل للدلالة على كنيسة المسيح ويرمز به إلى تضحية المسيح من أجل خلاص البشر(٨٥) .

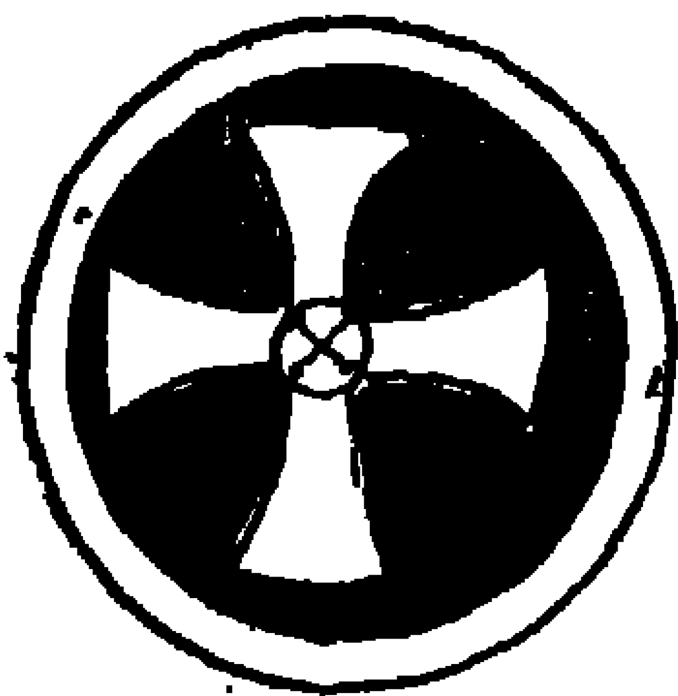
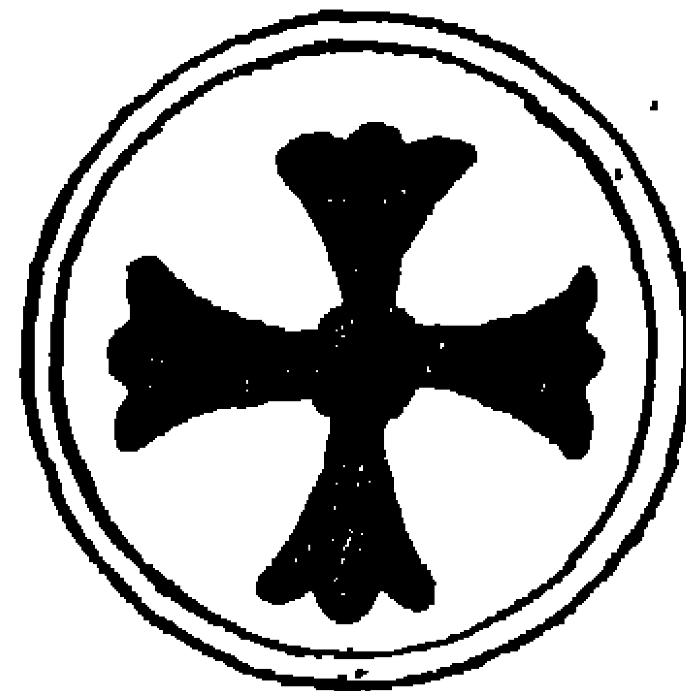
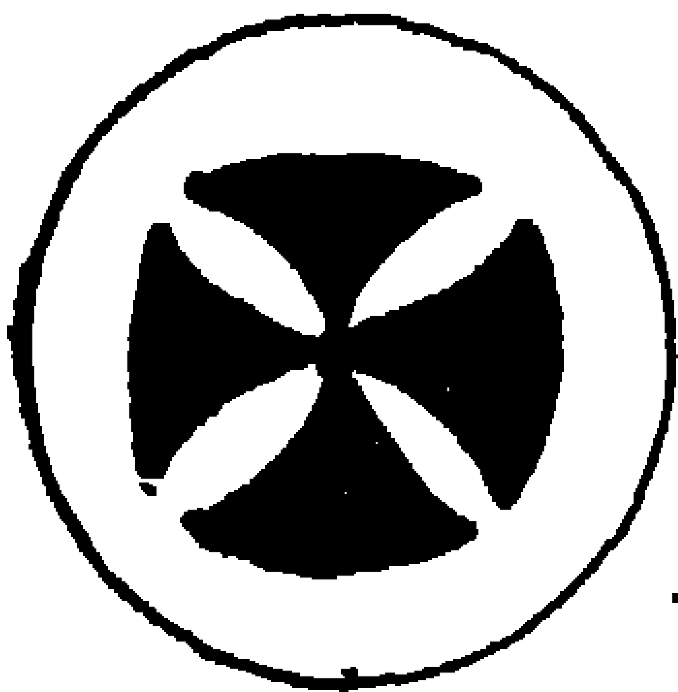
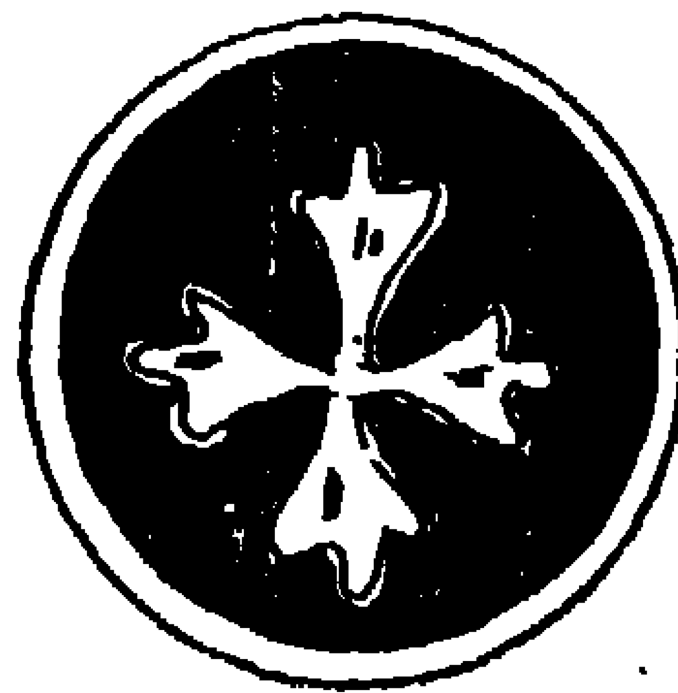
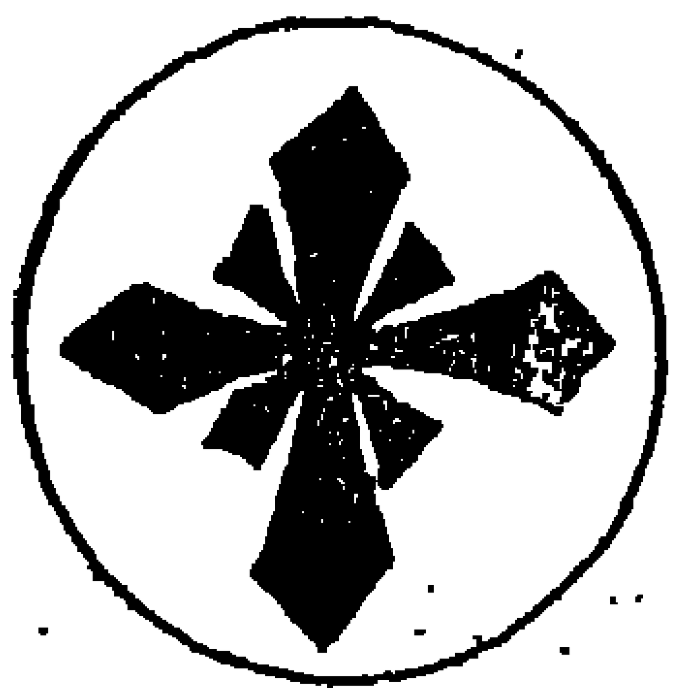
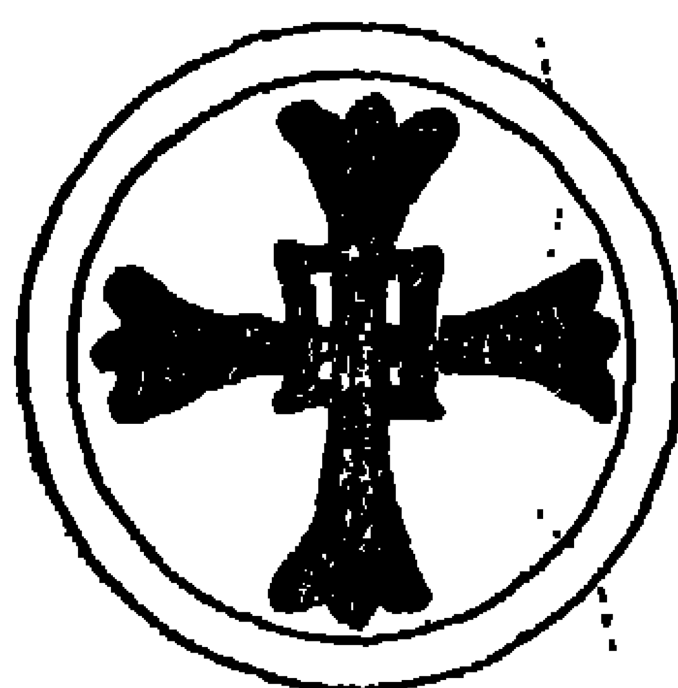
ولقد ورد هذا النوع الأخير بكثرة على التحف المنسوبة إلى العصر

المملوكى انظر شكل (٧) . ولا شك أن رنك الصليب هذا كان يرمز به إلى مستوفى الديوان من المسيحيين(٨٦) فى العصر المملوكى أى أنه يمكننا اعتباره من الرنوك الدالة على الوظائف فى ذلك العصر .

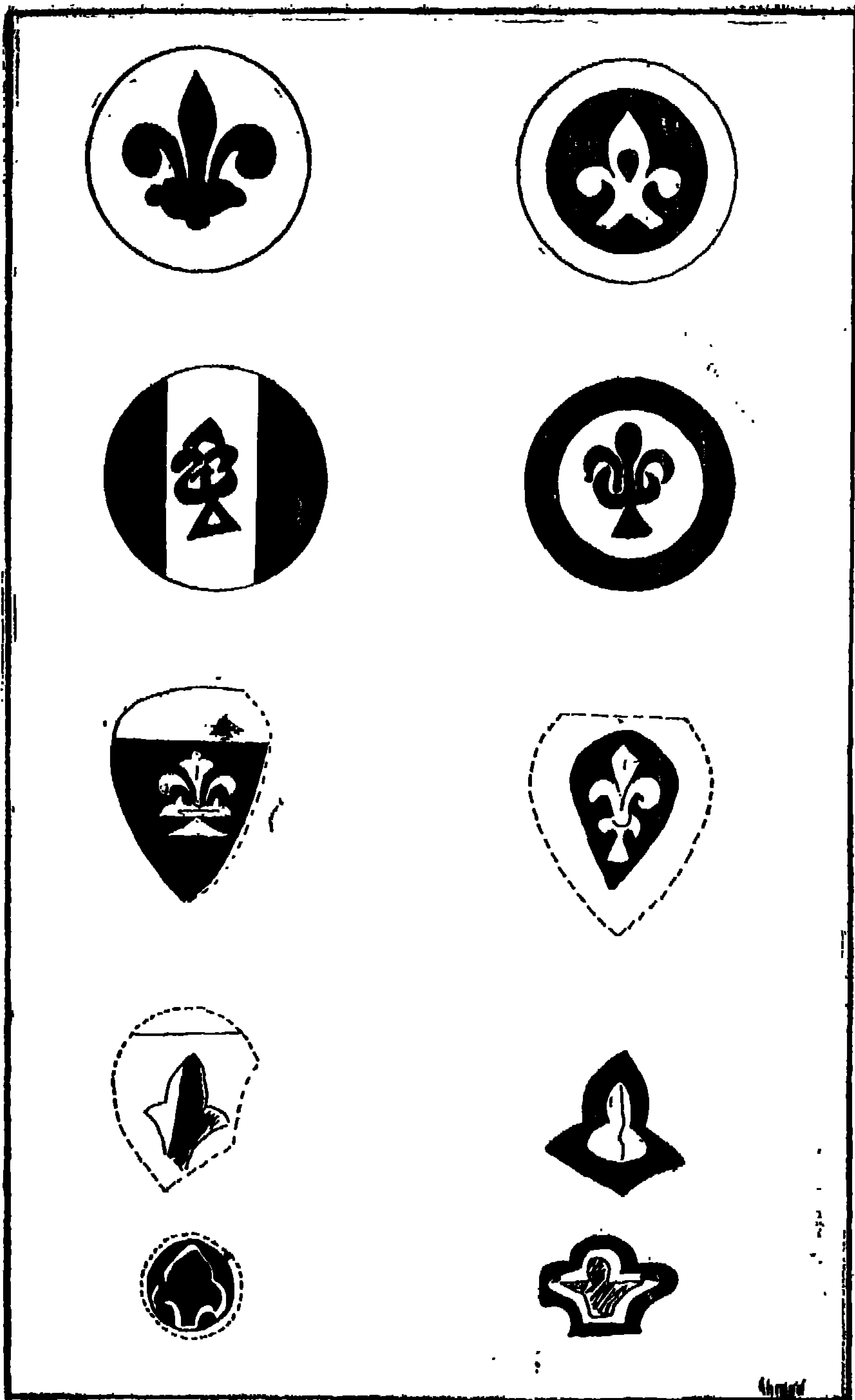
وزهرة اللوتس التى مثلت بكثرة على التحف المملوكية سواء مفردة (٨٧) أو مركبة مع رموز أخرى (٨٨) . مثلت مختلفة فى جميع الشعارات من حيث تكوينها وشكل وريقاتها ونهاياتها العليا والسفلى انظر شكل (٨)، عرفت فى الشرق منذ عهد قديم (٨٩) كما اتخذها نور الدين محمد بن زنكى شعارا له (٩٠) ـ على محراب المدرسة التى شيدها فى دمشق بين عامى ٥٤٩ — ٥٦٩/ ١١٥٤ — ١١٧٣ وفى عمودين بالمسجد الجامع فى حمص أيضاً . وقد استمر ظهورها على العملة الأيوبية كذلك على بعض العملة المملوكية فضلا عن بقية التحف الأخرى الأمر الذى دفع البعض (٩١) إلى الاعتقاد بأنها لم تكن رنكا بل كانت رسماً زخرفياً فحسب . والواقع أنه يبدو لنا أن زهرة اللوتس هذه كانت رنكا شخصياً مجرداً لا يعنى ولا يرمز إلى شىء بعينه يتخذه كل السلاطين والأمراء على حد سواء ولعل فى وروده بكثرة على الآثار والتحف العربية مايؤيد وجهة نظرنا هذه . وان كانت هذه الزهرة قد لعبت دوراً هاماً كأحد العناصر الزخرفية فوق منتجات العصر المملوكى .

كذلك من الرنوك النباتية التى وردت بكثرة على التحف التى بين أيدينا إما مفردة أو مركبة رنك الوريدة . وجدير بالذكر أن أسرة بنى رسول باليمن اتخذوا من الوريدة ذات الخمس وريقات شعاراً لهم إذ ذكر القلقشندى أن « شعار سلطان اليمن كان وردة حمراء فى أرض بيضاء » كذلك أضاف نقلا عن ابن فضل الله « ورأيت أنا السنجق (٩٢) وقد رفع على عرفات سنة ٨٣٧ هجرية وهو أبيض فيه وريدات حمر كثيرة (٩٣) » .

أما وريدات العصرين الأيوبى والمملوكى فنجدها تتألف غالباً من ست

شكل رقم (٣)
رنك الصليب



شكل رقم (٨)
رنك زهرة اللوتس

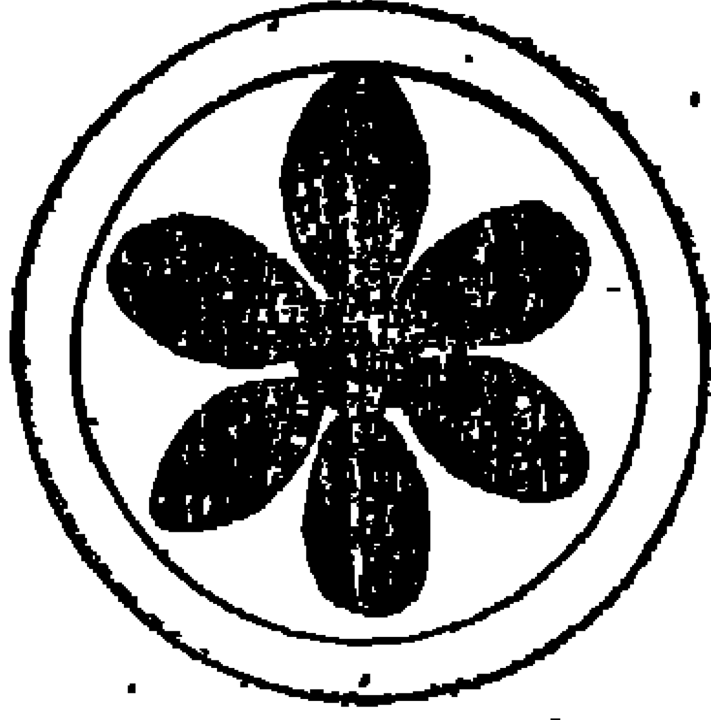
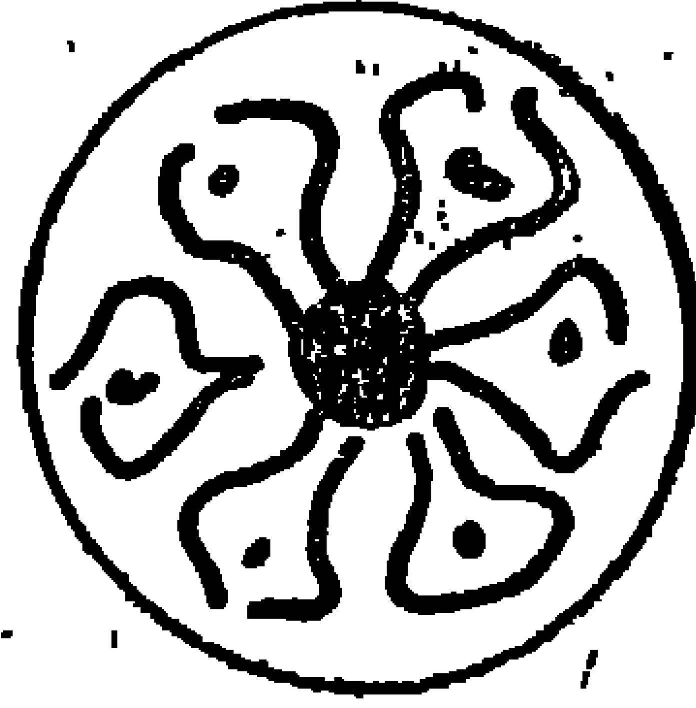
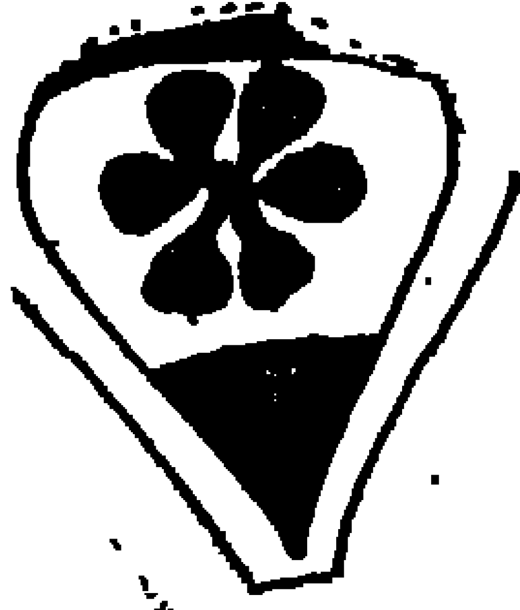
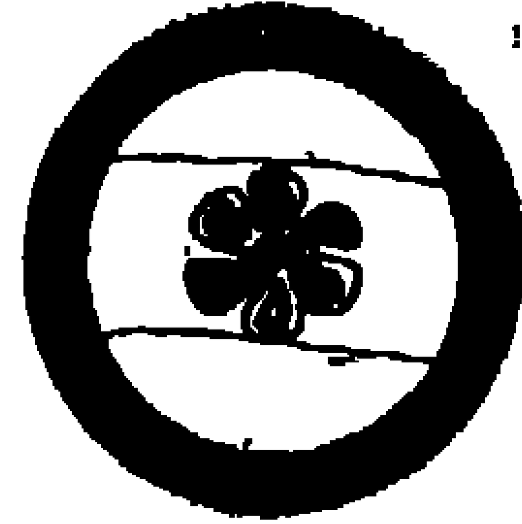
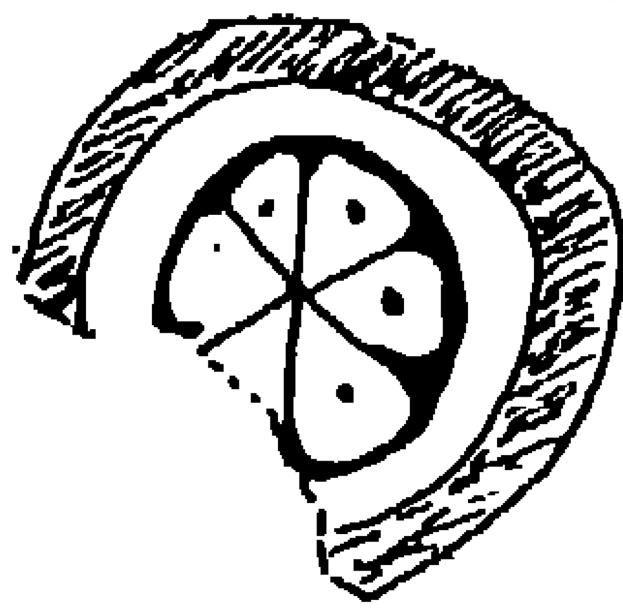
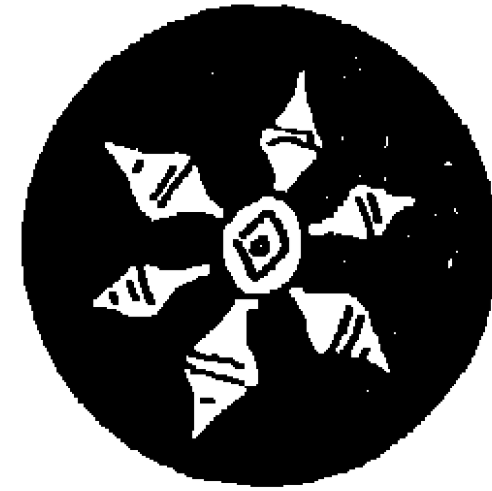
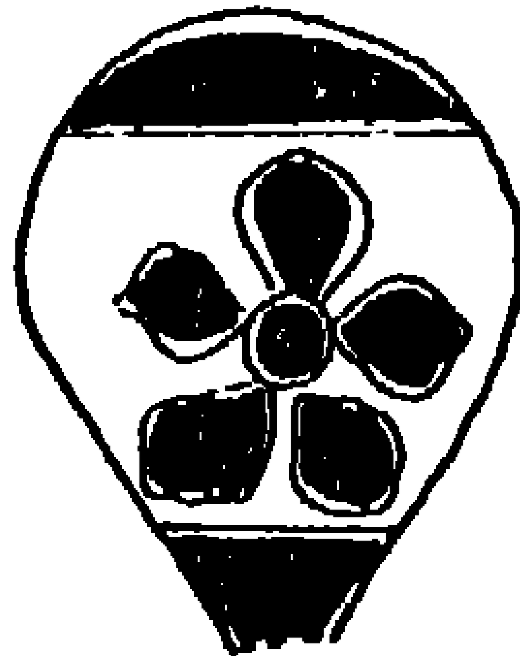
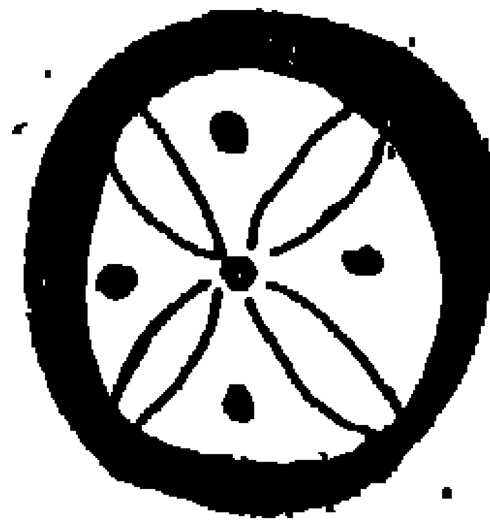
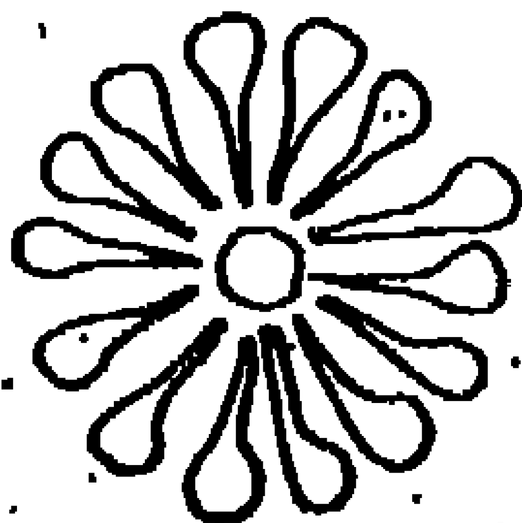
وريقات وفى بعض الأحيان تجدها ذات ثمان وريقات(٩٤) انظر شكل (٩). كذلك وجدت مجموعة ثالثة من الرنوك تمثل فى الغالب مجموعة من الحيوانات أو الطيور مثل السبع والنسر والبط المنسوب إلى السلطان قلاوون والسمك المنسوب إلى إبنه الناصر محمد (٩٥) .

والسبع(٩٦) ورد بكثرة على التحف المنسوبة إلى ذلك العصر(٩٧) وهو غالباً ما يمثل كأنه زاحف من اليمين إلى اليسار يرفع ذنبه فوق ظهره ورجله اليمنى إلى الأمام . ومن المعروف أن السلطان بيبرس اتخذ من هذا الشكل رنكا له إلا أنه لم يكن أول من فعل ذلك إذ سبقه إلى هذا الملك الأيوبى المظفر شهاب الدين غازى بن الملك العادل أبى بكر حاكم أورفا ٦٠٨ — ٦١٧ / ١٢١١ — ١٢٢١ حيث ظهر هذا الرنك على باب حران فى أورفا كما اتخذه رنكا له فيما بعد الملك الأشرف برسباى ٨٧٢—٩٠١ / ١٤٦٧ — ١٤٩٥ حيث ظهر على أبنيته ونقوده (٩٨) .

كذلك يحدثنا ابن إياس بأن يشبك من مهدى عندما خرج لحرب شاه سوار . وضع فى رنكه صفة سبع (٩٩) ، إلا أنه لم يعثر على آثار باسم هذا الأمير يتضمن هذا الرنك .

بقى أن نتسائل هل كان السبع يعنى فى كل مرة نراه فيها ممثلا على التحف المملوكية والآثار العربية رنكا لأحد السلاطين أو الأمراء ؟ الحق أننا لا نستطيع الاجابة على هذا السؤال بالاثبات إذ أننا كثيراً ما نراه ممثلا فوق مهاد من الزخارف العربية المورقة وقد يقتفى أثر حيوان آخر يتقدمه الأمر الذى يدفعنا إلى الترجيح بأنه قصد به الزخرفة أولا وقبل كل شىء .

والنسر يعتبر من أكثر الرموز ورودا على الآثار والتحف العربية المنسوبة إلى العصر المملوكى وقد رسموه برأس واحدة ملتفتة إلى اليمين أو إلى اليسار(١٠٠) أو برأسين متدابرين وكذلك اما بجناح واحد أو بجناحين مبسوطين وتظهر


Ahmed

شكل رقم (٩)
رنك الوردة

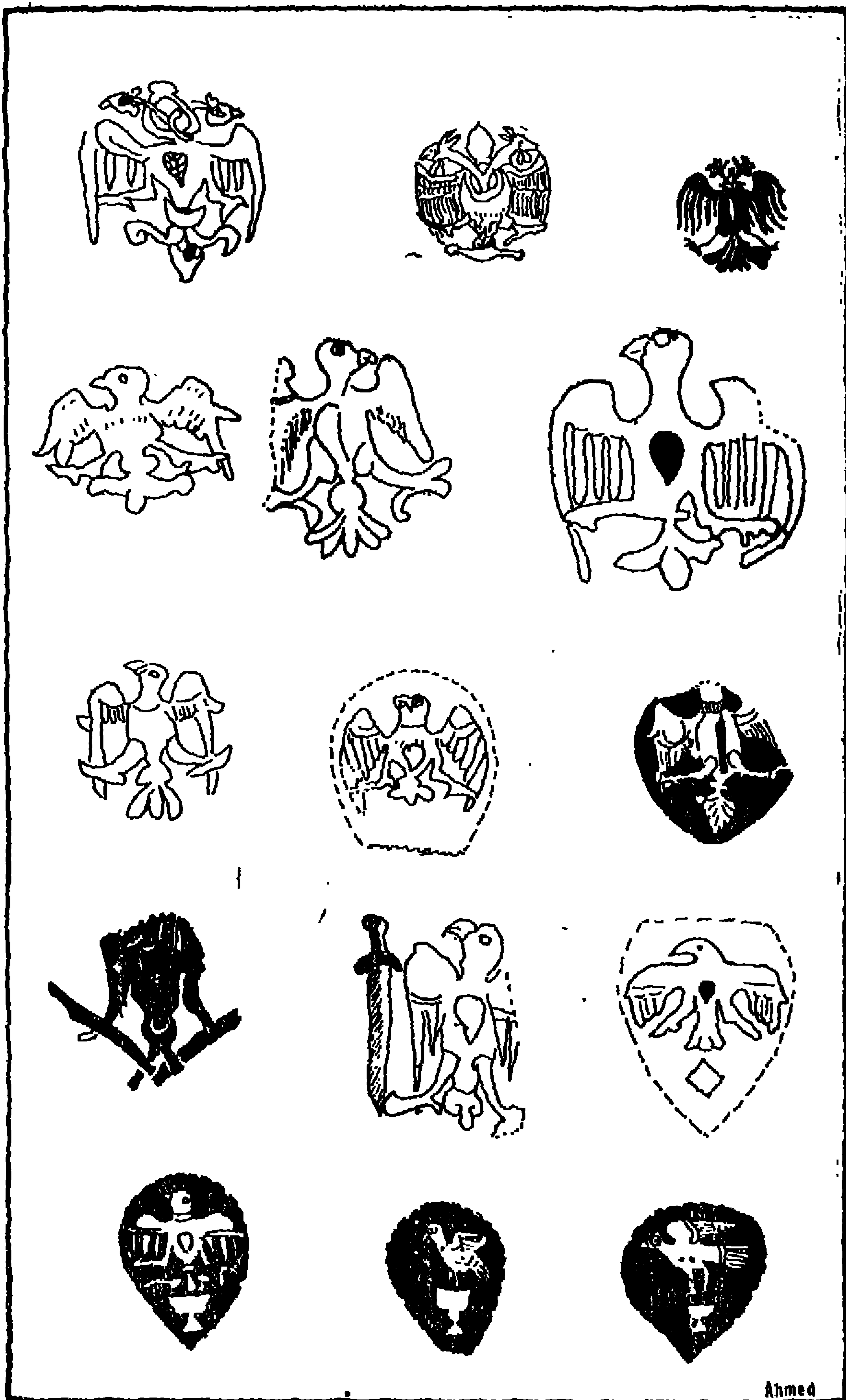
المخالب ممسكة بنهاية الجناحين انظر شكل (١٠) ولعل أقدم من اتخذ هذا الرمز رنكا له هو السلطان الأيوبى صلاح الدين حيث لا نزال نراه يعلو أسوار القلعة (١٠١).

وبالنسبة للبط الوارد على التحف والآثار العربية المملوكية الطراز فأغلبه ممثل فى هيئة زخرفية مجردة وفوق أرضيات من الأقواس المتداخلة أو الدوائر التى تبدو على هيئة المخرمات الأمر الذى يجعلنا لا نستطيع قبوله كأحد الرنوك أو إلى اعتباره أنه يرمز الى شيء بعينه.

والسمك الذى نراه ممثلا بكثرة على التحف المملوكية والمنسوب إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون فمن المعروف أن السمك عد من رموز الحياة فى العصور المصرية القديمة وأصبح شعاراً لكل من إيزيس(١٠٢) وأوزوريس(١٠٣)، فلا عجب أن يكون قد اتخذ رنكا فى العصر المملوكى إلا أن فى هيئته الوارد بها على تحف ذلك العصر ما يجعلنا نتشكك فى صحة اتخاذه بمثابة رنكا لأنه يغلب عليه الطابع الزخرفى كما أنه مثل فى أغلب الأحيان بلا مناطق محددة بعكس أغلب الرنوك الأخرى.

لكن ماذا تعنى هذه الرنوك ؟ ذهب بعض المشتغلون بالآثار(١٠٤) إلى القول بأن هذه الرنوك تعبر عما يتصف به الأمير من صفات وتترجم عن اسم ان كان للاسم معنى. واعتمد فى هذا الرأى على ما ذكره ابن اياس عند كلامه عن رنك بيبرس إذ ذكر أنه يدل على شجاعته (١٠٥). فى حين ذهب ماير إلى نفى هذه النظرية معتمداً على فحص الأمثلة التى اتخذت أساساً لها وعلى بعض المراجع المعاصرة للمماليك والتى لم يذكرها لنا(١٠٦).

والحق أننا لنرى أن ماير قد ذهب بعيداً حين نفى هذا الرأى إذ يقول القلقشندى « والترك راعو فى أسمائهم ما يدل على الجلادة والقوة مما يألفونه ويجاورونه وغالباً ما يسمون باسم « بغا » ومعناه بلغتهم الفحل. إما مفرداً كما تقدم وهو قليل واما موصوفاً بحيوان من الحيوانات مقدمين الصفة على



شكل رقم (١٠)

رنك النسر

الموصوف على قاعدة لغتهم فى ذلك كطيبغا بمعنى فحل مهر . أو بمعدن من المعادن كالطنبغا بمعنى فحل ذهب ... وربما أفردوا الاسم بالوصف كدمر بمعنى حديد وأرسلان بمعنى أسد وتنكز بمعنى بحر ، ونحو ذلك إلى غير ذلك من المفردات والمركبات التى لا يأخذها حصر(١٠٧) . كذلك جاء فى السلوك « أن أسماء معظم سلاطين المماليك وأسماء كل أمراء دولتهم تقريباً عبارة عن أسماء أشياء أو حيوانات فى اللغات التركية والفارسية والتترية مثل ذلك بيبرس ومعناه الأمير فهد(١٠٨) قلاوون ومعناه البطة وطوغان معناه الصقر دبكتمر معناه الأمير حديد .ومن أسمائهم أيضاً ما يدل على صفات من إحدى اللغات المتقدمة ومنها سلار ومعناه المهاجم وأزبك ومعناه النبيل (١٠٩) » كما أنه يوجد لدينا مثلان واضحان يعبران عن صدق هذه النظرية وهما للسبع رنك بيبرس والطائر الأبيض رنك جمال الدين آقوش حاكم الكرك(١١٠) .

وإلى جانب هذه الرنوك البسيطة التى تتضمن عـــلامة أو أكثر على الشطب أو على الرنك مباشرة إذ لم يكن بوسطة شطب(١١١) ، والتى استعملت للأمراء والسلاطين على حد سواء . وجد نوع آخر من الرنوك يعرف فى المصطلح العربى باسم الدروع أو الخراطيش انفرد به السلاطين دون الأمراء(١١٢) ، وورد بكثرة على التحف والآثار العربية وهو يتألف غالباً من درع مستدير أو كمثرى أو مفصص الشكل وينقسم غالباً إلى ثلاثة مناطق ولا توجد به علامات أو أية رموز كما فى النوع السابق إنمـا تملئه كتابات نسخية فى المنطقة العليا اسم السلطان وفى الوسطى التعظيم له وفى السفلى الدعاء له أى على النحو التالى :

(أسم السلطان)

عز لمولانا السلطان الملك

عـــز نصره

ويرجع أقدم هذه الخراطيش إلى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الميلادى(١١٣)،وكان أول ظهورها على الأوانى والمشكاوات والسلاطين وما شابه ذلك ولعل أقدم ما يعرف من هذا النوع على المبانى خرطرش باسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون وجد على حائط واجهة قصر حوش بردق بجوار مدرسة السلطان حسن (١١٤) إلا أنه يلاحظ أن الخراطيش الواردة على بعض التحف الأخرى تتضمن « عبارة » عز لمولانا السلطان » تملأ مساحة الدرع وذلك بعكس الخراطيش الواردة على التحف والآثار العربية .

والنوع الثالث من الرنوك هو الرنوك المركبة وبالرغم من أن أغلب الباحثين فى هذا المجال قد أجمعوا على أن الرنوك المركبة بدأت بعلامتين أيام السلطان برقوق(١١٥) سنة ٧٨٥ هـ وتدرجت حتى أصبح الرنك يتضمن تسع علامات فى أيام قايتباى والغورى(١١٦) . إلا أنه صادفنا رنوك ثلاثة مركبة قبل عصر السلطان برقوق الأول على مبخرة النحاس محفوظة بالمتحف الأهلى بفلورنسا تحمل اسم الجناب العالى السيفى بهادر الحموى رأس نوبة الجدار الملكى الناصرى تنسب إلى مصر حوالى سنة ٧٤٠ / ١٣٤١ بها رنك يمثل بقجة أسفل نسر ينظر إلى اليسار(١١٧) .

والثانى على زهرية من النحاس المكفت بالفضة والذهب عليها كتابة باسم الأمير طقزتمر الساقى الذى عاش إلى سنة ٧٤٦ / ١٣٤٥ ويتخلل الكتابة ثلاثة رنوك بكل منها شارة نسر ناشراً جناحيه يقف على كأس(١١٨) .

والثالث على مشكاة مموهة بالميناء محفوظة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة وتحمل اسم المقر الشريف طغيتمر الذى قتل سنة ٧٤٨ / ١٣٤٧ وعليها رنك مركب من الدواه والكأس(١١٩) .

وعلى هذا يمكننا القول بأن الرنوك المركبة بدأت بعلامتين أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون أى قبل عصر السلطان برقوق بنحو خمسة وأربعون عاما تقريباً .

وعلى الرغم من التعقيد والاختلاف العظيم فى أشكال هذا النوع من الرنوك فإنه يمكن إرجاع أربعة أخماسها إلى واحدة من المجموعات الآتية :

١ - كأس كبيرة فى المنطقة الوسطى وأخرى صغيرة فى السفلى .

٢ كأس نقش على بدنها دواء ويحف بالكأس قرنى بارد وفى العليا بقجة وفى السفلى كأس صغيرة .

٣ - دواه فى الوسطى وبقجة فى كل من العليا والسفلى .

٤ - سيفان يخترقان الرنك من أعلى إلى أسفل أو يتوجان المنطقة الوسطى منه ، أو يزينان المنطقة العليا والسفلى أو يخترقان المنطقة السفلى أفقياً .

٥ - سيفان يحصران فيما بينهما إما حدود الفرس أو وريدة ذات خمس وريقات أو بقجة .

٦ - سيف وإلى يساره أو يمينه حدوة الفرس أو كأس أو زهرة لوتس .

٧ - بقجة فى كل من المنطقة العليا والسفلى .

٨ - نسر ناشر جناحيه ، أو إحداهما فوق كأس .

والرنوك المركبة اما شخصية تشير إلى الوظائف المختلفة التي مر بها المملوك

أثناء تدرجه فى مراتب الامارة إذا لم يكن من عادة الأمراء تناسى مراكزهم البسيطة يوم أن كانوا أجنادا بل كانوا يعتزون بها ويفخرون بتلك الأيام . مثال ذلك رنك قانباى الجركسى أحد مماليك الأشراف قايتباى الذى أعتقه وقلده عدة وظائف نستطيع أن نستخلصها من رنكه الوارد على مشكاة تحمل اسمه محفوظة بالمتحف الإسلامى بالقاهرة(١٢٠) حيث نشاهد فى المنطقة العليا السيف . وفى الوسطى الدواه وفى السفلى الكأس . والحق أن هذه الوظائف المختلفة التى يشير إليها رنكه تتفق وما ورد بالمراجع التاريخية بصدد حياة هذا الأمير(١٢١) .

أو ليست شخصية وفى هذه الحالة تعتبر بمثابة رنوك جماعات من المماليك كالمؤيدية نسبة إلى أتباع المؤيد شيخ والظاهرية أتباع برقوق والأشرفية أتباع قايتباى(١٢٢) . وقد تتفق بعض الفرق فى شعار واحد مع اختلاف اللون مثل الظاهرية والأشرفية(١٢٣) .

والحق أن الرنك صار حقا وإمتيازاً خاصاً بالأمراء وحدهم فى مجتمع الأيوبيين والمماليك فضلا عن السلطان إذ يبدو أن الأمير فى أواخر عهد الأيوبيين وأوائل عهد المماليك كان يمنح الرنك على يد السلطان عند تأميره يؤكد هذا ما ذكره أبو المحاسن من أن السلطان الملك الصالح نجم الدين أمر مملوكه أيبك وجعل رنكه على هيئة خونجا(١٢٤) . وإذا كان بعض رجال الدين(١٢٥) قد حملوها فإن ذلك راجع إلى أنهم كانوا من رجال السيف علاوة على وظيفتهم المدنية(١٢٦) .

غير أنه فى عصر المماليك الجراكسة ترك الأمراء حرية اختيار رنوكهم يؤكد هذا ما ذكره القلقشندى : « ومن عادة كل أمير من كبير أو صغير أن يكون له رنك يخصه مابين هناب (١٢٧) أودواه أو بقجة أوفرنسيسة كل أمير بحسب مايختاره ويؤثره من ذلك(١٢٨) » . ويؤكد هذا أيضاً ماذكره

ابن اياس من اتخاذ يشبك من مهدى صفة سبع حين خرج لمحاربة شاه سوار (١٢٩) الأمر الذى ترتب عليه أن أصبحت الرنوك لاتشير فى الغالب إلى وظائف أصحابها . وقد جرت العادة أنه إذا منح أحد الأمراء رنكاً معيناً ظل محتفظاً به طوال حياته (١٣٠) بل قد يضيف إليه رنك الوظيفة الأخرى التى يتقلدها أو ينتقل إليها مثل قانباى الجركسى .

وقد يكون الرنك ذى لون واحد أو ذى ألوان متعددة يؤكد هذا ما ذكره المؤرخون فى العصور الوسطى إذ ذكر ابن اياس أن السلطان قايتباى أمر بتبييض باب النصر وباب زويلة وضرب عليها الرنوك الذهب(١٣١) ، وذكر ابن تغرى بردى أن رنك الأمير سلاركان أبيض وأسود (١٣٢) ، كما أشار إلى رنك أقوش الأفرم وكان على هيئة دائرة بيضاء يشقها مشطب أخضر عليه سيف أحمر (١٣٣) ـ كما أشار صاحب تحفة ذوى الألباب بأن الناصر جعل رنكه أسود انتماء منه إلى الخليفة(١٣٤) . كذلك ذكر القلقشندى أن شعار سلطان اليمن كان وردة حمراء فى أرض بيضاء(١٣٥) . ويؤكد ألوان الرنك أيضاً التحف والآثار العربية التى ترد عليها الرنوك والتى تبدو بجلاء على الزجاج المموه بالميناء والفسيفساء والأوانى الخزفية . أما الفخار فلا يعتمد عليه ولا يوثق به لتأثير ألوانه بالحرارة مما يجعلها تختلط ببعضها البعض(١٣٦) . وبذلك يصبح من العسير تحديد مناطق الألوان أو بعبارة أخرى يفسد التصميم الأصلى للرنك . على أنه يمكننا حصر أهم ألوان الرنك عليه فى الأصفر والبنى والكريم والأخضر فضلا عن الألوان الذاتية أى أنه يصبح للرنك لون مادة التحفة .

واستعمال الرنوك قديم فقد عرفت عند المصريين القدماء وعند الحيثيين وعند الإسرائيليين والإغريق والرومان وغيرهم كما تشير بذلك الكتب الأدبية القديمة والدينية وكما نسمع عن أسد يهوذا ونسور القياصر(١٣٧) إلا أنه يبدو لنا أن معناها فى العصور القديمة يختلف عن

مدلولها فى العصور الوسطى لأنها فى البداية كانت مجرد رموز تتصل بالديانات والعقائد(١٣٨) .

ويبدو لنا أيضاً أن الشعارات أو الرنوك قد عرفت منذ بداية العصر الإسلامى متمثلة فى شارات الخلافة الثلاث الذى يعنينا منها السكة والطراز(١٣٩) كذلك يفهم مما ذكره ابن خلكان عند مبايعة المأمون لعلى بن موسى الرضا بولاية العهد أن شعار بنى العباسى هو السواد(١٤٠) كذلك من المعروف أن شعار الفواطم كان لباس الخضرة . إلا أن الرنوك قد عرفت بمعناها الوظائفى أو الرمزى فى العهد الأتابكى والأيوبى وشاعت فى عصر المماليك وصار لزاما على الصناع إثباتها على ما يصنعونه لصاحب الرنك من أدوات إذ صار الرنك تقليدا رسميا يحافظ عليه ويعتز به(١٤١) . ومن الراجح أنها استمرت حتى أيام العصر التركى يؤيد هذا ما ذكره ابن إياس فى حوادث سنة ٩٢٣/١٥١٧ أن رنك السلطان سليم بن عثمان صار مضروبا على غالب البيوت(١٤٢) . كذلك ما ذكره الجبرتى فى معرض حوادث سنة ١١٤٢ هجرية إذ قال : « فوقع الاتفاق على يوسف أغا السلمانى وعبد أغا كاشف الشرقية هذا وكان ضرب هلبا سويد قبل تاريخه واشتهر بالشجاعة فخلع عليهما فى يوم واحد وعملوا لهما رنك وسماه(١٤٣) » .

والواقع أنه لم تصلنا تحف أو آثار عربية من العصر التركى يزينها رنوك يؤيد ما ذكره الجبرتى ولعل مرجع هـذا هو تدهور الصناعات فى مصر مع بداية الغزو التركى نتيجة لنقل السلطان سليم الأول لأغلب الصناع إلى القسطنطينية .

وعلى حين بدت الرنوك فى الشرق شعارا للوظيفة(١٤٤) فى العصور الوسطى نجدها فى الغرب عند الأوربيون شعارا شخصياً للفرد وأسرته إذ عرف الغربيون الرنوك حيث رسمت فى بادىء الأمر على الدروع وذلك

لتميز الفرسان بعضهم عن بعض أثناء القتال . ويبدو أنها لم تظهر بجلاء إلا فى أيام الحرب الصليبية الثالثة عام ١١٨٩ م . وفى القرن (السابع الهجرى) الثالث عشر الميلادى نجدها قد خرجت عن هذا النطاق وأصبحت تطرز على السترة التى تلبس فوق الدروع(١٤٥) .

وتجلت رسوم هذه الدروع فى تصاوير ورسوم الكائنات الحية مثل رجل الجواد أو رأس أحد المغاربة أو ساق أو عدة سيقان أو العيون . كذلك وجدت رسوم الأسود حيث اختصت فقط بالدروع الملكية دون غيرها . وغالباً ما يمثل الأسد وقد شبا على صفحة مفضضة كما وجدت رسوم النمور والفهود وغيرها من الوحوش الخرافية مثل الجريفن والانيقورن . هذا عدا رسوم الطيور والحشرات والأسماك والزواحف .

وإلى جانب رسوم الكائنات الحية وجدت رسوم قد تكون فلكية مثل الشمس والقمر والنجوم أو الأسلحة الحربية والمراكب والقلاع كما مثلت رسوم الأوعية المنزلية والأدوات الخاصة بالكنيسة مثل المفتاح(١٤٦) وعصا رئيس الأساقفة هذا عدا رسوم الفاكهة والأزهار(١٤٧).

ولم تختلف الرنوك الغربية من حيث الرسوم والتصاوير التى تزينها فحسب بل اختلفت من حيث الألوان التى رسمت بها هذه العناصر أو التى طليت بها صفحة الدروع . ولعلها فى هذا تتفق مع الرنوك الشرقية . حيث نجد قد استعمل فيها ألوان الذهب والفضة واللون الأحمر والأزرق والأسود والقرمزى . وفى بعض الأحيان نجد العناصر قد رسمت بلونها الطبيعى(١٤٨) .

والحق أنه لا زال للرنوك عند الغربيين شأن عظيم ولها سجلات خاصة بها مثبت فيها شكل الرنك وتاريخه واسم الأسرة التى يخصها ويمكن للإنسان أن يحدد تاريخ الأسرة من رنكها فيتتبع رنك كل عائلة ويستخلص من ذلك تاريخ هذه العائلة .

وفى محاولة معرفة أى من الرنوك كانت بمثابة الأصل الذى نقلت عنه الأخرى هى الرنوك الغربية أم الشرقية نجد أن علماء الآثار قد اختلفوا بصدد الإجابة على هذا السؤال فمنهم من ذهب إلى القول بأن الرنوك لم تظهر فى الشرق إلا بعد الحروب الصليبية وأنها نتيجة للتأثر بالغرب ، فالأسد رنك السلطان بيبرس والمنقوش على نقوده يشبه إلى حد كبير الأسد الموجود على درع ريتشارد قلب الأسد بطل الحملة الصليبية الثالثة عام ١١٨٩ م . وهناك دليل آخر هو أن الكتاب درجوا على تسمية زهرة اللوتس أو الزنبق بالفرنسيسة(١٤٩) نسبة إلى فرنسا ذلك أنهم أعجبوا بها فى أول الأمر على العباءة القرمزية التى كان يرتديها الملك لويس التاسع ملك فرنسا أثناء فترة أسره بالمنصورة عام ١١٥٢(١٥٠) .

فى حين ذهب فريق آخر إلى محاولة إرجاع أصل الرنوك عند الغربيين إلى الشرق وقالوا بأنهم اقتبسوا فكرتها أيام اتصالهم بالسلاجقة والأتابكة والأيوبيين والمماليك زمن الحرب الصليبية بدليل وجود رنوك سلجوقية وأيوبية ومملوكية مشابهة لرنوكهم على بعض الآثار فى مصر وسوريا وفلسطين(١٥١) . على أن هذا الرأى يبدو معقولا مقبولا لاسيما إذا عرفنا أن رنك زهرة الزنبق أو اللوتس كما تسمى فى بعض الكتب عرفت فى الشرق منذ أقدم العصور كما إتخذها نور الدين محمود بن زنكى رنكا له على محراب مدرسته التى شيدها بدمشق بين عامى ٥٤٩ — ٥٦٩ / ١١٥٤ — ١١٧٣ أى قبل أن يشاهد الشرق عباءة لويس التاسع ملك فرنسا بنحو الى تسعون عاما. أما عن تسميتها بالفرنسيسة فليس بدليل قاطع على أنها وجدت لأول وهلة فى فرنسا ثم أخذها عنها الشرق. وإنما قد يكون ذلك راجع إلى كثرة ورودها على الرنوك الفرنسية إذ تحدثنا المراجع أن لويس التاسع قد منح هذا الرنك لأسرة شاتوبريان تكريما لخدمات جيوفرى شاتوبريان أثناء معركة المنصورة(١٥٢). أما عن ظهور رنك الأسد على درع ريتشارد بطل الحملة الصليبية الثالثة قبل

ظهوره على آثار السلطان الظاهر بيبرس بنحو خمسين عاما فليس بحجة أيضاً إذ من المعروف أن الأيوبيين قد اتخذوا من هذا الرنك شعاراً لهم قبل بيبرس ومن أمثلة ذلك حاكم أورفا حيث ظهر رنكه على باب حران(١٠٣) . وهناك أيضاً رنك النسر ذى الرأسين الذى ظهر للوهلة الأولى على آثار الحيثيين فى الأزمنة القديمة ثم أصبح فى أوائل القرن السادس الهجرى الثانى عشر الميلادى رنكا للسلاطين السلاجقة ثم اتخذه أباطرة الدولة الرومانية المقدسة شعارا لهم فى القرن الثامن الهجرى الرابع عشر الميلادى (١٠٤) . ويكفى أن نكرر هنا ما ذكره أحد الكتاب الأجانب من أن الفرسان كانوا يتخذون شعارا لهم مما تقع عليه أعينهم أثناء حروبهم الصليبية فى الشرق الغامض(١٠٥).

على أن الفرق بين الرنوك الغربية والرنوك الشرقية أن الرنوك الغربية تساعد على تأريخ التحف لأنها كانت وراثية . أما الرنوك الشرقية فلم تكن كذلك(١٠٦) ، وهى تنم فى الغالب عن الوظيفة التى يشغلها الشخص . وقد يتقلب الأمير فى عدة وظائف فى أوقات مختلفة فعندئذ يتضمن رنكه الرموز المختلفة التى تشير إلى وظائفه كما فى حالة قانباى الجركسى . وقد يشترك فى الرنك الواحد أشخاص عديدون لا يمت بعضهم إلى بعض بصلة أو قرابة . أما الغربيون فلكل أسرة شعار خاص بها يميزها عن غيرها ولا تشترك أسرتان فى رنك واحد ومن هنا كانت الرنوك الغربية أكبر معين على تاريخ التحف المرسومة عليها بعكس الرنوك الشرقية فليس من اليسير نسبة الرنوك المرسومة عليها إلى شخص بعينه(١٠٧) ما لم تكن مشتملة على كتابة صريحة تنص على ذلك وإن كان فى الإمكان أن ننسبها بصفة عامة إلى العصر المملوكى الذى شاع فيه استخدام الرنوك(١٠٨) . كما كانت الرنوك فى الغرب وسيلة للتعرف على الشخصيات وقت النزال وطريقة يهتدى بها الأتباع إلى السادة وقت القتال لاختفاء معالم الوجه تحت القناع وللاهتمام الشخصى الكبير الذى توجه إليها فى الغرب . دون الشرق لأن الابن كان يفخر بأن يقاتل بالأسلحة

التى قاتل بها والده ويعتز بأنه يحارب تحت الشعار الذى حارب تحته ومن أجله والده من قبل(١٥٩) . ومن ثم يتضح لنا الاهتمام الكبير والشخصى بالمحافظة عليها وعلى ألا يستعملها أشخاص غير أصحابها مما أدى إلى تسجيلها وسن القوانين لحمايتها .

كذلك أختلف المشتغلون بالآثار بصدد عما إذا كانت الرنوك فى الشرق وراثية مثلها فى الغرب . فمنهم قال أنها غير وراثية(١٦٠) — ومنهم من قال أنها وراثية معتمدا فى ذلك على حمل بركة خان لشعار والده بيبرس وتوارث أبناء وأحفاد قلاوون لشعار ابنه محمد(١٦١) ،

بيد أننا لانستطيع الجزم بأن الرنوك كانت متوارثة وذلك لقلة المعلومات عن أبناء المماليك خاصة وأنهم لم يسمحوا لهم بالانخراط فى سلكهم ولم يقبلوا ضمهم إلى زمرتهم للاختلاف بين النشأتين(١٦٢) — فالأمراء أصلهم أرقاء وأبناؤهم ليسوا كذلك . كما أن المماليك لم يكن عندهم نظام وراثة العرش وأن كان قد وجد في تولية بركة خان بعد والده بيبرس وفى أسرة قلاوون فأنها حالة شاذة ولم تكن القاعدة المتبعة فى دولة المماليك(١٦٣) .

لذلك يمكن القول بأن الرنوك لم تكن متوارثة اللهم إلا فى الأبناء الذين ينشأون نشأة حربية ويقتفون آثار آبائهم ومن أمثلة ذلك أحمد بن بكتمر ومحمد بن كتبغا وحسين بن قوصون الذين ورثوا رنك الكأس عن آبائهم رغم أنهم لم يعملوا كسقاة(١٦٤)، وذلك عند تأميرهم . أما باقى الأبناء وهم الغالبيه العظمى فكانوا يوجهون وجهة غير حربية ويعدون للوظائف الدينية والدنيوية وبذلك يحرمون حمل رنوك آبائهم وتوارثها . ولكن هل كان للنساء حق حمل الرنوك وتقلدها شأنهن فى هذا شأن الرجال ؟

من المعروف أن النساء لم يكن لهن الحق فى الوظائف الدينية فى المجتمع المملوكى بصفة عامة والعسكرية بصفة خاصة(١٦٥) ومن ثم لم يكن لهن الحق

فى تقلد الرنوك وحملها . إلا أنه بالرغم من هذا فقد وجدت بعض التحف والآثار العربية يزينها رنوك تصاحبها أسماء سيدات أربعة بسيطة وثلاثة مركبة رأى فيها كل من ماير ورايس(١٦٦) أنها لم تكن خاصة بهن بل رجحا أنها ربما كانت مختصة بآبائهن وأزواجهن الذين كانوا يشغلون تلك المناصب السلطانية التى تشير إليها تلك الرنوك المصاحبة لها . وفى هذا الرأى ما يشير إلى أن الرنوك كانت وراثية. نضيف إلى هذا أنه وجد من الرنوك ما كان يعجب الناس إذا حسنت سيرة صاحبه فيهم فينقشونه على ثيابهم وأوانيهم وربما جعلوه بالوشم على معاصمهم(١٦٧) ويشير إلى ذلك ابن تغرى بردى فيقول عند حديثه عن رنك أقوش الافرم : « وكان فى غاية الظرف حتى أن النساء الخواطىء كن ينقشه على معاصمهم(١٦٨)» الأمر الذى يجعلنا نرجح بأن هذه الرنوك المصاحبة لأسماء سيدات الواردة على التحف والاثار العربية قد تكون نتيجة لأعجابهن بصاحب هذا الرنك أو بسيرته فعمدن إلى نقش رنكه على متعلقاتهن إعجاباً بسيرته أو تخليداً لذكراه .

بقى أن نشير أى هذه الرنوك أقدم من الآخر ؟

الواقع أننا إذا كنا قد استطعنا أن ننسب أغلب هذه الرنوك إلى العصرين الأيوبى والمملوكى بفترتيه فإننا ما زلنا بحاجة إلى تضيق مجال هذا التاريخ الواسع إذ فى تحديده تحديد لصناعة بعض تحف العصر المملوكى كما يشير هرتز الذى كتب عام ١٩٠٦ بأنه لو أمكن ترتيب الرنوك الواردة على الفخار المطلى ترتيباً تاريخياً لأمكن إتخاذ خطوة جادة فى سبيل تاريخ الفخار الإسلامى عامة(١٦٩).

والآن وقد تحققت أمنية هرتز بأكثر من وسيلة : الأولى عن طريق الدراسة الجادة التى قام بها ماير وقدمها لنا فى كتابه عن الرنوك عام ١٩٣٣ . والثانية عن طريق الحفائر العلمية المنظمة التى قامت بها جامعة الاسكندرية

فى تل كوم الدكة حيث عثر به على الكثير من كسرات الفخار ذى الرنوك(١٧٠) ومن ثم فيمكننا أن نرتب هذه الرنوك حسب تاريخ ظهورها على الوجه التالى :

١ – زهرة الزنبق أو اللوتس التى اتخذها نور الدين محمود بن زنكى شعاراً له فيما بين ٥٤٩ – ٥٦٩ / ١١٥٤ – ١١٧٣(١٧١) .

٢ – الأسد اتخذه شهاب الدين غازى بن الملك العادل أبى بكر حاكم أورفا رنكا له فيما بين ٦٠٨ – ٦١٧/١٢١١ – ١٢٢١(١٧٢) .

٣ – القوس اتخذه علاء الدين أيدكين البندقدارى المتوفى سنة ٦٥٩/ ١٢٦١(١٧٣) .

٤ – الوردة ذات الست فصوص اتخذها كافور الرومى المتوفى سنة ٦٨٤/١٢٨٥(١٧٤) .

٥ – النسر اتخذه بدر الدين بيسرى المتوفى سنة ٦٩٧ / ١٢٩٧(١٧٥) أحد مماليك الصالح أيوب .

٦ – البريدى أو الشطف اتخذه علاء الدين البريدى وبكتمر الحسامى المتوفى سنة ٧٢٤/١٣٢٤(١٧٦) .

٧ – البغل أو البريدى اتخذه على بن بكتمر المتوفى سنة ٧٢٩/ ١٣٢٩(١٧٧) .

٨ – الكأس اتخذه طرجى المتوفى سنة ٧٣١ / ١٣٣١(١٧٨) أحد سقاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون .

٩ – السيف اتخذه قجليس الناصرى المتوفى سنة ٧٣١/١٣٣٠(١٧٩) .

١٠ ـ الهدف اتخــذه الماس المتوفى سنة ٧٣٤ / ١٢٣٣(١٨٠)، أحد أمراء السلطان الناصر محمد بن قلاوون .

١١ ـ الحــدوة اتخذها على بن هلال الدولة المتوفى سنة ٧٣٩ / ١٣٣٨(١٨١) .

١٢ ـ البقجة اتخذها اقبغا من عبد الواحد الناصرى الذى قتل سنة ٧٤٤ / ١٣٤٣(١٨٢) .

١٣ ـ البولو اتخذه آل ملك الجوكندار الناصرى المتوفى سنة ٧٤٤ / ١٢٤٦(١٨)٣ .

١٤ ـ المقلمة اتخذها قطلوبغا الدوادار المتــوفى سنة ٧٧٨ / ١٣٧٦(١٨٤) .

المراجـــع

(١) المقريزى ، كتاب السلوك فى معرفة دول الملوك ، القاهرة ١٩٣٦ — ١٩٧٠ ، ج ١ ص ٦٧٢ ؛ على إبراهيم ، دراسات فى تاريخ المماليك البحرية ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ١٩٦ ؛ حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، القاهرة ١٩٦٦ — ١٩٧٠ ، ج ١ ، ص ١٧٠ .

(٢) Y. Artin Contribution à l' étude du blason en Orient, Londones 1902, pp. 11 - 12.

(٣) إبراهيم طرخان ، مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٣٢٨ .

(٤) كلمة فارسية معربة تعنى نوع من السجاد السميك انظر :

Dozy. Supplèment aux dictionnaires arabes, Leiden 1881, I, p. 110,

(٥) القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الانشاء ، القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٧ ، ج ٤ ، ص ٦٢ .

(٦) محمد مصطفى ، الرنوك المملوكية ، مجلة الرسالة (مارس ١٩٤٠) ، ص ٢٦٩ .

(٧) جمال محرز ، الرنوك المملوكية ، مجلة المقتطف (مايو ١٩٤١) ، ص ٤٦٤ .

(٨) وردت هذه الوظيفة بكثرة على الآثار العربية وهى تتألف من كلمتين دواه العربية وهى ما يكتب منه ودار الفارسية بمعنى ممسك ... والمعنى الكلى ممسك الدواه أو الموكل بالدواه ويقصد بذلك الموكل بدواة السلطان أو الأمير . وقد عرفت هذه الوظيفة فى عصر العباسيين وأطلق على صاحبها فى عصر الغزنويين والسلاجقة اسم الدواتدار . وظل موجود أيضاً فى دولة خوارزمشاه وانتقلت عن طريق السلاجقة والأتابكة والأيوبيين إلى دولة المماليك حيث عرف صاحبها باسم دوادار ، وكانت من الوظائف التى يشغلها عسكريون ، وكان الدوادار يختار من بين الخاصكية ثم أخذت رتبة الدوادار تزداد تدريجياً حتى صار من أمراء المئين ثم من أكابر أمراء المئين . كذلك لم يكن للسلطان دوادار واحد فقط بل ربما بلغ عدد الدوادارية عشرة من الأمراء والجند . انظر حسن الباشا ، الفنون الاسلامية والوظائف ، ج٢ ، ص ٥١٩ — ٥٢١ .

(٩) أبو الفداء ، المختصر فى أخبار البشر ، القاهرة ١٣١٥ هـ ، ج ٣ ، ص ١٤٩ مع ملاحظة أن المقصود بالدواه المقلمة .

(١٠) الطشتدار . اسم وظيفة يتألف من لفظة طشت المحرفة عن طست العربية ومن لفظة دار الفارسية بمعنى ممسك . والمعنى ممسك الطست أو الموكل بالطست . وكان الطشتدار هو الذى يتولى صب الماء على يد مخدومه . انظر القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٠ — ١١ ؛ ج ٥ ، ص ٤٦٩ . ولقد عرفت هذه الوظيفة فى الدولة العباسية وفى الدول التى تفرعت منها الدولة الغزنوية حيث انتقلت منها إلى دول السلاجقة . كما عرفت فى العصر الأيوبى وانتقلت منه إلى دولة المماليك حيث كان الطشتدار يعتبر من أرباب الخدم والوظائف الصغرى . غير أنه من المعروف أن الطشتدار قد يرقى ويشغل مناصب أعلى وقد يؤمر أيضاً وربما ظل محتفظاً بلقب الطشتدار ، انظر حسن الباشا ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧٤١ — ٧٤٣ .

(١١) أشار الدكتور حسن الباشا إلى أن أبو الفداء ذكر فى تاريخه أن الطشتدار كان إذا أمر اتخذ رنكا على هيئة أبريق انظر الفنون الاسلامية والوظائف ، ج ٢ ، ص ٧٤٢ وذلك نقلا عن :

Mayer, Saracenic Heraldry, Oxford, 1933, pp. 4 – 5,

فى حين أن أبو الفداء ذكر أن رنك الطشتدار المسنية . انظر المختصر ، ج ٣ ، ص ١٤٩ . والمسنية هى الطشت المعدنى أو الصينية حسبما جاء فى دوزى انظر :

Dozy, Supp. Dict. Ar., II, p 593.

ومن المعروف أن الأبريق ظهر كرنك فى كتابة أثرية خاصة بالمؤرخ العينى وان كان لم يعرف أنه شغل فعلا وظيفة طشتدار ، انظر حسن الباشا ، المصدر السابق ج ٢ ، ص ٧٤٢ .

(١٢) وهى من الوظائف التى ظهرت بكثرة على الآثار العربية وهى اسم وظيفة اشتهرت فى الدول الإسلامية ذات الطابع التركى وتتألف من لفظين هما سلاح العربى ودار الفارسى ومعناه ممسك السلاح . وهو يطلق على كل من كان يحمل سلاح السلطان أو الأمير ويتولى أمر السلاح خاناه وما هو من توابع ذلك ، انظر القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٦٢ ؛ المقريزى ، السلوك ، ج ١ ص ٦٥ . وكان السلاحدارية يختارون من المماليك السلطانية ويقومون بحراسة السلطان . حسن الباشا ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٩٧ .

(١٣) ذكر أبو الفداء فى المختصر ، ج ٣ ، ص ١٤٩ أن شعار السلحدار القوس غير أنه من المرجح أنه كان يعنى بذلك السلاح بصفة عامة لأن القوس كان رنكا لموظف آخر كما سنرى فيما بعد إذ أن دراسة الرنوك على الآثار والتحف ومقارنتها بما ورد بشأنها فى المؤلفات التاريخية والأدبية تشير إلى أن رنك السلحدار كان على هيئة سيف ، انظر حسن الباشا ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٩٧ .

(١٤) البندقدار اسم وظيفة يتألف من لفظين بندق ودار . وبندق لفظ فارسى معرب بمعنى البندق الذى يرمى به وهو منقول عن البندق الذى يؤكل وهو الجلوز أما دار فكلمة فارسية بمعنى ممسك والمعنى الاجمالى للبندقدار إذا هو ممسك البندق ويطلق على الموظف المكلف

يحمل غرارة البندق خلف السلطان أو الأمير . انظر القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٢ ، ص ١٣٧ ؛ جـ ٥ ، ص ٤٥٩ . وربما عرفت هـذه الوظيفة فى الدولة التركمانية قبل أن تعرف عنـد الأيوبيين والمماليك كما يتضح من تركيب اسمها ، انظر حسن الباشا ، الفنون الاسلامية والوظائف ، جـ ١ ، ص ٣١٩ .

(١٥) وردت هـذه الوظيفة مصحوبة برنك القوس على رقبة مشكاة من مصر ترجع إلى سنة ٦٤٥ هـ محفوظة بمتحف التروبوليتان وكان الرنك على هيئة قوسين ذهبيين متقاطعين انظر :

Y. Artin, Cuatre Lampes, BIE, 1907, pl. I.

(١٦) وهو اسم مركب من لفظة أمـير العربيـة ولفظة آخور الفارسية ومعناها العلف . وكان هذا الاسم يطلق على القائم على أمر الدواب من الخيل وبغال وابل وغيرها فى الاصطبلات السلطانية فى الدول التركية مثل دولة خوارزمشاه والسـلاجقة والمماليك ، انظر القلقشـندى ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٤٦١ ، ويتضح من التركيب اللغوى لاسم هـذه الوظيفة أنه انتقل الى الأيوبيين عن طريق الأتابكة والسلاجقة ومنهم انتقل الى دولة المماليك حيث صار ترتيبها الوظيفة السادسة بين الوظائف العسكرية الكبرى بقصر السلطان المملوكى وصارت تسند عادة إلى أمير مائة مقـدم ألف . انظر القلقشندى ، المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ١٩ — ٢٣ .

(١٧) ذكر أبو الفداء فى كتابه المختصر ، جـ ٣ ، ص ١٤٩ أن شعار هذه الأمير النعل ولعل المقصود به الحدوة ومن المعروف أن رنك هذا الأمير كان بهذه الهيئة فى عهد خوارزمشاه محمد بن تكش ومن المحتمل أنه ظل بهذه الهيئة فى عهد السلاجقة والأتابكة والأيوبيين والمماليك ، انظر ، حسن الباشا ، الفنون الاسلامية والوظائف ، جـ ١ ، ص ١٧٧ .

(١٨) هذا الاسم مؤلف من لفظتين : أحدهما من اللغة التركية جاما أو جامة ومعناها الثوب والثانية دار الفارسية بمعنى ممسك ، فيكون المعنى الاجمالى هو ممسك الثوب أو الوصيف الذى يلازم السلطان أو الأمير لالباسه ثيابه . انظر القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٤٥٩ . وقد عرفت هـذه الوظيفة فى دولة الغزنويين ثم انتقلت إلى الدول التالية كالسلاجقة والأتابكة والأيوبيين والمماليك ، انظر حسن الباشا ، المصـدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٥٩ .

(١٩) أبو الفـداء ، المختصر ، جـ ٣ ، ص ١٤٩ . فى حين ذكر البعض أن البقجة كانت شعار الاستادار وفى هذا ما ينافى كلام أبو الفداء وما ورد على التحف والآثار العربية . انظر حسن البـاشا ، المصدر السابق جـ ١ ، ص ١٧١ — ١٧٢ ؛ جـ ٣ ، ص ١٣٥٩ .

(٢٠) هو أحد أربعة من جنود الحلقة يسيرون أمام السلطان فى موكبه للنداء لتنبيه المارة انظر المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٨٧٠

(٢١) أبو الفداء ، المختصر ، جـ ٣ ، ص ١٤٩ . والحق أننا لم نصادف هذه الوظيفة ولا هذه العلامة على أى من التحف والآثار العربية .

(٢٢) وهو لقب يطلق على الذى يتولى مد السماط وتقطيع اللحم وسقى المشروب بعد رفع السماط ونحو ذلك وكأنه وضع فى الأول لسقى المشروب فقط ثم استحدث له هذه الأمور الأخرى تبعاً . ويجوز أن يكون لقب بذلك لأن سقى المشروب آخر عمله الذى يختم به وظيفته . انظر القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٤٥٤ . وقد عرفت هذه الوظيفة منذ عهد السلاجقة والأتابكة حيث استمرت الى دولة المماليك وكان السقاة يختارون من بين الخاصكية ، انظر حسن الباشا ، الفنون الاسلامية والوظائف ، جـ ٢ ، ص ٥٧٧ ، ٥٧٨ . هذا وقد وردت هذه الوظيفة على كسرة من الفخار المطلى باسم « السيفى طشتمر الساقى الملكى » محفوظة بمتحف فيكتوريا والبرت بلندن . انظر حسن الباشا ، المصدر السابق جـ ٢ ، ص ٥٨٢ .

(٢٣) ثبت ذلك بدراسة الكتابات الأثرية الخاصة بسقاة وما صحبها على التحف والآثار من الرنوك وما ورد بشأن سير أصحابها فى الكتب والمؤلفات انظر :

-Mayer, Saracenic, pp. 5, 10.

ومن الملاحظ أن رنك الكأس من أكثر الشعارات ظهوراً على الآثار والتحف العربية سواء أكان مشتملا على مجرد كأس فقط أو مركباً من كأس ورموز أخرى وربما يرجع ذلك إلى أن الصناع كانوا يهتمون باثبات رنك الكأس على ما يصنع لأصحابه من أدوات وما يبنى لهم من عمائر انظر .. أبو الفرج العش ، الفخار غير المطلى ، بمجلة الحوليات السورية المجلد العاشر ، ص ١٨٠ . وربما يرجع أيضاً الى كثرة عدد السقاة من الخاصكية كثرة تفوق غيرهم من ذوى الوظائف الأخرى انظر . زكى حسن ، فنون الإسلام ، القاهرة ١٩٤٠ ، ص ٣٢٦ ؛ Mayer, Saracenic, p. 10.

(٢٤) وهو يتألف من لفظين فارسيين : الأول جوكان بمعنى العصى المنحنية أو المحجن الذى تضرب به الكرة أو عصا البولو ويعبر عنه أيضاً بالصولجان . والثانى دار : من المصدر داشتن بمعنى ممسك وبذلك يكون المعنى الكلى ممسك الجوكان . انظر القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٤٥٨ . وكان يطلق اسم الجوكندار على موظف مهمته حمل الجوكان للسلطان أثناء لعبته الكرة والصوالجة أو البولو فى عصر المماليك وليس من شك فى أن هذه الوظيفة قد عرفت قبل عصر المماليك . انظر حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف ، جـ ١ ، ص ٣٧٤ .. عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ١٤٣ .

(٢٥) Mayer, Saracenic, p. 5,

(٢٦) وهو الذى يتصدى لذوقان المأكول والمشروب قبل السلطان أو الأمير خوفاً من أن يدس عليه فيه سم ونحوه وهو مركب من لفظين فارسيين : أحدهما جاشنيا أو جاشنى

ومعناه الذوق والثانى كير ومعناه المتعاطى . لذلك فان المعنى الاجمالى يكون هو الذى يذوق وربما حرفه العامة إلى شيشنى ° انظر القلقشندى ، المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٤٦٠ وقد عرفت هذه الوظيفة فى أغلب الظن عند الغزنوية والسلاجقة والأتابكة والأيوبيين . غير أنها حظيت فى عصر المماليك بدرجة عالية من الترتيب والتنظيم إذ كانت الوظيفة الحادية عشرة ضمن الوظائف الخمس والعشرين الرئيسية بالحضرة السلطانية التى كان يشغلها عسكريون انظر ، القلقشندى ، المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ١٤ .

(٢٧) ذكر ابن تغرى بردى فى كتابه النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ ٧ ، ص ٤ أن الملك الصالح نجم الدين أيوب أعطى أيبك جاشنكيره رنكا على هيئة خونجا كذلك أشار فى كتابه المنهل الصافى ، جـ ١ ، ص ٣ إلى ذلك بطريقة أوضح حين قال « ولذلك رنكه صورة خونجا »

(٢٨) لفظة مركبة من علم العربى بمعنى راية ومن دار الفارسية بمعنى ممسك . فيكون المعنى الاجمالى ممسك العلم وكانت تطلق على من يحمل العلم مع السلطان فى المواكب . انظر القلقشندى ، المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٤٦٣ ؛ ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر ، ص ٣٤٦ . وقد عرفت هذه الوظيفة فى الدول التركية التى تفرعت من الخلافة العباسية كما عرفت فى دولة المماليك ، حيث وضحت اختصاصاتها . انظر . حسن الباشا ، المصدر السابق جـ ٢ ، ص ٧٩٠ .

(٢٩) من المرجح أن رنك العلمدار كان على هيئة علمين ولو أن هذا الرنك لم يرد على الآثار والتحف الاسلامية مصحوباً بكتابات أثرية تؤكد أنه شعار العلمدار انظر :

Mayer, Saracenic, p 5.

(٣٠) إسم وظيفة تتألف من طبل العربية وداز الفارسية بمعنى ممسك والمعنى الاجمالى ممسك الطبل . هذا ولم تصادفنا كتابة تشير إلى هذه الوظيفة على التحف والآثار العربية .

(٣١) Mayer, Saracenic, p. 5,

(٣٢) وهو اسم يتألف من لفظين : بشمق أو بصمق بالتركية بمعنى نعل ودار بالفارسية بمعنى ممسك أى أن المعنى الاجمالى ممسك النعل وكان يطلق على من يقوم بحمل نعل السلطان أو الأمير عند خلعه للصلاة وغير ذلك . انظر . القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٤٥٩ ؛ ضوء الصبح ، ص ٣٤٤ ؛ المقريزى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بولاق ١٨٥٤ ، جـ ١ ، ص ٤٠٢ . وكان يشغل هذه الوظيفة فى عصر المماليك بعض الخاصكية . ولم يكن رجال الدين والفقهاء يقرون هذه الوظيفة وكانوا يعتبرونها من أقبح البدع لما كانت تدل عليه

فى نظرهم من رعونة وحمق واستعلاء . انظر حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف ، جـ ١ ، ص ٣٠٤ .

(٣٣) Mayer, Saracenic, p. 5 ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٠٢ ؛ حسن الباشا ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٠٤ على حين ذهب أبو الفداء إلى القول بأن النعل علامة أميراخور . انظر المختصر ، جـ ٣ ، ص ١٤٩ .

(٣٤) اسم وظيفة مركب من لفظتين : الأولى جمق التركية بمعنى الدبوس ، والثانية دار الفارسية بمعنى ممسك . والمعنى الكلى حامل الدبوس وكان يشغل هذه الوظيفة فى الدولة المملوكية أحد العسكريين وهى وظيفة استعراضية مهمة صاحبها أن يقف فى أيام مواكب الحلقة إلى جانب السلطان من الجهة اليمنى رافعاً بيده ببعض تمايل بدبوس كبير الرأس مموه بالذهب ويظل شاخصاً إلى بصر الملك ولا يشخص لغيره إلى أن ينفض الموكب . انظر حسن الباشا ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٦٠ . وكان يشترط فيمن يشغل هذه الوظيفة أن يكون حسن الشكل عظيم الهيئة مهابا . انظر المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٧٦٦ . هذا وقد عثر على كتابة أثرية تشير إلى هذه الوظيفة على كسرة من الفخار المطلى فى مجموعة غالب (بك) بالقاهرة . انظر :

Mayer, A. New Heraldic Emblem of the Mamlûks, Ars Islamica, IV. (1937). p 350.

(٣٥) Mayer. New Heraldic, p. 346 .

(٣٦) البريدى نسبة إلى البريد وهو رسول البريد أو ناقله . الجميع بريدية . وكان البريدية فى عصر المماليك يختارون من المماليك السلطانية ، انظر خليل الظاهرى ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، باريس ١٨٩٤ ، ص ١١٦ .

(٣٧) ورد هذا الرنك مصحوباً بكتابة أثرية باسم علاء الدين البريدى ، على سبيل البريدى بالقرب من جامع البريدى بدمشق . انظر :

Mayer, Saracenic, p. 52, pl. XLIV, fig. 3.

(٣٨) اسم وظيفة مركب من لفظتين فارسيتين هما طبر بمعنى الفأس ودار بمعنى ممسك أى أن المعنى الإجمالى ممسك الفأس . وهى من الوظائف التى عرفت فى دولة المماليك . وكان الطبردار مهمته أن يجعل الطبر أو الفأس حول السلطان عند ركوبه فى المواكب لحراسته . انظر القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٤٥٨ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص٤٢٧ . وكان الطبردارية يختارون من بين المماليك السلطانية . انظر خليل الظاهرى ، زبدة كشف الممالك ، ص ١١٦ .

(٣٩) يوجد رسم يمثل الفأس على أحد الرنوك ، انظر :

Mayer, Saracenic, p. fig. 17 .

(٤٠) لمعرفة أنواع السيوف الإسلامية . انظر عبد الرحمن زكى ، السيف فى العالم الإسلامى ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ١٢٢ — ١٥٨ .

(٤١) ذكر أبو الفداء فى كتابه المختصر ، جـ ٤ ، ص ٨٧ انه كان هناك سلحدار بسيفين معلقين على كتفه كما ورد هذا الرنك على قاعدة شمعدان بمجموعة هرارى بلنـدن باسم طغيدمر السلحدار الملكى الناصرى . انظر :

Ma er, Saracenic, pp 231-232, pl. XXXVI.

(٤٢) أبو الفرج العش : الفخار غير المطلى ، ص ١٨٠ .

(٤٣) Mayer, Saracenic, pl. X, fig, 5 .

(٤٤) Mayər, Saracenic, pl. X, fig. 2 .

(٤٥) حسن الباشا ، الفنون الإسلاميـة والوظائف ، جـ ١ ، ص ٣١٩ ؛ K. Otto-Dorn, L'Art de l'Islam, Paris 1967, p 161.; D et J. Sourdel, La Civilisation de l'Islam Classique, Paris 1968, fig. 211.

(٤٦) كان كاترمير أول من فسر هذا الرنك ، انظر :

M. Quatremère, Histoire des Sultans Mamlouks de l Egypte, Paris 1844-1845, I, p. 204 .

(٤٧) Mayer, Saracenic, pl. XI, figs. 9, 10 .

(٤٨) Mayer, Saracenic, pl. VI ؛ زكى حسن ، أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ١٦٩ ، شكل ٥١٧ ؛ معرض الفن الإسلامى فى مصر ، أبريل ١٩٦٩ ، شكل ٥١٢ .

(٤٩) D. L. Rice, L' Art de l' Islam, Paris 1966, fig. 135; معرض الفن الإسلامى ، شكل ١٤

(٥٠) أبو الفرج العش ، الفخار غير المطلى ، ص ١٧٦ .

(٥١) Mayer, Saracenic, p. 10. ؛ زكى حسن ، فنون الإسـلام ، ص ٣٢٦ .

(٥٢) Mayer, Saracenic, p. 40

(٥٣) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٤٤ ، ابن إياس ، صفحات لم تنشر ، ص ٢٩ .

(٥٤) أبو الفرج العش ، الفخار غير المطلى ، ص ١٨٢ ؛ زكى حسن ، أطلس الفنون الزخرفية ، ص ٦٥ شكل ٢٠٠ ، ص ١٧٢ ، شكل ٥٢٥ .

(٥٥) رقم السجل ٣٧٠٩ .

(٥٦) Mayer, Saracenic, p. 15, pl. LII, fig. 2.

(٥٧) F. R. Martin, Altere Kupferarbeiten aus dem Orient, Stockholm 1902, pl. II et III.

(٥٨) Y. Artin, Contribution, p. 180, fig. 309.

(٥٩) Mayer, Saracenic, pl. XXXVIII.

(٦٠) رحلة ابن بطوطة ، باريس ١٩٦٨ ، جـ ٤ ، ص ٦٩ .

(٦١) ومن أمثلة ذلك رنك السيفى قانيباى الجركسى أميراخور الملكى الظاهرى وهو يتألف من ثلاث مناطق أفقية فى العليا رسم سيف والوسطى دواة والسفلى كأس بين قرنى بارود انظر :

Mayer, Saracenic. pp. 167, 177.

(٦٢) Mayer, Saracenic, pl. X, fig 6. et 7.

(٦٣) Mayer, Saracenic, pl. X, fig. 13, et. 14

(٦٤) حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف ، جـ ١ ، ص ٥٠٣ .

(٦٥) Dozy, Supp. Dict. Ar., I, p. 432.

(٦٦) Mayer, Saracenic, pl. XII, fig. 1 et 2.

(٦٧) Mayer, A. New Heraldic, p. 350.

(٦٨) Mayer, Une Enigme du Blason Musulman, BIE, XXI, (1939), pp. 141–142.

(٦٩) محرز ، الرنوك المملوكية ، ص ٤٦٥ .

(٧٠) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ١٧٢ ؛ أبى الفضائل ، النهج السديد ، ص ٨٤ ، ٨٥ .

(٧١) محمد مصطفى ، الوحدة فى الفن الإسلامى ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٤٠ ، شكل ٢١ .

(٧٢) Mayer, Saracenic, pp. 5, 17, pl. XLIV.

(٧٣) Quatremère, Sultans, II, p. 87 ؛ حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف ، جـ ١ ، ص ٢٩٨ .

(٧٤) Mayer, Saracenic, p. 19.

(٧٥) ابن حجر ، رفع الأصر عن قضاة مصر ، القاهرة ١٩٥٧ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٨ ، ص ١٠١ .

(٧٦) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ، ص ٧٢٩ . حيث ذكر أن هذه الشكمية بلغت فى بعض الأحيان خمسة قناطير من العاج .

(٧٧) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٤٩ .

(٧٨) Mayer, Saracenic, p. 69.

(٧٩) Mayer, Saracenic, p. 192, pl. XLII, fig. 6.

(٨٠) Mayer, Saracenic, pp. 240—241.

(٨١) اختلفت الآراء بصدد نوع هذه الزهرة هل هي لوتس أم زنبق . فمن العلماء من أطلق عليها اسم لوتس مثل زكى حسن ، فنون الإسلام ، ص ١٣٦ ؛ حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف ، جـ ٣ ، ص ١٠٤٤ . ومنهم من أطلق عليها اسم الزنبق مثل أحمد تيمور ، التصوير عند العرب ، القاهرة ١٩٤٢ ، ص ٣٣ ؛ أبو الفرج العش ، الفخار غير المطلى ، ص ١٧٧ .

والحق أنه يبدو لنا أن هـــذه الزهرة ما هى إلا اللوتس المصرية القديمة التى تعرضت خلال عصر الأسرة الثامنة عشر من عصر الدولة الحديثة لشيء من التحوير والتجريد أكسبها شكلها الحالى وجعلها أقرب إلى الزنبق منها إلى اللوتس ومن ثم حدث هذا الخلط كما سبق ذكره . انظر أحمد يوسف ، الزخرفة المصرية القديمة ، القاهرة ١٩٣٣ ، ص ١٦٢ .

(٨٢) عن هذه اللعبة انظر :

Quatremère, Sultans; I, p. 242;

J. T. Reinaud, De L' Art Militaire chez les Arabes au Moyen - Age, JA, XII, (1848), pp. 219—221; A. Boudot - Lamotte, Contribution à 1' Etude de 1' Archerie Musulmane, Damas 1968, p. 29.

(٨٣) المقريزي ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ١١١ ؛ السلوك ، جـ ١ ، ص٨١٥ .

(٨٤) Ahmad Abd ar - Râziq, Notes on islamic graffito ware of the Neaı East, Annales Islamologiques, IX (1970), pl. XX/A, XXI/2.

(٨٥) جـــورج فيرجسون ، الرموز المسيحية ودلالتها ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٧١ .

(٨٦) محـمد مصطفى ، شرف الأبوانى سـنة ١٩٤٠ ، ص ١٦٠ ، مؤتمر الآثار العربية ؛

Ahmad Abd ar—Râziq, Documents sur la poterie d'époque mamlouke, Sharaf al — Abwânî, Annales Islamologiques, VII (1967), p. 27.

(٨٧) Mayer, Saracenic, pl. V.

(٨٨) Mayer, Saracenic, pl. XI, fig. 6.

(٨٩) Rowe, The Palestine expedition, report of the 1928 season in Muesum journal (1929), p. 55.

(٩٠) Mayer, Saracenic, p. 22.

(٩١) زكى حسن ، فنون الإسلام ، ص ٣٢٦ .

(٩٢) السنجق جمع سناجق وهى رايات صفر تربط بطرف الرماح ويحملها السنجقدار انظر . القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٨ ؛ جـ ٥ ص ٤٥٦ .

(٩٣) القلقشندى ، المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٣٤ .

(٩٤) Mayer, Saracenic, p. 24.

(٩٥) Y. Artin, Contribution, p. 96.

(٩٦) استعملنا هنا لفظ السبع لأنه يعنى كل حيوان مفترس وأخصها الحيوانات الشبيهة بالأسد والفهد .

(٩٧) Mayer, Saracenic, p. I, fig. let 3 ؛ زكى حسن ، أطلس الفنون الزخرفية ، ص ٦٥ ، شكل ٢٠٠ .

(٩٨) أبو الفرج العش ، الفخار غير المطلى ، ص ١٧٨ .

(٩٩) ابن إياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، بولاق ١٣١٢ هـ ، جـ ٢ ، ص ١٢٧ .

(١٠٠) زكى حسن ، أطلس الفنون الزخرفية ، ص ٦٤ ، شكل ١٩٧ .

(١٠١) Y. Artin, Contribution, p. 93.

(١٠٢) Goodyear; The grammar of the Lotus, p. 21, fig. 9.

(١٠٣) أحمد بدوى ، هردوت يتحدث عن مصر ، ص ١٢٦ .

(١٠٤) Lane-Poole, The art ot the Saracens in Egypt, London 1886, p. 270; Artin, Contribution, p. 96; Gayet, L' Art Arabe, Paris 1894, p, 281.

(١٠٥) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ١١٠ .

(١٠٦) Mayer, Saracenic, pp. 7, 10

(١٠٧) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٤٢٥ .

(١٠٨) ذكر كريسول أن المقطع الأخير من الإسم برس معناه فهد فى اللغة التركية ، انظر :

Creswell, The works of sultan Baibars al - Bunduqdarî in Egypt, BIFAO, (XXVI), Le Caire 1926, pp. 141, 144, 147.

(١٠٩) القبيويزى، الســلوك، جـ ١ ، ص ٣٦٨ ؛ Lane — Poole, Saracens. p. 4.

(١١٠) جمال محرز ، الرنوك المملوكية ، ص ٤٦٦ ؛ Mayer, Saracenic, p. 10.

(١١١) Mayer A propos du blason sous les Mamlûks, Syria, (1939), p. 390.

(١١٢) وصلتنا حالة شاذة استعمل فيها الخرطوش لأحد الأمراء وهو أمير دولاتباى الذى يرجح أنه كان والى غزة ، انظر ، Mayer, Saracenic, p. 9. وربما يفسر اتخاذ هذا الأمير للدرع تشبهاً بالسلاطين لضعف السلطان فى عهده .

(١١٣) Mayer, Saracenic, p. 34.

(١١٤) Bourgoin, Précis de l'art arabe, Paris 1892, I, p 6, pl. XXXI.

ويلاحظ أن هــذا الخرطوش يتضمن سطران من الكتابة فقط والثالث الأسفل به زخارف عربية مورقة (أربيسك) .

(١١٥) Mayer, Saracenic, p. 31 ؛ ابراهيم طرخان ، مصر فى عصر المماليك الجراكسة ، ص ٣٢٩ ؛ محمد مصطفى ، الرنوك المملوكية ، ص ٢٧١ .

(١١٦) Mayer, Saracenic, pp. 31 – 32.

(١١٧) Mayer, Saracenic, p. 95. ؛ حسن الباشا ، الفنون والوظائف ، جـ ٢ ، ص ٥٥٠ .

(١١٨) محمد مصطفى ، الوحدة فى الفن الإسلامى ، ص ٣٦ ، شكل ٤١٧ .

(١١٩) حسن الباشا ، الفنون الإسلامية ، جـ ٢ ، ص ٥٣٢ .

(١٢٠) G. Weit, Lampes et bouteilles en verre émaillé, Le Caire 1929, p. 97, pl. LXXXIX.

(١٢١) Mayer, Saracenic, pp. 176 – 177.

(١٢٢) ابراهيم طرخان ، مصر فى عصر المماليك الجراكسة ، ص ٣٢٨ ؛ محمد مصطفى ، الرنوك المملوكية ، ص ٢٧٠ .

(١٢٣) Mayer, Saracenic, p. 33.

(١٢٤) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٤٠٤ ؛ المنهل الصافى ، جـ ١ ، ص ٣ .

(١٢٥) ذكر ماير أن رجال الدين كانوا يختارون رنوكهم ويرتبونها بطريقة تختلف تماماً عن رنوك طبقة المماليك الحكام انظر .

Mayer A Propos du blason sous les Mamlûks, p. 391.

(١٢٦) جمال محرز ، الرنوك المملوكية ، ص ٤٦٧ .

(١٢٧) أى كأس ، انظر .

Dozy, Supp. Dict. Ar., II, p. 765.

(١٢٨) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٦٢ .

(١٢٩) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ١٢٧ .

(١٣٠) Mayer, Saracenic, p. 7 ويناقض هذا ما ذكره كل من :

Van Berchem, Notes d'archéologie arabe, III, JA. (1904) p. 78, n. 2; Y. Artin, Contribution, pp. 43, 181, 227; Trois différentes armoiries de Kait Bay, BIE, (1888), p. 74.

(١٣١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ١٣٧ .

(١٣٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٩ ، ص ٨ ، ٩ .

(١٣٣) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ ١ ، ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .

(١٣٤) الصفدى ، تحفة ذوى الألباب ، مخطوط مصور — دار الكتب المصرية ٢١٠٢ تاريخ ، جـ ٢ ، ورقة ١٥٦ .

(١٣٥) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٣٤ .

(١٣٦) Mayer, Saracenic, p. 29.

(١٣٧) Fox – Davies & Arthur Charles, A Complete guide to heraldry, 2e éd. London 1925, pp. 1—12.

(١٣٨) من الأمثلة على ذلك أن شعار القبائل المصرية القديمة قبل توحيدها كان عبارة عن علم به رسم يرمز لمعبود القبيلة .

(١٣٩) ابن خلدون، المقدمة ،القاهرة ١٩٣١ ،ص٢١و٢٤٢و٢٦١ ؛ جرجي زيدان، التمدن الإسلامى ، القاهرة ١٩٠٢ ، ص ٨٧ .

(١٤٠) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص ٩ .

(١٤١) أبو الفرج العش ، الفخار الغير مطلى ، ص ١٧٦ .

(١٤٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ١٠٥ .

(١٤٣) الجبرتى ، عجائب الآثار ، جـ ١ ، ص ١٠٠ .

(١٤٤) وجدت رنوك شخصية فى الشرق مثـــل رنك بيبرس ورنك نور الدين محمود ابن زنــكى ورنك جمال الدين أقوش وغيرها من الرنوك التى لا تشير إلى الوظائف .

(١٤٥) جون هامرتن ، تاريخ العالم ، المجلد الخامس ، ص ٣٨٨ .

(١٤٦) فى مجموعة بودرى بالقاهرة إناء من النحاس باسم ارقطاى نائب المملـكة الصفدية عليه رنك على هيـــئة المفتاح . وأرقطاى يعرف بحاجى أرقطاى وكان فى أصله مملوك الأشرف خليل بن قلاوون وقد ولى نيابة صفد فى سنة ٧١٨ / ١٣١٨ . انظر حسن الباشا ، الفنون والوظائف جـ ٣ ، ص ١٢٦٥ .

(١٤٧) جون هامرتن ، المصدر السابق ، ص ٣٩٢ — ٣٩٣ .

(١٤٨) هو هامرتن ، تاريخ العالم ، ص ٣٩٢ .

(١٤٩) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٦٢ .

(١٥٠) حسين راشـــد ، الرنوك فى مصر ، مجلة السياحة ، ديسمبر ١٩٥٨ ، ص ٢١ — ٢٢ .

(١٥١) زكى حسن ، تراث الإســـلام ، ص ٥٩ — ٦٠ ؛ محمد مصطفى ، الرنوك المملوكية ص ٥٦٨ ؛

Fox – Davies, A Complete gnide, p. 13.

(١٥٢) جون هامرتن ، تاريخ العالم ، ص ٣٩٠ .

(١٥٣) أبو الفرج العش ، الفخار غير المطلى ، ص ١٧٨ .

(١٥٤) زكى حسن ، تراث الإسلام ، ص٥٩ .

(١٥٥) جون هامرتن ، المصدر السابق ، ص ٣٨٩ .

(١٥٦) لم يمنع هذا من وجود بعض الحالات توارث فيها الرنك فى الشرق مثل رنك بيبرس الذى حمله ابنه بركة خان .

(١٥٧) عبد العزيز مرزوق ، الفن المصرى الإسلامى ، ص ٨٩ .

(١٥٨) أحمد تيمور ، التصور عند العرب ، ص ٣٣ .

(١٥٩) جمال محرز ، الرنوك المملوكية ، ص ٤٦٨ .

(١٦٠) Lane – Poole, The Saracens, p. 70.

(١٦١) Mayer, Saracenic, pp. 40 - 41.

(١٦٢) سعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ١١٣ — ١١٤ .

(١٦٣) على ابراهيم حسن ، دراسات فى تاريخ المماليك ، ص ٢٠٠ .

(١٦٤) حسن الباشا ، الفنون والوظائف ، جـ ٢ ، ص ٥٧٩ .

(١٦٥) Ahmad Abd ar - Râziq, La femme au temps des Mamlûks en Egypte. Le Caire 1973, pp. 58, 65.

(١٦٦) Mayer, Saracenic, pp. 41 – 42: D. S.Rics, Blazons of Mamluk Ladies. BSOAS, XIV/III, (1952), pp. 573 – 578.

(١٦٧) ابراهيم طرخان ، مصر فى عصر المماليك الجراكسة ، ص ٣٢٧ .

(١٦٨) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ ١ ، ص ٦٣٩ ؛ الصفدى ، تحفة ذوى الألباب ، ورقة ١٩٤ .

(١٦٩) M. Herz, Catalogue raisonné du Musée Arabe du Caire, Le Caire 1906, p. 209.

(١٧٠) A. Marzouk, Egyptian sagraffito ware excavted at Kom ed - Dikka, Bulletin of the Faculty of art, Alex. Univ. XIII, (1959), p. 17.

(١٧١) Mayer, Saracenic, p. 22: Marzouk, Sagraffito, p. 10: Ahmad Abd ar - Râziq, Graffito ware, p. 184.

(١٧٢) أبو الفرج العش ، الفخار غير المطلى ، ص ١٧٨ . فى حين ذكر الدكتور مرزوق أن أول ما اتخذه كان بيبرس الصالحى انظر .

Marzouk; Sagraffito, p. 19.

(١٧٣) Mayer, Saracenic, pp. 13,14 ؛ حسن الباشا ، الفنون والوظائف ، جـ ١ ، ص ٣١٩ .

(١٧٤) Mayer, Saracenic, pp. 135, 136; Marzouk Sagraffito, p. 19: Ahmad Abd ar - Râziq, Graffito, p. 184.

(١٧٥) Mayer, Saracenic, p. 112: Ahmad Abd ar - Râziq, La Poterie Glacée de l'Epoque Mamlouke, (Thése dactylographiée), Paris 1970, p. 169.

(١٧٦) Mayer, Saracenic, pp, 52, 98; Marzouk, Sagraffito, p. 19; Ahmad Abd ar-Râziq, Graffito ware, p. 184.

(١٧٧) Mayer, Saracenie, p. 260: Ahmad Abd ar-Râziq, La Poterie Glacéé, p. 163.

Mayer, Saracenic, p. 240؛ Marzouk, Sagraffito, p. 19؛ (١٧٨)
Ahmad Abd ar-Râziq. Craffito were, p. 184.

Mayer, Saracenic, pp. 189, 190؛ Marzouk, (١٧٩)
Sagraffito, p. 19؛ Ahmad Abd ar-Râziq, Graffito ware, p. 184.

Mayer, Saracenic, p. 241؛ Ahmad Abd ar-Râziq, (١٨٠)
La Potere Glacée, p. 166.

Mayer, Saracenic, p. 54؛ Ahmed Abd ar-Râziq, (١٨١)
La Poterie Glacée, p. 159.

Mayer, Saracenic, p. 67؛ Marzouk Sagraffito, p. (١٨٢)
19؛ Ahmad Abd ar-Râziq, Graffito ware, p. 184.

Mayer, Saracenic pp. 59, 60؛ Ahmad Abd ar-Râziq, (١٨٣)
La Poterie Glacée, p. 161.

Mayer, Saracenic, p. 194؛ Ahmad Abd ar-Râziq, (١٨٤)
La Poterie Glacée, p. 157.

الاعداد المعنوى للحرب الصليبية المضادة

للدكتور صلاح الدين البحيرى
مدرس الحضارة الاسلامية بكلية الآثار — جامعة القاهرة

يعتبر العصر الأيوبى عصراً مجدداً ومبتكراً فى ميدان الحضارة الانسانية بوجه عام وفى ميدان النظم العسكرية بوجه خاص ، ولا غرابة فى ذلك لأنه عصر عرف ما يمكن تسميته بالتاريخ المتحرك نظراً للأحداث التى تميزه بطابع خاص . فهو عصر اتسم بالروح الحربية التى نمت وتطورت بفعل الحروب الصليبية ، تلك الحروب التى تطلبت من المسلمين جهاداً ضدها فأثارت من قبل هؤلاء المسلمين حركة الجهاد التى لم تكن فى واقع الأمر سوى رد فعل على الهجوم الصليبي فى صورة حروب « صليبية مضادة » . لذلك سرعان ما يلاحظ الباحث فى المصادر التى تتحدث عن العصر الأيوبى أن الطابع العسكرى يغلب على النظام الأيوبى لأن ظروف هذا العصر الحربى شدت كل أجهزة الدولة الأيوبية ووجهتها نحو خدمة الحرب المضادة للصليبيين حتى غلبت المصطلحات العسكرية على النظم الأيوبية بل وصبغتها بصبغتها ، فأرست بذلك قواعد راسخة لنظم عسكرية استمرت حتى بعد الأيوبيين أنفسهم(١).
ولقد أثبتت الأبحاث التى قمنا بها عن النظم الأيوبية فى مصر زمن الأيوبيين(٢) أن الدولة الأيوبية كانت قد أعدت جيشاً حديثاً على عصره ، مبتكر تنظيمه من خلال ظروف الحرب ومتطلباتها المتجددة . فأوضحت جلياً أن متجددات

الحرب والحرب المضادة في العصر الأيوبي دفعت العقل البشري المسلم إلى إعمال فكره وقدح ذهنه من أجل إيجاد الحلول المناسبة لكل ثغرة قد تظهر أثناء الحرب سواء من ناحية تنظيم الجيش المسلم واستراتيجيته خاصة أو من ناحية النظم العسكرية عامة .

ونتيجة لذلك يعتبر العصر الأيوبي من وجهة نظرنا عصراً جديداً ومبتكراً وإدراك ذلك من السهولة بمكان إذا علمنا أن الحرب واحتياجاتها تدفع الانسان الذي يقوم بها إلى أن يحسن استخدام القدرة الخلاقة التي أودعها الله سبحانه وتعالى فيه من أجل إيجاد الحلول الأفضل للمشاكل التي تظهر وتتجدد بفعل ظروف الحرب نفسها . ومن أجل ذلك نعتقد اعتقاداً راسخاً أن سياسة الحرب المضادة التي اضطر الأيوبيون إلى اتباعها بسبب وجود الفرنج على أراضيهم القومية دفعتهم إلى خلق النظم العسكرية التي تكفل لهم الوسائل الفعالة لمواجهة متطلبات ذلك العصر الحربي ، وكان لا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بإرساء قواعد قوية لهذه النظم من أجل تطبيق سياسة حرب مدروسة دراسة ميدانية عميقة قبل اتخاذ قرار الحرب أو السلم . وبذلك ليس غريباً أن نقول بأن النظم الأيوبية تعتبر في نظرنا نظماً أيوبية خالصة . صحيح أن النظام الأيوبي اعتمد في أوائل عهده على ماوجده من نظم كانت تطبق من قبل ذلك العهد ، ولكن ظروف عصرهم المتغيرة سرعان ماساعدت على ميلاد نظم جديدة موسومة ببصمات الأيوبيين .

ولعل من الموضوعات الهامة التي ننوي معالجتها تباعاً على صفحات هذه المجلة إن شاء الله تعالى — خصوصاً في هذه الأيام التي تمر بها المنطقة العربية — هو موضوع نظام الاعداد المعنوي الذي اتبعه الأيوبيون تجاه الجيش والشعب على السواء . ففي الحق لقد أرسى الأيوبيون قواعد هذا النظام بدافع من حتمية الظروف التاريخية التي فرضتها الحروب الصليبية ، تلك

الحروب التي تطلبت جهاداً ضدها من قبل المسلمين فكان مانسميه مجازاً « بالحروب الصليبية المضادة » . إذ أن من البديهي أن لكل فعل رد فعل ، فالقوة لايصدها غير القوة والحرب لاتردعها إلا الحرب المضادة التي ينبغي أن تكون متفوقة على تلك الحرب .

ومن المسلم به أن المتجددات التي كانت تحدث بفعل الحروب الصليبية كانت تدفع العقل البشرى الأيوبي — مثلما ذكرنا آنفاً — إلى اكتشاف ذاته الخلاقة التي ساعدته على ابتكار جيش هو ، كما قلنا أيضاً ، حديث على عصره ، مبتكر تنظيمه من خلال ظروف الحرب ومتطلباتها ، بحيث أصبح فعلا قوة ردع عسكرية فعالة ، هدفها ردع العدوان الصليبي وصده عن الأراضي العربية .

ولكن الأيوبيين أدركوا منذ الوهلة الأولى أنه كي يكون لقوة الردع العسكرية التي أنشأوها ونظموها في صورة جيش قوى وحديث ، فاعليتها ضد العدو ، أدركوا أنه ينبغي عليهم ألا يغفلوا عن تنظيم قوة أخرى لاتقل ضراوة عن هذه القوة العسكرية ألا وهي قوة الردع الشعبية التي بدونها لايستطيع أي جيش على الاطلاق في كل زمان ومكان أن يحقق الغرض من تكوينه وهو الدفاع عن الأراضي والمكاسب القومية .

وفي الحق لقد علمنا التاريخ على مر عصوره أن جيشاً منفصلا انفصالا معنويا عن شعبه وبمعزل عنه لايمكن أن تتوفر له عناصر تكوينه الأساسية ولاعجب في ذلك فالشعب كان دائماً وسيظل مصدر قوة الجيش وركيزته التي تعكس مدى جدية تنظيمه .

من أجل ذلك أدركت الدولة الأيوبية حتمية إشراك كل قوى الشعب في صد العدوان وذلك عن طريق تأسيس قوة الردع الشعبية ، وبدا لها جلياً أن هذا لن يتحقق إلا إذا وجدت فكرة صد العدو مكاناً مرموقاً في قلب

كل مواطن خصوصاً فى عصر تميز بروح الحروب الصليبية التى نشبت فعلاً فى بعث روح الجهاد لدى المسلمين تلك الروح التى كانت بمثابة رد فعل للحروب الصليبية .

وإذا كانت الحروب الصليبية مرتبطة بفكرة الحرب المقدسة التى استمدت دواماً قوتها من إيمان شعوب الغرب المسيحى بحقها فى الأراضى المقدسة بفلسطين ، فقد كان من الضرورى مجابهة الفكرة بنفس الفكرة فلا يفل الحديد إلا الحديد ، أى أنه بات محتما أن ترتبط أيضاً فكرة الجهاد أو « الحروب الصليبية المضادة » بنفس الفكرة وتستمد قوتها من إيمان الشعوب الاسلامية بحتمية تخليص أراضيها المقدسة من براثن الاستعمار الصليبى ، ولا غرابة فى ذلك فقد كانت القضية فى مظهرها واحدة بالنسبة للفريقين ، ألا وهى قضية تحرير الأراضى المقدسة من سيطرة « الكفار » !! وكان ذلك هو الدافع — ولو أنه ليس الوحيد — الذى دفع الصليبيين إلى القيام بحملاتهم ، كما كان أيضاً المحرك الذى ساعد على بعث روح وفكرة الجهاد بين المسلمين . وعلى ذلك يمكن القول بأن الصليبيين والأيوبيين قد تحاربوا من أجل تحقيق هدف واحد . . هدف ذو صفة مقدسة وقومية فى ذات الوقت . ولذلك نعتقد أن الأساليب التى اتبعت فى الغرب المسيحى من أجل تعبئة الرأى العام للانخراط فى الحملات الصليبية تشابهت فى بعض الأحيان مع تلك التى سلكها الشرق الاسلامى بهدف تهيئة المسلمين للانضمام بين صفوف جيوش الجهاد ضد الصليبيين أو حتى لمساندة هذه الجيوش بالطرق المدنية الأخرى . وليس فى هذا ما يدعو على الدهشة لأن القضية — مثلما ذكرنا — كانت فى مظهرها واحدة بالنسبة للفريقين ألا وهى قضية تحرير الأراضى المقدسة من سيطرة « الكفار » فالصليبيون كانوا ينادون — ولو فى الظاهر — بأن المسلمين ليس لهم حق فى بسط سلطانهم على الأراضى المقدسة بحجة أنهم « كفار » ولو أن

أهدافاً أخرى كانت تعتمل فى باطن الصليبيين سوف نشير إليها فى حينها ؛ والمسلمون بدورهم ينظرون إلى الوجود الصليبى على أراضيهم المقدسة والقومية فى ذات الوقت على أنه دنس لا بد من تطهيرها منه بل وأدركوا أن هذا الوجود الصليبي ما هو إلا عمل من أعمال سلب الأرض ونهبها من أصحابها الشرعيين باسم الصليب ، وكان ينبغى عليهم أن يبذلوا كل جهد من أجل استعادة الحقوق المسلوبة وطرد المحتل من أراضيهم القومية . وفى الحق نجد المؤرخ السويسرى پول روسيه Poul Sousset لم يخطىء حينما قال فى كتابه عن الحروب الصليبية أن هذه الحروب يمكن اعتبارها حلقة فى سلسلة حلقات تاريخ استعمار البشر لبعضهم البعض .

وعلى ذلك فقد كان بسبب ما بدا لنا من مظهر واحد لقضية الصراع بين الصليبيين والمسلمين حول الأراضى المقدسة ، أن رأينا لزاماً علينا تكوين فكرة عامة عن الوسائل التى اتبعها الغربيون من أجل دفع طبقات المسيحيين على اختلافها فى أوربا إلى القيام بالحملة الصليبية الأولى ، وذلك قبل معالجتنا للوسائل التى اتبعها المسلمون بغرض حشد طاقات شعوبهم لمجابهة هذا الهجوم المسيحى بهجوم مضاد إسلامى .

إن من يدرس هذا الموضوع لا يمكنه - أكاديمياً إنكار الدور الفعال والمؤثر الذى لعبته البابوية والكنيسة فى هذا المضمار . فقد عرفت - فى الواقع - البابوية والكنيسة كيف تستغل كل الامكانات المتاحة تحت تصرفها من أجل دفع المسيحيين إلى المساهمة بشرياً ومادياً فى هذا المشروع الكبير الذى كانت تزمع القيام به وهو الحرب الصليبية الأولى . ولكننا نعلم أن حادثة تاريخية كبرى كانت قد حدثت قبل دعوة البابوية لهذه الحرب الصليبية الأولى بأكثر من عشرين عاماً ، ونقصد بهذه الحادثة موقعة متريكرت التى

انهزم فيها الامبراطور البيزنطى رومانوس ديوجين Romain IV Diogène في يوم ١٩ أغسطس سنة ١٠٧١ أمام جيوش الأتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى ، تلك المعركة التى سحقت فيها قوات الامبراطورية البيزنطية ووقع الامبراطور البيزنطى نفسه فى الأسر . وتم للسلاجقة بقيادة سليمان بن قطلمش الاستيلاء على آسيا الصغرى[٤] مما دعا الامبراطور البيزنطى إلى ارسال طلبات النجدة والاستغاثة إلى الغرب المسيحى لأن خطر الزحف الاسلامى السلجوقى أصبح يهدد الامبراطورية البيزنطية بل وأوربا الغربية كذلك[٥] . فى الحق لقد كانت هذه الموقعة كارثة عظمى منيت بها الامبراطورية البيزنطية بل واعتبرها مؤرخو التاريخ البيزنطى نقطة تحول خطيرة فى هذا التاريخ[٦] . بل ويعتبر المؤرخ H. St. L. B. Moss يوم هزيمة الامبراطورية فى منزيكرت من أسود أيام تاريخ بيزنطة الطويل[٧] .

غير أن تلبية مثل هذه الاستغاثة البيزنطية فى هذه الآونة بالذات لم يكن ممكناً بسبب الظروف الدولية التى لم تكن موائمة لمثل هذه الحركة .فلم يكن الغرب ذو الفكر الاقطاعى سياسياً واجتماعياً فى ظروف تسمح له بتنظيم حملة عسكرية كبيرة[٨] ، فضلا عن أن ظروف منطقة شرق البحر المتوسط لم تكن لتخلق الأرض الخصبة التى يمكن أن يثمر فيها مثل هذا المشروع الغربى الحربى ثماراً طيبة . فقد كانت الامبراطورية السلجوقية فى أوج قوتها ووحدتها بل وكانت فى توسع مستمر ودليلنا على ذلك سقوط منطقة شرق البحر المتوسط وآسيا الصغرى فى أيدى الأتراك السلاجقة أولئك المسلمون المتعصبون الذين اعتنقوا المذهب السنى وأفادوا الاسلام إفادات جمة وظل الأمر كذلك حتى عصر السلطان ملكشاه السلجوقى ووزيره نظام الملك ذو العبقرية الفذة الذى استطاع أن يضع نظاماً سياسياً دقيقاً ورائعاً لهذه الدولة المترامية الأطراف فى كتابه المشهور الذى ألفه بالفارسية تحت عنوان « سياسة نامه » أى كتاب الحكم أو السياسة والذى فيه يجد الباحث أعظم

ما تركة الفكر الانسانى السياسى فى هذا العصر لكيفية إدارة وحكم امبراطورية عظمى مثل الامبراطورية السلجوقية(9) . وطالما ظلت تلك الامبراطورية محافظة على وحدتها وقوتها ظلت الرهبة من مجرد تفكير أعدائها فى غزوها ملازمة لهؤلاء الأعداء وهذا هو التيسير الأمثل لانتظار الغرب المسيحى مدة تربو على العشرين عاماً قبل أن يرد إيجابياً على استغاثة الامبراطور البيزنطى التى عبر عنها عام ١٠٧١م . إذ أن السلطان السلجوقى ملك شاه الذى ظل بشخصيته محافظاً على وحدة وقوة الامبراطورية قد توفى عام ١٠٩٢ وحدث ما ينبغى أن يأسف عليه كل مسلم وهو الانقسام الذى دب بين أفراد البيت السلجوقى وسرعان ما نشبت الحرب بين بركيا روق ابن ووريث ملكشاة وعمه تتش الذى لم يشأ الاعتراف بسلطنة ابن أخيه، وانتهى الأمر بهزيمته عند الرى . غير أن الذى يهمنا هنا هو أن الخلاف الذى دب بين أفراد البيت السلجوقى كان بداية تفكك الامبراطورية الفتية السلجوقية فزحف الوهن إلى أعضائها والضعف إلى جيوشها والانهيار التدريجى إلى حضارتها(10) .

كان ذلك بمثابة النور الأخضر الذى سمح للحركة الصليبية أن تولد وتبرز إلى الوجود التاريخى رغم أن دوافعاً أخرى فى الغرب - وبالذات فى أسبانيا - ساعدت على بروز هذه الظاهرة التاريخية . ولذلك نحن نعتقد أن الحروب الصليبية كانت وليدة حركة التاريخ العالمى ولم تكن نتيجة لرغبة أو دعوة ، بل إن ظروفاً دولية متشابكة مهدت الظروف أمام ظهور هذه الظاهرة التاريخية التى طالما أثارت ومازالت تثير فكر البشر والباحثين ألا وهى ظاهرة الحروب الصليبية .

نقصد من ذلك ، القول بأن البابوية والكنيسة كانت حقاً تعمل ولكن فى داخل إطار الحركة التاريخية العالمية المحيطة بها والتى ما كان باستطاعتها أن

تتحرك بمعزل عنها ، وهى فى هذه السبيل عرفت حق المعرفة كيفية التوقيت السليم للقيام بالتبشير لحركتها الصليبية فكان لابد من أن تبدأ تلك الحركة فى وقت تكون فيه الظروف الأوربية مواتية لذلك ، كما كان لابد أيضاً من أن تكون الأحوال فى الشرق الإسلامى ممهدة للطريق الذى سوف تسلكه الجيوش الصليبية . وقد نجحت البابوية فى اختيار هـذا الوقت المناسب خصوصاً بعد التفتت الذى طرأ على وحدة الامبراطورية السلجوقية الإسلامية فى أعقاب وفاة السلطان ملكشاه مثلما ذكرنا آنفاً ، وكذلك بعد الضعف الذى أصاب الخلافة الفاطمية فى مصر . وكان على البابوية أن تعمل على استغلال الظروف الدينية والاجتماعية والاقتصادية التى تحكمت فى أوربا عشية الحملة الصليبية الأولى وهى فى ذلك كانت تتمتع بنفوذ دينى واسع النطاق على جماهير الشعوب الأوربية وإلى جانب نفوذ الكنيسة الكاثوليكية الدينى كانت توحد القدرة الاقتصادية الضخمة التى استطاعت الكنيسة تجميعها وتوجيهها لخدمة أهدافها(١٢) . وفى الحق لقد وجدت الكنيسة أمامها أرضاً ممهدة لتقدم دعوتها فى أوربا ، فالظروف الاقتصادية — الاجتماعية التى كانت تتحكم فى أوربا عشية الحملة الصليبية الأولى جعلت المجتمع الأوربى فى « حالة إنتظار » لمثل هذه الدعوة ، فنرى أن البابا إربان الثانى حينما دعا إلى الحملة الصليبية الأولى فى مدينة كليرمون فيران Clermont Ferrand بفرنسا عند افتتاحه للمجمع الكنسى يوم ١٨ نوفمبر سنة ١٠٩٥(١٣) ، يستغل إلى أبعد مـدى الصعوبات الاجتماعية — الاقتصادية التى كانت تئن تحت وطأتها الجماهير المسيحية . ألم تكن تبحث عامة الشعب فى القارة القديمة (أوربا) عن السبيل الذى يمكن أن تسلكه لتحرير نفسها من تلك الصعوبات؟ ألم تجد تلك الجماهير فى دعوة البابا فرصة مواتية كى « تضرب فيها عصفورين بحجر واحد » فترضى معتقداتها الدينية من ناحية وتجيب رغباتها من أجل تحسين أحوال معيشتها من ناحية أخرى ؟ . فى الواقع لقد كان لدعوة البابا فى مثل هذه الظروف صدى قوى وعميق اتخذ صورة الحماس الدينى الجماهيرى

الذى لم يكن فى رأينا سوى ملجأ آوت إليه هذه الجماهير الباحثة عما يريحها من صعوباتها الاجتماعية — الاقتصادية بل العسكرية كذلك حتى ولو كان ذلك معنويا فى صورة حماس دينى . لقد كان لدعوة البابا حقاً أثر عميق فى إثارة الرغبة الدفينة لدى الجماهير المسيحية للذهاب إلى الأراضى المقدسة ورؤية قبر السيد المسيح وذلك مما كانت تسمعه هذه الجماهير من الروايات التى كان يرويها عن الأراضى المقدسة الحجاج الأوربيون الذين كانوا فى ازدياد مطرد والذين أحاطوا رواياتهم بكثير من المبالغة التى كادت تقرب من حد الأساطير[١٤] . وبذلك اعتقدت الجماهير الأوربية أن فى ذهابها فى الحملة الصليبية الأولى خلاص لها من صعوباتها الاجتماعية — الاقتصادية ففى ذلك خروج لها من حالة العبودية إلى حالة الحرية الإنسانية وترقية لأحوالها الاقتصادية بالتالى ، كما اعتقدت أيضاً أن بعملها هذا كانت تسلك السبيل الذى يمنحها رضا الرب .

وإذا كانت البابوية قد استنفرت الجماهير الأوربية المسيحية من أجل القيام بالحملة الصليبية الأولى على أساس أن تلك الجماهير لم تكن فى الواقع سوى الوقود الذى منه كانت تتغذى نار الحرب الصليبية اشتعالا ، فلم تكن (البابوية) لتغفل عن طبقة النبلاء والسادة الأوربيين الاقطاعيين الذين كانوا يرنون ببصرهم نحـــو أمل طالما داعب أفئدتهم وتراءى أمام خيالاتهم . فالمعلوم أن النظام الإقطاعى الأوربى لم يكن يعطى الحق فى حمل لقب « كنت » « Comte » سوى للإبن الأكبر بعد وفاة والده وبذلك كان بقية النبلاء محرومين من حمل مثل ذلك اللقب ، وعلى ذلك لا غرابة إذا كانت هذه الطائفة من النبلاء تحاول البحث عن أماكن أخرى من العالم حيث يستطيعون تأسيس كونتيات أو إمارات لكل منهم ، وكانت البابوية تعرف هذه الحقيقة فشجعت هؤلاء النبلاء « المتعطشين للحصول على أراضى جديدة لهم[١٥] » على الاشتراك فى الحملة الصليبية على أمل أن ذلك سيحقق مطالبهم فوعدتهم الوعود

التى تتناسب ورغباتهم تلك . وبذلك نرى أن البابوية – وهى فى سبيل حشد الطاقات البشرية اللازمة للحملة الصليبية – كانت تلعب على الوتر الحساس الذى يؤثر فى كلتا الطائفتين اللتين كانتا تكونان المجتمع الأوربى . فخاطبت الجماهير الشعبية بلغة تتلاءم مع أحوالها النفسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية . وكذلك نراها تناجى طبقة النبلاء الإقطاعيين بلسان يلهث برغباتها وأطماعها . ولذلك نحن نرى أن الحملة الصليبية الأولى كانت الوسيلة الواحدة التى جمعت بين مصالح هاتين الطبقتين المتضادتين مع ما فى ذلك من غرابة الجمع بين الضدين !!! . ففى الحق لقد كان لأولئك ولهؤلاء أهداف متباينة يطمعون فى تحقيقها من وراء القيام بالحملة الصليبية . وبذلك نرى – ويرى معنا كل صاحب فكر خصيب يبحث فى ظاهرة الحروب الصليبية – أن الحملة الصليبية كان لها ظاهر دينى يخفى وراءه خلفية منسوجة سدى ولحمة بخيوط من الصعوبات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى كانت غارقة فيها أوربا عشية الحملة الصليبية الأولى .

وإذا كانت البابوية قد اهتدت إلى اللغتين اللتين بهما استطاعت التأثير فى تلك الطبقتين من المجتمع الأوربى فإن استخدام وممارسة هاتين اللغتين كان يتم بواسطة أناس توفرت فيهم قوة التأثير فعرفوا براعة اللعب على الوتر الحساس لكل من الطبقتين فجعلوه يهتز حماسة وحمية ورغبة أكيدة فى تنفيذ المشروع البابوى ، بل لعل الأهم من ذلك أن هؤلاء الذين استخدمتهم الكنيسة الكاثوليكية اهتموا بنقطة على درجة بالغة من الأهمية ألا وهى توكيد إيمان هاتين الطبقتين بمشروعية القيام بتنفيذ مشروع الحملة الصليبية. ونقطة الإيمان هذه فى الواقع تمثل بالنسبة لنا نصف النجاح فى تنفيذ هذا المشروع . وسوف نرى أنه كان لابد من أن يقابل هذا الإيمان المسيحى الغربى بإيمان مضاد إسلامى .

وفى الحق لقد اهتمت الكنيسة بتجنيد رجال الدين المسيحيين من أجل

الدعوة الشعبية لهذا المشروع الصليبي فلعبوا بذلك الدور الأساسى الذى كان لا بد منه لتجميع القوة البشرية والمادية اللازمة للحملة الصليبية . ولا يخفى علينا أن استخدام رجال الدين فى الدعوة للحملة الصليبية كان أمراً طبيعياً خصوصا إذا ما أريد مخاطبة شعوب خاضعة خضوعاً كاملا لتسلط فكرة الحماس الدينى ، تلك الفكرة التى سيطرت على هذه الشعوب خصوصا بعد الحركة الإصلاحية التى حدثت فى القرن الحادى عشر بكلونى Cluny[16] ومنها امتدت إلى كل المسيحيين فى القرن الثانى عشر . مثل هذه الشعوب التى كانت مشتعلة بروح الحماس الدينى ومفعمة برغبة التقشف الدينى كان لا بد من مخاطبتها بلغة الإيمان والدين ، ومن أحسن رجال الدين حديثا فى الإيمان ؟ ومن أفضل منهم أو أكثر منهم فصاحة أو مهارة فى استغلال نقطة الضعف هذه لدى المؤمنين المسيحيين ذوى الحساسية الخاصة فيما يتعلق بالحديث عن الإيمان ؟ وترتيبا على ذلك حشدت الكنيسة قساوسة ورهباناً وعهدت إليهم بمهمة تحريك الهمم وإيقاظ الرغبة بين المسيحيين على اختلاف نزعاتهم من أجل خدمة قضية « تحرير أو تخليص قبر السيد المسيح والأرض المقدسة من براثن الكفر الاسلامى » على حد تعبيرهم . هكذا كانوا يتحدثون . وهكذا كانوا يؤمنون ، وقد كان هؤلاء القساوسة والرهبان يلقون بكل ثقلهم وهيبتهم الدينية ويمارسون ضغطا سيكلوجيا عنيفا من أجل تعبئة جماهير المسيحية للانخراط فى صفوف الحملة الصليبية . وكان طبيعيا أن يتخذ هؤلاء القساوسة من الخطاب الذى ألقاه البابا إربان الثانى فى كليرمون دليلا لهم ونبراسا يهتدون به . وعلى الرغم من أن التاريخ لم يحتفظ لنا بالنص الرسمى الكامل لخطاب البابا إلا أننا نستطيع تكوين فكرة عامة عن أهم الأفكار التى تضمنها ذلك الخطاب من واقع ما أورده لنا فوشيه دى شارتز Foucher de Chartres الذى كان حاضر الجلسات المجمع الكنسى اختتم جلساته يوم ٢٧ نوفمبر سنة ١٠٩٥ م فى مدينة كليرمون وبالتالى

استمع بالتأكيد لخطاب إربان الثانى الذى ألقاه فى أعقاب هذا المجمع ، وكذلك مما احتفظ لنا به بودرى دى دول Boudri de Dol . فقد اهتم البابا فى خطابه الذى وجهه لجماهير الشعوب المسيحية بنقطة نعتبرها من أهم نقاط الخطاب ألا وهى « حث كل فرد على أن يعيش وفق القانون الإلهى فيسير فى حياته مستمسكا بالقواعد الكنسية حتى يحقق ما يسمى بالهدنة مع الرب » . ولكن البابا يستطرد قائلا : « . . . ولكن إلى جانب تحقيق ذلك عليكم القيام بعمل خيرى آخر وهو الذهاب لإغاثة إخوانكم الذين يعيشون فى الشرق . . . فقد هاجمهم الأتراك والعرب . . ودمرت الكنائس كما خربت الأماكن المقدسة (المسيحية) . . من أجل ذلك أتوسل إليكم ليس باسمى أنا ولكن باسم الرب أن تجندوا الفرنج على اختلاف طبقاتهم ، مشاة وفرسانا ، فقراء وأغنياء من أجل إنقاذ عبيد المسيح وطرد الجنس الزنديق »(١٧) . غير أن البابا لم يكن ليكتفى بذلك فنراه يضيف دافعاً آخر يبرر القيام بالحملة الصليبية وهو أن هذه الحملةسوف تكون بمثابة الملجأ الذى يلجأ إليه المتحاربون المسيحيون الذين طالما دخلوا فى حروب أهلية فيما بينهم مريقين بذلك دماءهم ، فبخروجهم فى الحملة الصليبية تحقيق للسلام بالنسبة للمسيحية ذاتها فى أوربا وحقنا لدماء المسيحيين . !! فيذكر بودرى دى دول أن البابا قال للمسيحيين فى خطابه « إنكم تمزقون بعضكم بعضاً ، وتعتدون على الأيتام ، وتغتصبون الأرامل ، إنكم ترتكبون المذابح الفظيعة (ضد بعضكم البعض) وتدنسون المقدسات . . . امتنعوا عن قتل إخوانكم ، ووجهوا ذلك نحو أمم أجنبية وحاربوا بدلا من ذلك من أجل القدس سُرة العالم » . وفى نص آخر أورده لنا راهب اسمه روبير لاموان Robert le Moine نرى الدافع الاقتصادى يبزغ من بين ثنايا خطاب البابا الذى قال « إن الفقر ومصادر الطعام المحدودة كانت السبب الأساسى

وطلب البابا من أولئك الذين يرغبون فى التطوع مع الحملة الصليبية أن يحيكوا على قمصانهم قطعة من النسيج على شكل الصليب رمزاً لتطوعهم ، يحيكونها على الكتف الأيمن أو بين الكتفين . وبذلك بدأت تتكون الحملة الصليبية الأولى وضع بذورها الأولى البابا إربان الثانى وتعهد هذه البذور بالرعاية رجال الدين الذين سرعان ما انتشروا بين جماهير وسادة أوروبا متأسّين بطريقة البابا فى إلهاب حماس تلك الجماهير وفى مخاطبة طبقاتهم بلغة تتناسب وظروفهم . وسوف نتناول هذا الموضوع فى مقال مقبل بإذن الله .

المراجع

(١) انظر SALAH ELBEHEIRY, L' Armée Ayyûbîde, Publications de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire.

(٢) انظر Salah Elbeheiry, Les Lettres d'an-Nâsir Dâûd, Communication faite au XXVII[e] Congiès International des Orientalistes, Ann Arbor, Michigan août 1969, publié dans ARABICA, T. XV, fasc. 2, 1968 et Proceedings of the 27th International Congress of Orientalists, Wiesbaden 1971.

وانظر أيضاً Salah Elbeheiry, Les Institutions de l'Egypte au temps des Ayyûbides, Thèse Principale de Doctorat d'Etat soutenue en Sorbonne 1971 et publiée par l'université de Lille III, 1972; Kitab Al Fawâìd al-Jaliyya. Institut français de Damas.

وانظر أيضاً Salah Elbeheiry, Le Décret de nomination de l'historien Ibn wasil au poste du professeur de le mosquée al-Aqmar, Communication faite au XXIX[e] Congrès International des Orientalistes, Paris 1973, in Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, Le Caire 1973.

(٣) cf Paul Rousset Histoire des Croisades Paris 1957

(٤) cf. Jean Ebersolt, Orient et Occident, P. 51, Paris 1954.

(٥) عن موقعة مزيكرت انظر .

cf. Georges Ostrogorsky, Geschichte des Byzantinischen. Staate- Histoire de l'Etat Byzantin p 366 Paris 1956. والترجمة الفرنسية

Cl. Cahen, Pre-Ottoman Turkey: p. 29, London 1978;

Hélène Ahrweiler, Byzance et la mer, P. 139, Paris 1966;

A. A. Vasiliev, History of the Byzantine Empire, Vol. I, 356; ed Madison and Milwaukee; The University of Wisconsin press U.S.A. 1964;

Faruk Sümer, OGUZLAR (Türkmenler), p. p. 100 - 101
Ankara, 1967

وانظر ايضاً المرجع التركى الهام

The shorter Cambridge Medieval History, Vol. I, pp. 278-279; History of the Crusades, Vol. I, pp. 143—149, ed. by Setton Philadelphia 1958: Claude CAHEN! La Syrie du Nord à l'époque des Croisades, p. 182 ét 199, Paris 1940.

(٦)انظر Steven Runciman, La Civilisation Byzantine, p, 53, trad française, Paris 1952; René Grousset, Histoire des Croisades, Vol. I, pp, XXX-XXXIII. Paris 1934.

(٧) انظر The History of the Byzantine Empire : an outline, p. 28 in Byzantium : An introductiom to East Roman Civilization edited by Norman H. Baynes and L. B. Moss, Oxford 1962.

(٨) عن أحوال أوربا الاقطاعيين انظر

Henri Pirenne, A History of Europe 2 Vol New York, 1958; et son livre sur "Les Grands Courants de l'Histoire Universelle" 7 Vol. فى سبعة أحوال

ولخصها ابنه جاك فى كتابه بانورا ما على التاريخ العالمى

Jacques-Henri Pirenne, Panorama de l'histoire universelle, Paris 1963;

Marc Bloch, La Société féodale, aris et 939-998 (Traduit en inglais éd. Chicago 1961:

Robert Boutruche, Seigneurie et Féodalité, Paris 1959; Carl Stephenson. Medieval Feudalism' Cornell, U. S. A, 1965; Ch Ed. Perrin, La société Féodale allemande et ses institutions du x[e] au XIIe siècle, C. D, U. Paris (Sorbonne) et son "seigneurie rurale en France et en Allemagne du début du IX[e] à la fin du XII[e] siècle, C. D. U. Paris (Cours de la Sorbonne).

(٩) انظر cf. Nizâm al-Mulk, Siasset—Nâmeh, éd. Charles Schefer, Paris 1893.

وهذا الكتاب مترجم أيضاً الى الانجليزية انظر :

Hubert Darke. The Book of Government, ed London 1965

(١٠) انظر الراوندى : راحة الصدور وآية السرور فى تاريخ الدولة السلجوقية .
ترجمة عن الفارسية إبراهيم الشوارى وآخرين . القاهرة سنة ١٩٦٩ .
وعن الأتراك السلاجقة انظر المرجع الذى كتبه المؤرخ التركى المعاصر فاروق سومر .

cf. Prof. Dr. Faruk SUMER, OGUZLAR (Turkmenler), Ankara Universitesi Basimevi 1967., Claude CAHEN, Pre — Ottoman Turkey op. cit et son article sun la première pénétration turque en Asie Mineure, Byzantion, t. XVIII, 1943

وكذلك المقال الذى كتبه المؤرخ السوفييتى المعاصر حسينوف عن الجيش السلجوقى .

cf. Husseynov (R. A.), L'organisation de l'armée Saljukide, (en russe) in Recueil Palestinien, Sbornik. éd Naouka "Science" Leningrad, 1967.

والكتاب الذى كتبه المؤرخ الأرمنى الأصل باسدر ماجيان الأستاذ الحالى بجامعة جينيف عن تاريخ أرمينية فقيه يضم صفحات هامة عن تاريخ السلاجقة وعلاقتهم بالأرض انظر :

H. Pasdermadjian Histoire de l' Arménie, 2ème éd. pp. 236—240, Paris 1864.

Minorsky (V.) A civil and military review in Fars BSOS, vol. X, Part. 1, 1h39:

Nikita Elisséeff, Nur ad — Din, 3 vol. publié par l'Institut Français de Damas, 1967: René Grousset, Histoire des Croisades, op. cit, vol 1, pp. XXV—XXXIX.

(١١) انظر :

Paul Alphandéry, La Chrétienté et 'l' idée de croisade vol. I, pp. 16 -- 17 et 26 — 27, éd. Paris 1954; E. Perroy (et autres), Le Moyen Age, op. cit, pp. 267—272.

حيث يوجد فصل شيق بعنوان « Reconquista et croisade »

(١٢) انظر : H. Lietzmann, Histoire de l'Eglise Ancienne, 4 vol., Paris 1949, 50,61,

cf. E. Perroy (et autres), Le Moyen Age, in Histoire générale des civilisations, vol. III, P. U. F. Paris 1961.:

(Michel) Villey, La Croisade, Essai sur la formation d'une théorie juridique, Paris 1932

(١٣) انظر :

cf. Paul Alphandéry, La chrétienté et l'idée de Croisade, op cit' vol. I, pp. 31—33.

(١٤) انظر :

cf. Paul Rousset, Histoire des Croisades, p. 43; éd· Payot, Paris. 1957, Ostrogorsky, Histoire de l' Etat Byzantin, p.382' op. eit.

وانظر بعين الاهتمام الى الفصل الذى كتبه بول الفاندى فى كتابه سالف الذكر (حاشية ٢) عن الحجاج والحملات الصليبية .

Paul Alphandéry. La Chrétienté et l'idée de Croisade, op. cit, vol. I. pp. 9—42.

(١٥) انظر :

Ostrogorsky, Histoire de l'Etat Byzantin, op. cit, p 382.

وعن المجتمع الاقطاعى انظر المراجع التى سبق ذكرها عن هذا الموضوع فى حواشينا السابقة .

L. Perroy, Le Moyen Age; op. cit, p 234 sq.

(١٦) عن إنشاء دير كلونى سنة ٩١٠ م انظر :

E. Perroy, Le Moyen Age, op cit. pp 149—150.

ولقد نشأت فى هذا الدير حركة إصلاحية سرعان ما انتشرت بين المسيحيين أجمعين فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر وذلك أن رجال الدين فى دير كلونى كانوا يعيشون فى مستوى الإقطاعيين بحيث أصبح هناك ما سمى فى التاريخ برجال الدين الارستقراطيين مما جعلهم هدفاً لكثير من النقد والتجريح وتساءل الكثيرون المعاصرون لهم عن أحقية رجال الدين فى العيش كاقطاعيين أرستقراطيين سكناً وملبساً ومعاشاً . وبذلك ظهر فى القرن الحادى عشر تيار جديد يهدف إلى إحداث اصلاح دينى أعمق من الإصلاح المعروف الذى أجراه البابا جرجوار السابع (١٠٧٣ — ١٠٨٥ م) فكانت الحركة الاصلاحية المعروفة باسم الحركة الكلونية . انظر المرجع المذكور فى رأس هذه الحاشية ص ص ٢٧٦ — ٢٧٧ .

(١٧) انظر :

Paul Rousset, Histoire des Croisades, op. cit, p. 4I.

(١٨) انظر :

Paul Rousset, Histoire des Croisades, op 42·

دراسة تاريخية

لتطور مفهوم الدولة فى جزيرة العرب فى العصر الحديث

للدكتور عبد الفتاح حسن أبو علية
مدرس التاريخ الحديث — كلية اللغة العربية بالرياض

عندما كان (مركز الثقل الإسلامى) فى جزيرة العرب فى العصر الوسيط، كانت أرضها تضم مجتمعاً إسلامياً واحداً، ظل هذا المجتمع ينعم فى ظل حكم دولة إسلامية منظمة. وبعد أن انتقل مركز الحكم فى الجزيرة العربية إلى الشام، بعد تسلم الدولة الأموية زمام المبادرة السياسية، ثم انتقال مركز الحكم إلى العراق، بعد تسلم الدولة العباسية زمام المبادرة السياسية، عندها تقلصت مع هذا الانتقال قبضة السلطة المركزية على الجزيرة العربية، حيث البعد المسافى أولا. وازدياد موجات الغزو الخارجى ضد السلطة المركزية ثانياً، وتنازع العناصر والطوائف والقوى على الحكومة ثالثاً، كل هذا أدى إلى رجعة فى الجزيرة العربية، كانت نتيجة لشبه فراغ سياسى حدث فيها، أرجع مركز القبيلة كحكومة ورئيسها كسلطة، تمركزت تلك القوة المتجدد عهدها فى إقليم من أقاليم الجزيرة المتعددة، وأحياناً اجتازته، ساعدنى فى بلورته أسلوب الحكم العثمانى اللامركزى فى البلاد، وعدم استقرار السلطات المحلية هناك.

مفهوم الدولة فى المجتمع القبلى فى جزيرة العرب :

لم يكن مفهوم الدولة فى المجتمعات القبلية قبل عهد الدولة الحديثة فى جزيرة العرب ليتعدى كونها تتمثل فى سيادة القبيلة كحكومة ، وفى الشيخ ومجلس شورى القبيلة كسلطة . ولقد كانت جميع السلطات بيد شيخ القبيلة الذى يعتبر حاكما مطلقاً يسير القبيلة ، كما يشاء على اعتباره رائدها .

ولم تكن فى هذا النظام أجهزة أو مؤسسات حكومية بالمعنى الحديث ، وإنما وجدت فى القبيلة مؤسسة إدارية واحدة تساعد الشيخ فى تسيير أمور القبيلة من حيث النواحى الاقتصادية والحربية ، وهذه المؤسسة تمثلت فى مجلس شورى القبيلة الذى يضم رؤساء العائلات فى القبيلة وأبناء وأقارب الشيخ والقضاة .

وهذا الأسلوب فى السيادة والسلطة أشبه ما يكون بروابط أفراد عائلة ما بأب العائلة المسئول عن شئونها ، فالحكم القبلى حكم عائلى بشكل أوسع لأن القبيلة تحوى مجموعة من العائلات .

وفى مثل هذا النوع من السلطة فإنه لا يتطلب وجود أجهزة إدارية أو غير إدارية على اعتبار أن أمور القبيلة وعلاقاتها بالقبائل الأخرى عبارة عن أمور بسيطة ، يمكن إدارتها وتسيير أمورها بواسطة الشيخ وهيئة استشارية قليلة العدد من بين أفراد القبيلة .

ونتيجة لمفهوم الحكم القبلى كان لا بد وأن تظهر فى الإقليم الواحد عدة سلطات سياسية وأكثر من شيخ حاكم(١) .

وفى ظل هذا المفهوم السياسى كانت قوة السلطة واتساع نفوذها تعتمد على قوة شيوخ القبائل المستمدة من قوة قبائلهم ، من حيث عددها واتساع ديرتها

وغناها الذى يقدر عادة بعدد ما تملك من جمال وماشية . هذا إلى جانب قوة شخصية الشيخ وكرمه وذكائه .

وفى مثل هذا النظام السياسى الذى كان سائداً فى جزيرة العرب كان يؤدى وبشكل طبيعى إلى الكثير من المشاكل فى المنطقة ، كالخلافات حول موارد العشب والماء ، والخلافات بين شيوخ القبائل والطامحين إلى السلطة فى هذه القبائل ، وخلافات مردها أطماع شيوخ القبائل .

تطور مفهوم الدولة فى ظل النظام القبلى :

لقد تطور مفهوم الدولة فى ظل النظام القبلى ، عندما أخذت تتحد مجموعة قبائل فى اتحادات فيدرالية يمكن تسميتها بالتحالفات القبلية ، وذلك لوجود روابط الدم وعلاقات اقتصادية مشتركة فيما بينها .

وهذا التنظيم السياسى الجديد كان قد أثر على اتساع الأجهزة السياسية والإدارية للسلطة المتحالفة ، وحلت هيئة استشارية موسعة بدلا من الهيئات الاستشارية الموجودة فى القبائل قبل اتحادها ، وشكلت سلطة موسعة تضم أكثر من شيخ ، وإن أصبحت فيما بعد تخضع لشيخ قوى انتخب من بين شيوخ القبائل المتحالفة ليدير شئون الحلف .

ثم تطور مفهوم الدولة فيما بعد من مفهوم سيادة الأحلاف إلى مفهوم السيادة المشتركة التى جمعت القبائل البدوية والسكان الحضر من قرويين وسكان مدن ، وبهذا اتسع مفهوم السلطة باتساع دائرة حدودها ، وازدياد عدد رعاياها ، وتطور الحياة الاقتصادية فيها .

ولما كانت المدن والقرى مركز الاستقرار والأمن والتعليم والثقافة ، ولما كان السكان الحضر يملكون زمام الأمور الصناعية والتجارية فى حواضرهم ،

أخذت السلطة تنتقل من يد شيوخ القبائل - وإن ظلوا أصحاب سلطة واسعة — إلى يد الأمراء فى المدن والقرى ، وتطور هذا المفهوم عندما قبض أمير مدينة ما فى المنطقة على السلطة الكلية الفعلية فيها ، إما عن طريق حروب الإخضاع ، وإما عن طريق الانضمام إليه بعد امتناع السكان وقبولهم مبدأ سيادته .

الوهابية وتطور مفهوم الدولة فى جزيرة العرب:

وبظهور الوهابية فى نجد وتبنيها سياسياً من قبل آل سعود أمراء الدرعية، ظهرت فى جزيرة العرب قوة سياسية منظمة تغير معها مفهوم الدولة واتسعت معها أجهزتها ومؤسساتها كنتيجة طبيعية اقتضاها اتساع أمور السلطة من حيث النواحى السياسية والإدارية والاقتصادية والقضائية .

ولقد تطورت وتغيرت نظرة السكان للدولة ، واختلفت هذه النظرة من إقليم لآخر بقدر ما للسكان فى الأقاليم من إتصال مباشر مع السلطة المنظمة نسبياً . وهذا يمكن ملاحظته وعند النجديين الذين حملوا على عاتقهم نشر لواء الوهابية كدعوة دينية ، وكحركة سياسية فى الأقاليم المتعددة من جزيرة العرب، غير إقليم نجد . وكذلك عند الحجازيين الذين تعودوا على السلطة المنظمة زمن الحكم التركى وما سبقه من حكومات إسلامية فى المنطقة على اعتبار الحجاز المركز الإسلامى الذى يحوى المدن الإسلامية المقدسة . أما سكان جنوبى نجد فظلوا بعيدين عن مفهوم السلطة المنظمة وقبولهم هذا المبدأ، وظلوا أقرب إلى قبول الحكم القبلى العشائرى البدوى ، ظلوا بطبيعتهم أقرب إلى المجتمع والنظام القبلى منه إلى النظام السياسى الحديث نسبياً .أما بالنسبة للسكان فى سواحل الجزيرة فكانوا أكثر تفهماً وتقبلا لتطور مفهوم الدولة نحو الحديث ، وذلك لما لهم من علاقة قوية مع الدولة المنظمة وذلك لاحتكاكهم السياسى والتجارى مع الدولة الأجنبية .

وعلينا أن ننوه هنا أنه بالرغم مما أحدثته كل من الوهابية والحكم التركى فى تطور مفهوم السلطة والدولة فى أقاليم جزيرة العرب ، إلا أن الأنظمة المبنية على أساس العادة والعُرف والتقاليد المتوارثة ظلت أقرب إلى الحكم القبلى ، وظلت عقلية السكان متوافقة إلى حد ما مع هذا النظام ، وإن اعتراها تغير طفيف بدأ يميل إلى تقبل التجديد والإصلاح ، ليس فى مفهوم السلطة فقط بل وفى مفهوم التغييرات الاجتماعية والاقتصادية التى بدأت تتغير وتتحول تدريجياً من وضعها القبلى إلى أوضاع متطورة أميل إلى الاتجاه الحديث والحياة العصرية . ولقد وضحت معالم هذا الانفتاح التدريجى بعد توحيد معظم أقاليم الجزيرة العربية فى دولة واحدة زمن الملك عبد العزيز آل سعود فى السنوات الأولى من الثلاثينيات من القرن العشرين الميلادى ، حيث بداية عهد الدولة المنظمة نسبياً ، وبداية عهد الانفتاح على الخارج ، وبداية عهد من الإصلاحات والتجديد بدأت تدخل الجزيرة العربية .

تطور مفهوم الدولة بعد توحيد الأقاليم السعودية :

بعد انقضاء عهد توطيد دعائم السلطة السعودية عن طريق الحرب التى خاضها ابن سعود مع جيرانه حكام جبل شمر والحجاز ومنطقة عسير واليمن، تفرغ بعدها إلى توحيد أقاليم دولته فى وحدة سياسية كانت الأولى من نوعها فى الجزيرة العربية(٢) .

لقد انتقل بهذا مفهوم السيادة والسلطة وبالتالى مفهوم الدولة كوحدة سياسية من حالة النظام القبلى المشائرى إلى حالة النظام السياسى الحديث المتوافق مع تطور الأفكار والمفاهيم السياسية المعاصرة . وانتقلت البلاد من وضع فيه تعددت السلطات الحاكمة ، إلى وضع تجمعت وتركزت فيه كل السلطات فى سلطة وسيادة واحدة ضمن نطاق الدولة الواحدة بدلا من الوحدات السياسية المتعددة .

ولقد هيأ هذا الجو ، ونعني به جو وحدة الدولة ، حالة من الاستقرار والأمن فى معظم أجزاء الجزيرة العربية . وكانت هذه الحالة من الاستقرار قد أدت إلى تطور اقتصادى واجتماعى فى ربوع البلاد السعودية أقنعت الفرد فى الجزيرة العربية بصلاحية نظام الدولة الموحدة وفائدته، وبالتالى ضروريته لتطوير المجتمع الذى يعيش فيه ، وذلك عن طريق تطور أوضاعه السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وخير مثال على عملية التطور الاجتماعى والاقتصادى فى الجزيرة العربية التى كانت نتيجة لقيام الدولة السعودية الموحدة ، حركة الاخوان البدوية ، الحركة التى تم بواسطتها توظيف البدو الرحل فى هجر (قرى زراعية) وبهذا نقلت العدوى فى حالة العمل بالرعى والتجوال بقطعان الماشية والإبل فى الصحارى ، إلى العمل فى الزراعة ، وهذا بدوره أدى إلى خلق مجتمعات حضرية وأدى كذلك إلى تناقص فى المتجمعات البدوية ، وأوجد روابط اجتماعية واقتصادية تختلف عن الروابط الاجتماعية والاقتصادية التى كانت سائدة قبل وجود الدولة الموحدة فى جزيرة العرب .

ولقد استطاعت الدولة الموحدة الجديدة أن تحتضن المجتمعات القبلية ، وتصهرهم فى بوتقة مجتمع الدولة ، الذى يكن ولاءاً . للحاكم — الملك — بدلا من شيوخ القبائل . ولما حاول بعض شيوخ القبائل كرؤساء الاخوان أن يستعيدوا سلطتهم التى قوضها ابن سعود بعد ثورتهم عليه ، استطاعت الدولة الموحدة أن توحد جهود القبائل ضد هؤلاء الثوار، وكانت النتيجة أن ازدادت قوة الدولة وازداد رسوخها فى عقلية السكان .

ولقد استطاعت الدولة الموحدة أن تنشر الأمن والطمأنينة فى ربوع البلاد السعودية ، وهذا بدوره قاد المجتمع السعودى إلى الطريق الذى يتجه به نحو حضارة الأمم المتمدينة والمتقدمة فى وقتنا الحاضر .

وهذا التطور فى مفهوم الدولة أثر فى تطور الأجهزة والمؤسسات

الحكومية التابعة لهذه الدولة . كما وأثر على الأنظمة والقوانين فى البلاد ، فأدى إلى إحداث قوانين جديدة ، وتنظيمات ولوائح تشريعية جديدة اقتضتها الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية الجديدة فى البلاد .

وتعتبر وحدة الدولة ومفهومها السياسى من العوامل الهامة التى قللت من حدة النزعة القبلية بعد أن ذابت فى النزعة الوطنية ، كما وأضعفت النزعة الإقليمية ؛ التى كانت تسود عقلية السكان فى الأقاليم النجدية والإحسائية والحجازية والعسيرية ، وظهرت بدلا منها النزعه الوطنية ونزعة الارتباط بالدولة بدلا من الارتباط بالإقليم والقبيلة .

وبهذا أصبحت الدولة فى نظر السكان سلطة شرعية ، يجب إطاعتها والتقيد بما تفرضه عليه من قوانين ، والعمل على طاعتها خوفاً من الوقوع تحت طائلة القانون ، لأن قبضتها على زمام الأمور فى البلاد أصبحت قوية بعكس ما كانت عليه سلطات الوحدات السياسية التى كانت تحكم البلاد قبل قيام الدولة السعودية الحديثة .

تطور مفهوم الألقاب السياسية فى جزيرة العرب .

لقد تطورت مفاهيم الألقاب السياسية فى جزيرة العرب تطوراً يتناسب مع تطور الأوضاع السياسية فيها . فالعادة الشائعة فى جزيرة العرب أن يطلق لقب أمير على حاكم المدينة والبلدة فى جزيرة العرب ، وأن يطلق لقب شيخ على حاكم القبيلة . وأحياناً يطلق لقب شيخ على حكام المدن والبلدان ، وفى هذا اللقب كان يدخل أيضا لقب الأمير .

وعند قيام الوهابية بويع الحكام السعوديون بإمامة الدولة السعودية الناشئة ، وأصبح لقب الحاكم فى هذه الدولة إماماً . وهذا اللقب يحوى المفهومين الدينى والسياسى ، وهو امتداد لألقاب الحكام فى الدول الاسلامية المتعاقبة

التي سبقت قيام الوهابية ، وأصبح لقباً لكل الحكام فى البلاد والأقاليم العربية التى قامت فيها حركات دينية سياسية استطاعت تسلم زمام المبادرة السياسية فيها.

والواقع أن معظم شيوخ أقاليم الجزيرة العربية وأمراءها كانوا يرغبون دائماً أن يلقبوا بلقب « حاكم » ، وأدلل على ما أقول فإن ابن سعود كان فى بداية حكمه يفضل أن يلقب بلقب حاكم نجد لما فى هذا اللقب من المفهوم السياسى ، وكان ينافسه فى هذا أمراء حائل من آل رشيد وكان ابن سعود لا يرغب أن يلقب بلقب أمير أو شيخ على اعتبار أن هذين اللقبين يستعملان للسلطة على مدينة أو بلدة[٣] لذا ظل ابن سعود يلقب بلقب « حاكم نجد » فى الفترة الواقعة ما بين سنة ١٩٠٢م — ١٩١٣ م ، وأن بريطانيا كانت ترى أن هذا اللقب يجب أن يكون مقتصراً على ابن سعود ، ولا يحق لحكام حائل من آل رشيد أن يلقبوا أنفسهم به[٤] . ولقد تطور لقب ابن سعود فيما بعد فأصبح يدل على معنى دينى على اعتبار أن ابن سعود هو إمام الوهابية — فيلاحظ من مراسلات ابن سعود إلى الشريف حسين بن على فى مكة أنه كان يوقع تحت لقب خادم الدولة والملة والوطن « أمير نجد ورئيس عشائرها » . ونلاحظ أنه ولغاية سنة ١٩١٥ م ظلت الدولة السعودية وظل لقب أميرها يتميزان بالصفة القبلية البدوية وبالصفة الدينية أكثر من تميزها بمفهوم سياسى وأن المسحة الدينية التى تحلت بها الدولة السعودية كانت تميزها عن غيرها من الوحدات السياسية الأخرى فى جزيرة العرب .

وبعد سنة ١٩١٥ م أخذ لقب ابن سعود يتغير تدريجياً بتغير مركزه ، واتساع رقعة أرضه ، وازدياد عشائره وبالتالى ازدياد قوته وتغير مركزه وموقفه تجاه الدول الكبيرة فى المنطقة ، كتركيا وبريطانيا . فمن وجهة النظر التركية فان الدولة العثمانية كانت قد وقعت مع ابن سعود معاهدة اعترفت به والياً على إقليمى نجد والاحساء . ومع هذا فان ابن سعود لم يستخدم هذا اللقب لأن المعاهدة التركية السعودية لم تخرج إلى حيز التنفيذ ، وإنما ظلت مجرد حبر على ورق ؛ بينما نرى أن لقب ابن سعود تغير ، فأصبح يلقب بلقب

« سلطان نجد وملحقاتها » ، ونلاحظ أن لقب أمير نجد تلاشى تدريجياً . ونلاحظ كذلك أن فى لقب « سلطان » تتمثل السلطتين الدينية والسياسية . ويمكن القول إن ابن سعود لقب نفسه بهذا اللقب الجديد ليتمشى مع ظهور الحركة الإخوانية الوهابية الجديدة ، وربما فى هذا كان يرى إظهار سيادة السلطة الوطنية لتحل محل سيادة السلطة التركية والسلطان التركى . ونلاحظ كذلك أن لقب ابن سعود وتطور مفهوم الدولة أخذا يقتربان من المفهوم السياسى أكثر من المفاهيم الأخرى ، إذ فى سنة ١٩١٥م اعترفت بريطانيا بحكم ابن سعود على نجد والاحساء » وبدأت الدولة السعودية الوهابية الجديدة تخرج من عزلتها الاقليمية فى مفهومها الدبلوماسى . وظلت بريطانيا فى العشرينات من القرن العشرين الميلادى تطلق على ابن سعود لقب « حاكم نجد وملحقاته »(٥) هذا وتشير الوثائق الانجليزية أن بريطانيا أخذت تتوقع أن ابن سعود سوف يلقب نفسه « بملك نجد » ، وأنه سوف يطالبها بالاعتراف بهذا اللقب ، وسوف يطالبها بالاستقلال التام والمطلق (٦) .

لقد ظل ابن سعود يلقب نفسه بلقب « سلطان نجد وملحقاته » إلى أن دخلت القوات الوهابية الطائف ومكة والمدينة المنورة ، وبعدها تغير هذا اللقب وتغير كذلك اسم الدولة السعودية ، وذلك بعد تنازل الملك على بن الحسين عن ملكية الحجاز لابن سعود . فى ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣٤٤هـ (٨ يناير سنة ١٩٢٦ م) تم إعلان ملكية الحجاز المضمومة إلى الحكم السعودى ، وصارت الدولة السعودية كمجتمعه يطلق عليها اسم « المملكة الحجازية والسلطنة النجدية وملحقاتها » ، وصار ابن سعود يلقب بلقب « ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاته » وبعد ضم ابن سعود لمنطقة عسير والمقاطعة الأدريسية غير لقب « سلطان » بلقب « ملك » ، وصار اسم الدولة السعودية « المملكة الحجازية والنجدية وملحقاتها » ، ولقب ابن سعود بلقب « ملك الحجاز ونجد وملحقاته » ، وقد تم هذا الإجراء فى ٢٥ رجب ١٣٤٥هـ

(١٩ يناير ١٩٢٧ م) . وقد أبلغ هذا اللقب إلى الدول الأجنبية لتعمل على مخاطبة ابن سعود به . والجدير بالذكر أن الحكم فى الحجاز ظل فى الفترة الواقعة ما بين سنة ١٩٢٧م حتى سنة ١٩٣٢ م ، ظل حكما ذاتيا إقليميا يتبع السيادة السعودية ، وظل الحجاز منذ دخول القوات الوهابية سنة ١٩٢٧م وحتى سنة ١٩٣٢م مملكة دستورية عاصمتها مكة المكرمة ، تمت إدارتها بواسطة نائب ملك نجد ، وكان ابن سعود قد عين ابنه الأمير فيصل آنذاك نائباً عنه ليدبر شئون المملكة الحجازية(٧) . ويجب هنا أن ننوه إلى أن لقب ملك كان قد دخل جزيرة العرب منذ سنة ١٩١٦ م ، حين لقب الشريف حسين نفسه بلقب « ملك الحجاز » ، ولقب مملكته « بالدولة العربية الهاشمية » .

ولما استقر الوضع السياسى لابن سعود بعد قيامه بعمليات الضم المتعددة لمعظم أقاليم شبه جزيرة العرب ، رأى بعد ذلك ضرورة القيام بعمل أقوى من أجل اتحاد دولة موحدة فى أجزائها ودستورها ، لأن فى ذلك أكثر طوعا لأوامره ، وأكثر فائدة لبلاده ، ولأنها حلا جذرياً لمشاكل الحدود التى كانت تنشأ مع الوحدات السياسية المجاورة لدولته فى جزيرة العرب وخارجها ، وكان ابن سعود يرى فى توحيد أقاليم دولته فى وحدة سياسية تغييراً للولاء التقليدى للفرد ، الذى كان دائما يخضع بولائه لقبيلته أكثر من خضوعه للوحدة السياسية ، وخضوعه للشيخ أكثر من خضوعه للحاكم ، وهذه النظرة العميقة للأمير تبين مدى إدراك ابن سعود لفوائد وحدة الأقاليم المتعددة فى دولة واحدة . فلما رأى ابن سعود أن جميع هذه العوامل تكاملت ، أصدر مرسوماً ملكياً فى ٢١ جمادى الأولى ١٣٥١هـ (٢٢ سبتمبر ١٩٣٢ م) يقضى بضم جميع أقاليم دولته فى وحدة سياسة أطلق عليها اسم « المملكة العربية السعودية » . وأطلق عليه لقب « ملك المملكة العربية السعودية » .

ونلاحظ فى التسمية الأخيرة للدولة السعودية : « بالمملكة العربية

السعودية ، ثلاثيا واضحا للقب إمام وأمير وشيخ ، ليحل محل الجميع لقب ملك ، وهذا اللقب ذو مفهوم سياسى كامل ، بعكس لقب الإمام الذى كان يضم المفهومين السياسى والدينى . ويمكن القول إن دخول لقب ملك إلى جزيرة العرب كان بداية انفتاحها الدبلوماسى على الغرب. وبدأ مفهوم الدولة الحديثة فى الجزيرة يبتعد تدريجيا عن مفهوم السياسية القبلية أو العشائرية أو الإقليمية . ونلاحظ كذلك أن أخذ ابن سعود « بلقب ملك » ثم تغيير الدولة من « سلطنة » إلى « مملكة » تضم مفهومى الاتحاد والتطور الحديث ، كان هذا الأخذ يعنى انفتاح عقلية ابن سعود ، وتجلى هذا الانفتاح حين بدأ يأخذ بأساليب الدولة الحديثة ، والحياة المدنية العصرية . وهذا يعكس وجهة نظر ابن سعود التى كانت ترى مسايرة الأوضاع السياسية الأكثر دبلوماسية والأكثر انفتاحاً والأكثر رسوخاً فى مفهوم الحكم وهذا يرينا مدى التغيير الذى طرأ على الوهابية المنبعثة ، التى بدأت تأخذ موقفاً أكثر مسايرة وانفتاحاً ، وأقل تزمتاً ، خاصة بعد فشل ثورة الاخوان فى بداية الثلاثينيات من القرن العشرين الميلادى . وبعدها أصبحت المفاهيم السياسية تأتى فى المركز الأول والأقوى فى تسيير إدارة واتجاه الدولة فى جزيرة العرب .

المراجـــع

(١) انظر : HUSIL (ALIOS), NORTHERN NEJD, p 302

(٢) انظر : Goblet (Y. M.), The Twilight OF Treahés p. 77.

(٣) انظر : F.O. 371. Vol. 3389, p. 485

(٤) انظر : F.O. 686. Vol. 24, p. 109, Secret, on 28 January, 1919.

(٥) انظر : F.O. 371. Vol. 4144, p. 120.

(٦) انظر : F.O. 371. Vol. 12244.

(٧) انظر : LIPSKY (G. A.), Saudi Arabia ,Its People, itS Society, itS Culture, p. 114.

سياسة بريطانيا فى مسقط وزنجبار

(١٨٥٦ — ١٨٧٣م)

للدكتور جاد طه
مدرس التاريخ الحديث
بكلية الآداب — جامعة أسيوط

يعتبر انضمام عمان وشرق أفريقية تحت حكم دولة البوسعيد تحديدا لقيام أول دولة آسيوية أفريقية فى العصر الحديث . إلا أنه من ناحية أخرى كان من المستحيل أن تسيطر سلطنة عمان سيطرة فعلية على ممتلكاتها فى شرق أفريقية ، وكانت سياسة السيد سعيد بن سلطان القائمة على تأكيد سيطرته على ممتلكاته الأفريقية من أهم الأسباب التى دفعته إلى الإنتقال بمركز حكمه من مسقط إلى زنجبار فى عام ١٨٣٢ (١) .

على أن السيد سعيد لم يلبث أن تحقق بنفسه من صعوبة الاحتفاظ بممتلكاته فى الجزيرة العربية ، فإن بقاءه فى زنجبار كان يعنى الفوضى والاضطراب فى عمان ، بل إنه كان يضطر كثيراً إلى أن يغادر زنجبار لكي يواجه الأمور فى عمان .

وعلى الرغم من أن السيد سعيد قد نجح فى خلال السنوات الأولى من حكمه من أن يفرض نوعاً من السيطرة على عمان ، فإن تمسكه بزنجبار ونقله مركز حكمه إليها ، كان له أثر واضح فى إهماله للأحداث فى عمان ، حتى غدا سلطانا على زنجبار أكثر منه سلطانا على عمان (٢) . على أن زنجبار ظلت طيلة الحكم الطويل للسيد سعيد – والذى امتد من عام ١٨٠٧ إلى عام ١٨٥٦ – ظلت من الناحية الرسمية تابعة لمسقط(٣) .

وفى السنوات الأخيرة من حكم سعيد بن سلطان ، بلغت ممتلكات دولة بوسعيد أقصى إتساع لها ، فقد كانت الامبراطورية تمتد فى اقليم عمان من رأس ما سندوم إلى صحار ، كما اشتملت أيضا على بعض الأراضى الفارسية على سواحل الخليج العربى(٤) ، ومنها ميناء بندر عباس الذى استأجرته دولة بوسعيد من فارس لمدة عشرين عاما اعتبارا من عام ١٨٥٥(٥) . أما بالنسبة للممتلكات الافريقية، فقد كانت تضم كل الساحل الشرقى الافريقى من رأس جواردفوى شمالا إلى رأس دلجادو جنوبا ، هذا بالإضافة إلى عدة مقاطعات كانت تخضع لحماية الدولة العمانية كمقديشيو ولامووبات(٦) . وكانت تدخل ضمن تلك الامبراطورية أيضا الأراضى الداخلية التى كان يطرقها التجار العرب ، وكان هؤلاء يعترفون بشيء من السيادة للسلطان . ولم تقتصر ممتلكات دولة عمان على تلك الأراضى التى ذكرناها ، وإنما امتدت الادعاءات والمطالب العمانية إلى بلاد أخرى ، وإن لم يتحقق لهذه الدولة ما كانت تنشده من سيطرة على تلك البلاد ، كجزيرة البحرين وزيلع وعدن وغيرها(٧) .

إلا أن هذا الاتساع فى ممتلكات السيد سعيد ، ونتيجة لبعد مركز الحكم من ناحية ، وللتنافس والتنازع الأسرى وثورات القبائل المعارضة من ناحية أخرى ، كل هذا أدى إلى عدم استقرار الحكم بصفة عامة . وإذا كان السيد سعيد قد فشل فى تحقيق الاستقرار لحكمه رغم ما حظى به من

تأييد أجنبي(٨) ، خاصة وأنه كان حليفاً دائماً لبريطانيا طيلة حكمه الطويل(٩) ، وكذلك رغم ما حظى به من تأييد وطني إلى حد كبير ، فقد كانت النتيجة الحتمية هى استحالة الوصول إلى حكم مستقر بعد وفاته(١٠) . ومن المحتمل أن يكون السيد سعيد حين قسم الدولة إدارياً بين اثنين من أبنائه ، أنه يريد أن يسهل عليهما مهمة إداراتها ، وان كان هذا لا يعني بالضرورة رغبة السلطات فى تقسيم السلطنة إلى دولتين منفصلتين كما فسرتها الحكومة البريطانية فيما بعد .

ويبدو أن رغبة السيد سعيد فى تقسيم ممتلكاته قد راودته عقب نقله لعاصمته من مسقط وإقامته الدائمة فى زنجبار(١١) . ففى عام ١٨٤٤ عين السيد سعيد ابنه السيد خالد كخليفة له فى ممتلكاته الافريقية ، كما عين ابنه الآخر السيد ثوينى كخليفة له فى مسقط(١٢) .

وفى الواقع ؛ فإن وضع دولة بوسعيد كان حرجا للغاية بعد وفاة السيد سعيد فى عام ١٨٥٦(١٣) ؛ فان البعد بين الاقليمين يبلغ عدة آلاف من الأميال ، وقد قضى السيد سعيد تاركاً أكبر أبنائه السيد ثوينى حاكماً على مسقط وابنه الآخر السيد ماجد حاكماً على زنجبار ، ولكن لم يكن هناك من يخلف السيد سعيد نفسه(١٤) .

وكان السيد خالد قد مات فى عام ١٨٥٤ وفى حياة أبيه ، وبعد وفاة السيد سعيد ، وبتأييد من الانجليز ، تمت مبايعة السيد ماجد حاكماً على زنجبار(١٥) .

وهكذا انقسمت السلطنة بطريقة فعلية بعد وفاة السيد سعيد ، وأصبح السيد ثوينى حاكماً على مسقط والسيد ماجد حاكماً على زنجبار(١٦) ، فى الوقت الذى عمل فيه ابن ثالث للسيد سعيد وهو السيد تركى على الاستقلال بالقسم الشمالى فى ولاية صحار(١٧) .

وقد تعرض حكم السيد ماجد لعدة أخطار قبل أن يثبته الانجليز بتحكيمهم فى عام ١٨٦١ ، ومن هذه الأخطار الاضطرابات التى أثارتها قبيلة الحارث أكبر العائلات العربية فى زنجبار ، وكانت تعتمد على الرقيق فى فلاحة مزارعها الشاسعة ، وكانت تأمل بعد وفاة السيد سعيد أن تتخلص من القيود التى فرضتها بريطانيا على تلك التجارة إلا أنها وجدت أن السيد ماجد أكثر انصياعاً للانجليز من أبيه(١٨) . وقد طلبت هذه القبيلة من السيد برغش أن يقودها فى صراعه مع أخيه السيد ماجد ، إلا أن هذه القبيلة رغم ترحيبها ببرغش لرئاستها ، فإنها فى الواقع كانت تضمر نية الغدر بالأخوين والتخلص من أسرة بوسعيد كلهـــا ، ووضع حاكم منها على زنجبار(١٩) .

ومن المشكلات الأخرى التى واجهت السيد ماجد ، رغبه السيد ثوينى فى توحيد السلطنة تحت حكمه ، وكانت لديه من المبررات مايستطيع بها أن ينازع شقيقه ماجد حكمه فى زنجبار ، فهو أكبر أبناء السلطان سعيد بن سلطان ، وهو الذى يحكم أقاليم الوطن الأم ، كما أنه يستمد من بيعة القبائل العربية له هيبة أدبية(٢٠) .

لم تكن القسمة عادلة ، فموارد القسم الافريقى تبلغ نحو ضعف موارد القسم الآسيوى ، ويبدو أن السيد ماجد كان مقتنعاً بهذه الحقيقة ، حتى أنه قبل أن يدفع إعانة سنوية لمسقط قبل أن يفرض عليه تحكيم الانجليز ذلك(٢١) ، ووقع بالفعل على اتفاق مع أخيه السيد ثوينى ، تعهد بمقتضاه أن يدفع ٤٠,٠٠٠ ريال سنوياً له . إلا أنه نشأت مشكلة عن طبيعة هذه الاعانة ، وهل تعنى نوعا من التبعية من جانب زنجبار لمسقط ، أم أنها بمثابة إعانة شخصية من أخ غنى إلى أخ فقير(٢٢) . ويبدو أن اصرار ثوينى على اعتبار الأمر الأول هو الذى دفع السيد ماجد إلى الامتناع عن الدفع عندما

احتدمت المشكلة ، وكان هذا من الأسباب التى دفعت السيد ثوينى للجوء إلى الحرب(٢٣) .

واستطاع السيد ثوينى أن يستميل أحد أخوته وهو السيد برغش ، الذى كان يعمل من ناحيته على خلع السيد ماجد ليحل محله فى الحكم وقد حاول أن يقوم باحداث ذلك الانقلاب عند وفاة أبيه ، فأخفى نبأ وفاته ، ولكنه فشل فى حركته هذه ، ومن ثم أظهر استعداداً لمحالفة أخيه السيد ثوينى ضد السيد ماجد ، ونجح ثوينى بالتعاون مع برغش فى تأليب القبائل المعارضة لحكم ماجد فى الشرق الافريقى ، كما سعى لنيل التأييد الأجنبى لأطماعه(٢٤). واتصل ثوينى بالفعل بالفرنسيين ، وكانت فرنسا فى ذلك الوقت تعمل جاهدة لتوطيد نفوذها على شواطئ الساحل الشرقى الأفريقى مستغلة فرصة وفاة السيد سعيد الذى كان سنداً للنفوذ البريطانى فى تلك الأنحاء(٢٥). وقد أرسل السيد ثوينى بالفعل إلى نابليون الثالث امبراطور فرنسا يعرض صداقته معه(٢٦). وقد كان اتجاه السيد ثوينى إلى الفرنسيين أو إلى القبائل العربية مزعجاً للسياسة البريطانية ، فأصرت على التدخل فى الأمر ، وأرسل همرتون القنصل البريطانى فى زنجبار إنذاراً شديد اللهجة إلى عبد الله بن سالم رئيس قبيلة الحارث حتى يكف عن التآمر مع ثوينى ضد ماجد .

وكانت انجلترا تؤيد تقسيم السلطنة ، وتعارض فكرة ضم ممتلكات ثوينى إلى ممتلكات ماجد ، فوقفت بجانب الأخير متذرعه بأن أية حرب بين الأخوين سوف تشكل خطراً على مصالحها فى الطريق البحرى إلى الهند(٢٧) .

وقد حاول ثوينى بالفعل إعادة توحيد السلطنة ، وبدأ فى إعداد حملة سنة ١٨٥٩ لإرسالها إلى زنجبار (٢٨) ، إلا أن السلطات البريطانية فى الهند أسرعت إرسال الكولونيل رسل Russel — أحد ضباط البحرية الهندية — لكى يوقف تقدم الحملة . واستطاع رسل أن يصل فى الوقت المناسب ،

مما أضطر ثوينى إلى التراجع إلى مسقط بعد أن أغلق الأسطول البريطانى الطريق فى وجهه (٢٩) .

وتبالغ التقارير البريطانية فى ابراز مسئولية فرنسا عن الأزمة ، وتعلل ذلك بأن فرنسا كانت تريد أن تحصل من السيد ثوينى أو من السيد برغش على تنازل عن بعض الأراضى فى شرق أفريقية مثل ممبسه أو براوه فى مقابل مساعدتها لهما ضد السيد ماجد . كما أن فرنسا كانت ترغب فى إحياء تجارة الرقيق نظرا لحاجتها إلى العمال الأفريقيين للعمل فى المستعمرات التى ضمتها مؤخراً(٣٠) . كما أن هناك سبباً آخر جعل فرنسا تزيد من اهتمامها بزنجبار ، وهو ازدياد التبادل التجارى مع الساحل الشرقى الأفريقى فى ستينات القرن التاسع عشر ، ولا شك أنه ترتب على هذه السياسة الفرنسية فى زنجبار أن ازداد السيد ماجد تقرباً إلى الإنجليز وانصياعاً لهم .

ونتيجة للدعم البريطانى للسيد ماجد ، فإنه أخذ يعد العدة للتخلص من منافسيه ، فبدأ بالتخلص من زعماء قبيلة الحارث(٣١) . إلا أنه لم يهتم كثيراً بأمر أخيه السيد برغش ، لأن أمره كان يهم بريطانيا أكثر مما يهمه هو شخصياً وذلك نتيجة لاتصاله بالفرنسيين ، ولذلك بادرت بريطانيا بالقبض عليه ونفيه إلى بومباى(٣٢) .

ولم يقف الأمر عند حد تقديم المعونة البريطانية للسيد ماجد ، بل حاولت بريطانيا أن تحل النزاع بين مسقط وزنجبار بطريقة يقبلها الطرفان ، أو يرغمان على قبولها إذا استدعى الأمر ذلك . ولا شك أن بريطانيا كانت تهدف إلى تقسيم امبراطورية بوسعيد ، فهذا التقسيم سوف يمهد لها سبيل السيطرة على إقليمى الدولة . وبطبيعة الحال فإن تأييدها للسيد ماجد ومجهوداتها فى المحافظة على حكمه فى زنجبار أدت إلى تدعيم نفوذها فى تلك المنطقة . وهكذا أمكنها فى النهاية أن تتحكم فى كل من سلطان مسقط باعتبار أن ممتلكاته

واقعة فى مناطق نفوذها فى الخليج العربى، وسلطان زنجبار لما لها من فضل عليه فى الاحتفاظ له بملكه من أطماع المنافسين له .

كما أن بريطانيا كانت تدرك بلا شك ، أنها إن لم تتدخل فى ذلك النزاع الناشب بين مسقط وزنجبار ، بما يحقق فى النهاية تحقيق الهدوء والسلام بينهما، فإنه قد تتأثر المصالح البريطانية فى الطريق الموصل إلى امبراطوريتها فى الهند ، ونتيجة لذلك أرسلت الحكومة البريطانية بعثة إلى كل من مسقط وزنجبار فى عام ١٨٦٠ بهدف التحقيق فى أسباب النزاع القائم بين البلدين . وقد رأس هذه البعثة الكولونيل كوجلان W.M Coghlan المقيم السياسى فى عدن(٣٣) .

وكان هذا هو الهدف الظاهر من بعثة الكولونيل كوجلان، أما الهدف الحقيقى فهو تحقيق الهدوء بين البلدين بما يحول دون تدخل الفرنسيين فى تلك المناطق الهامة على الطريق البحرى إلى الهند .

وكان كوجلان قبل قيامه بهذه البعثة ، قد قام فى ١٦ يناير سنة ١٨٦٠ يرافقه المستر بادجير Badger برحلة من عدن فى البحر الأحمر فزار بريم ومصوع وخرائب أدوليس وزولا فى خليج أنسلى . وقد وجد كوجلان أن الأتراك فى مصوع يساورهم الشكوك بالنسبة للتحركات الفرنسية . وقد أشار كوجلان إلى أن هذه التحركات الفرنسية « تستحق الاهتمام الشديد من جانب حكومة جلالة الملكة، وهى فى النهاية ستؤدى إلى العراقيل التى فى حالة حدوث حرب بين البلدين سوف تؤثر تأثيراً خطيراً على المواصلات بين بريطانيا والهند(٣٤) » .

وعلى أية حال ، فقد وصلت بعثة كوجلان إلى مسقط فى شهر يونيو ١٨٦٠ لتتعرف على مطالب السيد ثوينى ، ثم تقدمت إلى زنجبار فى سبتمبر من نفس السنة لتتعرف على مطالب السيد ماجد .

وكان من نتيجة الأعمال والدراسات التي قامت بها البعثة ، أنها ذكرت أن الطريقة التي يتولى بها الحكم سلاطين أسرة بوسعيد ، إنما تقوم على أساس الانتخاب، وأنه عقب وفاة السيد سعيد بن سلطان ، فإن أهل زنجبار انتخبوا ابنه السيد ماجد حاكما عليهم(٣٥) . وعلى ذلك فليس هناك مبرر لمطالب السيد ثويني في السيطرة على ممتلكات أخيه ، وينبغي إذاً أن يبقى كل منهما سلطاناً في مكانه .

وهكذا قدمت البعثة تقريرها إلى اللورد كاننج Canning الحاكم العام للهند ، والذي استند عليه في وضع التحكيم المشهور في عام ١٨٦١ . وطبقا لهذا التحكيم تم إقرار السيد ماجد في منصبه كحاكم على زنجبار والممتلكات الأفريقية خلفاً للسيد سعيد(٣٦) . ونص التحكيم على أن يدفع حاكم زنجبار ٤٠,٠٠٠ ريال سنوياً لحاكم مسقط ، هذا بالإضافة إلى دفع المتأخرات المستحقة عن العامين الأخيرين(٣٧) .

كما نص التحكيم على أنه لاينبغي لحكام مسقط أو لقبائل عمان التدخل في شئون زنجبار ، كما أوضح كاننج بأن هذا المبلغ الذي يدفعه حاكم زنجبار إلى حاكم مسقط لايعني أية تبعية من جانب زنجبار لمسقط ، وإنما قصد به تحقيق المساواة بين ميراثي الأخوين ، لأن أراضي زنجبار أكثر غنى من أراضي مسقط(٣٨) . فضلا عن أن حكومة مسقط كانت تدفع سنويا نحو ٢٠,٠٠٠ ريال للسعوديين(٣٩) .

وكتب كاننج إلى كل من ثويني وماجد موضحا اقتناعه بعـــدالة هذه الشروط ، وأنه ليس فيها مايخل بالشرف(٤٠) .

وقد أرسل السيد ثويني بن سعيد خطابا في ١٥ مايو ١٨٦١ إلى لورد كاننج يشكره على هذا التحكيم ويقر بموافقته على بنوده(٤١) .

وهكذا ، ونتيجة لهذا التحكيم ، تأكدت العلاقة بين زنجبار ومسقط على أنها علاقة مالية فقط ، أى أنه كان على زنجبار أن تدفع تلك الإعانة السنوية لمسقط ، وبخلاف ذلك ، كانت العلاقات قليلة بين قسمى السلطنة السابقة .

ويلاحظ أن الطابع الأفريقى أخذ يغلب على سلطنة زنجبار فى عهد السيد ماجد نتيجة لانقطاع الصلة بالوطن الأم ، وقد ساعدت سياسة السيد ماجد تحقيق هذه النتيجة ، فقد اتخذ بعض الإجراءات التى أدت إلى اضعاف الصلات بين زنجبار ومسقط ، ففى عام ١٨٦٤ منع سفن مسقط من الملاحة فى مياه زنجبار إلا إذا أبرزت أوراقا تثبت أنها تتجر فى سلع شرعية ، وذلك بحجة المساهمة مع بريطانيا فى مكافحة تجارة الرقيق ، كما كتب إلى مشايخ الخليج العربى بأن لا يرسلوا سفنهم بعد ذلك إلى زنجبار . كما حرم السيد ماجد على سكان زنجبار تأجير المساكن للتجار العرب الآتين من شبه الجزيرة العربية . وأخيراً أوقف السيد ماجد الهدايا التقليدية التى كان يقدمها لسلاطين القبائل عمان ، مما يدل على انصرافه نهائياً عن فكرة توحيد السلطنة(٤٢) التى أقامها والده السيد سعيد بن سلطان .

وبعد أن شعر السيد ماجد باستقرار حكمه ، أصبحت أهداف سياسته تنحصر فى محاولة التخلص من دفع الإعانة السنوية لمسقط ، حتى يمكنه بذلك إلغاء آخر رمز يشير إلى الصلة بين زنجبار ومسقط . وكانت أول فرصة أتاحت له محاولة تنفيذ هذه السياسة هى مقتل أخيه السيد ثوينى عام ١٨٦٥ ، فعلى أثر وقوع هذا الحادث ، بعث إلى حكومة الهند يستأذنها فى ارسال حملة إلى عمان للانتقام لمقتل أخيه وانزال العقاب بالسيد سالم ابن أخيه السيد ثوينى والمتهم بقتله واغتصاب السلطة فى مسقط(٤٣) .

ومن الثابت — طبقا لما جاء فى الوثائق البريطانية — أن السيد سالم

قتل أباه السيد ثويني فعلا ، « فالجريمة ثابتة ، وقد تم التنفيذ أمام المثات بأن قتله رميا بالرصاص(٤٤) » .

فليس هناك شك إذاً في أن السيد سالم قد قتل أباه ثويني ، ومن ثم فإن السيد ماجد سلطان زنجبار وشقيق القتيل ومعه السيد تركي الشقيق الثالث الذي كان في عمان أصبحا طبقاً للتقاليد العربية مرتبطين بالثأر لشقيقهما الراحل ، وذلك بالعمل على قتل ابنه وقاتله السيد سالم ولاشك أنه كان في إمكان السيد ماجد والسيد تركي تنفيذ هذا الأمر ، لأنه كان في استطاعتهما الحصول على معاونة غالبية القبائل في عمان . إلا أن السلطات في الهند تدخلت في الأمر ، ومنعتهما من غزو مسقط ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أن الإنجليز قاموا بالقبض على السيد تركي وحبسوه ثم أفرجوا عنه بعد تعهده بعدم غزو مسقط من البحر .

وقد أبدى السيد ماجد وجهة نظره بالنسبة لهذه المسألة ، فأوضح بأنه مرتبط بكل الاعتبارات التي تربط أي حاكم عربي «بأن أتوجه لمقاتلة سالم ، وأنتقم لدماء أخي ، وإذا ما منعني الانجليز بالقوة – مثلما فعلوا مع تركي – من تخليص وطني وعائلتي من هذا الوحش ، فأنا مثل تركي سوف أخضع للقوة الكبرى (الانجليز) إلا أنني من ناحية أخرى سوف لا أستمر في دفع ما ارتبطت بدفعه إلى أخي إلى قاتله ، ونتيجة لتقسيم عادل لميراثنا » . ولا شك أن كلمات السيد ماجد تبدو مقنعة ، وأن انتقامه لمقتل أخيه هو حق طبيعي طبقا للتقاليد العربية ، وكذلك فإنه من غير المقبول أن يمنح إعانة لمن قتل أخاه(٤٥) .

إلا أنه من وجهة النظر الأخرى ، فإن السيد ماجد سلطان زنجبار كان مرتبطا بموجب تحكيم عام ١٨٦١ بدفع ٤٠,٠٠٠ ريال سنويا لأخيه السيد ثويني ولخلفائه من بعده ، وهذا الارتباط ليس ارتباطا شخصيا بين أخ وأخيه . بل هو ارتباط التزمت به عائلة بوسعيد كلها ، كما أن السير وليام كوجلان

الذى فاوض فى هذا التحكيم،والذى عاونه المستر بادجر Badger قررا بأن حاكم زنجبار كان يفهم ذلك تماما ، وأنه وافق على هذا التحكيم دون قيد أو شرط . أما الادعاء بأن هذا التحكيم كان مجرد اتفاق شخصى ينتهى بوفاة السيد ثوينى الحاكم السابق لمسقط فلا يمكن الأخذ به . هذا بالإضافة إلى أن الذريعة الأخرى التى قدمها حاكم زنجبار بقوله أن الحاكم الحالى لمسقط هو قاتل أباه السيد ثوينى وشقيقه هو شخصياً وأنه مغتصب للسلطة ، وأنه فى مثل هذه الظروف فإنه من غير المعقول أن يمنح مالا لقاتل أخيه ، فيمكن الرد على ذلك بأنه مهما كانت الخصال الخاصة للسيد سالم ، فإن الحكومة البريطانية قد اعترفت به ، وأنه عليها أن تحافظ على مصالحه ، وأكثر من ذلك ، فإن الضالعين فى تاريخ عمان يعلمون جيداً بأن تلك الأحداث كقتل الأقارب ، والمشكلات العائلية التى تنجم عن ذلك ، هى أمور كثيرة الحدوث فى تلك المنطقة(٤٦) .

وكانت وجهة نظر حكومة الهند تنحصر فى أنه « يجب عدم إدخال العواطف فى مسألة السيد سالم » ، فهو ليس أول حاكم شرقى اعتلى السلطة وسط الدماء ، والسيد سعيد نفسه طعن عمه واحتل مكانه فى السلطة ، ولم تجد القبائل العربية فى هذا العمل ما يمكن مؤاخذة السيد سعيد عليه ، هذا بالإضافة إلى أن سالم قد تم انتخابه حاكما على مسقط طبقاً للقواعد السائدة هناك ، وتتعامل معه حكومة الهند على أنه الحاكم الشرعى لمسقط(٤٧) .

ومن وجهة النظر البريطانية ، فإن الاعتراض الذى قدمه السيد ماجد بالنسبة للاعانة المخصصة لمسقط هو مجرد ذريعة . وأنه إذا كان على السيد ماجد أن يأخذ بدلا من أن يدفع « فإنه كان سيأخذ الأربعين ألف ريال دون أن يشم رائحة دماء أخيه »(٤٨) .

وقد أوضح السير كوجلان – الذى قام بمفاوضات تحكيم سنة ١٨٦١ –

خطورة الموقف بالنسبة للسياسة البريطانية ، « . . . فهى كمسألة سياسية تعد الحكومة البريطانية مسئولة عنها ، فإنه فى تقديرى ، فإنها ستكون لها أسوأ الآثار المحتملة فى عمان والخليج الفارسى إذا ما سمحت الحكومة البريطانية بإيقاف الشروط السابق الموافقة عليها(٤٩) » ، لأن ذلك بطبيعة الحال سوف يؤدى ببقية الرؤساء فى المنطقة إلى التنصل من ارتباطاتهم مع الحكومة البريطانية ، طالما أن الذى لا ينفذ ارتباطاته معها لا يواجه العقاب الرادع. ولا شك أن ذلك سوف يؤدى إلى ضياع الهيبة البريطانية فى المنطقة .

واحتضنت حكومة الهند فكرة إجبار سلطان زنجبار على ما ارتبط بدفعه ، ولو أدى الأمر إلى استخدام القوة معه ، وانه يمكن إرسال سفينة حربيه لإرغامه على تنفيذ ارتباطاته(٥٠) .

إلا أن وزارة الدولة كانت لها وجهة نظر مخالفة ، إذ رأت أنه من غير المعقول استخدام القوة لإجبار سلطان زنجبار على دفع ٤٠،٠٠٠ ريال لسلطان مسقط دون بحث موضوع الخلاف الناشئ عن حقيقة مقتل السيد ثوينى ، ومعاقبة القاتل طالما ثبت أنه مذنب فعلا ، أو ترك العم (السيد ماجد) وابن أخيه (السيد سالم) اتخاذ ما يرونه لتسوية خلافاتهما « ولا يوجد عربى واحد تخدعه التنظيمات الأخيرة التى اتخذتها حكومة الهند ، بل أنها أثارت بالفعل شكوك العرب ، لأننا لموضوع خاص ولمصلحتنا الخاصة ، وافقنا سراً على جريمة القتل التى ارتكبها السيد سالم، بل وعملنا على الاستفادة منها . والحل الوحيد الذى يمكن به حل المشكلة — دون فقد مزيد من الشرف — هو إعفاء زنجبار من دفع المعونة السنوية لمسقط ، وأن ندفعها نحن للسيد سالم(٥١) » .

إلا أنه من ناحية أخرى ، فانه كان يمكن استغلال موقف السيد سالم — من وجهة النظر البريطانية — وجعله ركيزة للسياسة البريطانية فى المنطقة،

فقد كان فى موقف يملى عليه قبول أية شروط بريطانية فى مقابل حصوله على الدعم الأدبى الذى حصل عليه باعتراف بريطانيا به كحاكم شرعى لمسقط ، وكذلك للمساعدات الضخمة التى قدمتها له بريطانيا ، وأكثر من ذلك الضغط الذى مارسته على السيد ماجد حتى لا يقوم بالثأر منه وعزله من السلطة فى مسقط .

ولا شك أنه من وجهة النظر البريطانية ، فانه يجب أن يكون حاكم مسقط مناوئا للوهابيين ، وإذا كان السيد سالم محتاجا إلى المعونة البريطانية فى هـــذا الصدد ، فانه بطبيعة الحال سيكون متعاونا ومتمشيا مع السياسة البريطانية وعلى أية حال فقد بدأ السيد سالم وكأنه يتمتع بحماية بريطانية خاصة(٥٢) .

وهكذا نجد أن سياسة بريطانيا الثابتة فى مسقط ، والتى ترمى إلى عدم التدخل فى شئونها الداخلية قد أصابها شئ من التغيير ، فان الانجليز بين عامى ١٨٦٦ ، ١٨٦٨ قد ساعدوا السيد سالم قاتل والده السيد ثوينى ، كما واجهوا أقاربه الذين أرادوا إسقاطه فى مسقط، وحبسوا عمه وقاموا بنفيه ، وهددوا العم الآخر باستخدام القوة ضده إذا استخدم حقه المشروع كحاكم مستقل فى معاقبة ابن أخيه ، وأخيراً فان الانجليز منحوا القاتل حمايتهم لمواجهة عصيان القبائل فى عمان(٥٣) .

على أنه هناك تساؤل محير ، لماذا ألقت بريطانيا بكل ثقلها فى جانب السيد سالم ، وقدمت إليه مساعداتها ضد كل الأخطار المحدقة به ؟ والقول بأنه قد تم إنتخابه بواسطة من له حق الانتخاب فى مسقط لا يكفى لإيضاح ذلك ، لأن هذا الانتخاب قد تم بمعاونة الانجليز وتعضيدهم ، كما أن إجبار السيد ماجد سلطان زنجبار بعدم معاقبة ابن أخيه السيد سالم على جريمته تم أيضاً على أيدى الانجليز،فلماذا إذا قامت بريطانيابهذه الأعمال والمساعدات تجاه السيد سالم؟ .

فى الواقع أن السياسة البريطانية كانت ترمى منذ باديء الأمر إلى تثبيت تقسيم سلطنة مسقط - زنجبار ، بل أنها كانت تعترض على أية محاولة من جانب زنجبار لضم مسقط إليها ، وكذلك أية محاولة من جانب مسقط لضم زنجبار فى عام ١٨٦١ . وعندما حل الدور على السيد ماجد لإرسال قوة إلى مسقط لمعاقبة ابن أخيه السيد سالم،فإن هذا سيؤدى بالتالى إلى تسلط السيد ماجد على مسقط ، ويؤدى أيضاً إلى إعادة السلطنة المتحدة مرة أخرى كما كانت أيام السيد سعيد بن سلطان مؤسس سلطنة مسقط زنجبار . فكأن الإبقاء على الوضع الراهن Status Quo أى الإبقاء على كل من سلطنتى مسقط وزنجبار منفصلتين هو الذى أدى ببريطانيا إلى الوقوف بجانب السيد سالم ضد أخيه السيد ماجد ، رغم أن الأخير كان شديد الولاء لها ، ورغم أن الأول - وخاصة فى الأيام الأولى لحكمه لم يكن واضحاً ما إذا كان سيتخذ سياسة متمشية مع المصالح البريطانية أم أنه سيتخذ سياسة مناوئة لها ، إلا أن الحكومة البريطانيـــة اتخذت رغم ذلك إجراءات فعالة لمعاونة السيد سالم .

ومن ناحية أخرى ، فإن الوهابيين كانوا قد تقدموا إلى مناطق الخليج ، وأصبح لهم نفوذ كبير هناك ، ولا شك أن الموقف الشائك الذى كان فيه السيد سالم ، كان يحتم عليه أن يلجأ إلى قوى خارجية تدعم حكمه ، فهو يواجه عداء أسرته فى مسقط ، وتألب القبائل عليه ، وهو يواجه عداء أخويه السيد ماجد والسيد تركى اللذين أصرا على الانتقام والثأر لمقتل أخيهما السيد ثوينى وقد اعترفت حكومة الهند بأنهما قادران على هذا الانتقام . ولذلك كان من الطبيعى أن يلجأ السيد سالم إلى الوهابيين كى يدعموا موقفه ، طالما أن الحكومة البريطانية تعضد وتعاون السيد ماجد سلطان زنجبار . وإذا كانت وجهة النظر البريطانية ترمى إلى وجوب أن يكون حاكم مسقط معارضاً للوهابيين ، فإنه يمكن معاونة السيد سالم ضد الوهابيين وضد أى قوى أخرى طالما أنه

يتخذ سياسة متمشية مع السياسة البريطانية . وكان رأى وزارة الدولة أن « رغبتنا واضحة فى استخدام نفوذنا لمنع التوسع الوهابى ، لأنه سيقف حائلا أمام المساعى البريطانية للقضاء على القرصنة ، وتحقيق المصالح التجارية البريطانية(٥٤) » .

وهكذا يبدو واضحاً ، أنه — من وجهة النظر البريطانية — فإنه يجب تقديم المعاونة للسيد سالم قبل أن يرتمى فى أحضان الوهابيين ، مما يؤثر على المصالح والسياسة البريطانية ، وكذلك عدم السماح لأخويه بمعاقبته ، لأن هذا قد يؤدى إلى إعادة توحيد سلطنة مسقط وزنجبار مرة أخرى لأن هذا التوحيد يتعارض مع السياسة البريطانية القائمة على تثبيت الانفصال بين شطرى السلطنة المتحدة والتى أقامها السيد سعيد بن سلطان .

وهذا فى رأينا هو الذى أدى بحكومة الهند إلى سرعة الاعتراف بالسيد سالم كخليفة لأبيه السيد ثوينى ، وكحاكم شرعى لمسقط دون نظر إلى الوسيلة الدموية التى استولى بها على الحكم(٥٥) .

وعلى أية حال ، فقد تشبث الحاكم العام للهند بتحكيم عام ١٨٦١ ، وأوضح بأن السيد سالم قد أصبح الحاكم الفعلى لمسقط وأن على السيد ماجد أن ينفذ ارتباطه . وهكذا لم يكن فى وسع السيد ماجد إلا أن يسير وفق هذه التعليمات على أنه لم يكف بعد رفض حكومة الهند إعفاءه من دفع الإعانة لمسقط عن محاولات أخرى لدى الحكومة البريطانية للتخلص من آثار التحكيم ، وكان رأى كيرك القنصل البريطانى الجديد فى زنجبار أن لا يجبر ماجدا على دفع الإعانة(٥٦) .

ولا شك أن مسقط كانت تحتاج إلى الإعانة من زنجبار ، وهى تحتاج إليها كى تدفع قيمة إيجار ميناء بندر عباس إلى فارس ، وهذا هو الوجه الآخر للمشكلة ، وقد تبدو مسألة بندر عباس بعيدة عن موضوع علاقات مسقط

بزنجبار ، إلا أنها فى حقيقة الأمر ملتصقة به تمـاما ٥) . فقد أجبر الفرس على التنازل عن سيادتهم على بندر عباس . وهى ميناء تقع فى الجانب الشرقى من الخليج العربى(٥٨) . ونظم الأمر باعتبار أن مسقط قد استأجرت بندر عباس لمدة عشرين عاما من عام ١٨٥٥ ، على أن تدفع ١٦٠٠٠ ريال سنويا قيمة هذا الإيجار . إلا أن الاتفاق نص على أن شاه فارس يمكنه أن يتحرر من ارتباطه ، إذا ما استولى على السلطة فى مسقط أى مغتصب . وبالنسبة لهذه النقطة فإن السيد سالم كان مغتصباً للسلطة بعد أن قتل والده السيد ثوينى الذى أبرم هذا الاتفاق مع فارس .

والنقطة الجوهرية فى الموضوع هى أن مسقط كانت تدفع لفارس القيمة الإيجارية من الإعانة التى كانت تستلمها من زنجبار ، وإذا لم تدفع زنجبار تلك الإعانة ، فإنه لن يكون فى امكان مسقط دفع قيمة ايجار بندر عباس ، كما أن الحكومة الفارسية إذا لم تستلم الإيجار فسوف تنهى ارتباطها بالتنازل عن بندر عباس(٥٩) .

فالمسأله ترتكز ارتكازا مباشراً على العلاقات بين مسقط وزنجبار ، ويقول السيد سالم نفسه بالنسبة لهذه النقطة « . . ما دمت لا أستلم الإعانة المستحقة لى من زنجبار ، والتى ضمنتها الحكومة البريطانية لوالدى ، فانه ليس فى استطاعتى دفع قيمة الإيجار المستحق لفارس من أجل بنـــدر عباس»(٦٠). وهكذا يبدو واضحا أن الإعانة التى تدفعها زنجبار لمسقط لازمة كى تدفع مسقط إيجار بندر عباس .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل ان السيد سالم الذى بدأ حكمه بطريقة دموية، لم يلبث أن تناول التجارة الفارسية فى الخليج بالإيذاء ، ولما لم تكن فارس فى موقف يسمح لها بمناوأة هذه الأعمال الاستفزازية ، فإنها لجأت الى الحكومة البريطانية ، باعتبار أنها تؤيد السيد سالم وهى بالفعل تعترف به وتؤيده(٦١) كى يكف عن الأضرار بالمصالح الفارسية .

وهكذا أدى فشل السيد سالم فى دفع قيمة إيجار بندر عباس ، وكذلك نتيجة للأعمال العدوانية التى قام بها رعاياه فى الخليج إلى أن تطالب فارس بالغاء عقد الامتياز . ومن وجهة النظر البريطانية ، فإن فارس استغلت الموقف لتنفيذ سياستها التى ترمى إلى مد سيطرتها المباشرة على الأراضى التى تحد الخليج ، فهل كان هذا الإجراء متمشيا مع السياسة البريطانية ؟ ، وإذا لم يكن متمشيا معها فما هى الوسائل التى سوف تلجأ إليها بريطانيا كما تحول دون حدوث ذلك ، لقد كانت وجهة نظر وزارة الدولة أنه رغم الشكوك المحيطة بالسيد سالم ، فإنه لا يبدو أنه سيكون هناك فرق كبير بالنسبة للمصالح البريطانية سواء كانت بندر عباس فى يده أم فى يد حكومة فارس ، «وفى أيام حكم السيد سعيد، فإن ثقتنا فيه كانت أكثر من ثقتنا فى شاه فارس الذى كان هوائيا متقلبا ، ولا يهمه سوى جمع المال بأية وسيلة ، إلا أن حكومة فارس هى حكومة مستقرة الآن أكثر مما كانت أيام الشاه فتح على ، هذا بالإضافة إلى أن الوزير المفوض فى طهران سيكون قادرا على إقناع الحكومة الفارسية بأن يتعامل معنا أى حاكم فارسى لبندر عباس — إذا استعادتها فارس — مثلما يتعامل معنا ممثلو مسقط »(٦٢) .

إلا أنه نتيجة لتلك الأعمال الاستفزازية المتتابعة من جانب مسقط ضد فارس ، فإن الحكومة الفارسية — رغبة منها فى إيجاد حماية دائمة لتجارتها فى الخليج — ألحت بشدة على الحكومة البريطانية كى توافق على وضع بعض السفن الحربية الفارسية فى الخليج(٦٣). وكان لدى فارس من الحجج ما يجعل مطلبها أمرا معقولا . فقد تطورت الأمور بين فارس ومسقط من سيىء إلى أسوأ ، فبدأ الأمر بأن امتنع السيد سالم عن دفع إيجار بندر عباس ، ثم تكررت حوادث القرصنة التى قام بها أتباعه فى الخليج ، وهكذا رأت الحكومة الفارسية استعادة بندر عباس من مسقط ، كما اقترح الشاه على السفير البريطانى فى طهران وضع أسطول حربى فارسى يتكون من سفن بخارية قوية فى الخليج،

على أن يكون قادته من الانجليز ، وجاء فى هذا الاقتراح ، أنه يحتوى ضمنا على تفضيل للإنجليز بدلا من تقديم هذا العرض للفرنسيين أو للأمريكيين . على أن هذا التفضيل بدأ وكأنه نوع من التهديد ، لأن السياسة البريطانية فى المنطقة لم تكن لتسمح بوجود قوى مناوئة لها تسيطر على قوة البحرية هناك ويكون لها من النفوذ ما تعرض به المصالح البريطانية للخطر(٦٤) .

وعلى أية حال ، فقد يكون اقتراح الشاه بوضع أسطول حربى فى الخليج مجرد تهديد من الشاه لبريطانيا حتى تجبر حليفها السيد سالم على دفع قيمة إيجار ميناء بندر عباس ، أو أن تتنازل عنها لفارس طالما أنه غير قادر على الوفاء بالتزاماته(٦٥) .

ولا شك أن الأمور سادها الاضطراب فى الخليج منذ سحب الأسطول الهندى منه لأنه طبقا لتعليمات الأدميرالية كان يسحب الأسطول أثناء فصل الصيف ، أى نحو سته شهور فى السنة وذلك لقسوة الحرارة(٦٦) .

وقد ارتكنت الحكومة البريطانية على المعاهدات المبرمة بينها وبين الرؤساء فى المنطقة . وادعت أن لها الحق فى التدخل على طول نصف الساحل العربى ، وقد أرسلت حكومة الهند بالفعل فى سنوات سابقة أيام حكم اللورد ولسلى وهاستنج . Hastings وأوكلاند Auckland حملات حاربت فى رأس الخيمة وضربت المخا واستولت على عدن ، وذلك لتدعيم الموقف من وجهة النظر البريطانية ألا أن حكومة الهند فى الفترة بين عامى ١٨٦٥ و١٨٦٨ « لم تقم بمسئولياتها فى تلك البحار » .

ولا شك أن كلا من فرنسا وأمريكا وروسيا كانت ترغب فى وضع قدم لها على تلك السواحل ، وقد أرسلت فرنسا بالفعل بالجريف Mecifford Palgrave كى يبحث عن جزيرة لضمها إلى فرنسا . كما حاول قائد القوة البحرية الفرنسية فى تلك البحار تحقيق ذلك . كما أن بروسيا

وأمريكا قامتا بأعمال مشابهة ، والواضح أنه إذا ماضعفت القبضة البريطانية على تلك السواحل فسوف تحل محلها قوى أخرى[٦٧] .

أما الروسيا فقد كان دورها سلبياً في جنوب فارس والجزيرة العربية لأنها وجدت أن أى إجراء من جانب بريطانيا للتدخل فى المنطقة سيكون فى مصلحتها ، وهى تعلم أنه ليس فى مصلحة بريطانيا مد امبراطوريتها على حساب فارس أو أفغانستان أو تركيا ، لأن كلا من هذه الامبراطوريات الثلاث سوف تضطر فى مواجهة ذلك إلى طلب معاونة روسيا أو فرنسا . كما أنه من وجهة النظر البريطانية، إذا ماقام البريطانيون بمعاونة تركيا وفارس وهو ماتم فعلا — بالنسبة لتقدم التجارة — فسوف تصبحان أكثر ثروة ، « وهذا أفضل — من وجهة نظرنا ، لأنه فى مثل هذه الحالة يمكن اقتسام الغنائم معهما» . ولا شك أن روسيا تعلم جيداً أن بريطانيا لاترغب فى إضعاف كل من تركيا وفارس ، لأن ذلك يحقق مصلحتها فى الإبقاء على جيرانها ضعفاء .

وقد قامت السلطات فى الهند بالمفاوضات مع القبائل التى كانت تقوم بالقرصنة فى الخليج العربى حتى تكف عن ذلك ، ولم تكن هذه القبائل تقدم ولاءها لأحد ، سواء للعرب أو للترك أو للفرس ، إلا أنه من وجهة النظر الأخرى ، فقد تمكن البريطانيون من عقد ارتباطات ومعاهدات مع هذه القبائل ، وقد وافقت بمقتضاها على سلامة وأمن التجارة فى الخليج .

وقد ظلت هذه الارتباطات البسيطة سارية المفعول سنوات طويلة ، ولا ريب أن لهذه الارتباطات أهميتها ، لأن السفن البريطانية لم تكن تمكث فى الخليج أثناء الفصل الحار ، ولذا كان لابد - من وجهة النظر البريطانية -

تحقيق نوع من العلاقات الودية مع تلك القبائل حتى يمكن المحافظة على المصالح البريطانية فى الخليج .

ومما لاشك فيه ، أنه لو كان لمسقط أسطول قوى كما كان لديها فى عهد السيد سعيد بن سلطان ، لساعد ذلك على الإقلال من القرصنة ، ولكن ليس القضاء عليها ، كما أن مسقط إذا لم تحصل على الإعانة المالية من زنجبار ، فإنه لايمكنها إنشاء هذا الأسطول ، ولا يمكن لأية قوة بحرية فارسية أو تركية القضاء على القرصنة ، لأن الترك والفرس سوف يحاولون ضم أراض إليهما ، ومن ثم تبزغ العداوة ضدهم من القبائل البحرية القائمة بالقرصنة(٦٨) .

وعلى أية حال ، فقد بدا أن العرض الفارسى — بوضع سفن حربية فارسية فى الخليج — كان صعب التنفيذ ، فقد احتوى على نص ، بأنه على بريطانيا أن تقوم بتجهيز السفن اللازمة لهذا الأسطول على نفقتها ، على أن تدفع الحكومة الفارسية تكاليف ذلك فيما بعد وعلى أقساط ، وبدا أن هذا الجزء من الاقتراح الفارسى لا يمكن لأى قوى أخرى قبوله ، إلا إذا كانت لها مصالح خطيرة فى تلك المنطقة .

كما أنه بالنسبة للضباط البريطانيين الذين سيقومون بالعمل فى هذا الأسطول ، فإن العرض الفارسى لم يحدد وضعهم ، والجهة التى سيتبعون لها ويتلقون منها أوامرهم . وقد كانت للحكومة البريطانية تجربة مماثلة ، وذلك عندما قدمت الحكومة الصينية عرضا يماثل هذا العرض الفارسى ، وقامت الحكومة البريطانية بالفعل بإرسال خمس سفن حربية بقيادة أوسبورن Sherard Osborn كقائد لهذه القوة البحرية ، إلا أن هذا المشروع كله قد فشل ، لأن الضباط البريطانيين لم يوافقوا على العمل تحت قيادة صينية،

ومن وجهة النظر البريطانية فإنه يجب عدم تكرار مثل هذه الأخطاء مرة أخرى.

ولقد أبدت وزارة الدولة وجهة نظرها بالنسبة لهذه المسألة، «إذ يجب قبل بحث الاقتراح، توضيح القواعد التي سيسير عليها العمل بالنسبة لهذا الأسطول الحربي، وهناك اتجاه للموافقة من جانبنا، إذا ماتم الاتفاق على إرسال قوات على نفقة أمراء الهند، من الذين لهم علاقات معنا، وفي هذه الحالة يجب أن يبدى الشاه رغبته بخصوص ذلك إلى السفير البريطاني الذي يصـــدر بالتالي تعليماته إلى كل الممثلين السياسيين في الخليج، وسيجد هؤلاء في وجود هـذه القوة البحرية عاملا مساعداً لتأكيد وجهة النظر البريطانية بمنع القرصنة وتحقيق الهدوء في البحار المتاخمة للهند».

كما ثار تساؤل آخر .. «هل تساوى المسألة كلها أن تدفع الحكومة البريطانية قبل كل شيء قيمة تكاليف صناعة السفن اللازمة لإقامة هـذا الأسطول ؟ وهل هناك مايؤكد أن فارس سوف تكون لديها القدرة على دفع ما عليها بانتظام؟ ولا شك أن الثقة في أن فارس قادرة أم ليست قادرة على الوفاء بالتزاماتها بانتظام كافية لتحذرنا من مغبة الدخول في مثل هذه الارتباطات».

ومن وجهة النظر البريطانية، كان هناك اقتراح أكثر ملاءمة، وهو أن تحول كل النفقات، سواء بتقديم السفن الحربية أو إدارة المشروع كله إلى الحكومة البريطانية. وبدا واضحاً «أنه من المرغوب فيه تكوين أسطول حربي في الخليج، نديره نحن، ويكون تحت سيطرتنا تماماً، ومن ثم يعمل هذا الأسطول طبقا لوجهات نظرنا ولتحقيق مصالحنا، ولا يتصادم مع أي قوى فارسية أو أية قوى أخرى[٦٩]».

هذا بالإضافة إلا أنه – من وجهة النظر البريطانية أيضاً – يجب منع فارس من محاولة تأكيد قوتها وسيطرتها فى الخليج ، لأن هذا سوف يؤدى إلى إحياء الادعاءات الفارسية القديمة ضد استقلال مسقط[٧٠] .

ولا ريب أن إرسال سفن حربية فارسية إلى الخليج العربى سوف يثير كثيراً من المشكلات بالنسبة للمصالح البريطانية[٧١] ، فقد تحدث مصادمات خطيرة تجعل بريطانيا مضطرة للتدخل المسلح ، وهذا سوف يكلف الحكومة البريطانية أعباء مالية ، وكذلك تجهيز حملات كبيرة[٧٢] .وفى محاولة لاجلاء الغموض ، ظهر اقتراح بإرسال ضابط بريطانى بحرى كبير من الأسطول الهندى إلى طهران[٧٣] ،لمناقشة المسألة مع الشاه[٧٤] . إلا أن هذا الاقتراح كان بطبيعة الحال سابقاً لأوانه ، فقد رأت وزارة الدولة أنه يجب قبل كل شىء معرفة ما إذا كانت هناك موافقة بصفة عامة على العرض الفارسى بوضع أسطول فارسى فى الخليج ويعمل عليه ضباط بريطانيون ، فحتى ذلك الوقت لم يكن معروفاً لبقية الضباط البريطانيين الذين سيعملون على هذا الأسطول وكذلك لم تكن قد بحثت بعد التفاصيل الأخرى التى يحتاج إليها السفير البريطانى فى طهران كى يمكنه التباحث مع حكومة الشاه . ولذا فإنه ليس من الحكمة إرسال ضابط بحرى ليتفاوض فى التفصيلات قبل الموافقة على الموضوع أصلا ، لأن هذا قد يوقع الحكومة فى بعض الأخطاء ، وكذلك «لأنه يظهر أننا متلهفون – نتيجة للموافقة الفورية – على قبول هذا العرض، مما يعطى للفرس تفوقا كبيراً فى المفاوضات . وفى رأيى فإنه يجب الاجابة على الاقتراح الفارسى بأن القوة البوليسية البحرية فى الخليج والتى تشرف عليها الحكومة البريطانية هى كافية فى الوقت الحاضر ، وأنه ليس لدينا الرغبة فى التخلى عن ارتباطاتنا وتعهداتنا وواجباتنا القائمة على هذا التعهد»[٧٥] وبما لاشك فيه أن الحكومة البريطانية – فى ذلك الوقت – كانت هى وحدها التى لديها الرغبة والقدرة على المحافظة على السلام فى الخليج .

ولقد كانت عمليه تقسيم سلطنة مسقط زنجبار هى التى أثارت كل هـذه المشكلات ، لأن عدم دفع زنجبار الإعانة السنوية لمسقط جعل الأخيرة غير قادرة على دفع قيمة إيجار بندر عباس إلىفارس ، مما حدا بفارس إلى محاولة إستعادة هذا الميناء ، ثم محاولة القيام بنشاط بحرى واسع فى الخليج ، وكان من نتائج ذلك ، أن بدأت بريطانيا تنفيذ أدوارها فى المنطقة والتى رمت إلى جعل الخليج كله بمثابة بحيرة بريطانية .

وقد كان لمسألة العلاقات بين مسقط وزنجبار وجه آخر وهام - من وجهة النظر البريطانية - وهو مسألة تجارة الرقيق فى كل من زنجبار ومسقط معا . فمقتل السيد ثوينى - كما أوضحنا - أدى بالسيد ماجد إلى إيقاف الاعانة المستحقة لسلطان مسقط . ورمت السياسة البريطانية إلى أن تكون بريطانيا وسيطة فى هذه العملية ، أى أن تقوم باستلام هـذه الإعانة (٤٠,٠٠٠ ريال) من زنجبار ثم تقوم بتسليمها لمسقط(٧٦) . وإن كان الدكتور صلاح العقاد يرى أن الحاكم العام للهند عندما تشبث بالتحكيم ، وعندما أكد بأن السيد سالم قد أصبح الحاكم الفعلى لمسقط ، فإنه أبلغ السيد ماجد بأن عليه أن يخدم التزاماته ويفى بها ، ولم يكن فى وسع السيد ماجد إلا أن يدفع المبلغ للحكومة البريطانية على أن تتولى هى إيصاله إلى السيد سالم إن أرادت ، وأضاف السيد سالم فى خطابه إلى الحاكم العام للهند «ولكن ذلك سيجلب لنا العار »(٧٧) . أى أنه طبقاً للوثيقة البريطانية ، فإن الانجليز هم الذين سعوا لأن يكونوا وسطاء فى تسليم الاعانة السنوية إلى مسقط ، وإن كان رأى الدكتور صلاح العقاد يبدو أكثر إقناعا ، وإن كنا نرى أنه يبدو أن السلطان ماجد هو الذى تقدم بطلبه هذا إلى الحكومة البريطانية ، وأن هـذه الحكومة وجدتها فرصة سانحة لزيادة تدخلها فى شئون هاتين السلطنتين .

وعلى أية حال فإن الانجليز استغلوا هذه المسألة لتدعيم وجهات نظرهم

بالنسبة لمسألة تجارة الرقيق ، ففى ذلك الحين ، كانت زنجبار ومسقط مرتبطتين بالمعاهدة التى وقعها والدهما السيد سعيد بخصوص هذه التجارة سنة ١٨٤٥ (٧٨) ، وهذه المعاهدة كانت تسمح بتصدير واستيراد الرقيق مع بعض القيود على الساحل الشرقى الأفريقى ، ولذا فان هـذه المعاهدة كان لها تأثير محدود بالنسبة لمنع التجارة ، لأنها وإن كانت عليها بعض القيود على الساحل، فانها كانت رائجة رواجا هائلا فى المناطق الداخلية (٧٩) .

ومن وجهة النظر البريطانية ، فانه إذا تحملت الحكومة البريطانية قيمة تلك الاعانة التى يدفعها السيد ماجد سلطان زنجبار إلى سلطان مسقط ، فانه يمكن إقناعه بايقاف تجارة الرقيق فى أراضيه ، وأن تعويضاً من ٨٥٠٠ جنيها سنويا يجعل المنع أكثر قبولا ، هذا بالاضافة الى أن ارتباط السيد ماجد بمنع هذه التجارة سوف يعفى السفن الحربية البريطانية من مسئولية نفقات البحث على مسافة من الساحل الشرقى الأفريقى تمتد من خط ٥٧َ ١° الى ٢َ ٩° من خطوط العرض ، وهاتان النقطتان تقعان شمال وجنوب زنجبار .

ولا شك أن مسقط كانت بحكم ظروفها فى ذلك الوقت خاضعة للمشورة البريطانية ، وسوف تنفذ منع هـذه التجارة ، وذلك لأن السيد سالم كان يرتكن ارتكانا كاملا على بريطانيا فى تدعيم موقفه تجاه أخوته وتجاه فارس وتجاه الوهابيين ، ومن ثم لم يكن فى استطاعته سوى قبول تعليمات الحكومة البريطانية . أما بالنسبة لزنجبار ، فانه إذا ما تكلفت الحكومة البريطانية بدفع اعانتها إلى مسقط فإنها فى مقابل ذلك سوف توافق على إلغاء هـذه التجارة فى ممتلكاتها (٨٠) .

ولا شك أن السيد ماجد كان قد أصابه فى ذلك الوقت فقر شديد ، وانحدر كثيراً فى الديون ، وهو لا يمكنه فى مثل هـذه الظروف دفع إعانة

مسقط إلا بصعوبة . ونفقاته تحتم عليه أن يتكسب من تصدير الرقيق ، وفى الغالب ، فانه اذا أعفى من دفع هـذه الاعانة فانه سيكون موافقاً على توقيع إتفاق يرتبط بموجبه بمنع تجارة الرقيق فى الأراضى والمياه التابعة له .

ومن المناسب أن نشير إلى أن تلك المسألة سبق أن بحثت منذ بداية ستينات القرن التاسع عشر ، فعندما كان السير كليرك Clerk حاكما على بومباى ، فإنه أوصى بأن مجهودات سلطان زنجبار من أجل إلغاء تجارة الرقيق سوف تدعمها كلا من قواتنا وأموالنا . كما قال فى ٢٤ مارس ١٨٦١ أنه ليس هناك شك ولو للحظة واحدة فى أن الآلام التى ذكرها ضابط صادق جداً مثل جوجلان ، والتى نقلت للأمة البريطانية ، تجعل من المستحيل أن يرتفع صوت واحد ضد دفع ذلك المبلغ البسيط لزنجبار ، وهو ٨٥٠٠ جنيها سنويا فى مقابل تحقيق غرض سام ، وهو القضاء على تجارة الرقيق فى شرق أفريقية .

الا أنه عند عرض هذا الاقتراح على وزارة الخارجية ، فان اللورد راسل Russel وزير الخارجية ، قرر أنه لا يمكن الموافقة على دفع أى شيء لسلطان زنجبار فى مقابل إيقاف تجارة الرقيق فى بلاده ، ومن ثم سقط هذا الاقتراح(٨١) .

ولا شك أن التحالف مع السيد ماجد من أجل القضاء على تجارة الرقيق على الساحل الشرقى الأفريقى سوف تكون له نتائجه الهامة — من وجهة النظر البريطانية — طالما أن هذا التحالف قائم على أساس عدم الأضرار بالشئون المالية لزنجبار . ولا شك أيضاً أنه من الأهمية بمكان أن تدعم الحكومة البريطانية موقفها بالنسبة لهذه المسألة ، فالقوى الأخرى لا تكترث بالغاء هذه التجارة ، بل على العكس من ذلك هى تشجعها فعلا ؛ فالحكومة الفرنسية وممثلوها فى المنطقة مثل الكومودور دى لانجل De Langle

منغمسون فى هذه التجارة ، بل أنه فى عام ١٨٦٧ دفع الفرنسيون ٣٠٫٠٠٠ جنيه استرلينى لقاء أعداد ضخمة من العبيد دفعها ملاك مزارع القصب فى رينيون(٨٢) Reunion وواضح أن المسألة تحتاج إلى تنسيق للتعاون بين الحكومتين الانجليزية والفرنسية ، الا أنه - من وجهة النظر البريطانية - لم تكن هناك أية بادرة تشير الى أن هذا التعاون ستكون له نتائج فعالة(٨٣) .

هذا بالإضافة إلى أن البرتغاليين ظلوا ينعشون هذه التجارة فى ممتلكاتهم(٨٤) .

وهكذا تبلوت وجهة النظر البريطانية عن ضرورة اتخاذ إجراءات فعالة من أجل إلغاء هذه التجارة ، وبالنسبة لزنجبار فإنه إذا دفعت الحكومة البريطانية مبلغا يزيد قليلا عن ٤٠٫٠٠٠ ريال سنوياً فان السيد ماجد سوف يوافق على إلغاء تجارة الرقيق ، «كما أنه يمكن تعويض هذه المبالغ عن طريق تخفيض قوتنا البحرية الموكول إليها منع هذه التجارة على الساحل الشرقى الافريقى » . بل أنه من المناسب جداً - من وجهة النظر البريطانية - دفع مبلغ أكبر للسيدماجد ، فان إلغاء تجارةالرقيق سوف لا يقلل فقط من سيطرته على طول نحو مائة ميل من سواحل البحر الأحمر(٨٥) ، ولكنه سوف تستدعى إعادة نظر كاملة فى قوة العمل التى كانت تزرع القرنفل والسكر فى مزارعه فى زنجبار والتى تمثل نحو $\frac{1}{3}$ دخوله(٨٦) .

وعلى هذا الأساس،كان على السياسة البريطانية إذا أرادت حقاً أن توقف تجارة الرقيق أن تظهر حسن النية تجاه كل الأطراف المعنية ، أى أنه كان على هذه السياسة أن تقدم للسيد ماجد عرضاً يغريه بالموافقة . ومن أجل ذلك اقترحت حكومة الهند تفويضها لإرسال بعثة برياسة السير وليم كوجلان إلى

كل من مسقط وزنجبار لترتيب مفاوضات بينهما من أجل إعادة النظر فى الاتفاق القائم — التحكيم — على الأسس الآتية :

(أ) الفصل الكامل فى المصالح والارتباطات بين مسقط وزنجبار .

(ب) أن تدفع حكومة الهند سنوياً لمسقط الإعانة التى كانت تدفعها لها زنجبار .

(ج) أن توافق كل من مسقط وزنجبار على ارتباطات محدودة لوقف تجارة الرقيق ومنع أعمال القرصنة .

(د) أن تستلم زنجبار تعويضاً من حكومة الهند بالقدر الذى تراه البعثة معقولا كتعويض مناسب عن فقد قوة العمل من الرقيق ، وعلى أن يستمر دفع هذا التعويض لمدة جيل أو جيلين .

(هـ) أن تقع مسئولية هذه الترتيبات مناصفة بين الحكومة البريطانية وحكومة الهند ، لأن حكومة الهند سوف توفر بعض النفقات نتيجة لتخفيض قواتها فى الخليج العربى ، وكذلك لأن الحكومة البريطانية سوف تخفض من حجم أسطولها على الساحل الشرقى الأفريقى . ورأت حكومة الهند أنه طبقا لهذه الترتيبات، فانه يمكننا أن نوقف تجارة الرقيق فى الشرق ، كما فعلنا فى الغرب ونرضى فى نفس الوقت كلا من زنجبار ومسقط ، ودون أن ندفع كثيراً فى كل هذه الأمور»(٨٧) .

ومن وجهة النظر الأخرى ، فانه هناك فى زنجبار قوة عمل حرة لا بأس بها من السكان الأصليين بالجزيرة وكذلك من الرقيق الذين كانوا رعية بريطانية ثم تم تحريرهم ومن المهاجرين من الساحل الأفريقى والجزر المجاورة ومن البلاد الأخرى ، وهذه القوة سوف تزداد مع الطلب على العمل، وخاصة مع الحد من تجارة الرقيق . وقد أشار الجنرال رجبى Rigby فى تقرير له

فى عام ١٨٦٠ إلى أنه قد حدثت زيادة كبيرة فى النشاط التجارى فى زنجبار وفى إنتاجها الزراعى بعد إلغاء تجارة الرقيق فى الخليج العربى والبحر الأحمر . « ونحن اذا قضينا على القرصنة فى الخليج الفارسى (العربى) فان الرؤساء القائمين بتجارة الرقيق اذا ما سلبناهم من أعمالهم البحرية ، فانهم سوف يشتغلون فى الأعمال التجارية المشروعة »(٨٨) .

وقد أوضحت حكومة الهند أن مسألة تدخل الحكومة البريطانية لمنع تجارة الرقيق على الساحل الشرقى الأفريقى من المسائل الاستعمارية ، ولذا فانه من المعقول أن تدفع حكومة الامبراطورية لا توابعها — حكومة الهند — الإعانة لسلطان زنجبار(٨٩) .

وهنا ثار جدل بين حكومتى بريطانيا والهند بالنسبة لمسئولية كل منهما عن هذه المسألة ، وأبرزت حكومة الهند وجهة نظرها فى أنه « لا شك أن الالتزام الذى التزمت به بريطانيا بالنسبة لمنع تجارة الرقيق فى كل أجزاء العالم هو مظهر جديد دخل حديثا فى الدبلوماسية فى تلك البحار الهندية ، وإدارة ذلك كله هو داخل فى نطاق دبلوماسية الامبراطورية التى تشرف عليها وزارة الخارجية » .

ورغم تلك الأسس المقنعة ، فهناك وجهة النظر الأخرى بالنسبة لمستقبل العلاقات مع الرؤساء والحكومات فى تلك المناطق . ولا شك أن نقل إدارة تلك المناطق إلى وزارة الخارجية البريطانية سوف يعفى حكومة الهند من مشكلات ضخمة ، إلا أن الأمر ليس بهذه السهولة ، إذ يجب أن تستعد وزارة الخارجية كى يمكنها التعرف والفهم الواضح والصحيح لطبيعة العلاقات القائمة وجذورها التاريخية .

ولا شك أن العلاقات القائمة بين الحكومة البريطانية وبين مسقط وزنجبار وكل الرؤساء الأصغر على ساحل الخليج العربى كانت تنظمها

معاهدات وارتباطات وقعها عن الجانب البريطانى ضباط بريطانيون باسم حكومتى الهند وبومباى .

وهنا تبرز مسألة الخلاف بين مسقط وزنجبار كثير لمسالة نقل إدارة تلك المناطق من تبعيتها لحكومة الهند إلى التبعية المباشرة لوزارة الخارجية البريطانية ، فإنه كما قلنا ونتيجة لتحكيم كاننج ارتبط السيد ماجد بأن يدفع لأخيه السيد ثوينى إعانة سنوية ، وضمنت حكومة الهند دفع هذه الإعانة ، فإذا ما نقلت إدارة تلك المناطق إلى حكومة الامبراطورية ، فهل ستوافق « حكومة جلالة الملكة على هذا الضمان وتعمل على تنفيذه ، وتدفع من خزانة الامبراطورية إذا لزم الأمر ؟ ومن ناحية أخرى ، فهل تستطيع حكومة الهند أن تدفع هـــذه الإعانة دون أن تنبس ببنت شفة كالقيام بالمفاوضات والإجراءات الأخرى الأكثر عنفا لتصحيح الأوضاع من وجهة نظرها ؟ » وأضافت حكومة الهند موضحة وجهة نظرها . « فالعلاقات القائمة مع جنوب الجزيرة العربية ومع الخليج الفارسى (العربى) لها أهميتها بالنسبة لحكومة الهند ، فهى تتمشى مع سياستها بالنسبة لالغاء القرصنة فى البحار الهندية ،وقد وجدنا حليفا معاونا فى هذا العمل هو السيد سعيد والد السيد ثوينى والسيد ماجد والذى حكم عمان أكثر من أربعين عاما ، وكان هو نفسه تاجرا كما كان حاكما ، وكانت له سفن لها معاملات تجارية مع كلكتا وموانى غربى الهند . والعلاقات التجارية للجزيرة العربية والخليج الفارسى (العربى) هى كلها مع الهند ، ومن الصعب اجبار ذوى المصالح أو الذين لهم قضايا وشكايات بالنسبة لهذه التجارة أن يرفعوا وجهات نظرهم إلى وزارة الخارجية فقط حتى يتسنى النظر فيها . وبالنسبة لهذه النقطة ، ونتيجة للمعاهدات القائمة مع الهند ، فإنه يبدو ضروريا ان تكون إدارة علاقاتنا مع هذه البلاد عن طريق ضباط تعينهم الهند وتكون على صلة بهم »[٩٠] .

ولا شك أنه كان هناك نوع من التضارب والتداخل فى الإدارة البريطانية

لتلك المناطق ، فرغم وجود مشكلات سياسية وبصفة خاصة فى علاقات مسقط بزنجبار منذ وفاة السيد سعيد، فقد كانت هناك خمس سلطات منفصلة عن بعضها ومتصلة اتصالا وثيقا بهذه المشكلات ، فكان هناك القنصل البريطانى فى زنجبار والتابع جزئيا لوزارة الخارجية وجزئيا لوزارة الهند، وكان هناك المقيم البريطانى فى بوشير والتابع لوزارة الهند ، ثم المقيم السياسى والقنصل العام فى « العربية التركية » والتابع جزئيا لوزارة الهند وجزئيا لوزارة الخارجية ، ثم الوزير المفوض فى طهران والتابع كلية لوزارة الخارجية .

ولا شك أنه وسط هـــذه الظروف ، كان من الصعب تلافى التضارب فى السلطة ، وأوضح السيركى J.W. Kaye فى أول يوليو ١٨٦٨ أن « الصراع القائم حالياً بين مسقط وزنجبار [سوف يزيد من هـذا التضارب فى السلطة ، ويبدو أن هناك حالة من التعقيدات فى الأمور التى تتجه من سىء إلى أسوأ ، لأن كلا من زنجبار ومسقط سقطت كثيراً فى الديون ، وأنه يجب على الحكومة البريطانية أن تتخذ سياسة أكثر ثباتاً تجاه حكام زنجبار ومسقط وفارس، إلا أننى لا آمل كثيرا أن تحل هذه المشكلات طالمـا أن العمل الدبلوماسى للحكومة البريطانية تحكمه إدارتان مختلفتـان وعن طريق ممثلين يتبعون لسلطات مختلفة» ، وأضاف السيركى J.W. Kaye أنه لا يوجد شىء أسوأ من جعل إدارتين منفصلتين تعملان عملا واحداً ، وبالنسبة لهذه الحالة فهما وزارة الخارجية ووزارة الهند ، فهناك اتجاه من كل منهما إلى إلقاء المسئولية على الأخرى ، ولتحويل أية مسألة معلقة إلى الطرف الآخر . وهكذا يضيع الوقت نتيجة لتحويل الموضوعات من طرف لآخر . وتبدو واضحة أهمية وضرورة اتخاذ الإجراءات التى تضمن عدم التعارض والتداخل بين الإدارتين كما يجب أن يتبع المقيمون فى زنجبار ومسقط وفارس لسلطة واحدة ، ولكن المشكلة هل يتبعون لوزارة الخارجية أم لوزارة الهند .

وقد اختلفت وجهات النظر بالنسبة لهذه المسألة ، وكان رأى وزارة الهند هو أنه يجب أن تعطى السلطة الكاملة لحاكم بومباى كى يعيد ترتيب العلاقات المستقبلة بين مسقط وزنجبار وفارس وأنه اذا تم ذلك فان إدارة العلاقات المستقبلة مع هذه الدول يجب نقلها الى وزارة الخارجية طالما أن السفارة فى فارس تتبعها ، الا أنه فى الوقت الحاضر « فانه يجب على السفارة فى فارس — فى كل الأمور ذات الصلة بفارس والخليج والدول المتاخمة — أن تبحثها مع وزارة الهند . ويجب أيضاً تكوين قوة بحرية منفصلة — كما اقترحت حكومة الهند — لإدارة الخليج ، على أن تكون هذه القوة تحت اشراف حكومة بومباى »(٣٩) .

ومع نهاية عام ١٨٦٩ ، عقد مؤتمر خاص فى وزارة الخارجية البريطانية لبحث مسألة تجارة الرقيق الشرقية ، ومثل السير جون كى وزارة الهند ، وحضر ممثلون أيضاً عن وزارة المستعمرات والادميرالية والخزانة . وفى ٢٤ يناير قدم هذا المؤتمر تقريراً لايرل أف كلارندون Earl of clarendon وزير الدولة للشئون الخارجية فى ذلك الوقت . وفى المقطع الثمانين من هذا التقرير جاء الآتى « ...ونحن الآن نعتقد أنه يجب إبراز أن القنصل فى زنجبار مسئول مسئولية كاملة — بالاضافة إلى أعبائه الأخرى — عن إلغاء تجارة الرقيق فى المنطقة، ولذا يجب وضع الترتيبات المناسبة لاقتسام نفقات القنصلية فى زنجبار وتوابعها مناصفة بين الخزانة الامبراطورية والخزانة الهندية .

هذا ما كان من أمر السياسة البريطانية بالنسبة لادارة تلك المناطق ، وما تمخضت عنه المباحثات بين الأطراف المعنية بحيث لايحدث التعارض أو التداخل بين السلطات المختلفة والمسئولة عن هذه المناطق .

أما بالنسبة لعلاقات مسقط بزنجبار، وموقف بريطانيا من هذه العلاقات فاننا رأينا كيف أن بريطانيا كى تحافظ على الوضع الراهن فى المنطقة ، فإنها

نظمت الأمر فى النهاية على أن تدفع الاعانة السنوية إلى مسقط عن طريق المقيم السياسى ، على أن تستعوض مرة أخرى من سلطان زنجبار ، أى أنه فى الواقع ودون ما نظر إلى هذه الشكليات، ظلت زنجبار تدفع الاعانة إلى مسقط. وظل الحال كذلك حتى عام ١٨٦٨[٩٢] ، حين قامت ثورة فى عمان ، انتقل بعدها الحكم إلى عزان بن قيس ، وهو ينتمى إلى فرع آخر من فروع أسرة بوسعيد غير الفرع الذى ينتمى إلية سعيد بن سلطان ، فكان ذلك حجة قوية للسيد ماجد كى يقطع المعاش أو الاعانة السنوية لمسقط[٩٣] ، والتى كان يدفعها عن طريق المقيم السياسى . وقد دعم الانجليز موقف السيد ماجد فى هذا الصدد حينما اعتبروا هم أيضاً أن عزان بن قيس هذا مغتصباً للسلطة .

إلا أنه فى عام ١٨٧١ استولى السيد تركى بن سعيد على السلطة فى مسقط، واعترف به الانجليز سلطاناً شرعياً عليها .

إلا أن الترتيب القديم الخاص بالاعانة السنوية المستحقة لمسقط من زنجبار لم يعد ثانية . وقد قام السيد تركى بمحاولة فاشلة مع زنجبار لاستعادة الاعانة السنويه طبقاً لتحكيم ١٨٦١ . وفى الواقع فانه لم تكن لدى زنجبار أسانيد قوية ترتكن عليها فى رفض دفع الاعانة طبقاً لتحكيم ١٨٦١ .

وكانت حكومة الهند قد دفعت لحكومة مسقط ما بين عامى ١٨٦١و١٨٦٨ مبلغ ١٩٠٫٨٥٠ ريالا ، واستعادت منها ١٥٨٫٠٠٠ ريال فقط من زنجبار، واعتبر الباقى وهو ٣٢٫٨٥٠ ريالا كدين على زنجبار[٩٤] وفى أكتوبر من عام ١٨٧٢ ، كانت حكومة الهند غير راضية تماماً بالنسبة لمسئولياتها بالنسبة لهذا الموضوع .

وفى محاولة لوضع قواعد ثابتة بالنسبة لهذه المسألة ، أرسلت الحكومة البريطانية سنة ١٨٧٢ بعثة برئاسة السير فرير Barthle frere يساعده المستر بادجر Badger المستشرق المتخصص فى تاريخ عمان ، وكان على فرير

أن يعقد معاهدة مع كل من سلطان زنجبار وسلطان مسقط لالغاء تجارة الرقيق . وقد توقفت البعثة فى روما – وهى فى طريقها إلى زنجبار – وأقنع السير فرير البابا بالتعاون مع بريطانيا فى سياسة الالغاء بالرغم من أن الكنيسة الكاثوليكية لم تكن متحمسة لهذا الأمر مثل الكنيسة البروتستنتية ، وأرسل البابا تعليماته إلى البعثات التبشيرية فى أفريقيا لمساعدة فرير فى مهمته(٩٥) .

أى أن هذه البعثة كانت تمثل فى الواقع اجراء امبراطوريا وتتكلم فى موضوع واحد وهو القضاء على تجارة الرقيق الشرقية . ولتدعيم ذلك ، كانت المفاوضات ضرورية ، ليست فقط مع سلطان زنجبار ، ولكن كذلك مع سلطان مسقط وبقية الرؤساء العرب فى الأقاليم المتاخمة لخليج عدن والخليج العربى ، وكان من الواضح أنه للحصول على التعهدات المطلوبة من كل من سلطان زنجبار وسلطان مسقط ، فانه كان من الضرورى اعفاء سلطان زنجبار من اعانته لمسقط من ناحية ، وضمان دفع قيمة الاعانة بصفة منتظمة لمسقط من ناحية أخرى ، مع دفع كل المتأخرات .

وقد ناقش السير فرير مسألة المتأخرات هذه مع سلطان مسقط ، ثم نقل الموضوع إلى وزارة الخارجية ، وكان دوق أرجيل Duke argyll قد وافق فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٨٧٢ على أن تشارك خزانة الهند بنصف نفقات بعثة السير فرير ، وبجزء من تكاليف إجراءات منع تجارة الرقيق كنتيجة لها . ثم تحددت المسألة بأن تدفع حكومة الهند نصف الاعانة التى تدفعها زنجبار لمسقط تحت شروط تحكيم اللورد كاننج إذا كان من الضرورى إعفاء سلطان زنجبار من دفع تلك الاعانة هذا بجانب دفع نصف النفقات الدائمة لقنصلية زنجبار(٩٦) .

إلا أن السير فرير اصطدم بمعارضة قوية من السلطان برغش سلطان زنجبار فى بداية الأمر ، فقد قال برغش « نحن نود صداقة بريطانيا ، ولكن فيما تطلبه خراب لنا ، وسيثير السكان علينا ، فإذا رأيتم تنفيذ ذلك بالقوة ، فنحن نسلم أمرنا لله ، إذ ليست لنا قوة نعارض بها بريطانيا » .

وحاول السير فرير إقناع السيد برغش بأمرين : الأول إعفاءه من دفع المعاش السنوى لمسقط ، واستعداد الحكومة البريطانية أن تتحمل دفع هذا المبلغ من ميزانيتها . والأمر الثانى إمكان زيادة الضرائب على العاج والصمغ، ولكن برغش أعار هذه المقترحات البريطانية آذاناً صماء . وحينئذ قرر السير فرير استخدام القوة وقامت البحرية البريطانية بمحاصرة سواحل زنجبار ، وتم تفتيش جمرك العاصمة .

ولما شعر السيد برغش بتضييق الخناق عليه ، حاول أن يخفف من الشروط البريطانية ، ولكن لجنة التحقيق البرلمانية البريطانية أجمعت على أن الإلغاء إذا لم يكن شاملا فلن يكون فعالا . وفى أول يونيو سنة ١٨٧٣ ، تمخضت وجهة النظر البريطانية عن استخدام القوة لا لإيقاف التجارة ، لأن ذلك كان يتطلب وقتا طويلا ، وإنما لاجبار السيد برغش على توقيع المعاهده، وقد صحب ذلك تصريح من السير فرير بأن تجارة الرقيق تعتبر من تلك اللحظة عملا من أعمال القرصنة .

وأخيراً لم يعد أمام السيد برغش سوى الاستسلام وتوقيع المعاهدة المعروضة عليه فى ٥ يونيو سنة ١٨٧٣ . ولم يحصل سوى على ترضية بسيطة بخصوص الرقيق للذين يعملون على مراكبه وجواز إعادتهم فى حالة هروبهم إلى أفريقيا(٩٧) . أما المعاهدة فقد نصت على منع تجارة الرقيق بين الموانىء الافريقية ، ومعاقبة السفينة التى تخالف ذلك بالاستيلاء عليها ، ومحاكمة ربانها أمام المحاكم التى خصصتها الحكومة البريطانية لذلك ، كما نصت المعاهدة أيضا على تعهد سلطنة زنجبار بإغلاق أسواق الرق فى السلطنة ، وهذا يعنى ضمنا بقاء التجاره على نطاق فردى ، ثم حماية الرقيق الذين يحررون طبقاً للمعاهدات، وكذلك تعهدت بريطانيا بمنع الهنود من تملك الرقيق أو الاتجار فيه(٩٨) إلا أنه من ناحية أخرى فان هذه المعاهدة لم تتطرق إلى الكلام عن موضوع التزامات زنجبار تجاه مسقط أو إلى تقييد سلطان زنجبار بالوفاء

بارتباطاته تجاهها ، وذلك بالنسبة للاعانة السنوية طبقاً لتحكيم كاننج سنة ١٨٦١ [٩٩] .

وان كان القنصل البريطاني فى زنجبار قد أخبر السلطان بأن مسألة إعفائه من دفع المعاش المستحق لسلطان مسقط قد فات أوانها بسبب طول عناده [١٠٠] .

وإذا كان السير فرير قد واجه تلك المصاعب مع السيد برغش سلطان زنجبار ، فان مهمته كانت أكثر سهولة من السيد تركى سلطان مسقط ، فقد وافق الأخير فوراً على مقترحات فرير ، ووقع معاهدة معه طبقاً لشروط الحكومة البريطانية ، وقد منحه السير فرير باسم حكومته مبلغاً يعادل قيمة إعانة سنوية كاملة من المتأخرات المستحقة له ، والتى كانت تعادل نحو عامين وربع عام طالب بها السيد تركى ، والمدة هى من فبراير سنة ١٨٧١ — وهو تاريخ تولية عرش السلطنة - إلى مايو سنه ١٨٧٣ .

وفى أغسطس ١٨٧٣ ، أرسلت تعليمات إلى المقيم السياسى فى مسقط تقضى بضرورة دفع القيمة المتأخرة الباقية — وهى ٥٠,٠٠٠ ريال — لسلطان مسقط ، وتم دفعها بالفعل .

وقد ثار جدل بالنسبة لبعثة فرير ، وهل تعتبر حكومة الهند مسئولة عن الاجراءات التى قامت بها هذه البعثة ، ورأت حكومة الهند أن وزارة الخارجية تعد مسئولة عن دفع نصف الأربعين ألف ريال التى أمر السير فرير بدفعها على الفور من المتأخرات المستحقة لسلطان مسقط وكذلك نصف ماسوف يدفع دورياً اعتباراً من فبراير سنة ١٨٧٣ ، والقول بأن السير فرير لم يقم بهذه الاجراءات كمبعوث من حكومة الامبراطورية ولكن كمبعوث من حكومة الهند ، هذا القول لايمكن قبوله ، ويمكن الرجوع إلى الوثائق

البريطانية لتوضيح هذه النقطة ، ففى نوفمبر سنة ۱۸۷۲ أصدر اللورد جرانفيل تعليماته إلى السير فرير ، وبعد الموافقة على إعفاء زنجبار من دفع الاعانة السنوية لمسقط طبقاً لتحكيم عام ۱۸٦۱ قال اللورد جرانفيل للسير فرير : « انك فى الحالات المشابهة مفوض لاعطاء تأكيدات أخرى لسلطان مسقط وأن المبلغ الذى يطلبه سوف يدفع له سنوياً من خزانه بومباى » .

كما أنه فى مذكرة بتاريخ ۲ مايو ۱۸۷۳ ، كتب السير فرير بصفته : « المبعوث الخاص لجلالة الملكة إلى زنجبار ومسقط » كتب يوضح وجهات نظره بالنسبة لتسوية مسألة الاعانة المستحقة ، لمسقط فقال « سوف أرفع إلى نائب الملك أن حكومة الهند تؤكد أن إعانة مسقط سوف تدفع بصفة منتظمة مع كل المتأخرات من خزانة بومباى إلى ممثل نائب الملك فى السلطنة ، طالما أن سلطان مسقط لايقوم بأى اعتداء على زنجبار ، ويتمسك هو وخلفاؤه من بعده بالارتباطات التى تعهد بها بالنسبة لالغاء تجارة الرقيق » . وقد أرسلت هذه المذكرة إلى حكومة الهند وحكومة بومباى وإلى وزارة الدولة للشئون الخارجية فى لندن .

وقد كتب السير فرير فى ۲ مايو ۱۸۷۳ إلى وزارة الخارجية يطلب اتخاذ قرار من جانب الحكومة البريطانية بالنسبة لإعانة مسقط المستحقة من زنجبار وأشار السير فرير فى خطابه إلى أنه إذا تمت الموافقة على الاجراءات التى قام بها « فانه يجب تنفيذها فوراً ، مع تأكيد سريع بدفع كل المتأخرات إلى سلطان مسقط ، الذى تأثر حكمه كثيراً نتيجة لحاجته إلى المال » .

وفى ۹ يونيو سنة ۱۸۷۳ طلبت حكومه الهند من المقيم السياسى فى مسقط أن يخبر السيد تركى أنه « مما يسر نائب الملك والحاكم العام أن يضمن لسموك الاعانة السنوية المستحقة على زنجبار من ٤۰٫۰۰۰ ريال مع دفع المتأخرات منذ تاريخ تولى سموك عرش مسقط فى فبراير ۱۸۷۱ » .

إلا أن حكومة الهند رأت بعد ذلك أنها قد تورطت فى دفع هذا المبلغ وأنه من اختصاص حكومة الامبراطورية . وقد أرسلت حكومة الهنـــد بالفعل خطاباً إلى وزير الدولة فى ٩ يونيو ١٨٧٣ بأنه « من المعلوم أن ما يدفع للسيد تركى لن يستعاد مرة أخرى من زنجبار ، ولذا فان نصف هذه الأموال غير المستعادة يجب أن تتـكفل بها حكومة الامبراطورية » .

وقد أرسلت صورة الخطاب السابق إلى وزارة الخارجية فى ٢٩ يوليو سنة ١٨٧٣ ، ولم تثر أى انتباه ، رغم أن دوق أرجيل نفسة أضاف إلى الخطاب أنه « لا يعتبر أن هذا الأمر محل شك ، وأنه من المفهوم أنه تقرر من أول الأمر أن النفقات يجب اقتسامها بين خزانة الامبراطورية وخزانة الهند(١٠١) .

ويتضح ممـا سبق مقدار التداخل وعدم التنسيق فى الأعمال المختلفة بين حكومتى الامبراطورية والهند وعلى حد قول السير جون كى « أننى الآن لا آمل كثيراً أن تحل هذه المشكلات طالمـا أن العمل الدبلوماسى للحكومة البريطانية تحكمه إدارتان مختلفتان وعن طريق ممثلين يتبعون لسلطات مختلفة »(١٠٢) .

إلا أنه من وجهة النظر الأخرى فانه منذ عام ١٨٧٣ استمر دفع هذا المبلغ لسلطان مسقط من خزانة بومباى . فالحـكومة البريطانية إذا حرصا منها على تهدئة الأحوال فى الخليج العربى ، وضع أعمال القرصنة من جانب رعايا سلطان مسقط ، وكذلك لمعاونته فى دفع إيجار ميناء بندر عباس إلى فارس ، والذى أوضحنا أن سلطان مسقط كان قد استأجره منها منذ عام ١٨٥٥ ، وكذلك حتى يستطيع سلطان مسقط مواجهة القوى الوهابية ، وكذلك لنيل موافقة كل من سلطان زنجبار وسلطان مسقط على إلغاء تجارة الرقيق فى ممتلـكاتهما ، لـكل هذه الأمور تـكلفت بريطانيا بدفع

٤٠,٠٠٠ ريال سنوياً لسلطان مسقط ، وهى المعاش المستحق له من سلطان زنجبار طبقاً لتحكيم كاننج سنة ١٨٦١ .

ولا شك أن تكفل بريطانيا بدفع هذا المبلغ السنوى لسلطان مسقط ، أدى إلى قطاع الصلات بين اقليمى السلطنة السابقة التى أقامها السيد سعيد بن سلطان – والتى كانت تضم زنجبار ومسقط معاً . مما قضى على أى أمل فى إمكان ضم الاقليميين ، وإقامة تلك السلطنة الافريقية الآسيوية مرة أخرى ، مما مهد فى النهاية لإمكان بريطانيا فرض سيطرتها ووصايتها على القسمين .

المراجــع

(١) Coupland, East Africa and its Invaders. p. 6.

(٢) د . جمال زكريا قاسم — دولة بو سعيد فى عمان وشرق أفريقيا ص ٢٥٦ .

(٣) India Offico Library. Political & Secret Dep. B. 2. Confidential. Memo. by W. M. S. Eastwick, July 15, 1868 P. 5.

(٤) د . جمال زكريا قاسم — المصدر السابق ص ٢٥٤ .

(٥) I. O. L. Political & Secret Dep. B. 2. Confidential. Zanzibar, Mascat and Persia. Memo hy Plitical Secretary. J. W. Kaye. July lst. 1968. P. 3.

(٦) د . جمال زكريا قاسم — المصدر السابق ص ٢٥٤ — ص ٢٥٥ .

(٧) Burton, Zanzibar, City & Coast Vol. 1., p.p. 307 — 308.

(٨) د . جمال زكريا قاسم — المصدر السابق ص ٢٥٧ .

(٩) I.O.L. Political & Secret Dep. P. 5. E. A. Confidential. Memo. by W. M. S. Eastwick. July 15, 1868.

(١٠) د . جمال زكريا قاسم — المصدر السابق ص ٢٥٧ .

(١١) د . صلاح العقاد — زنجبار ص ١١٨ — ١١٩ .

(١٢) Aitchison, G. U, A. Collection of Treaties Engagements and Sanads Relating to India and Neighbouring Countries. Vol. NI p.p. 229—230.

(١٣) ل . و . هولنجزوث — زنجبار — ترجمة وتعليق د . حسن حبشى ص ١٣ .

(١٤) Lyne, Robert Nunel, Zanazibar in Contemporary Times, p. 49.

(١٥) Aitchison C. U. op. cit. p. 230.

(١٦) I. O. L. Political & Secret & Dep. B 2. Confidential.

Memo. by W. M. S. Eastwick, Juiy 15, 1868. p. 5.

(١٧) د . جمال زكريا قاسم . المصدر السابق ص ٢٥٨ .

(١٨) د . صلاح العقاد . المصدر السابق ص ١١٩ .

(١٩) Lyne, op. cit. p. 52.

(٢٠) د . صلاح العقاد — المصدر السابق ص ١١٩ .

(٢١) Colomb, R, N. Slave Catching in the Indian Ocean. P. 119.

(٢٢) C. U. Aitchison, op. cit. p. 2 ͻ0.

(٢٣) Coupland, op. cit. d. 15.

(٢٤) د . صلاح العقاد — المصدر السابق ص ١٢٠ .

(٢٥) Coupland, op. cit. p. 20.

(٢٧) د . صلاح العقاد — المصدر السابق ص ١٢٠ - ١٢١ .

(٢٨) ل . و . هولنجزوث — زنجبار — ترجمة وتعليق د . حسن حبشي ص ١٣ .

(٢٩) د . صلاح العقاد — المصدر السابق ص ١٢١ .

(٣٠) Russel (Mrs Charles, E. B.) General . Rigby, Zanzibar and the Slave Trade p. p. 159—160.

(٣١) د . جمال زكريا قاسم — المصدر السابق ص ٢٦٣ .

(٣٢) Lyne op. cit. p. 37.

(٣٣) د . جمال زكريا قاسم — المصدر السابق ص ٢٦٤ — ٢٦٥ .

(٣٤) I. O. L. Political & Secret Department. B. 8 Memo. on the Turkish Claim to Sovereignty over the Eastern shores of the Red Sea and the whole of Arabia, and on the Egyptian Claim to the whole of the Western shores of the same

Sea, inclnding the African Coast from Suez to Cape Guardafui, printed for the use cf the F. O- Hertzlet. March 10, 1874 ·

I. O. L. Political & Secret Dep. B. 2. Con- (٣٥) fidential Memorandum by Captain W, M. S. Eastwick. July 15, 1868. p, 6.

Aitchison, op cit. Vol. XI p. 225. (٣٦)

I. O. L. B. 2 Memo, on Muscat and Zansibar (٣٧) Affairs. H. B. Frere, Jvly 20, 1868 p. 1.

Aitchison, p. 225. (٣٨)

Golomb, R. N. op. cit. p. 119. (٣٩)

I. O. L. B. 2. Memo, by Captain W. M. S. (٤٠) Eastxick July 15, 1868. p 6.

Aitchison Op. cit. p. 75. (٤١)

(٤٢) د. صلاح العقاد — المصدر السابق ص ١٣٠ .

I. O. L. Political & Secret Dep. B. 2. Confidental (٤٣) Zenzibar, Muscat and Persia: Memo by Political Secretary J.W. Kaye. July Ist 1868. p. 1.

I. O. L. Political & Secret Dep. B. 2. Confidential. (٤٤) Memo. Zenzibar, Arabia and the Persian Gulf. H. T. Princep 1. O. July 15, 1368, p. 3,

I. O. L, Political & Secret Secret Dep. B· 2. Con- (٤٥) fidential. Memo. on the drafts of despatches regarding the affairs of Muscat & Zanzibar. H. T. Frere. July 15, 1868. p, p. 1—2.

I. O. L Political & Secret Dep. B. 2. (٤٦) Confidcntial, Zenzibar, Muscat and Persia. Memo by pelitical Secretary. J. W. Kaye· July Ist. 1868. p. 1.

I. O. L. Political & Secret Dep. B. S, (٤٧)

Confidential. Memo. by W. M. S. Eastwick, July 1[illegible], 1868, pp. 6 - 7,

I. O. L, Political & Secret dep B. 2. (٤٨)
Confidential Zanzibar, Muscat and Persia. Memo. by Political Secretary. T. W. Kaye. Juiy 1st: 1868 p. 2,

I. O. L. Politicol & Secret Dep B 2. (٤٩)
Confidential. Memo. by W. M. S. Eastwick, July 15, 1868. p. 6.

I. O. L. Political & Secret Dep. B. 2. (٥٠)
Confidential. Zanzibar, Muscat and Persia. Memo by Political Secretary. J. W. Kaye. July ist. 1868; p, 2.

I. O. L, Political & Secret Dep. B. 2. (٥١)
Confidential. Memo, on the drafts of despatches regarding the affairs of Muscat & Zanzibar, H. B. Frere, July 15, 1868. p. 2.

I, O. L. Political & Secret Dep. B. 2. Confidential. (٥٢)
Memo. Zanzibar, Arabia and the Persian Gulf. H. T, Princep I. O. July 15, 1868. p. 4.

I. O. L. Political & Secret Dep. B. 2. Confidential, (٥٣)
Memo. on Muscat and Zanzibar Affairs. H. B. Frere. July 20, 1868, pp. 8 - 9.

I. O. L. Political & Secret Dep. B. 2. Confidentlal. (٥٤)
Memo. Zanzibar, Arabia and the Persian Gulf. H. T. Princep. I O., July 15, 1868, pp. 3 - 4.

I. O. L Political & Secret Dep. B, 2. (٥٥)
Confidential Memo. Zanzibar & Muscat. F. Cunie. July 24, 1868. p. 1.

(٥٦) د . صلاح العقاد ــ زنجبار ص ١٢٨ .

I. O. L. Political & Secret Dep. B, 2. Confidential (٥٧)
Memo. Zanzibar, Arabia and the Persian Gulf. H. T. Princep. I. O. July 15, 1868. p. 4.

Lyne, op, cit. p. 45. (٥٨)

I. O. L Political & Secret Dep. B. 2. Confidentiel (٠٩) Zanzibar, Muscat and Persia. Memo, by Political Secretary. J. W. Raye. July 1st. 1868. d. 4.

I. O. L. Political & Secret Dep. B. 2. Confidetial. (١٠) Memo. Zenibar, Arabia and the Persian Gulf. H. T. Princep, 1. O. July 15, 1868, p. 5.

I. O. L. Potitical & Secret Dep. B. 2. Confidential. (١١) Zanzibar, Muscat and Persia. Memo by Political Secretary J.W. Kaye. July 1st. 1868, p. 3.

I.O.L. Political & Secret Library. B. 2. Confidential, (١٢) Memo, Zanzibar, Arabia and the Persian Gulf. H. T. Princep. I. O. July 15, 1868. pp. 4 - 5.

1. O. L. Political & Secret Dep. B. 2, Confiential (١٣) Zanzibar, Kuscat and Persia. Memo. by political Secretary. J.W. Kaye. July 1st. 1868. pp. 3—4.

I. O. L. Political & Secret Dep. B. 2. Confidential (١٤) Memo, Zanzibar, Arabia and the persian Gulf. R. T. princep. I. O. July 15, 1868. p. 5.

I. O. L. Political & Secret Dep. B. 2. (١٥) Confidential. Memo, on the drafts of despatches regarding the affairs of muscat & Zanzlbar. H. B, Frere, July 15, 1868. p. 7.

I. O. L, Political & Sccret Dep. B 2 Coafidential (١٦) Memo. Zanzibar, Arabia and the Persian Gulf H. T. princep. I. O., July 15, 1868 d. 7,

I. O. L. Politieel & Secret Dep. B. 2. (١٧) Confidential. Memo on the Drrfts of Despatches regarding the affairs of Muscat & Zanzibar. H. B. Frere, July 15, 1868. pp 5—6.

I. O. L. Political & Secret Dep, B. 2. (٦٨)
Confidential. Memo, on the drafts of despatches regarding the affairs of Muscat & Zanzibar. H. B. Frere. July 15, 1868, p. 7.

I. O. L. Political & Secret Dep. B. 2. Confidential: (٦٩)
Memo. Zanzibar, Arabia and the persian Gulf. H. T. princep, I. O., July 15, 1868. d, 6.

I. O. L. Political and Secret Dep. B. 2. (٧٠)
Gonfidential, Persian Gulf, Muscat and Zanzibar G. C. July 17, 1868. p. 4.

I. G, L. Political & Secret Dep. B. 2. C nfidential. (٧١)
Zanzibar, Muscat and persia. Memo. by political Secretary. J. W. Kaye. July lst. 1858. p. 4.

I. O. L. Political & Secret Dep. p. 2. (٧٢)
Confidential. Memo. on the drafts of despatches regarding tho affairs of Muscat & Zanzibar. H. B. Frere. July 15, 1368.

I. O. L. Political & Secret Dep. B. 2. Confidential. (٧٣)
Memo. by W. M. S. Eastwick, July 15, 1868. p. 7.

I. O. L. Political & Secret Dep. B. 2. Confidential. (٧٤)
Zanzibar, Muscat and Persia Memo. by political Secretary. J.W. Kaye. July lst 1868 p. 4.

I. O. L Political & Secret Dep. B. 2. Confidential. (٧٥)
Memo. Zanzibar, Arabia and the persian Gulf. H, T. princep I. O. July 15, 1878. pp. 6-7.

I. O. L. Political & Secret Dep. B. 2, Gonfidential (٧٦)
Memo, Persian Gulf, Muscat & Zanzibar; G, G, July 17, 1868. p. 5.

(٧٧) د . صلاح العقاد ـ زنجبار ص ١٢٨ .

I. O. L. political & Secret Dep. B. 2, (٧٨) Confidential. Memo, persian Gulf; Muscat & Zenzibar, G. C. July 17, 1868. p. 5.

G. L. Sulivan; R. N, & how Chasing. In Zanzibar (٧٩) Waters and on the Eastern Cost of Africa p. 57.

I. O. L. political & Secret Dep. B. 2, (٨٠) Confidential: Memo. peasian Gulf, Muscat ond Zenzibar; G. C. July 17, 1868.

I. O. L, political & Secret Dep. B. 2, Confidential. (٨١) Zanzibar, Muscat and Persia. Memo by political Secretary, J,W. Kaye. July lst, 1868, pp, 2—3.

I. O. L. political & Secret Dep, B. 2. (٨٢) Confidential. Memo, persian Gulf, Muscat and Zanzibar. G. C, July 17, 1868 p, 5,

I. O. L. political & Secret Dep, B. 2. Confidential, (٨٣) Memo, by W, M. S, Eastwick July 15, 1868, p. 7.

I. O. L. political and Secret Dep, B 2. Confidential. (٨٤) Memo, Persian Gulf, Musoat and Zanzibar. G. C. July 17, 1868, p, 8,

I. O. L. politicol & Secret Dep, B. 2, (٨٥) Confidential, Memo, on the drafts of despatchcs regarding the affairs of Muscat & Zanzibar, H. B. Frere, July 15, 1868, p,. 2

I. O. L. political & Secret Dep, B. 2, Confidential, (٨٦) Memo, by W, M, S, Eastwick; July 15, 1868, p. 8

I. O. L. Political & Secret Dep, B. 2, Confidential, (٨٧) Memo, oh the drafts of despatches regarding the affairs of Muscat & Zanzibar, H, B Frere July 15, 1868, pp, 2-3,

I. O. L. Political & Seeret Dep, 2, Confidential, (٨٨)
Memo, by W. M. S. Eastwick, July 15, 1868, p. 8.

I. O. L. political & Secret Dep, B. 2. Zanzibar, (٨٩)
Muscat abd persia, Memo, by political Secretary, J, M. Kaye,
July Ist, 1868, p. 3.

I. O. L. political & Secret Dep. B. 2. Confidential, (٩٠)
Memo, Zanzibor‘ Arabia and the persian Gulf, H. T. princep,
I O. July 15, 1868. pp. 1 – 2.

I. O. L. Political & Secret Dep' B. 2. (٩١)
Confidential. Zanzibar, Muscat and Persia, Memo. by
Political Seeretary. J. W. Kaye. July lst. 1868. pp.
1 — 2.

I. O. L. Political & Secret Dep. B. 14. (٩٢)
Nemorandum, Mo. 1. Zanzibar Agancy and Consulate
Expenses. A. W. M. August 17, 1867. p. 1.

(٩٣) د . صلاح العقاد ـ زنجبار ـ ص ١٢٩ .

I. O. L. Palitical & Secret Dep. B. 14. (٩٤)
Memo. No. 1, (See Enclosure in Sir Frere's Despatch
to Earl Granirble No: 65 of 1873. p. 211, in Printed
Coilection).

(٩٥) د . صلاح العقاد ـ المصدر السابق ـ ص ١٠٧ ـ ١٠٨ .

I. O. L. Political & Secret Dep. B. I4. Memo. (٩٦)
No. 1. Zanzibar Agency and Consultate Expenscs. A. W. M.
August 17, 1878. p. 2.

(٩٧) د . صلاح العقاد ـ المصدر السابق ـ ص ١٥٨ ـ ١٦٠ .

Aitchison, C.U. A. Collection of Treaties, Enga (٩٨)
gements and Sands relating to India and Neighbouring
Countries. Vol. XI, p. 231.

I. O. L. Political & Secret Dep· B· 14 Memo. (٩٩)
No. 1. Zanzibar Agency and Consulnte Expenses. A. W. M. August 17,1868

(١٠٠) د . صلاح العقاد ـ المصدر السابق ص ١٦١ .

I. O. L. Political & Secrct Dep· B. 14. Memo. (١٠١)
Xo. 1 Zanzibar Agency and Gonsulate Expenses. A. W. M. August 1/, 1876, pp. 2—4.

I. O. L. Political & Secret Dep. B. 2. Confidential (١٠٢)
Zanzibar, Muscat & Persia. Memo: by Political Secretary J. W. Kaye, July 1st 1868 p. 2.

أصحاب القمصان الملونة فى مصر

١٩٣٣ — ١٩٣٧

للدكتور يونان لبيب رزق
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد
كلية البنات — جامعة عين شمس

عرفت الحياة السياسية فى مصر لنحو أربع سنوات ممتدة بين نهاية عام ١٩٣٣ ونهاية عام ١٩٢٧ ظاهرة فريدة تتمثل فى تشكيل جماعات من الشبيبة على أنماط شبه عسكرية هى التى عرفت « بأصحاب القصان الخضراء » التى أسستها جمعية مصر الفتاة ، و « أصحاب القمصان الزرقاء » التى كونها الوفد من بين صفوفه الشابة .

ومصدر التفرد أنه لأول مرة فى تاريخ مصر المعاصر ، وربما لآخر مرة قبل عام ١٩٥٢ ، تتشكل مثل هذه التنظيمات السياسية ذات الصبغة شبه العسكرية على نحو علنى ، حقيقة سمحت جماعات سياسية معينة إلى تدريب مجموعات من شبابها عسكرياً خلال الأربعينيات ومطلع الخمسينيات (بالذات الإخوان المسلمين وجماعة مصر الفتاة) ، إلا أن هذا التدريب كما يلاحظ كان يتم فى الغالب بصورة سرية ، أو كان يتم لمهمة محددة بموافقة السلطة كما حدث

بعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦ حين سمحت الحكومة الوفدية لسائر الجماعات السياسية بتدريب أعضائها لحمل السلاح ضد الوجود البريطانى بعد أن فقد شرعيته على التراب الوطنى المصرى .

وتستلزم محاولة المتابعة التاريخية لهذه التنظيمات السعى أولا للتعرف على المناخ السياسى الذى ظهرت فيه ، والسعى ثانياً لتحديد هويتها .

فيما يتصل بالجانب الأول - المناخ السياسى — فإن ظهور تلك الجماعات السياسية على نحو لم تعرفه مصر فى تاريخها الحديث إنما يتسق إلى حد كبير مع أوضاع الوطن المصرى الداخلية ، ثم مع التغييرات العالمية التى سادت خلال فترة ما بين الحربين .

فى مصر : كانت هناك أكثر من حقيقة تيسر من إمكانية ظهور تلك الجماعات :

١ — هذا الظهور من جانب كان طبيعياً وعهد حكومة صدقى بكل ما أحاط به من سياسات قمع للقوى الشعبية قد بدأت تهتز قوائمه (١٩٣٤) ، وقد صحب هذا الشعور بالاهتزاز سعى من جانب القوى السياسية فى البلاد لاستخدام أسلحة أخرى غير الأسلحة التقليدية التى طالما اعتادت استخدامها .

القصر : تأكد من فشل سياسة « خلق أحزاب للسراى » وقد صدر هذا التأكيد من فشل تجربة حزب « الاتحاد » خلال العشرينيات ، ومن فشل تجربة حزب « الشعب » خلال الثلاثينيات ، وهى الأحزاب التى دأبت صحف الوفد على تسميتها « بالأحزاب الصناعية[1] » .

من ثم فقد عول الملك على أن يطرح هذه السياسة جانباً وأن يسير قدماً فى سياسة تستهدف استقطاب الشباب المصرى ، وقد تصور أن إمكانية نجاح مثل هذه السياسة الجديدة ميسورة على أساس أن جيلا جديداً من الشبان قد

بدأ يظهر غير ذلك الجيل الذى عاصر ثورة ١٩١٩ وشارك فيها بل وصنعها وترسبت فى وجدانه، فيها ومنها، كل مشاعر الولاء للوفد .

والوفد : باعتباره القوة الشعبية الرئيسية فى البلاد رأى زعماؤه بدورهم أن اعتمادهم فحسب على « شعبية عزلاء » جعل بالإمكان وباستمرار ضرب هذه الشعبية وسلبها من أى قيمة مما تأكد تماماً خلال « عهد صدق » بكل ما تميز به من لا شعبية .

من ناحية أخرى فلا شك أن عمل أعداء الوفد على استبدال وسائلهم القديمة بوسائل تتمثل أساساً فى « تنظيمات الشبان » قد أثار هواجس القيادة الوفدية كما أثار حميتها مما دعاها إلى اصطناع وسائل الآخرين فى استقطاب الشباب فكان تنظيم « القمصان الزرقاء » الذى تشكل من الشبان الوفديين تسجل هذه الحقيقة وثيقة طويلة كتبها ممثل المندوب السامى البريطانى فى القاهرة تروى قصة أصحاب القمصان الزرقاء وجاء فى أولها « إن هذا التنظيم قد تشكل خصيصاً لمواجهة تنظيم القمصان الخضراء وإعادة نفوذ الوفد المتهاوى على الشبان(٢) » .

٢ ـ هذا الظهور من جانب آخر كان طبيعياً والجيل الجديد من الشبيبة المصرية يرى ثورة ١٩١٩ قد أخفقت فى بلوغ أهدافها بإحراز الاستقلال المرجو للوطن . وقد رأى أبناء هذا الجيل أن ذلك الإخفاق قد نتج عن تفتت الجبهة الداخلية وما استتبع هذا التفتت من مناورات مكنت الوجود الاحتلالى البريطانى من الاستمرار .

ومن ثم فقد طرح بعض أبناء هذا الجيل تصوراً مؤداه أن لا سبيل لمواجهة كل الفشل الذى لقيه العمل الوطنى خلال السنوات السابقة إلا بالوحدة الوطنية وأن هذه الوحدة الوطنية يمكن أن تبدأ بالشباب .

يبدو ذلك واضحاً من مجموعة المقالات التى امتلأت بها جريدة «الصرخة»

بعد أن أصبحت لساناً لحال بعض الشباب الذين تسموا باسم مصر الفتاة منذ ٧ أكتوبر عام ١٩٣٣ ، والذين بلوروا أهدافهم ونشروها فى الجريدة المذكورة قبيل نهاية نفس السنة وكان أولها « أن تجمع الشباب فى صعيد واحد[٢] » .

٣ ـ هذا الظهور من جانب ثالث كان يتسق تماماً مع التغييرات السياسية العالمية وتأثير هذه التغييرات الواسع على طبيعة حركة السياسة المصرية ، فبينما شهدت العشرينيات نجاحاً كبيراً أحرزه « أصحاب القمصان السوداء » فى إيطاليا بزحفهم المشهور على روما (١٩٢٢) وتمكينهم للحزب الفاشى الذى ينتمون إليه من الحصول على السلطة ، شهدت الثلاثينيات تنظيمات الشباب النازى فى ألمانيا وهى تعصف بأعداء الحزب وتمكنه فى النهاية من الاستيلاء على السلطة فى بلاده (١٩٣٢) . ويبدو تأثير كل ذلك على استعارة التسمية « بأصحاب القمصان » خضراء أو زرقاء ثم تنظيماتهم .

يؤدى بنا ذلك إلى التساؤل عن « هوية » أولئك الشبان المصريين من أصحاب القمصان .

والملاحظ أن الاتهام « بالفاشية قد حلق فوق رؤوس أصحاب القمصان عموماً إلا أنه كان أكثر تحليقاً فوق رؤوس أصحاب القمصان الخضراء من رجال مصر الفتاة عن أصحاب القمصان الزرقاء من أبناء الوفد .

السبب فى ذلك طبيعة الوفد باعتباره حزباً ليبرالياً يؤمن بالديموقراطية خاصة ووراءه دعم شعبي هائل لا يجعله فى حاجة إلى الوصول إلى السلطة من خلال الأساليب الفاشية ، وتنظيم « القمصان الزرقاء » من هذا المنطلق كانت مهمته فيما تصوره زعماء الوفد وتؤكده الوثائق البريطانية حماية الغالبية الشعبية التى يتمتع بها من أى محاولات دكتاتورية لضربها .

يبقى بعد ذلك اتهام أصحاب القمصان الخضراء بالفاشية ، والملاحظ أن هؤلاء ظلوا منذ الشهور الأولى لتكوين جماعتهم يسعون إلى نفى هذا الاتهام ، فيكتب أحد مؤسسى الجماعة (فتحى رضوان) فى فبراير ١٩٣٤ يقول « الفاشستية على أية حال بضاعة إيطالية ونحن نقاطع البضائع الأجنبية جميعاً بغير استثناء ، إن كل ما بيننا وبين الفاشيست من شبه ، هو هذا القميص ، على أن القمصان عرفت فى التاريخ قبل أن يعرف رئيس وزارة إيطاليا ، والتحية التى نرفع بها أيدينا هى تحية مصرية قديمة قبل أن تكون تحية رومانية . أما الأصول والأسس والقواعد فلسنا نقلد فيها أحداً ولا نقتبسها من هيئة ولا أمة(٤) » .

ينفى الاتهام أيضاً « حافظ محمود » وكان رئيساً لتحرير الصرخة بعد أن أصبحت الناطقة باسم « مصر الفتاة » . . يقول حافظ محمود فى كتاب أشبه بالمذكرات صدر له مؤخراً « إن هذا الحزب — يقصد مصر الفتاة — يهاجم فى تاريخ الأحزاب باعتباره حزباً فاشياً لسبب بسيط هو أن جماعة مصر الفتاة بعقلية شبابية مبكرة كانوا قد اتخذوا لأنفسهم زياً خاصاً وهو القميص الأخضر ، وكانت القمصان الملونة إذ ذاك هى شعار النازية فى ألمانيا الهتلرية وشعار القيصرية فى إيطاليا موسولينى » .

ويستطرد حافظ محمود قائلا « والمقارنة هنا مقارنة ظالمة . . فالفاشيون فى ألمانيا وإيطاليا آنذاك كانوا يحكمون أو يطلبون الحكم . بينما كان حزب مصر الفتاة يطلب التحرير . كل ما هنالك أن هذه الجماعة من الشباب كانوا يتطلعون إلى الجندية فى وقت لم يكن التدريب العسكرى فيه قد ظهر فى معاهد التعليم ، وقاموا هم بهذا التدريب لأنفسهم(٥) » .

لكن وعلى الجانب الآخر فإن هناك ما يدعم وجهة نظر أولئك الذين رأوا فى جماعة مصر الفتاة وتنظيمات القمصان الخضراء جماعة وتنظيمات فاشية .

فإذا كان التطرف فى القومية ركيزة من ركائز الفاشية فإن مصر الفتاة قد تطرفت فى هذا السبيل إلى أقصى حدود التطرف .

فتحت عنوان « المبادىء العشرة لكى تكون جندياً من جنود مصر الفتاة » التى ظلت تنشرها صحيفتهم جاء فى أحدها « لا تشتر إلا من مصرى ، ولا تلبس إلا ما صنع فى مصر ، ولا تأكل إلا طعاماً مصرياً » وجاء فى آخر « احتقر كل ما هو أجنبى بكل نفسك وتعصب لقوميتك حتى الجنون » ، وجاء فى ثالث « غايتك أن تصبح مصر فوق الجميع دولة شامخة تتألف من مصر والسودان وتحالف الدول العربية وتتزعم الإسلام(٦) ».

وتحت عنوان « مفاخرنا . . احفظوها أيها الشباب وآمنوا بها تصبح مصر فوق الجميع » تمتلىء صفحة كاملة من جريدتهم بصفة دورية وتتحدث عن مصر منبع الحكمة وقائدة الإسلام « وهى التى ستصبح فوق الجميع ... رغم أنف الجميع(٧) » .

سبب آخر للاتهام يتصل بطبيعة العلاقة بين مصر الفتاة وبين الأنظمة الفاشية وبالذات النظام الايطالى ، حقيقة ان جماعة أصحاب القمصان الخضراء فى سعيها لنفى الشبهة قد ظلت خلال المرحلة الأولى من تكوينها تهاجم النظامين الإيطالى والألمانى(٨) إلا أن قيادتها أقامت بعد ذلك نوعا من العلاقات مع ممثلى حكومة روما فى القاهرة ، يؤكد هذه الحقيقة التصريح الذى أدلى به النحاس رئيس الوزراء المصرى فى مجلس النواب بجلسته المنعقدة فى ٢٢ يونيه ١٩٣٦ وجاء فيه انه « ثبت لوزارة الداخلية أن جمعية مصر الفتاة تعمل لحساب دولة أجنبية ضد مصلحة البلاد »(٩) ، ويسجل تقرير بريطانى أن تلك الدولة هى ايطاليا وأن النحاس باشا أدلى بتصريحه هذا بناء على معلومات تلقتها الداخلية المصرية عن اتصالات بين الجمعية وممثلى ايطاليا فى مصر(١٠) ويذكر تقرير بريطانى آخر بالنص قبل ذلك

بشهر (٢٢ مايو) « ان السلطات الإيطالية فى مصر تبدى إهتماماً بالجولة المنتظرة من أحمد حسين وأتباعه »(١١) . ولا شك أن تأكيد هذا الإتهام هو الذى دعا إلى الحجر على حرية أحمد حسين وصحبه خلال أغلب سنى الحرب العالمية الثانية بعد ذلك .

من ناحية أخيرة فإذا كان المفكرون الاشتراكيون قد رأوا أن الفاشية فى إيطاليا أو ألمانيا فى جوهرها إنما تمثل إحلال ديكتاتورية سافرة للاحتكارات الكبرى محل الديموقراطية الرأسمالية وهى بذلك تقوى مراكزها مدعومة بكبار الرأسماليين ولا تحقق مطلقا وعودها بحماية « الرجل الصغير » الذى تستخدمه فى الوصول إلى السلطة(١٢) ، وإذا كان رجل مثل الأمير « عباس حليم » فى سعيه لتزعم الحركة العمالية خلال الثلاثينيات إنما كان يمثل سعى البورجوازية المصرية لاحتواء هذه الحركة ، فإن التحالف الذى قام بين « أصحاب القمصان الخضراء » وبين هذا الأمير المعروف بميوله الألمانية(١٣) قد يلقى ظلالا من الشكوك عن أنهم قد حاولوا أن يلعبوا نفس الدور الذى لعبته كل الفاشية والنازية فى المجتمعات الإيطالية والألمانية . ربما لم تلق المحاولة نفس النجاح إلا أن ذلك لا يدعو إلى تبرئة مصر الفتاة بقدر ما يمكن القول أنه نتج عن أن طبيعة تركيب البورجوازية فى مصر كذا قدراتها قد اختلفت عن طبيعة تركيب وقدرات الطبقات مثيلاتها فى كل من إيطاليا وألمانيا مما أصبحت معه سنداً ضعيفاً لحركة كان يمكن أن تعبر عن مصالحها .

ظهور أصحاب القمصان الخضراء :

صدرت أول دعوة لتشكيل جماعة « أصحاب القمصان الخضراء » فى ديسمبر عام ١٩٣٣ فى جريدة الصرخة تحت عنوان « ذو القميص الأخضر أو جنود مصر الفتاة » .

وقد تضمنت تلك الدعوة الأهداف منها وكانت « ان تجمع الشباب فى صعيد واحد ... ان تعودهم على النظام والطاعة .. أن تلبسهم زياً موحداً .. أن تنطقهم بنشيد واحد .. أن تجعل لهم شعاراً واضحا وغاية محدودة .. أن ترسى لهم مثلا أعلى يحاولون الوصول إليه .. أن تملأهم إيمانا بحقهم .. إيمانا بقدرتهم على العمل .. وأن تحملهم على التقشف وبغض اللهو والتخنث والتهتك وأن يعبدوا الله ويفنوا فى سبيل الوطن » .

وتحدثت الدعوة المذكورة أيضا عن طبيعة التنظيم الجديد فذكرت أنه يتشكل من أعضاء ومجاهدين وأن « العضوية » حق لكل مصرى يرغب فى تحقيق مبادىء مصر الفتاة ، أما من يصل إلى مرتبة « المجاهد » فهو « الشاب الذى قدم البرهان على أنه يعمل من أجل ربه ووطنه ومليكه » .

وبعد ذلك بأسبوع تزيد (الصرخة) المسألة إيضاحا فتتحدث عن الزى الخاص للمجاهدين وأنه يتكون من « قميص أخضر مصرى وبنطلون من القماش المصرى وحزام من الجلد المصرى » ، ثم تتحدث عن الهيكل التنظيمى العام للجماعة وتسجل أنه يتشكل من ٦ درجات : « القسم » الذى يضم ١٢ مجاهدا ، « والكتيبة » التى تتكون من أربعة أقسام ، و « الفرقة » التى تتشكل من أربع كتائب ، ثم « اللواء » الذى يضم أربع فرق ، و« الفيلق » الذى يتكون من أربعة ألوية ، وأخيراً « هيئة أركان الجهاد » التى تتكون من رؤساء الفيالق(١٤) .

خلال نفس الشهر — يناير ١٩٣٤ — يرفع ممثل المندوب السامى البريطانى فى القاهرة « المستر ينسكن » مذكرة مستفيضة إلى وزارة خارجيته تضمنت مجموعة من الإيضاحات لم تتضمنها صحف مصر الفتاة .

أول هذه الإيضاحات ، فيما ارتأته دار المندوب السامى ، ان زعامة الجماعة الجديدة تتألف من مجموعة من صغار الشبان المتخرجين حديثاً من

كلية الحقوق وعلى رأسهم فتحى رضوان وأحمد حسين المرتبطين ارتباطا قويا بكل من الحزب الوطنى وجمعية الشبان المسلمين التى كان يرأسها وقتذاك « عبد الحميد السيد » النائب الوطنى .

إيضاح آخر تضمنته مذكرة المستر ينكن وهو أن جماعة الشبان هذه قد استمدت معظم أفكارها من مقالة كتبها « محمد على علوبة باشا » أحد رجال الأحرار الدستوريين رأى فيه أن أغلب متاعب مصر ناتجة عن الاحتلال البريطانى وأعلن أن مبدأه الأساسى هو إجلاء البريطانيين عن مصر وعن قناة السويس والسودان وإلغاء الإمتيازات وعدم تجديد إمتياز قناة السويس والتوقف عن استخدام أسلوب المفاوضات طالما أنه لم يحقق الآمال الوطنية(١٥) .

ويبدو أن هذا الانطباع البريطانى كان انطباعا صحيحا مما يتأكد من توثيق العلاقات بعد ذلك بين علوبة باشا وبين الجماعة الجديدة والذى بدا فى اشتراك الرجل فى افتتاح الدار الجديدة للجماعة فى نفس السنة ثم فى اشتراكه فى الدفاع عن زعمائها أمام القضاء بتهمة التحريض ضد دولة أجنبية مما ترتب عليه الافراج عنهم(١٦) .

يثير هذا قضية هامة تتصل بعلاقة « أصحاب القمصان الخضراء » أو زعامات جمعية « مصر الفتاة » بالتنظيمات السياسية القديمة ، فمع ما تمت الاشارة إليه من علاقات مع « الحزب الوطنى » ، ثم مع أحد رجالات الأحرار الدستوريين البارزين ، بالاضافة إلى ما عرف بعد ذلك من علاقة مع على ماهر الزعيم السياسى الموالى للقصر ، كل ذلك بلا شك أدى إلى نتيجتين أضعفتا الجماعة خلال الثلاثينيات ، وربما بعد ذلك :

النتيجة الأولى : انها أجبرت الجماعة على مواجهة تؤكد كافة الدلائل أنها كانت فى غير صالحها .. تلك هى مواجهتها مع الحزب الشعبى الكبير «الوفد»

الذى تشكك فى طبيعة علاقاتهم وتصورهم أدوات فى أيدى أعدائه الساعين إلى تدمير نفوذه مما نتج عنه أن ناصبهم العداء، وسعى إلى تعقبهم وضربهم.. وقد نجح فى ذلك.

النتيجة الثانية: أنه قد تبع الاحساس بين شرائح اجتماعية مصرية معينة بطبيعة تلك العلاقات العزوف عن الانضمام للجماعة أو تشجيعها مما فقدت معه أرضا كان يمكن أن تكسبها.

الايضاح الثالث: الذى قدمته المذكرة البريطانية يبدو فى شعور قوى من جانب السياسيين البريطانيين فى القاهرة بالمخاوف من الجماعة الجديدة والتى يصفها ممثل المندوب السامى فى مطلع تلك المذكرة بأنها «تنظيم فاشى معادى للأجانب وذو صبغة وطنية متطرفة» ثم يسجل بالتفصيل «الخطاب المفتوح» الذى وجهه أحد أعداد «الصرخة» إلى المنـــدوب السامى والذى امتلأ بالعبارات القاسية أو ما تصور المستر ينسكن أنها عبارات قاسية(١٧).

وهكذا ظهر فى ميدان السياسة المصرية «أصحاب القمصان الخضراء» وجمعيتهم وقد جذبا مع ظهورهما اهتمامات كافة المشتغلين بالعمل السياسى فى البلاد..

دار المندوب السامى التى أبدت تخوفها من انبعاث روح المقاومة المتجددة بين جيل الشبان الجديد.

بعض الجماعات السياسية القديمة التى رأت أن احتضان الحركة الجديدة قد يمكنها من استعادة شبابها، ولا شك أن الحزب الوطنى كان أكثر هذه الجماعات اهتماما مما دعا صحيفة مثل «الليبرتيه» التى كانت تعبر عن سياسة القصر إلى أن تنشر فى أبريل ١٩٣٤ «كاريكاتيرا» تضع فيه حافظ رمضان رئيس الحزب الوطنى وأصحاب القمصان الخضراء فى سلة واحدة، ومما دعا

السير مايلز لامبسون إلى أن يكتب فى نفس الوقت تقريبا أنه « إذا كانت هناك أى قوة سياسية وراء جماعة مصر الفتاة فلن تكون هذه القوة سوى الحزب الوطنى[١٨] .

ثم (القصر) الذى تنبه إلى قيمة الجماعة الجديدة فحاول بدوره أن يتبناها وتتحدث الوثائق البريطانية فى البداية عن العلاقة بين الملك فؤاد وبين مصر الفتاة بتشكك ، وتقيم شكوكها على أساسين : أولهما : العلاقة الخاصة بين الملك وبين الحزب الوطنى ، وثانيهما تأثر برنامج أصحاب القمصان الخضراء بالاتجاه العربى الاسلامى وهو الاتجاه الذى دافع عنه بل واحتضنه القصر فى أغلب الأوقات[١٩] .

ولا تلبث الشكوك أن تتحول بعد ذلك إلى تأكيدات نتيجة لموقف القصر المدافع عن صحف الجماعة ، فقد تدخل مراد باشا محسن ناظر الخاصة الملكية فى أبريل ١٩٣٥ مؤنبا الموظفين المسئولين عن مصادرة أحد أعداد الصرخة مما دعا المندوب السامى فى القاهرة إلى أن يكتب بأن « هذه الجمعية تنال عونا خاصا من القصر وهى مسألة كانت محل اشتباه منذ وقت طويل »[٢٠] .

يبقى بعد ذلك الحزب الشعبى الكبير « الوفد » والذى أزعجه بلا شك محاولات استقطاب الشباب من جانب القوى السياسية المنافسة ، وكان من الطبيعى أن يبادر إلى التحرك فى مواجهة تلك المحاولات ، وقد تمخض هذا التحرك عن ظهور الجماعة الثانية من أصحاب القمصان .

ظهور أصحاب القمصان الزرقاء :

كان الوفد صاحب خطوة المبادأة فى ميدان التنظيمات الشبابية خلال الثلاثينيات ، ذلك أنه منذ منتصف يوليو عام ١٩٣٣ بدأت الزعامات

الوفدية فى تشكيل « لجان الشباب الوفدى » فى المدن والمديريات وقد أخذ النقراشى باشا على عاتقه تنظيم تلك اللجان لما عرف عنه من قدرة تنظيمية فائقة يدعمه فى ذلك ما تضمنته أغلب بيانات النحاس باشا آنذاك من دعوة الشبان للجهاد من أجل القضية الوطنية وحزب الأغلبية(٢١) .

ولكن ، وعلى ما يبدو ، فإن ذلك النشاط الوفدى بين صفوف الشباب قد ارتبط إلى حد بعيد بالمقاومة الوطنية لعهد صدقى ، وكان بالتالى سلاحاً من أسلحة تلك المقاومة . يؤكد ذلك الجهود التى بذلتها أجهزة الحكم فى منع تشكيل هذه اللجان وإن كانت تعترف بعدم جدوى تلك الجهود(٢٢) .

وبسبب ذلك الارتباط فقد توقف نشاط الوفد فى هذا الميدان مع بشائر سقوط عهد الوزارة الصدقية ثم وزارة خلفه عبد الفتاح يحيى فى نوفمبر ١٩٣٤

ويعود اهتمام الوفد مرة أخرى بتنظيمات الشباب فى أواخر عهد وزارة توفيق نسيم (نوفمبر ١٩٣٤ — يناير ١٩٣٦) وذلك نتيجة لما تمت الإشارة إليه من ظهور أصحاب القمصان الخضراء وارتباطاتهم اللاوفدية ، وتشير التقارير الرسمية إلى ظهور مجموعات أخرى من الشبان من غير المنتمين للوفد، فقد جاء فى أحد التقارير الصادرة عن الإدارة الأوربية بوزارة الداخلية بأن عهد الوزارة النسيمية قد شهد ظهور جماعة قوية من الطلاب فى الجامعة بزعامة نور الدين طراف تتلقى تعليماتها من الأحرار الدستوريين وتهتم بها سائر الجماعات غير الوفدية مثل الحزب الوطنى والقصر وعباس حليم وغيرهم ، ويستطرد التقرير المذكور أن تلك الجماعة كانت تزداد قوة يوماً بعد يوم وأنها قد حصلت على كمية من الأسلحة النارية(٢٣) .

فى مواجهة ذلك حاول الوفد فى البداية أن يمنع استمرار مثل هذه التنظيمات ، ونجح النحاس فى حث رئيس الوزراء « نسيم باشا » على إصدار قانون بهذا المنع ، وتم بالفعل إعداد مشروع القانون المذكور إلا أن

عبد الحميد بدوى باشا رئيس قلم قضايا الحكومة وقتذاك قد اعترض عليه فلم يقدر له الصدور(٢٤) .

ولم يكن أمام زعامة الوفد بعد ذلك سوى العمل على « فل الحديد بالحديد» كما يقال ، ومن ثم فقد قررت إنشاء تنظيم على نسق القمصان الخضراء من الشبيبة الوفدية فكان ظهور أصحاب القمصان الزرقاء .

وقد أوكل لكل من مكرم عبيد سكرتير الوفد وزهير صبرى تنظيم الجماعة الجديدة ، وتم اختيار « محمد بلال » الذى كان طالباً بكلية الصيدلة رئيساً لتلك الجماعة ، وكلف بعض ضباط الجيش المتقاعدين بتدريب أعضائها .

وينبغى فى هذا الصدد تسجيل ملاحظتين تتصلان بنشأة « أصحاب القمصان الزرقاء » .

أولاهما : النمو السريع لتلك الجماعة وهو نمو طبيعى بحكم اتصالها العضوى بالوفد ، ويذكر تقرير الادارة الأوربية بوزارة الداخلية الذى أشرنا إليه بأنه فى غضون أسابيع قليلة فاق عدد أصحاب القمصان الزرقاء عدد أصحاب القمصان الخضراء ويسوق تقديرا لعددهم وقد بلغ أكثر من ثمانية آلاف منهم ألفان فى القاهرة وأكثر من خمسمائة فى الاسكندرية وفيما يتراوح بين خمسة آلاف وستة آلاف فى الأقاليم .

من ناحية أخرى فان هذا النمو لم يقتصر على جموع المنتمين وإنما امتد ليشمل رقعة واسعة من بقاع الوطن المصرى . . فى القاهرة والاسكندرية ومديريات الشرقية والغربية والبحيرة والمنوفية والمنيـــا وأسيوط وقنا بالإضافة إلى محافظة قناة السويس(٢٥) .

ثانيتهما : ان ظاهرة الانقسام إلى أجنحة التى عرفها الوفد على امتداد تاريخه قد عانى منها بدوره تنظيم أصحاب القمصان الزرقاء خاصة مجموعات هذا التنظيم الموجودة فى المدن ، وبالذات فى القاهرة والاسكندرية .

مجموعة القاهرة انقسمت إلى جناحين : أولهما برئاسة « زهير صبرى » ويتشكل تماما من الطلاب إلا أن مجموع أعضائه لم يتجاوز المائتين، أما الجناح الثانى فيتزعمه « محمد بلال » ويضم بقية أصحاب القمصان الزرقاء فى القاهرة (١٨٠٠ عضو) ، بالاضافة إلى الطلاب فقد كان هذا الجناح الأخير يتشكل من « العاطلين والغوغاء وقلة من الحرفيين وعدد من العمال » وقد قدرت أجهزة الشرطة نسبة هؤلاء إلى مجموع الأعضاء بـ ٨٥٪ .

نفس الظاهرة عانت منها مجموعة الاسكندرية ، وكان يتزعم جناحها الأول « البرت برسوم » وهو محام وفدى ، وقد تم تقدير المنضوين تحت لواء هذا الجناح بـ ٣٥٠ شاباً ، أما جناحها الثانى فقد كان يرأسه محامى وفدى آخر هو « على الحلوانى » وإن كان عدد أعضائه لم يتجاوز المائة والخمسين شاباً . وقد ارتدى أعضاء جناح برسوم جوارب بنية تمييزا لهم عن أعضاء جناح الحلوانى الذين كانوا يرتدون جوارب خاكية[٢٦] .

وكما لعبت هذه الظاهرة دوراً سلبياً فى تاريخ الوفد فقد لعبت نفس الدور فى تاريخ تنظيمه الشبابى ممثلا فى « أصحاب القمصان الزرقاء » إذ بلغت الحدة فى العلاقات بين أجنحة التنظيم فى القاهرة إلى درجة العراك المسلح ، ففى يوم ١٦ أكتوبر ١٩٣٦ وبينما كان أعضاء مجموعة زهير صبرى يقومون ببعض التدريبات هاجمهم حوالى ١٥٠ من جماعة محمد بلال وحطموا معسكرهم وقبضوا على ستة منهم عادوا بهم إلى معسكرهم الخاص ، وقد استخدمت فى هذا العراك العصى والسكاكين ، كما سمعت بعض طلقات فى الهواء[٢٧] .

على أى الأحوال ومع هذه الملاحظات بإيجابياتها وسلبياتها فإن ظهور « أصحاب القمصان الزرقاء » بعد « أصحاب القمصان الخضراء » قد استتبعه

مرحلة من الصراع بين هذه المجموعات أو حولها مما يشكل فصلا طريفاً من التاريخ السياسي المصري .

جماعات القمصان الملونة والصراع السياسي في مصر :

يمكن التمييز بين مرحلتين من مراحل الصراع السياسي التي نتجت عن ظهور جماعات القمصان الملونة في مصر .

المرحلة الأولى وتمتد بين ظهور هذه الجماعات وحتى النصف الثاني من عام ١٩٣٦ وكانت في الأساس صراعاً بين هذه الجماعات بالأحرى (بين) أصحاب القمصان الخضراء والقوى التي تساندهم وأصحاب القمصان الزرقاء ممثلين للوفد .

المرحلة الثانية تمتد من بعد ذلك حتى نهاية ١٩٣٧ حين تمت إقالةوزارة النحاس في ٣٠ ديسمبر من تلك السنة ، وكان الصراع خلالها (حول) هذه الجماعات لا بينها .

ومن دواعي الغرابة أن عاملا واحداً هو الذي تحكم في المرحلتين وهو الذي أدى في نفس الوقت إلى التمييز بينهما ، تمثل هذا العامل في السياسة البريطانية الرامية إلى استمرار نوع من التوازن بين القوى السياسية في البلاد ، وبالذات القصر من ناحية والقوى الشعبية يمثلها الوفد من ناحية أخرى .

ففي خلال المرحلة الأولى كان القصر يملك السلطة من خلال الوزارات التي اصطنعها بينما كان الوفد يملك الشعبية مما وفر جو التوازن المطلوب ، وظهور تنظيمات الشباب إلى جانب هذه القوة السياسية أو تلك إنما كان يضيف مزيداً من أسباب ذلك التوازن ، ومن ثم فقد كان هذا الظهور مقبولا إذا لم يكن مطلوبا (١) .

وتأتى المرحلة الثانية والوفد خلالها فى السلطة بعد أن شكل النحاس وزارته الثالثة فى مايو ١٩٣٦ ، ولا شك أن السلطة مضافا إليها السند الشعبي مضافا إليهما تنظيم شبه عسكرى قد أخل على نحو واضح بطبيعة التوازن لا سيما إذا ما لوحظ أنه على الطرف الآخر كان القصر مهيض الجناح بعد وفاة الملك فؤاد وقد خلف وراءه صبيا صغيراً على العرش لايتمكن من مناوأة الوفد وهو خارج السلطة فما الحال وهو يمتلك أزمتها .

ولم يكن أمام السياسة البريطانية والأمر كذلك إلا أن تسعى إلى قص أجنحة الوفد التى طالت أكثر من اللازم وهددت الاستقرار التقليدى للأوضاع السياسية فى البلاد وكانت أهم هذه الأجنحة « تنظيمات القمصان الزرقاء» وسعياً وراء تحقيق ذلك الهدف من جانب دار المندوب السامى فقد قام صراع مرير حول هذه الجماعة شارك فيه القصر وانتهى أخيراً بإخراج الوفد من السلطة وبمنع كل تلك التنظيمات شبه العسكرية .

يبقى بعد ذلك تفصيل الحديث عن كل مرحلة من هاتين المرحلتين على حدة .

أولا : مرحلة الصراع (بين) أصحاب القمصان الملونة ١٩٣٣ - ١٩٣٦

اتسم موقف الوفد بالعداء « للقمصان الخضراء » منذ الأيام الأولى لقيامها ، وقد اتخذ هذا العداء أكثر من مظهر :

(أ) السعى إلى إفساد اجتماعات مصر الفتاة ، ففى خلال شهر ديسمبر عام ١٩٣٣ قام بعض الشبان الوفديين بالهتاف للنحاس أثناء محاضرة كان يلقيها فتحى رضوان فى دار جمعية الشبان المسلمين مما أدى إلى اشتباكات بالأيدى بين الطرفين وتحطيم بعض محتويات ونوافذ الدار ، ولم تتوقف هذه الاشتباكات إلا بعد حضور الشرطة[٢٨] .

(٢) العمل على إضعاف « وجود الخضر » فى مشروع القرش ، ذلك أنه منذ عام ١٩٣٢ قامت حملة ناجحة من الشوارع لجمع رأس المـــال اللازم لتأسيس صناعات محلية وذلك تحت رعاية الدكتور على إبراهيم الجراح المشهور ومدير الجامعة بالنيابة وقتذاك ، وقد أمكن بالفعل جمع مبلغ كافى لإقامة مصنع للطرابيش .

ولمـا كان مجلس إدارة المصنع قد امتلأ بالعمال من رجال مصر الفتاة فقد كان من الطبيعى أن يزعج ذلك الوفد الذى بادر إلى العمل فأجبر أحمد حسين أولا على الاستقالة من سكرتارية المشروع(٢٩) .

تبع ذلك أن فجر الأعضاء الوفديون فى اللجنة التنفيذية للمشروع أزمة استهدفوا من ورائها التخلص من بقية « الوجود الأخضر » فيها ، ففى بيان صادر للرأى العام وقعه عضوان(٣٠) من هؤلاء جاء أنه قد ظهر على مسرح رمسيس فى اجتماع عقد فى ١٥/١٢/١٩٣٣ لمتطوعى القرش سكرتير اللجنة التنفيذية وإلى جانبه شرذمة من أعضائها يرتدون قمصانا « خضراء » فثار الشباب لمرآهم وهتف ضدهم .

ويستطرد البيان بأن مندوبى الجامعة والمدارس العلياوالثانوية قد اجتمعوا فى ٧ يناير١٩٣٤ بنادىالجامعة المصرية وأصدروا بيانا ضد سيطرة القمصان الخضر على مشروع القرش فما كان من مجلس إدارة المشروع إلا أن فصل العضوين المذكورين اللذين ردا على ذلك بدعوة المتطوعين للمشروع إلى الاجتماع بنادى الجامعة(٣١) .

أدى تطور الأمور على هـذا النحو إلى إصدار بعض أعضاء اللجنة التنفيذية للمشروع لبيان يتبرأون فيه من القمصان الخضراء ومصر الفتاة(٣٢) كان من هؤلاء « محمد صبيح » الذى كان يرتدى القميص الأخضر فى الاجتماع الذى أثار الوفديين إلا أن آخرين من أعضاء اللجنة التنفيذية

رفضوا التوقيع على هذا البيان مثل نور الدين طراف مما زاد فى شكوك الأعضاء الوفديين باللجنة[٣٣] .

اجتمع هؤلاء الأعضاء فى نادى الجامعة دون أن يلقوا بالا للبيان السابق وأصدروا مجموعة من القرارات هى :

« ١ — سحب الثقة من اللجنة التنفيذية بكامل هيئتها الحالية .

« ٢ — عدم الاعتراف بمجلس الإدارة الحالى بكامل هيئته لتحيزه لأولئك النفر المغرضين الذين يعبثون بتوجيه المشروع ويتخذونه وسيلة للدعاية السياسية .

« ٣ — تكوين لجنة من مندوبى الجامعة والمدارس العليا والثانوية مهمتها الدعاية ضد المشروع صراحة هذا العام حتى يتطهر من ذلك النفر المتصل بهيئة سياسية مخالفاً فى ذلك قانون جمعية القرش »[٣٤] .

فى نفس الوقت كتب « طه حسين » فى جريدة « كوكب الشرق » الوفدية يدعو على باشا إبراهيم إلى الاستقالة من رئاسة المشروع والتفرغ لأعماله الرسمية فحسب .[٣٥] .

تعددت بعد ذلك أشكال المقاومة من شباب الوفد ضد المشروع سواء بالتظاهر أو بالدعوة لمقاطعة المشروع أو غيرها من أشكال المقاومة .

ويمكن القول أن الوفد قد كسب تلك الجولة الأولى من جولاته ضد القمصان الخضر مما سجله تقرير بريطانى فى أبريل ١٩٣٤ بقوله « لقد ترتب على تدخل الوفد فى عمليات الجمع لمشروع القرش أن انخفض ما أمكن جمعه خلال هذا العام إلى الربع بالنسبة لما تم جمعه خلال العام الماضى »[٣٦] .

* * *

تبدأ (الجولة الثانية) بين الوفد وأصحاب القمصان الخضراء في أعقاب انهيار عهد صدقي باستقالة وزارة عبد الفتاح يحيي في ١٤ نوفمبر ١٩٣٤ .

ويمكن النظر إلى الصراع بين الطرفين أثناء تلك الجولة في إطار الصراع بين القصر والوفد ، ذلك أن الزعامة الوفدية قد رأت أن القصر وقد فشل في فرض اتوقراطيته من خلال عهد صدقي وحزبه فإنه يسعى إلى استبدال هذا العهد وذلك الحزب بالشبان من أصحاب القمصان الخضراء .

عبر عن ذلك عباس العقاد في مقاله بصحيفة الجهاد الوفدية في أعقاب استقالة وزارة عبد الفتاح يحيي قال العقاد : « إن الأبراشي باشا (القصر) قد أخذ في استدراج العناصر المتطرفة من الشباب لشعوره بمساس من الحاجة إلى جماعة أخرى تفعل مالم تفعله جماعة صدقي وتتوسل بالتطرف المكذوب إلى اجتذاب الشبان المخلصين الراغبين حقا في خدمة الوطن والسعي الحثيث إلى خلاصه ، ولهذا ظهرت هذه الجماعة الملفقة (يقصد مصر الفتاة) وظهرت لها صحيفة أسبوعية تصدر في كل أسبوع (يقصد الصرخة) ولا تنقطع عن الظهور مع كسادها واعراض الناس عنها وكثرة النفقات التي يستدعيها طبع الصحيفة وتحريرها وإدارتها ليس في الوسع أن تسند هذه الجماعة إلى أناس بارزين مسئولين فلا بأس إذن باسنادها إلى أفراد من أصحاب الحركات البهلوانية الذين راحوا يعولون ويصخبون ويحتدمون بالحماسة المصطنعة على حين غرة كأنما مسهم جنون الوطنية «شيطانيا» مابين عشية وضحاها ، وخيل إلى هؤلاء البهلوانات أنهم يكسبون الثقة المنشودة بالمخاطر السطحية التي لم تصبهم قط بأضرار حقيقية ولم ينلهم من جرائها شيء مما ينال الخصوم الحقيقيين ولو أنهم أصيبوا بأعظم الأخطار لما كانت هذه المصائب الموقوتة إلا ثمنا رخيصا جدا في جانب المنافع المنظورة والطابع الجسيم الذي يطلبونه

لمن يسخرونهم ويدفعون بهم إلى الميدان ونعنى به مطلب السيطرة على عقول الشبان المخلصين »[٣٧] .

وكأنما كان « أصحاب القمصان الخضراء » عزوفين عن أن يدخلوا فى مواجهة جديدة ضد الوفد بعد الخيبة التى أصيبوا بها فى الجولة السابقة ، لعل ذلك ما دعا « الصرخة » إلى أن ترد قائلة « أنها تعلم ان الوفد لا يسأل عن هذا الهذر كله » وان كان ذلك لم يمنع فتحى رضوان أن ينقد كاتب الهجوم الوفدى بعنف فى مقال تحت عنوان « عباس أفندى يكشف حقائق هائلة — مثل من أمثلة الذكاء والعبقرية »[٣٨] .

ولكن كانت الأمور تجرى على نحو مضاد تماما لأى مهادنة بين الطرفين مما اضطر الوفد معه فى نهاية تلك الجولة التى استغرقت أغلب عهد وزارة توفيق نسيم الثالثة (١٤ نوفمبر ٣٤ — ٣٠ يناير ٣٦) إلى تشكيل جماعته من أصحاب القمصان المعروفة « بأصحاب القمصان الزرقاء » .

يبدو جريان الأمور المعاكس للتقارب بين الطرفين فى الحقائق الآتية :

١ — تحول الشكوك عن طبيعة العلاقات بين القصر « وأصحاب القمصان الخضراء » إلى يقين وذلك نتيجة للمواقف المتعاطفة من جانب رجال السراى خاصة ما اتصل منها بمصادرة صحفهم[٣٩] .

٢ — توثق العلاقات بين أصحاب القمصان الخضراء والشخصيات المعادية للوفد ، ويسجل أحد التقارير البريطانية قيام علاقات وثيقة بين مصر الفتاة وعباس حليم « نتيجة للصدام الذى وقع بين النبيل والوفد[٤٠] » كما يسجل تقرير آخر أن العلاقة بين عباس حليم ومصر الفتاة تزداد توثقا مع الأيام ، ويلاحظ نفس التقرير ان رجال مصر الفتاة أمثال أحمد حسين

وفتحي رضوان وكمال الدين صلاح يتولون الدفاع فى بعض القضايا المتهم فيها بعض أعضاء اتحاد عمال عباس حليم[٤١] .

٣ - زيادة حدة الاتجاه الإسلامى لأصحاب القمصان الخضراء وهو الاتجاه الذى كان يرفضه الوفد خلال تلك المرحلة على اعتبار أن الهدف النهائى منه تدعيم أوتوقراطية القصر .

بدا ذلك من زيارة الحج التى قام بها أحمد حسين إلى الحجاز خلال الربع الأول من عام ١٩٣٥ . وقد نجح خلال هذه الزيارة فى عقد اجتماع مع الملك ابن السعود نال خلاله تشجيعا ماديا ومعنويا من الحاكم السعودى ، كما تمكن فى نفس الوقت من عقد عدد من اللقاءات مع بعض الوطنيين المتطرفين — على حد تعبير المندوب السامى البريطانى بالقاهرة — من أبناء الهند وجاوة وفلسطين ومراكش والعراق ، وقد تعهد الجميع بالسعى لتفجير الثورة ضد الاستعمار فى العالم الإسلامى .

(٤) كثافة نشاط أصحاب القمصان الخضراء بين قطاعات معينة من القطاعات المؤثرة فى ميدان العمل السياسى فى البلاد ، ففى أبريل عام ١٩٣٥ صدرت التعليمات إلى عدد من أعضاء مصر الفتاة بالإنتشار فى الريف وبث الدعوة للجمعية بين صفوف طلبة الأزهر الذين كانوا قد عادوا إلى قراهم فى عطلة آنذاك[٤٢] .

خلال الشهر التالى (مايو) تواترت الأخبار عن محاولات لأصحاب القمصان الخضراء لاغراء عدد من صغار الضباط فى الجيش المصرى على الانضمام إليهم[٤٤] .

فى نفس الشهر قام أعضاء الجمعية فى كل من طنطا والمنصورة بنشر دعاية واسعة لمصر الفتاة فى المدينتين إلى حد دعا أحد عملاء البريطانيين فى الوجه البحرى إلى توقع أحداث جسيمة نتيجة لذلك النشاط[٤٥] .

وقد ترتب على كل تلك الحقائق نتيجتان :

أولاهما : تخلى أصحاب القمصان الخضراء عن حذر طالما التزموا به فى المواجهة مع الوفد ، ولا تأتى هذه الجولة إلى نهايتها الا ويكونون قد أخذوا فى شن هجوم مكشوف على الزعامة الوفدية بدأ فيما اقتبسته « الصرخة » من مقتطفات من خطاب النحاس فى « المؤتمر الوفدى » تنصح باعتدال ومهادنة الانجليز مثل الحديث عن « صون مصالح الانجليز التى لاتتعارض مع « الاستقلال » ، ومثل الإعراب عن الأمل بأن يكون « عهد فخامة المندوب السامى عهد تفاهم صحيح بين البلدين » ، وعلى الجانب الآخر من نفس الصفحة تسوق جريدة أصحاب القمصان الخضراء مقتطفات من خطاب ألقاه « أحمد حسين » فى ذات الوقت تقريبا فى حفل افتتاح المبنى الجديد لجمعية مصر الفتاة فى العتبة والذى يفيض بالتشدد وينتهى بالآية الكريمة « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ... »(٤٦) .

ثانيتهما : ان الوفد بعد أن وضع كل الحقائق السابقة تحت ناظريه اتخذ قراراً بإنشاء « تنظيم أصحاب القمصان الزرقاء » ليتخذ الصراع بين الطرفين صورة أكثر حدة فى جولة جديدة .

* * *

يمكن تحديد (الجولة الثالثة) من جولات الصراع بين أصحاب القمصان الملونة الخضراء والزرقاء بعهد وزارة على ماهر الأولى (٣٠ يناير — ٩ مايو ١٩٣٦) .

وقد تراكمت مجموعة من الأسباب جعلت صراع هذه الجولة يأخذ شكلا أكثر حدة من صراع الجولات السابقة .

١ ـ فقد تشكلت الوزارة الجديدة بعد اضطرابات الطلاب المشهورة والتى أدت أخيراً إلى تكوين الجبهة الوطنية التى قدمت عريضة ١٢ ديسمبر ١٩٣٥ إلى الملك فؤاد بإعادة دستور ٢٣ والتى تم الاستجابة إليها فى نفس

اليوم ، كذا قدمت كتابا إلى المندوب السامى بطلب فتح باب المفاوضات والذى كان نقطة البدء نحو مفاوضات معاهدة ١٩٣٦ .

ولا شك أن كل هذه النتائج التى ترتبت على الأحداث الطلابية ، قبل أى اعتبار ، قد أعقبها صراع حول اكتساب مزيد من الشباب لكل جانب من الجوانب المتنافسة ، كما صحبها تصاعد الاهتمام بالتنظيمات التى تجمع هؤلاء ... تنظيمات القمصان الملونة .

انعكست هذه النتائج أيضاً على الشباب والتنظيمات التى انضووا تحت لوائها مما صبغ علاقاتهم ببعض مظاهر العنف وهو ما لم يكن ظاهراً بدرجة كافية خلال الجولة السابقة .

٢ — بالرغم من أن على ماهر قد ألف وزارته الأولى بهدف محدد هو تهيئة الفرصة لإجراء انتخابات تتولى الحكم على أثرها وزارة الأغلبية إلا أنه من الواضح أن رئيس الوزراء الجديد كان يريد أن يكسب شيئاً .

يسجل الدكتور محمد حسين هيكل هذه الحقيقة فى مذكراته فيقول « ظن الناس فى مصر أن هذه الوزارة الجديدة وزارة انتخابات فقط ، وأنها لن تتناول من الأمور السياسية شيئاً ذا بال . لكن على ماهر باشا لم يلبث حين اطمأن إليه الأمر ، وعلى الرغم من أن وزارته لم تمكن لتبقى فى الحكم أكثر من ثلاثة أشهر تظهر فى ختامها نتيجة الانتخابات ، أن فكر فى التمهيد لإصلاحات داخلية ، وفى معالجة مشاكل خارجية طال الأمد على بعضها وهى معلقة لا تجد حلا »(٤٧) .

وحتى يقوم « على ماهر » بذلك الدور الذى تاق إليه فقد تحتم عليه أن يدخل طرفاً فى لعبة الصراع السياسى ، ويدل عدد كبير من الشواهد على أنه قد قرر استقطاب جماعة القمصان الخضراء وأنه قد نجح فى ذلك .

أول هذه الشواهد جاء فى خطبة ألقاها فتحى رضوان فى ٥ فبراير ١٩٣٦ أعرب فيها عن رضاء مصر الفتاة عن وزارة على ماهر الجديدة ، وهو رضاء قلما نالته وزارة من تلك الجماعة ، كما أعرب أيضاً عن اقتناعه أن أعضاء هذه الوزارة يعملون للصالح الوطنى وطالب جمهور المستمعين عدم الاشتراك فى أى اضطرابات تثير المتاعب للوزارة .

شاهد آخر ما وصل من تقارير إلى وزارة الداخلية عن مبالغ كبيرة يصرفها أحمد حسين لشراء أثاث لمقر الجمعية ، وقد رأت مصادر دار المندوب السامى أن تلك المبالغ قد جاءت من «القصر أو رئيس الوزراء أو كليهما(٤٨)» .

شاهد ثالث ما علمه سير « كين بويد » أحد كبار موظفى الحكومة المصرية الإنجليز وبصورة سرية للغاية من سعى على ماهر لمنح بعض أموال وزارة الداخلية لأحمد حسين .

ثم آخر هذه الشواهد فيما التزم به على ماهر من خطة الدفاع عن أحمد حسين والقمصان الخضراء أمام المندوب السامى(٤٩) .

٣ — كان الملك فؤاد على فراش المرض الذى انتهى بموته على امتداد شهور تلك الجولة ، واختفاء مثل هذه الشخصية المؤثرة من على مسرح السياسة المصرية قد دفع يقيناً سائر الجماعات السياسية لبذل مزيد من الجهود لملأ الفراغ الذى ترتب على هذا الاختفاء واستخدام سائر ما تملكه من وسائل فى هذا السبيل وكان أصحاب القمصان الملونة إحدى تلك الوسائل .

* * *

يبقى بعد ذلك تسجيل مظاهر الحدة المتزايدة التى شهدها الصراع بين جماعات أصحاب القمصان الملونة خلال تلك الجولة .

هناك أولا صدامات العنف التى حدثت بين الطرفين والتى تتحدث التقارير عنها وأشهرها تلك الحادثة التى وقعت فى ١٧ فبراير عام ١٩٣٥ أثناء

خطبة أحمد حسين فى عدد من أصحاب القمصان الخضراء فى القاهرة. فقد تدخل بعض أصحاب القمصان الزرقاء يقاطعونه مما أدى إلى نشوب معركة بين الطرفين لم تنته إلا بتدخل الشرطة(٥٠) .

وهناك ثانياً التلويح باستخدام العنف فيما حدث من تدخل أصحاب القمصان الخضراء لمنع تعيين توفيق نسيم ضمن هيئة الأوصياء على العرش فى أعقاب وفاة الملك فؤاد .

ذلك أن عهد الوزارة النسيمية الأخيرة قد شهد تقارباً شديداً بين الرجل وبين الوفد مما دعا خصومه إلى اتهامه بأنه قد أصبح ألعوبة فى يد الحزب الكبير ، من ثم فقد كان تعيين توفيق نسيم كأحد الأوصياء مما لا يرضى خصوم الوفد وبالذات أصحاب القمصان الخضراء والذين هددوا بإثارة المتاعب يوم تشييع جنازة الملك فؤاد وكان شرطهم لوقف هذه المتاعب عدم تعيين توفيق نسيما وصياً(٥١) .

دعا ذلك المندوب السامى البريطانى إلى التدخل لدى على ماهر محذراً من أى متاعب قد تثيرها مصر الفتاة ، ثم أن الوفد من ناحية أخرى وأمام اتساع قاعدة المعارضة لتعيين نسيم وصياً على العرش قد تخلى عن فكرة مساندة الرجل مما أفضى به النحاس فى لقاء له مع لامبسون(٥٢) .

وهناك أخيراً تلك الجماهيرية التى أصبحت تحظى بها تحركات وتجمعات أصحاب القمصان الخضراء والذى أضفى على الصراع بينهم وبين أصحاب القمصان الزرقاء حجماً لم يكن له خلال المراحل السابقة .

وبالرغم من أن التقارير البريطانية تقدر بتحفظ أعداد رواد اجتماعات مصر الفتاة إلا أنها تسلم بأنه فى اجتماع لها فى الاسكندرية فى ٥ فبراير دبرته ليلى فتحى رضوان خطبة قصده حوالى ألف شخص أكثرهم من الطلاب ،

كما تقرر بأنه فى اجتماع آخر للجماعة فى الاسكندرية فى ١٠ فبراير تم عقده للترحيب بأحمد حسين بمناسبة عودته إلى بلاده بعد رحلة فى أوربا بلغ عدد الحاضرين أكثر من خمسمائة ، بالإضافة إلى اجتماع ثالث فى القاهرة أقيم بنفس المناسبة تقول عنه التقارير البريطانية أنه « كان اجتماعاً شعبياً ضم عدداً كبيراً من طلاب الجامعة والأزهر كما ضم بعض الشخصيات الهامة مثل عبد الرحمن فهمى رئيس تحرير روز اليوسف(٥٣) » .

* * *

تبقى (الجولة الرابعة) والأخيرة فى الصراع بين أصحاب القمصان الملونة والتى جرت خلال الأسابيع الأولى من حكم الوزارة النحاسية الثالثة ، ففى ٩ مايو ١٩٣٦ وبعد فوز الوفد فى الانتخابات البرلمانية ألف مصطفى النحاس وزارته الجديدة وفى جو مختلف هذه المرة . .

فمن ناحية كان بادياً أن مصر فى مفاوضاتها الجديدة مع بريطانيا قد تصل إلى اتفاق عما لم تتمخض عنه أى مفاوضات سابقة ، وكان معنى ذلك كما تصوره الزعماء الوفديون التخلص من التدخل البريطانى فى الصراعات السياسية الداخلية . ومثل هذا التخلص كان سيحسب بالقطع لحساب الوفد لأن ذلك التدخل غالباً ما كان يحدث ضد حزب الأغلبية .

من ناحية أخرى فإن الوفد قد نظر لوفاة الملك فؤاد قبل أيام من تأليف الوزارة الجديدة باعتبارها عاملا آخر لفرض الإرادة الشعبية التى أتت به إلى الوزارة طالما أن الملك استمر طوال عهده الأداة الرئيسية لكسر تلك الإرادة .

وعلى ضوء هاتين الحقيقتين فقد كان واضحاً منذ البداية أن نتيجة الجولة الجديدة للصراع بين أصحاب القمصان الزرقاء والخضراء معروفة مقدماً .

وتبدأ هذه الجولة بتغيير واضح فى (تكتيك) أصحاب القمصان الخضراء الذين وعوا بلا شك طبيعة التحولات الجديدة مما تمخض عنه هذا التغيير .

يتضح التغيير المذكور فيما قرره (أحمد حسين) وعدد من أعضاء جماعته من القيام بجولة فى الصعيد ابتداء من ٢٨ مايو ١٩٣٦ الهدف منها نشر الدعاية الثورية بين الفلاحين(٥٤) .

وكان وراء مثل هذا القرار ، فيما تذكره الوثائق البريطانية ، الاقتناع بأن العمل السياسى للجماعة بين الطلاب وحدهم لم يؤت بالثمار المرجوة(٥٥)، ومن الواضح أن ذلك الإخفاق النسبى قـــد نتج عن نجاح جماعة أصحاب القمصان الزرقاء فى استقطاب شباب المدن ممـا بدا معه تضاؤل أمل القمصان الخضراء فى كسب الصراع ضـد منافسيهم إذا ما استمر محصوراً داخل المدينـة .

وبقوة السلطة هـذه المرة بدأ الوفد يتحرك فأطلق النحاس التصريحات بأن جماعة مصر الفتاة أصبحت تمثل خطراً عاماً على البـلاد ، ثم تبع ذلك بإصـدار التعليمات إلى مديرى مديريات الصـعيد بمراقبة أحمد حسين ورفاقه فى الجولة التى يزمعون القيام بها مراقبة شـديدة وأن تقوم النيابة باعتقالهم إذا ما عقـــدوا اجتماعات غير مشروعة أو ألقوا خطباً تضر بالأمن العام وبإعادتهم إلى القاهرة تحت الحراسة(٥٦) .

وواضح أن الجهـات الإدارية بمديريات الصـعيد قد نفـذت تعليمات الحـكومة الوفدية مما دعا أحد النواب هو « هرون سليم أبو سحلى باشا » إلى التقدم باستجواب « بشـأن ما تعرض له بعض أعضاء جمعية مصر الفتاة من معاملة الحـكومة أثناء زيارة لهم فى أسوان » .

ولأهمية الإجابة التى أدلى بها النحاس باشـا عن الاستجواب المذكور فى الصراع الدائر بين أصحاب القمصان نثبتها بنصها .

قال رئيس الوزراء « ثبت لوزارة الداخلية أن جمعية مصر الفتاة تعمل لحساب دولة أجنبية ضد مصلحة البـــلاد (ضجة) ولذلك قررت الوزارة حرصاً على مصلحة الدولة أن تمنع تجوال هذه الجمعية فى القرى بزى خاص وقد بذلت لرئيس الجمعية النصيحة الودية بالعدول عن السفر إلى الصعيد ، فلما لم يستمع لهذه النصيحة وسافر هو ومن معه إلى أسوان لم يتعرض لهم أحد ولكن اتخذت الإجراءات للحيلولة بينهم وبين التجوال فى القرى بزى خاص والاتصال بالأهالى وذلك السبب الذى بيناه .

« وليس صحيحاً ما ذكر فى الاستجواب من إصدار الأوامر بضرب الزائرين لخيام الجمعية .

« هذا ولم تتعرض الحكومة لجمعية مصر الفتاة فى المدن الكبرى بل تركت أفرادها أحراراً يلبسون ما يشاءون فى حدود القانون .

« وإن هذه الجماعة التى تنطوى أغراضها وعلاقاتها على ما يضر بمصلحة الدولة الكبرى ، لا يصح مقارنتها بجماعة الشـــبان الذين يلبسون القمصان الزرقاء والذين تقوم مبادئهم على احترام النظام والقانون والعمل لخير البلاد وينتمون إلى هيئة سياسية مسئولة»(٥٧) .

وتبدو أهمية هذه الإجابة كنقطة تحول أساسية فى الصراع بين جماعات أصحاب القمصان الملونة من مجموع الملاحظات التى يمكن تسجيلها عليها على النحو التالى .

١ – بينما وضعت الاجابة المذكورة جماعة القمصان الخضراء فى موضع العمالة لدولة أجنبية وبالتالى فى موضع من (اللاشرعية) فإنها قد وضعت جماعة القمصان الزرقاء فى موضع من (الشرعية الكاملة) على أساس احترامهم « للنظام والقانون والعمل لخير البلاد » .

٢ — رأت الزعامة الوفدية أنها بإلقاء هذا الاتهام الذى عنيت به إيطاليا ، بالرغم من أن بيان النحاس لم يذكرها صراحة ، قد كسبت فى ميدان السياسة الداخلية ولم تخسر .

كسبت الجانب البريطانى باتهامها لإيطاليا مما يبدو فى التساؤل الذى ألقاه مكرم عبيد على ممثل المندوب السامى البريطانى فى اليوم التالى مباشرة لجلسة مجلس النواب . . فقد سأل مكرم المستر كيلى « أليس تصريح النحاس دليلا على أن الحكومة المصرية قد ألقت بثقلها إلى جانب انجلترا وأنها قد خاطرت فى ذلك بقبول عداء إيطاليا .

ويرى « كيلى » فى تقرير له إلى لندن أن فى ذلك التساؤل شيئاً من الصحة(٥٨) .

فى نفس الوقت رأت الحكومة الوفدية أنها لم تخسر إيطاليا من جراء تصريح رئيسها ، ذلك أنه فى أعقاب التصريح المذكور هرول الوزير الايطالى المفوض إلى مكرم عبيد يتساءل منزعجاً عن الدولة المقصودة فراوغه مكرم باشا مجيباً بأنه لم يرد ذكر اسم أى دولة كما لم تتم الاشارة إلى أى بعثة ديبلوماسية أجنبية(٥٩) .

ومثل هذا الكسب فى ميدان السياسة الداخلية عموماً وفى ميدان الصراع بين أصحاب القمصان على وجه الخصوص كان محسوباً بلا شك لأصحاب القمصان الزرقاء .

٣ — قضى بيان رئيس الوزراء على محاولات قامت بها جماعة مصر الفتاة للتفاهم مع الوفد ، ففى خلال مايو عام ١٩٣٥ جرت اتصالات بين بعض رجال الجماعة وبين الدكتور أحمد ماهر عضو الوفد البارز ورئيس مجلس

النواب والذى وعد يبذل جهوده لتحسين العلاقات بين الوفد وبين أصحاب القمصان الخضراء[٦٠] .

٤ ـ بدا واضحاً خلال المناقشات التى جرت فى مجلس النواب حول بيان النحاس طبيعة القوى التى تساند رجال مصر الفتاة والتى لم تخرج عن الحزب الوطنى بوجوده الضعيف فى مجلس النواب حيث إن أعضاءه فى المجلس[٦١] ، وقفوا وحدهم يدافعون عن حرية العمل لجمعية مصر الفتاة[٦٢] .

ولم يكن أمام « أصحاب القمصان الخضراء » بعد ذلك إلا التصدى بالعنف لمحاولات تصفيتهم وهو ما حدث بالفعل بعد أقل من أسبوع من إلقاء النحاس لبيانه .

ففى مساء ٢٦ يونيه نشبت معركة كبيرة فى القاهرة بين أصحاب القمصان الزرقاء ، وأصحاب القمصان الخضراء استخدمت فيها العصى والأحجار والخناجر .

وقد اتسع نطاق هذه المعركة ليصل إلى حد تخريب بعض المنشآت العامة وإحراق مركبات الترام مما اضطر الشرطة إلى التدخل وإلقاء القبض على بعض المشتركين فيها وإعادة النظام إلى مجراه[٦٣] .

وتمثل هذه المعركة المشهد الأخير من مشاهد الصراع بين أصحاب القمصان الملونة وليتحول هذا الصراع (بينهم) إلى صراع (حولهم) فيما بدا خلال المرحلة الباقية من عهد الوفد الذى استمر حتى نهاية عام ١٩٣٧ .

ثانياً : مرحلة الصراع (حول) أصحاب القمصان الملونة ١٩٣٦ - ١٩٣٧ :

دار الصراع خلال تلك المرحلة بين القوى السياسية الرئيسية الثلاث التى ظلت تلعب الدور الأساسى فى السياسة المصرية .

— الوجود البريطانى بوضعه المختلف قبل توقيع معاهدة ١٩٣٦ وبعد توقيعه .

— القصر يمثله مجلس وصاية ضعيف خلال فترة من تلك المرحلة ثم ملك شاب متعطش للحكم خلال الفترة الأخرى .

— الوفد تدعمه شعبيته التقليدية من ناحية ويدعمه وجوده فى السلطة من ناحية أخرى .

هؤلاء هم (أطراف) الصراع ، أما (موضوع) الصراع فقد كان « أصحاب القمصان الزرقاء » الذين بقوا فى الميدان وحدهم بعد أن توارى عنه « أصحاب القمصان الخضراء » الذين رأوا كل الظروف فى غير صالحهم فقرروا أن ينكمشوا على أنفسهم ، ولو إلى حين .

(سبب) الصراع أن الطرفين الأولين (الانجليز والقصر) لم يكونا ليسمحا أن يظل الوفد فى سعيه لزيادة حجم أصحاب القمصان الزرقاء ممن يمكن أن يشكلوا مع الزمن أظافر حادة للحزب الشعبى الكبير تؤثر فى طبيعة التوازن بين القوى الثلاث .

يبقى بعد ذلك تحديد (فترات) الصراع ، ويمكن أن تنقسم على النحو التالى كما نتصور :

١ — الفترة الممتدة حتى نوفمبر عام ١٩٣٦ حين وافق البرلمان المصرى على المعاهدة وأصبحت بالتالى سارية المفعول .

٢ – الفترة الممتدة بين نوفمبر عام ١٩٣٦ ويوليه عام ١٩٣٧ حين تم تتويج فاروق ملكا قرب نهاية هذا الشهر .

٣ – وتضم الفترة الأخيرة الشهور الخمسة التالية حتى أقيلت الوزارة الوفدية فى نهاية عام ١٩٣٧ .

ويميز (الفترة الأولى) أن الصراع دار أساساً حول القمصان الزرقاء بين الانجليز والوفد أما القصر فقد كان شبه غائب عن هذا الصراع، والأسباب واضحة ، فالانجليز حتى هذا الوقت ما كانوا يخشون إتهامهم بإنتهاك حقوق الاستقلال الكامل لمصر مما اعترفوا به فى المعاهدة ، أما القصر فقد كان يمثله مجلس وصاية ضعيف يعلم أعضاؤه أن بقاءهم موقوت ومن ثم ظلوا ينظرون لدار المندوب السامى يستلهمونها الوحى أو يتركونها تسعى لإبقاء التوازن حتى يتولى الملك الصغير سلطاته الدستورية بعد ذلك بشهور ، ومن هنا جاء قولنا بأن القصر كان غائباً خلال تلك الفترة من فترات الصراع .

والملاحظ أن حدة الصراع بين الانجليز والوفد خلال هذه الفترة قد تصاعدت على نحو متدرج من التنبيه الرفيق إلى التحذير القوى إلى الانذار أو مايشبه الانذار .

التنبيه الرفيق بدا فى اللقاء الذى تم بين السير مايلز لامبسون ومكرم عبيد باشا فى ٩ يوليو ١٩٣٦ . فقد أعرب المندوب السامى البريطانى للوزير الوفدى فى هذا اللقاء عن القلق الذى يساوره « من أن يؤدى سماح الوفد للقمصان الزرقاء بالنمو دون كبح جماحها إلى خلق وحش « فرانكشتين » ليس بالإمكان السيطرة عليه »

ونبه السير لامبسون أيضا إلى خطورة مثل هذه التنظيمات شبه العسكرية باعتبارها سلاحا ذا حدين « وإنى آمل ألا يقطع أصابع الحكومة » .

أجاب مكرم باشا على تلك التنبيهات بردود مطمئنة فهو من ناحية قد ذكر للامبسون أن الوفد حريص على عدم منح أصحاب القمصان أهمية كبيرة ودلل على ذلك بأن الوفد لم يضع على رأس هؤلاء زعيما له قيمة ، كشخصه مثلا (١) .

من ناحية أخرى أبلغ المندوب السامى أنه قد تم مؤخراً تحذير أصحاب القمصان الزرقاء ، من استخدام أى عنف وطلب منهم صرف أنشطتهم إلى ميادين سلمية كالرياضة مثلا، وقد أكد المدير العام للإدارة الأوربية لمساعدى السير لامبسون أنه قد صدرت بالفعل تعليمات من النحاس لأعضاء التنظيم بعدم حمل السكاكين والهراوات(٦٤).

واكتفت دار المندوب السامى خلال تلك المرحلة بالتنبيه الرفيق كما قبلت فى نفس الوقت ردود سكرتير الوفد على التنبيه .

يأتى بعد ذلك « التحذير القوى » الذى وجهه المندوب السامى البريطانى إلى النحاس شخصيا فى أوائل نوفمبر ١٩٣٦ .

وقد صدر هذا التحذير نتيجة لمجموعة التطورات التى دخلت على تنظيم « أصحاب القمصان الزرقاء » خلال الأسابيع السابقة .

من هذه التطورات ما تعلق « بحجم التنظيم » ومنها ما اتصل « بنوعيته » ومنها ما ارتبط بأساليب نشاطه .

فيما يخص حجم « جماعة القمصان الزرقاء» : فقد لاحظت الدوائر البريطانية فى القاهرة أن أعداد أعضائها تتزايد بصورة تفوق كل ما كان متوقعاً لها ، وقد ذكرت هذه الدوائر، وبالرغم من التحفظ البادى فى تقدير أعداد هؤلاء ، أنهم قد جاوزوا الثمانية آلاف خلال أكتوبر ١٩٣٦ (٦٥) .

فيما يتصل بالنوعية:فقد جاءت الأخبار إلى المندوب السامى البريطانى أن كلا من النحاس ومكرم خلال زيارتهما لألمانيا أثناء عودتهما من لندن بعد توقيع المعاهدة قد أبديا اهتماماً متزايداً بتنظيمات الشبيبة النازية وبأصل تنظيمات فرق العاصفة مما دعاهم إلى الربط بين هذا الاهتمام وبين الجهود التى يبذلها الوفد لتطوير القمصان الزرقاء ، وخرجوا من هذا الربط بأن تلك القمصان فى طريقها لتتحول إلى تنظيم فاشى(٦٦) .

وبالرغم من أن مكرم عبيد فى لقاء له مع ممثل المندوب السامى حاول تبديد هـــذا الاعتقاد والتأكيد على أن النحاس لا يوافق إطلاقاً على الدكتاتورية(٦٧) ، وبالرغم من المعلومات المتوفرة لدى دار المندوب السامى بأن إيطاليا لا تهتم بأصحاب القمصان الزرقاء أو أى حركة تؤيد النحاس باشا(٦٨) ، بالرغم من كل ذلك فقد ظل المسئولون البريطانيون فى القاهرة على تخوفهم من تحويل التنظيم إلى وجهة فاشية مما بدا فى طلبهم من وزارة الخارجية بلندن أن تسعى للحصول على مزيد من المعلومات من سفيرها فى برلين عن طبيعة نشاط النحاس ومكرم خلال زيارتهما للعاصمة الألمانية(٦٩).

يبقى ما تعلق بأساليب النشاط فقد قامت فرق القصمان الزرق بمناسبة عودة النحاس ومكرم من أوربا باستعراض قوة أقلق المسئولين البريطانيين فى القاهرة ، ويكفى فى هذا الصدد تسجيل ما جاء فى بعض تقارير هؤلاء المسئولين مما يبدو معه قدر قلقهم ، يقول أحد هذه التقارير وهو مؤرخ فى ١٦ أكتوبر ١٩٣٦ أنه « عندما عاد النحاس ومكرم إلى الاسكندرية فى ١١ أكتوبر فإن مجموعات من القمصان الزرقاء قادمة من القاهرة وبورسعيد والمدن الأخرى قد اصطفت على طول الطريق بين الميناء والفندق الذى نزل به النحاس . وقد أجبرت السفينة التى توقفت فى بورسعيد فى طريقها إلى الاسكندرية على نقل أربعمائة من هؤلاء ، وغير معلوم حتى الآن الجهة التى ستتحمل نفقات رحلتهم على هذه السفينة . وقد أقيم معسكر لأصحاب

القمصان الزرقاء في « اللونا بارك » ولا زالت مجموعات منهم تسير بخطوات عسكرية في شوارع الاسكندرية مما يذكر بالأيام الأولى المظلمة للنازية في ألمانيا » (٧٠).

ودعا كل ذلك لامبسون إلى أن يتحدث بلهجة عنيفة ، على حد تعبيره ، إلى النحاس باشا في لقائه به صباح ٩ نوفمبر ١٩٣٦ ويبلغه بصراحة بشعور المرارة في لندن تجاه هذا التنظيم شبه العسكري ، وهي كلمات لامبسون أيضاً .

أكثر من ذلك فإن المندوب السامي البريطاني قد أشار إلى النحاس في هذا اللقاء ، بأن مشروعا سوف يطرح في القريب على البرلمان البريطاني يمنع مثل هذه التنظيمات في المملكة المتحدة وأنه يستطيع الحصول على هـذا المشروع إذا ما رأى رئيس الوزراء المصري أنه قد يكون مفيداً(٧١) وكأنما أراد السير لامبسون بذلك أن يوحي للنحاس باشا بحل القمصان الزرق ، ولكن كما يتضح من التقرير البريطاني عن هذا اللقاء فإن النحاس لم يفهم . . أو على الأقل تظاهر بأنه لم يفهم (!) مما دعا إلى الانتقال إلى آخر مراحل الصراع بين الطرفين بالإنذار أو بما يشبه الإنذار .

جاء هذا الإنذار بناء على تقرير طويل للغاية وضعه ممثل المندوب السامي البريطاني في القاهرة في ٢٤ أكتوبر ١٩٣٦ وسجل فيه عدداً كبيراً من الحقائق عن أصحاب القمصان الزرقاء يمكن تلخيصها فيما يلي :

(١) غلبة الدهماء على أصحاب القمصان الزرقاء ، فبينما لم تزد نسبة الطلاب في التنظيم عن ١٥ ٪ كانت البقية من العاطلين والغوغاء وقلة من الحرفيين وعدداً من العمال .

(٢) تسلح أغلب أعضاء التنظيم بالهراوات والخناجر كما أن عددا منهم ،

ولو أنه قليل ، كان يحمل أسلحة نارية صغيرة ، أكثر من ذلك فإنهم طلبوا عدداً من بنادق الخرطوش لاستخدامها فى تدريباتهم .

(٣) بالإضافة للحوادث الصغيرة اليومية التى يتسبب فيها أعضاء التنظيم مثل التهديد باستخدام الخناجر أو رفض دفع أثمان التذاكر بالسيارات العامة أو إقامة معسكرات فى أماكن دون إذن أصحابها ، بالإضافة لتلك الحوادث يسجل التقرير حادثتين كبيرتين .

إحداهما جرت يوم ١٦ أكتوبر بين مجموعة القمصان الزرقاء التى يرأسها زهير صبرى وبين المجموعة الثانية التى يقودها محمد بلال ، ذلك أنه بينما كانت المجموعة الأولى تقوم ببعض التدريبات مساء ذلك اليوم هاجمهم حوالى ١٥٠ من رجال المجموعة الثانية وحطموا معسكرهم وقبضوا على ستة منهم عادوا بهم إلى معسكرهم وإن كانوا قد أطلقوا سراحهم بعد نحو ثلاث ساعات ، وقد استخدمت العصى والسكاكين فى هذا العراك ، كما سمعت بعض طلقات فى الهواء .

الثانية جرت فى اليوم التالى مباشرة (١٧ أكتوبر) حين اختلف شاب من أصحاب القمصان الزرقاء مع أحد أصحاب المحال على ثمن قميص ونشبت معركة أدت إلى تدخل الشرط واعتقال المتشاجرين . ترتب على ذلك أن قامت مجموعة من أصحاب القمصان الزرقاء باقتحام مركز الشرطة المحتجز فيه زميلهم ولم ينصرفوا إلى بعد ظهور المأمور الذى نجح فى حثهم على الانصراف .

(٤) ذكر التقرير أيضاً أن حكومة الوفد تتدخل لزيادة حجم أصحاب القمصان ويدلل على ذلك بأن عددا من أساتذة المدارس الثانوية أخذوا فى تحريض تلاميذهم على الانضمام للتنظيم .

(٥) ويعود التقرير ليلوح بأهداف الزعامة الوفدية لإضفاء الصبغة الفاشية على أصحاب القمصان الزرقاء ، وقد ذكر فى هذا الصدد أن السكرتير البرلمانى لوزارة الداخلية قد طلب من الإدارة الأوربية بالوزارة معلومات مفصلة عن تنظيمات الشباب النازى إلا أن تلك الإدارة قد أحالته إلى وزارة الخارجية ، كما ذكر أيضاً أن النحاس باشا قد رفع يده بالتحية النازية لمستقبليه من أصحاب القمصان الزرقاء عند وصوله إلى ميناء الاسكندرية .

(٦) أخيراً رأى التقرير أن الوفد يعد أتباعه من أصحاب القمصان لصدام محتمل فى المستقبل مع القصر(٧٢) .

ومن الواضح أن هذا التقرير قد أثار قلقاً عميقاً فى دوائر وزارة الخارجية البريطانية ، فقد علق عليه المستر إيدن بنفسه بما نصه « لقد تأثرت كثيراً من الاحتمالات المتزايدة بالخطر من هذه الجماعة » .

وتتبع حكومة لندن ذلك بأن تبعث إلى ممثلها فى القاهرة تطلب منه أن يقدم نصيحة قوية إلى الحكومة المصرية (وهى الصيغة التى اعتادت أن تستخدمها بدلا من لفظ الإنذار) لتعديل سياستها بشأن أصحاب القمصان الزرقاء .

نص هذه النصيحة أو الإنذار الذى أرسل به إيدن إلى لامبسون كان كما يلى :

« أن تطلبوا من النحاس باشا بكل الوسائل التى تحت أيديكم اتخـــاذ الإجراءات السريعة للسيطرة على هذه الحركة والحد من نشاطها وصرف جهود أعضائها إلى جوانب نافعة ، وأن مثل هذا الأمر على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لمستقبل مصر .

« وأن استمرار هذه الجماعة قد يسبب قلقاً للأجانب فى مصر ولحكوماتهم وأن مقالات بهذا المعنى بدأت تظهر فى الصحف الإنجليزية وأن جماعة مثل أصحاب القمصان الزرقاء ، قد تكونت لمواجهة جماعة مشابهة ، لها خطرها على الأمن العام . ويزيد من هذا الخطر انقسامها وعدم تنظيمها ولجوؤها إلى العنف. ثم أن استمرارها قد يؤدى إلى إعادة الجماعة المنافسة إلى الوجود. ويمكن أن يتشجع أصحاب القمصان الخضراء على الظهور مرة أخرى بالشعور باحتمال استخدام القمصان الزرقاء ضد العرش .

« هذا وينبغى لفت نظر رئيس الوزراء إلى أهمية إزالة أى مخاوف لدى الأجانب أثناء بحث إلغاء الامتيازات والمحاكم المختلطة مما تقرر أن يكون محل مفاوضة فى المستقبل القريب .

« أما فيما يتعلق بالمستقبل البعيد فعليكم أن تبصروا دولته بحكمة منع اضطراد حجم التنظيم إلى درجة قد تؤدى إلى أن تحاول قوة ثالثة التدخل بدعوى حماية مواطنيها ، أو تشجيع نظرية سياسية للضغط على جماعة أو أخرى »(٧٣) .

وفى صبيحة ٢٦ نوفمبر ١٩٣٦ بادر لامبسون بالفعل بابلاغ نص (النصيحة) السابقه إلى النحاس .

ويقول المندوب السامى البريطانى فى تقريره عن لقائه مع رئيس الوزراء المصرى أنه ، أى النحاس باشا ، قد تقبل النصيحة البريطانية بروح طيبة ، وأنه سوف يتخذ الخطوات المناسبة لإبعاد العناصر غير المرغوب فيها من صفوف التنظيم ولمنع حمل الأعضاء للأسلحة من أى نوع .

على أنه من ناحية أخرى لم يتقبل روح النصيحة التى كانت تتضمن إلغاء الجماعة أصلا ، وكان مبرره فى ذلك أنه لو فعلها وحل الجماعة لاتهم

بنكران الجميل ولتحول هؤلاء إلى مجموعة من الساخطين مما يتحقق معه أسوأ المخاوف البريطانية . من ناحية أخرى فقد أشار إلى المؤامرات التى ذكر أنها كانت تحاك وقتذاك ضد الوفد وإلى خشيته من احتمال انقلاب عليه من جانب القصر ، ومن ثم فلا يجب أن يلام إذا ما اتخذ عدته للدفاع عن نفسه وعن حزبه إذا ما هوجما(٧٤) .

وكانت هذه النصيحة أو هذا الانذار والرد عليه بمثابة نهاية للفترة الأولى من فترات الصراع حول القمصان .

* * *

ساد الهدوء خلال (الفترة التالية) من فترات الصراع حول القمصان الملونة والتى امتدت حتى يوليه ١٩٣٧ حين تولى الملك فاروق الأول سلطاته الدستورية . . وهو هدوء اعترفت به أشد الدوائر السياسية عداوة للوفد وبالذات دوائر القصر التى كانت تهتم دائماً بالتهويل من مخاطر أصحاب القمصان الزرق والتى كانت تعبر عنها آنذاك صحيفة البلاغ(٧٥) .

وكان لهذا الهدوء أسبابه سواء من جانب دار المندوب السامى أو من جانب الحكومة الوفدية .

من الجانب البريطانى فقد ثبت عدم امكانية تطبيق نفس المرسوم الذى قرره البرلمان الإنجليزى خاصاً بحل التنظيمات شبه العسكرية فى بريطانيا على مصر ، حيث أن مواد هذا المرسوم لا ينطبق على الوضع الذى ترتب على التنظيمات الأخيرة للقمصان الزرقاء ،(٧٦) وذلك كما قرر السير لامبسون نفسه .

أهم من ذلك ما ارتآه المندوب السامى البريطانى من تغييرات دخلت على العلاقات المصرية — البريطانية بعد أن أصبحت المعاهدة نافذة المفعول ، وأن هذه التغييرات لم تعد تسمح للجانب البريطانى بتقديم نصائحه أو انذاراته كما كان يحدث من قبل .

فى أواخر ديسمبر عام ١٩٣٦ أرسلت وزارة الخارجية البريطانية إلى ممثلها فى القاهرة تطلب منه «تقديم نصيحة أخرى لرئيس الوزراء فى موضوع القمصان الزرقاء(٧٧)» .

رد لامبسون على ذلك برفض الاستمرار فى أسلوب تقديم النصائح ، وكما قال بالنص أنه «على ضوء الأوضاع الجديدة بعد المعاهدة يجب أن يقوم نفوذنا على قواعد مختلفة وأن نلتزم بالحرص فى استخدامه ، ولا شك أن هذا النفوذ سوف يفقد قيمته إذا ما فشلنا فى استخدامه فى مسألة داخلية كهذه . ولقد أ ـ رب أمين عثمان باشا لبعض المشتغلين معى عن نصيحته بعدم استمرار الاحتجاجات مثل تلك التى تقدمت بها فى ٢٦ نوفمبر الماضى لأن النحاس أصبح حساساً للغاية من مثل هذه الاحتجاجات . وبناء على ذلك فإذا ما حدث وتقدمت باحتجاج وتجاهله النحاس فلا شك أن هـــذا سوف يضعف من نفوذنا خاصة إذا ما اتهمنا بالتدخل فى الشئون الداخلية مما نصبح معه فى موقف العجز تماماً»(٧٨) .

أما من جانب الحكومة الوفدية فقد كانت لها بدورها من الأسباب ما يجعلها تقبض يدها بعض الشيء وخلال تلك الفترة بالذات عن الاستمرار فى تشجيع وتطوير جماعة القمصان الزرقاء .

ذلك أن تلك الفترة قد شهدت انعقاد مؤتمر مونترو لتسوية مسألة الامتيازات والمحاكم المختلطة ، ولم يكن فى صالح مصر ولا فى صالح حكومة الوفد التى أرادت أن يتم التخلص من هذين القيدين على الاستقلال المصرى على أيديها . . لم يكن فى صالح الطرفين أن يسود المناخ السياسى فى البلاد أوضاع تثير الريبة والشكوك لدى الدول صاحبة الامتيازات مما قد يعوق احتمالات الوصول إلى إتفاق ، ولا شك أن وجود مثل هذه التنظيمات شبه

العسكرية بكل ما تمثله من تهديد لرأس المال الأجنبي كان يمكن أن يكون من أهم دوافع الريبة والشكوك .

إذا أضفنا إلى ذلك تأثير الاحتجاجات البريطانية التي قدمت خلال الفترة السابقة وتأثير بعض أصوات المعارضة التي بدأت تعلو ضد التنظيم خاصة بعد الاشتباكات التي حدثت بين أعضائه .... إذا أضفنا كل ذلك فإنه يمكن على ضوئه تفهم أسباب سياسة قبض اليد الوفدية عن الاستمرار فى تطوير وتشجيع جماعة القمصان الزرقاء ، مما يبدو فى القرارات الآتية التى اتخذتها الزعامة الوفدية فى ديسمبر ١٩٣٦ :

١ – تأكيد الصبغة الرياضية للجماعة .

٢ – منع حمل الأسلحة نهائياً .

٣ – تأسيس مجلس تنفيذى للجماعة بأمر صادر من رئيس الوفد يرأسه عسكرى متقاعد هو حافظ بك صدقى ، ويضم كلا من زهير صبرى ومحمد بلال قائدى المجموعتين المتنافستين ، على أن يكون هذا المجلس مسئولا عن تنظيم مختلف المجموعات.

٤ – عدم التصريح لأعضاء التنظيم بارتداء القمصان الزرقاء فى الأماكن العامة إلا فى الأوقات والمناسبات التى يحددها المجلس التنفيذى[٧٩] .

* * *

تبقى بعد ذلك (الفترة الثالثة) والأخيرة التى شملت الشهور بين يوليه وديسمبر ١٩٢٧ وقد بلغ خلالها الصراع حول القمصان الملونة ذروته وكان طرفاه هذه المرة الحكومة الوفدية والقصر ولم ينته إلا بالتخلص من أصحاب القمصان وبالاطاحة بالحكومة الوفدية .

وتتضافر أسباب عديدة لتصل بالصراع إلى الذروة يمكن أن نرتبها فيما يلى :

١ — أن الأسباب التي دعت الوفد إلى التهدئة من نشاط القمصان الزرقاء خلال الفترة السابقة كانت قد زالت بعد نجاح مؤتمر مونترو والوصول إلى الإتفاق الشهير باسم تلك المدينة السويسرية .

٢ — أن الترحيب الشعبي البالغ الذى استقبل به الملك فاروق مع توليته لسلطاته الدستورية فى يوليه عام ١٩٣٧ قد شجع القصر على العودة لاتخاذ زمام المبادأة كما شجعه فى نفس الوقت على قبول التحدى الوفدى ، وكانت القمصان الزرقاء أهم مظاهر هذا التحدى .

٣ — أن الوفد قد شهد خلال تلك الشهور إنشقاقا من أخطر الانشقاقات التى عرفها تاريخ الحزب الكبير وذلك عندما خرج من صفوفه النقراشى باشا ثم تبعه بعد ذلك بقليل الدكتور أحمد ماهر .

وقد أدى هذا الإنشقاق إلى التأثير بشكل مباشر على قضية الصراع حول القمصان الزرقاء .

التأثير بالشكل (المباشر) بدأ فى استخدام أصحاب القمصان الزرقاء لضرب خصوم النحاس المنشقين عليه ، وقد منح هذا لخصوم التنظيم وخصوم الوفد السلاح الذى يهاجمون به القمصان الزرقاء باعتبارهم سلاحا فى أيدى النحاس لفرض دكتاتوريته ليس على خصوم الوفد فحسب بل حتى على أبنائه الذين يمكن أن يختلفوا مع زعامته ، وهى نغمة استخدمها النقراشى نفسه فى البيان الذى أصدره يعلق به على خروجه على الزعامة النحاسية .

أما التأثير بالشكل (غير المباشر) فقد بدا فى تأثير الإنشقاق فى تماسك الوفد وبالتالى فى قوته مما وفر لخصومه ، والقصر بالذات ، إمكانية ضربه وضرب أصحاب القمصان معه .

تبدأ تلك الفترة الأخيرة من الصراع بحادثة اعتدى خلالها بعض

أصحاب القمصان الزرقاء على أحد عمال النظافة الذى أثار بعض الأتربة على معسكر لهم أثناء القيام بعمله مما أدى إلى تدخل الشرطة والقبض على المعتدين فثار زملاؤهم وحاولوا اقتحام مركز الشرطة فقبض على بعضهم وتقرر تقديمهم للمحاكمة[٨٠] .

بعد ذلك بأقل من أسبوع (٢٢ مايو ١٩٢٧) هاجم « الزرق » كما كان يحلو للصحف المعارضة أن تسميهم ، هاجموا سرادقا فى دمياط أقامته إحدى الأسر غير الوفدية فيها[٨١] مما ترتب عليه اشتباك بين الطرفين لم ينفض إلا على أيدى الشرطة أيضا[٨٢] .

وكأنما كانت هاتان الحادثتان اشارة البدء بالفترة الجديدة من الصراع بكل حدتها فقد قامت الصحف المعروفة باتصالها الوثيق بالقصر ، وعلى وجه الخصوص صحيفة البلاغ ، بشن حملة عنيفة على أصحاب القمصان الزرقاء مما يمكن رصدها على النحو التالى :

يبدأ عبد القادر حمزة رئيس تحرير البلاغ الحملة بمقالة طويلة بعنوان « الفرق الملونة تتحدى سلطة القانون ومنفذيه — هل يفكر البرلمان فى عواقب بقاء هذه الفرق»[٨٣] .

فى اليوم التالى مباشرة مقالة أخرى بعنوان « القمصان الزرق — خطر على الأمن وعلى القانون — ليس العلاج أن تحل فرقة وتنظم فرقة وإنما العلاج أن تحل الفرق جميعا » . وتحث الجريدة فى هذه المقالة على الاقتداء بالحكومة البريطانية التى حرمت بقانون وجود قمصان ملونة وهيئات مشابهة فيما عدا الكشافة[٨٤] .

بعد ذلك بخمسة أيام مقالة ثالثة تطالب بحل فرق القمصان الزرق « حفظا

للأمن وصونا لسمعة مصر - ظروف مصر لا تسمح بتقليد نظم هى طريق الدكتاتورية »[٨٥] .

وتدفع تلك الحملة الحكومة الوفدية على إصدار بلاغ رسمى ترد فيه على « البلاغ » وتتهمها بأنها « دأبت فى العهد الأخير بدبج مقالات عن فرق القمصان الزرق من شأنها إثارة الخواطر وبث عدم الطمأنينة فى النفوس وتصوير الحوادث تصويرا مثيراً للخواطر والأفكار ، ولم تقف عند هذا الحد بل اخترعت من محض تصويرها أن فى عزم هذه الفـــرق مهاجمتها والاعتداء عليها وأبلغت ذلك إلى وزارة الداخلية التى اتخذت إجراءاتها، وقد ظهر أنه ليس لهذا البلاغ أى أثر من الصحة »[٨٦] .

تدفع أيضا نفس الحملة أصحاب القمصان الزرقاء إلى عقد مؤتمر لهم فى ١٢ يوليه ١٩٣٧ يستنكرون فيه « الحملات المغرضة ضد ذوى القمصان الزرقاء التى يعلن أفرادها إلى الملأ أنهم سائرون حتما فى طريقهم لتأدية رسالة آمنوا بها لمجد الوطن »[٨٧] .

من ناحية أخرى ، ودفعا لإتهامات المعارضة التى علت أصواتها ، فقد تركت الحكومة الوفدية أبناء التنظيم الذين تسببوا فى حوادث ضد القانون ، مما تم الإشارة إليها فى القاهرة ودمياط . . تركتهم يواجهون العقوبات القضائية التى يستحقونها فصدرت ضد ١٦ منهم فى منتصف يونيه أحكام تراوحت بين الغرامة بـ ١٠٠ قرشاً والحبس شهرا ، ويقول لامبسون أن تلك الأحكام قد خلفت شعورا بالرضاء[٨٨] .

وفى أواخر يوليو عام ١٩٣٧ تجرى الاحتفالات بمناسبة تنصيب فاروق ملكا على البلاد ، ويمكن تسجيل ملاحظتين عن تلك الاحتفالات تتصلان بقضية (الصراع حول أصحاب القمصان) :

أولاهما : عودة أصحاب القمصان الخضراء إلى الظهور بهذه المناسبة وذلك بعد طول غياب ، فقد اصطفت فرقة من فرقهم بميــدان الأزهار بالقرب من دار حزب مصر الفتاة واشتركت فى تحية الملك أثناء ذهابه إلى البرلمان يوم ٢٩ يوليه ، وفى اليوم التالى ذهبت فرقة أخرى منهم إلى قصر عابدين لترفع باسم القمصان الخضراء ولاءها للملك(٨٩) .

أكثر من ذلك أن حزب مصر الفتاة وبعد تولية فاروق للعرش بأقل من ٤٨ ساعة رفع إليه رسالة يشرح فيها رأيه فى الموقف السياسى ويطالب بإجراء انتخابات جديدة تقول الأمة رأيها فيها وذلك بمناسبة هذه التولية (٩٠) .

الملاحظة الثانية : أن صحف القصر وبالذات صحيفة البلاغ كانت الأكثر اهتماما من أى صحيفة أخرى بتحركات مصر الفتاة أو برسائلها والتى أفردت لها مساحات كبيرة من صفحاتها(٩١) .

وبترتب الملاحظتين السابقتين وربطهما يخرج الباحث بانطباع شبه مؤكد أن القصر قد بدأ يتحرك ضد القمصان الزرقاء منذ الأيام الأولى لعهد الملك الجديد .

ولا شك أن الزعامة الوفدية أيضا قد وعت طبيعة التحركات الملكية ضد القمصان الزرقاء بل وضد الوفد مما دعاها إلى التحرك بدورها .

وكان للتحرك الوفدى هدف محدد وهو السعى إلى استخدام « القمصان الزرقاء » كعامل له قيمته فى الصراع الذى بدا حتميا مع القصر ، وقد تذرعت الزعامة الوفدية بمجموعة من الوسائل لبلوغ هذا الهدف :

١ — بتركيز ولاء جماعات القمصان فى شخص (النحاس) خاصة بعد ما بدا من انشقاق وشيك للنقراشى وبعض أتباعه عن الوفد ، وقد تم تركيز الولاء هذا بقسم قطعه الزرق على أنفسهم وكان نصه :

« أقسم بالله أن أظل مجاهدا لوطنى تحت لواء زعيمى مصطفى النحاس لآخر رمق من حياتى ، وأن أظل وفيا لذكرى سعد ما حييت ، وأن أقاوم بكل قونى كل خارج على الوطن ، وأكون بعيداً عما يشوه مبدئى أو يسيء إلى هيئتى »(٩٢) .

٢ ـ بالإسراع بقدر الإمكان بزيادة أعداد أصحاب القمصان الزرقاء ، وتذكر إحدى التقارير البريطانية ان « مكرم باشا » قد حث « بلال » رئيس الجماعة على بذل كل جهد لرفع عدد أعضاء الجماعة إلى ١٠٠ ألف ووعده بالمعونة المالية اللازمة لذلك .

يذكر نفس التقرير أيضاً أن الوفد ليحقق مثل هذه الزيادة الطفرية قد فرض على كل مدينة وقرية امداد الجماعة بعدد معين من الرجال المسلحين بالمسدسات والخناجر والبنادق والعصى وأدوات الإسعاف ، كما يذكر أيضاً أنه قد أقيم عدد كبير من المعسكرات فى القاهرة والاسكندرية والأقاليم لاستقبال كل هذه الأعداد(٩٣) .

٣ ـ بالحصول على المبالغ التى تمكن من استيعاب هذه الأعداد الجديدة فى الجماعة ، وكان سبيل الزعامة الوفدية إلى ذلك إنفاق جانب من « المصروفات السرية » لوزارة الداخلية فى هذا الوجه(٩٤) .

تم الرد على هذا التحرك الوفدى ، وجاء هذا الرد من أطراف متعددة ، وكان رداً أخيراً وحاسماً .

كان أحد هذه الأطراف جماعة المنشقين عن الوفد على رأسهم محمود فهمى النقراشى باشا .

فقد وجه النقراشى باشا « بياناً سياسياً خطيراً(٩٥) » إلى الشعب المصرى فى ٧ سبتمبر ١٩٣٧ يعلن به خروجه من الزعامة الوفدية ، وقد تضمن البيان

المذكور انتقادات شديدة لسياسة النحاس بالسعي لتقديس زعامته، هذه السياسة التي صحبها (عصى ذوى القمصان الزرقاء تهوى على رؤوس من لم يؤمنوا بها من الوفديين المجتمعين وإخراج البعض منهم جرحى فى عهد الحكم الدستورى الذى ينادى بحماية الحريات).

ثم يدرج ضمن طلباته فى نهاية البيان «حل جميع فرق ذوى القمصان على اختلاف ألوانها. تلك الفرق التى قاومت فكرة وجودها منذ نشأت».

طرف آخر هو جماعة المعارضين فى مجلس النواب فقد شهدت تلك المرحلة مجموعة من الاستجوابات التى وجهتها المعارضة حول موضوع «أصحاب القمصان الزرقاء».

فى ٢٣ أكتوبر ١٩٣٧ وجه النائب «ابراهيم دسوقى أباظة» استجواباً لوزير الداخلية بشأن القمصان الزرقاء يعدد فيه مخاطرهم، وقد أنهى هذا الاستجواب بقوله «أن الوقت قد حان لوضع حد لهذه الفوضى بحل تلك الفرق الحزبية السياسية التى يتنافى وجودها مع النظام الحالى وقيام الحياة النيابية والدستور[٩٦]».

بعد ذلك بنحو شهر ونصف (٩ ديسمبر) تقدم نائب آخر هو مدنى حسن حزين باستجواب جديد حول نفس الموضوع تحمل كلماته نفس مضمون الاستجواب السابق[٩٧].

وكانت هذه الاستجوابات جزءاً من الحملة المضادة للوفد.

الطرف الأخير والأهم كان الملك، وإن كان ينبغى التنبيه بأن الطرفين السابقين كانا يعملان فى الغالب بتشجيع من القصر أو على الأقل بتشجيع به.

وقد تعددت أشكال الرد الملكى على محاولات الوفد بتقوية تنظيم القمصان الزرقاء.

شكل من هذه الأشكال بحملة صحفية قوية جديدة شنتها جرائد القصر خاصة البلاغ .

تعلق هـذه الصحيفة على يمين الولاء الذى أقسمه أصحاب القمصان الزرقاء للنحاس فنرى فيه لوناً من الولاء الشخصى مما حول هؤلاء إلى « أداة لحكم الإرهاب بلا نزاع [٩٨] » .

بعد ذلك بأقل من شهر تضع نفس الصحيفة فى صـدرها صورة للنحاس باشا فى بنى سويف وقد التف حوله عدد من أصحاب القمصان الزرقاء يحملون المزاريق[٩٩] ، وتعلق على ذلك فى اليوم التالى بأن « القمصان الزرق أصبحوا أداة إرهاب مسلحة يستخدمها النحاس باشا ضـــد خصومه السياسيين»[١٠٠]، وبعد شهر آخر تتهم البلاغ أصحاب القمصان الزرقاء بمحاولة إرهاب النواب وتـكتب تقول « فرق القمصان الزرق يجب أن تحل فوراً بعد أن ترقت فى الاعتداء وطمعت فى إرهاب النواب[١٠١] .

تمثـل الشكل الآخر من أشكال الرد الملـكى فى استـكتاب عدد كبير من طلاب الجامعة ودار العلوم لعريضة رفعوها للملك فى ٢ سبتمبر يلتمسون منـه فيها « أن يجتث بحزمه وعزمه وحكمته جذور الفتنة ويحل القمصان الزرق»[١٠٢] ، كما قدم آخرون من الجامعة أيضاً بعد ذلك بنحو عشرة أيام عريضة مشابهة[١٠٣] .

وكانت آخر ردود الملك رفضه التوقيع على قانون بزيادة الاعتمادات المخصصة للمصاريف السرية على اعتبار أن القسم الأكبر من هذه المصاريف كان مقرراً أن ينفق على أصحاب القمصان الزرقاء[١٠٤] .

وتصل المواجهة إلى ذروتها عنـدما يطلب الملك من رئيس وزرائه حل جماعة القمصان الزرقاء وذلك فى لقائهما بقصر المنتزه فى ٢٦ أكتوبر ١٩٣٧، وقد سلمه فى هذا اللقاء بحثاً قانونياً أشار فيه إلى أن وجود هذه الفرق ينافى

الدستور مستنداً فى ذلك إلى ما قرره مجلس العموم البريطانى وما فعلته الحكومة البريطانية فى القمصان السود التى حاوله المستر « أوسولد موزلى » أن ينشئها فى انجلترا[١٠٥] .

وبالرغم من كل ذلك فإن الزعامة الوفدية لم تستجب للطلب الملكى ، حقيقة حاولت أن تخفف من حدة الحملة ضد القمصان الزرقاء بإصدار أمر من رئيسها « محمد بلال » بمنع حمل السلاح من أى نوع كان « حتى لا ندع للخصوم مجالا لسوء تأويل حركاتنا البريئة[١٠٦] » إلا أن هذا ، يقيناً ، لم يكن ليكفى الملك أو خصوم الوفد .

وترتب على ذلك أن ظل « أصحاب القمصان الزرقاء » أحد مظاهر الخلاف الأساسية بين القصر والوفد ، ولقد كانت مسألتهم بالتالى من أهم الأسباب إن لم تكن السبب الأهم فى اتخاذ القصر لقراره بإقالة وزارة مصطفى النحاس الرابعة ، وكان أول قرار بالإقالة يصدر من الملك الجديد فى ٢٩ ديسمبر ١٩٣٧ .

صحيح أن المرسوم بمنع تنظيمات القمصان الملونة لم يصدر إلا بعد ذلك بأكثر من شهرين فى ١١ مارس من العام التالى إلا أن الواقع يقرر أن القمصان الزرقاء قد اختفت مع إقالة الوزارة الوفدية أو ذابت مع ضياع السلطة من النحاس وهو ما كان عباس محمود العقاد قد تنبأ به من قبل ذلك بنحو سبعة شهور[١٠٨] .

حواشي البحث

(١) انظر مقال « حزبان صناعيان » (الاتحاد والشعب) محتوما المصير بزوال النظام الحاضر » كوكب الشرق فى ١٢ نوفبر ١٩٣٤ .

(٢) F. O. 407/219/2 No. 35 Kelly to Eden Oct. 24, 1935 Desp. No. 1212.

(٣) الصرخة فى ٧ أكتوبر ١٩٣٣ .

(٤) الصرخة فى ١٠ فبراير ١٩٣٤ — مقال بقلم فتحى رضـــوان بعنوان « الهلال والصليب » .

(٥) حافظ محمود : أسرار الماضى من ١٩٠٧ إلى ١٩٥٢ فى السياسة والوطنية — كتاب روز اليوسف يوليو ١٩٧٣ ص ١٤٤ .

(٦) الصرخة فى ١٨ أغسطس ١٩٣٤ .

(٧) العدد السابق من نفس الجريدة .

(٨) فعلى امتداد أربعة أعداد من الصرخة (٩/١،٨/٢٥ ، ٩/٨، ٩/٢٩، ١٩٣٤/٩/٢٩) يكتب أحمد حسين أربعة مقالات تحت عنوان « أربعة أيام فى نابلى وفى روما — لقد خيبت إيطاليا حسن ظنى » ، ويهاجم فتحى رضوان إيطاليا أيضاً فى الصرخة فى ١٩٣٤/١٠/٦ تحت عنوان « يا إيطاليا . . يا إيطاليا » ويرى أنها تطمع فى مصر التى أخذت منها جغبوب وعالاً ضخماً من أراضى السودان ، كما يهاجم فى نفس الصحيفة فى ٢٠ من نفس الشهر « ألمانيا الهتلرية » و « إيطاليا الفاشية » فى مقال تحت عنوان « هذه هى حقيقتهم » .

(٩) مجموعة مضابط مجلس النواب ـــ الهيئة النيابية السادسة ـــ الانعقاد العادى الأول — المجلد الأول ٢٣ مايو ٣٦ — ٢٤ أغسطس ١٩٣٦ ص ٩٦ .

(١٠) F. O. 407 / 219 / I No. 133 Kelly to Eden June 23, 1936 Tel No. 587.

(١١) F. O. 407 / 219 / I No. 124 Lampson to Eden May 22, 1936 Tel No. 579. Conf.

(١٢) هارولد لاسكى : تأملات فى ثورة العصر — ترجمة عبد الكريم أحمد ص ١١٨ — ١١٩ .

(١٣) مع ما تشير إليه الوثائق البريطانية (مراسلة سرية رقم ٥٠٢ بتاريخ ٧ مايو ١٩٣٥ من لامبسون إلى سيمون) من قيام تحالف وثيق بين عباس حليم ومصر الفتاة ، فان الجريدة الناطقة بلسان الجماعة قد أكدت تماماً وبما لا يدع مجالا للشك وجود هذا التحالف ففى عدد الصرخة الصادر فى ١٠ / ١٢ / ١٩٣٤ صفحة كاملة تحت عنوان « الشريف عباس حليم ينشىء شركة للدخان فيحرر بذلك العمال المصريين ويبنى استقلال مصر » ، وفى عدد نفس الصحيفة الصادر فى ٢٤ من نفس الشهر نجد صورة الغلاف لعباس حليم بالإضافة إلى صفحة كاملة بعنوان « نصف ساعة مع زعيم العمال — صاحب الشرف الرفيع عباس حليم » وصورة غلاف أخرى للرجل بالعدد الصادر فى ٤/٤/١٩٣٤ بالإضافة إلى مزيد من التقريظ .

(١٤) الصرخة فى ٦/١/١٩٣٤ .

(١٥) F. O. 407 / 217 / 3 No. II Yencken to Simcn, June 19, 1934, Desp. No. 46.

(١٦) حافظ محمود : المصدر السابق ص ١٤٠ — ١٤٣ .

(١٧) F. O. 407 / 217 / 3 No. II Yencken to Simon Jan. 19, 1934. Desp. No. 56.

(١٨) F. O. 407 / 217 / 3 No. 34 Lampson to Simon April 25, 1934 Desp. No. 367.

(١٩) Ibid.

(٢٠) F. O. 407 / 218 / I No. 70 Lampson to Simon, April 26, 1935 Desp. No. 466 Conf.

(٢١) F. O. 407 / 217 / 2 No. 4I Sir P. Loraine to Simon Oct. 20, 1933. Desp. No. 296.

(٢٢) Ibid.

F. O. 407 / 219 / 2 Inc. In. No. 35. Memorandum (٢٣)
Respecting the Blueshirt Movement.

Ibid. (٢٤)

Ibid. (٢٥)

Ibid. (٢٦)

Ibid. (٢٧)

F. O. 407 / 217 / 3 No. 11 Yencken to Simon (٢٨)
Jan; 19, 1934 Desp. No. 46.

Ibid. (٢٩)

(٣٠) هما محمد على عرفة بكلية الحقوق ، ومحمد على الغلاوى بالتجارة العليا .

(٣١) الجهاد فى ١٩٣٤/١/١٠

(٣٢) الأهرام فى ١٩٣٤/١/١١ .

(٣٣) الجهاد فى ١٩٣٤/١/١١ .

(٣٤) الجهاد فى ١٩٣٤/١/١٢ .

F. O. 407 / 217 / 3 No. 11 Yencken to Simon (٣٥)
Jan. 19, 1934. Desp. No. 46.

F. O. 407 / 217 / 3 No. 34 Lampson to Simon, (٣٦)
April 25, 1934. Desp. No. 367.

(٣٧) الجهاد ١٩٣٤/١١/١٥ .

(٣٨) الصرخة ١٩٣٤/١١/١٧ .

F. O. 407 / 218 / 1 No. 70 Lampson to Simon, (٣٩)
April 26, 1935 Desp. No. 466 Conf.

F. O. 407 / 218 / 1 No. 88 Lampson to Simon, May (٤٠)
7, 1935 Desp. No. 502 Conf.

F. O. 407 / 2I8 / 1 Inc. in No. 82 Extracts from a (٤١)
Report on Further Recent Activities of the Young Egypt Society.

F. O. 407 / 218 / 1 No. 70 Lampson to Simon, April (٤٢)
26, 1935 Desp No. 466 Conf.

Ibid. (٤٣)

F. O. 407 / 218 / 1 No. 88 Lampson to Simon, (٤٤)
May 7, 1935 Desp. No. 502. Conf.

F. O. 407 / 218 / 1 Inc. No. 88 Extract from a (٤٥)
Report on Further Recent Activities of the Young Egypt Society.

(٤٦) الصرخة في ١٤/١/١٩٣٥ .

(٤٧) محمد حسين هيكل : مذكرات في السياسة المصرية جـ ١ ص ٣٩٨ — ٣٩٩ .

F. O. 407 / 219 / 1 No. 46 Lampson to Eden, Eeb. (٤٨)
2I, 1936 Desp. No. 218.

F. O. 407/219 /1 No. 94 Lampson to Eden, May 2, (٤٩)
1936 Desp. No. 491,

F. O. 407 / 219 / 1 No. 46 Lampson to Eden, Eeb. (٥٠)
21, 1936 Desp. No. 218.

F. O. 407 / 219 / 1 No. 94 Lampson to Edcn, May (٥١)
2, 1936 Desp. No. 491.

F. O. 407 / 219 / 1 No. 70 Lampson to Eden May, (٥٢)
2, 1936.

F. O. 407 / 219 / 1 No. 46 Lampson to Eden, Feb. (٥٣)
12, 1936 Desp. No. 213.

(٥٤) F. O. 407 / 219 / 1 No. 124 Lampson to Eden, May 22, 1936 Desp. No. 570 Conf,

(٥٥) Ibid.

٥٦ Ibid.

(٥٧) مجموعة مضابط مجلس النواب — الهيئة النيابية السادسة ـ الانعقاد العادى الأول ـ المجلد ا م ا ص ٩٦ .

(٥٨) F. O. 407 / 219 / 1 No. 133 Kelly to Eden, June 23, Tel. No. 587.

(٥٩) Ibid.

(٦٠) F. O. 407 / 219/1 No. 124 Lampson to Eden, May 22, 1936 Desp. No. 579 Conf.

(٦١) عبد العزيز الصوفانى ، وفكرى أباظة .

(٦٢) مجموعة مضابط مجلس النواب — المجلد السابق ص ٩٦ .

(٦٣) F. O, 407 / 219 / 1 No. 136 Kely to Eden, June 27, 1936 Tel. No. 604.

(٦٤) F. O. 407 / 219 / 1 Lampson to Eden July 9, 1936 Tel. No, 66.

(٦٥) F. O. 407 / 219 / 1 No. 35 Kelly to Eden, Oct. 24, 1936 Desp. No. 1212.

(٦٦) F. O. 407 / 219 / 2 No. 31 Kelly to Eden, Oct. 16; 1936 Desp. No. 1193 Secret.

(٦٧) Ibid.

(٦٨) F. O. 407 / 219 / 2 No. 35 Kelly to Eden, Oct. 24, 1936 Desp. No. 1212.

(٦٩) F. O. 407 / /219 / 2 No. 31 Kelly to Eden, Oct. 16, 1936 Desp. No. 1193 Secret.

(٧٠) F. O. 407 / 219 / 2 No. 31 Kelly to Eden Oct. 24' 1936 Desp. No. 1212.

(٧١) F. O. 407 / 219 / 2 No. 42 Lampson to Eden Nov. 9, 1936 Tel. No. 114.

(٧٢) F. O. 407 / 219 / 2 No. 35 Kelly to Eden, Oct. 24, 1936 Desp. No. 1212.

(٧٣) F. O. 407 / 219 / 2 No. 39 Eden to Lampson Nov. 10, 1936 Desp. No. 1062.

(٧٤) F. O. 407 / 219 / 2 No. 48 Lampson to Eden Nov. 26 1936 Tel. No. 123.

(٧٥) البلاغ فى ١٧/٥/١٩٣٧ .

(٧٦) F. O. 407 / 219 / 2 No. 55 Lampson to Eden Dec. 10, 1936.Desp. No. 1221.

(٧٧) F. O. 407 / 219 / 2 No. 59 Eden to Lampson Dec. 23, 1936 Desp. 1221.

(٧٨) F. O. 407 / 221 / 1 No. 36 Lampson to Eden, Jan. 9, 1937 Desp. No. 32.

(٧٩) F. O. 407 / 219 / 2 No. 55 Lampson to Eden Dec. 10, 1938 Des . No. 1364.

(٨٠) البلاغ فى ١٧ ، ١٨ مايو ١٩٣٧ .

(٨١) هى أسرة العلايلى .

(٨٢) البلاغ فى ٢٢ مايو ١٩٣٧ .

(٨٣) البلاغ فى ١٨/٥/١٩٣٧ .

(٨٤) البلاغ فى ١٩/٥/١٩٣٧ .

(٨٥) البلاغ فى ٢٤/٥/١٩٣٧ .

(٨٦) الأهرام فى ٣٠ / ٥ / ١٩٣٧ نص البلاغ الصادر من مصلحة الصحافة والنشر والثقافة .

(٨٧) الجهاد فى ١٣/٧/١٩٣٧ .

(٨٨) F. O, 407 / 221 / 2 No. 101 Lampson to Eden July I5, 1937 Desp. No. 864.

(٨٩) البلاغ فى ٣١ يولية ١٩٣٧ .

(٩٠) البلاغ فى ٣ أغسطس ١٩٣٧ .

(٩١) انظر البلاغ فى ١، ٢، ٣ أغسطس ١٩٣٧ .

(٩٢) الجهاد فى ٢٠/٨/١٩٣٧ .

(٩٣) F. O. 407 / 221 / 2 Enc. In. No. 104. Miralai Fitzpatrick Bey's Blueshirt Report-Secret.

(٩٤) Ibid.

(٩٥) نص البيان فى البلاغ — ٧ سبتمبر ١٩٣٧ .

(٩٦) مجموعة مضابط مجلس النواب — المرجع السابق .

(٩٧) المرجع السابق .

(٩٨) البلاغ فى ٢١ أغسطس ١٩٣٧ .

(٩٩) البلاغ فى ١٨ سبتمبر ١٩٣٧ .

(١٠٠) البلاغ فى ١٩ سبتمبر ١٩٣٧ .

(١٠١) البلاغ فى ١٩ أكتوبر ١٩٣٧ .

(١٠٢) البلاغ فى ٢ سبتمبر ١٩٣٧ .

(١٠٣) البلاغ فى ١١ سبتمبر ١٩٣٧ .

(١٠٤) د . محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية جـ ٢ ص ٨٠ .

(١٠٥) البلاغ فى ٢٣ ديسمبر ١٩٣٧ .

(١٠٦) المصرى فى ١٢ ديسمبر ١٩٣٧ .

(١٠٧) الوقائع المصرية فى ١١ مارس ١٩٣٨ .

(١٠٨) كان العقاد قد انشق عن الوفد خلال النصف الأول من عام ١٩٣٧ وترك التحرير فى صحيفة الجهاد الوفدية ليصبح أبرز محررى صحيفة البلاغ .

مصادر البحث

أولا : وثائق غير منشورة :

مجلدات وزارة الخارجية البريطانية الخاصة بمصر والمصورة على ميكروفيلم من « دار الوثائق العامة بلندن Public Record Office » .

وقد تمت الاستعانة بالمجلدات الآتية تبعاً لترتيبها الزمني :

No	Date
407/217/2	July – December 1933
407/217/3	January – June 1934
407/218/1	January – December 1935
407/219/1 & 2	January – December 1936
407/221/2	July – December 1937

ثانياً : وثائق منشورة :

مجموعة مضابط مجلس النواب المصرى ١٩٣٦ — ١٩٣٧ .

ثالثاً : دوريات :

— الصرخة ١٩٣٣ — ١٩٣٤ .

— كوكب الشرق ١٩٣٤ .

— المصور ١٩٣٤ .

— الجهاد ١٩٣٤ ، ١٩٣٧ .

- الأهرام ١٩٣٤ ، ١٩٣٧ .
- البـــلاغ ١٩٣٧ .
- المصرى ١٩٣٧ .
- الوقائع المصرية ١٩٣٨ .

رابعاً : مراجع متنوعة :

- حافظ محمود : أسرار الماضى من ١٩٠٧ إلى ١٩٥٢ فى السياسة والوطنية
كتاب روز اليوسف — يوليو ١٩٧٣

- هارولد لاسكى : تأملات فى ثورات العصر
ترجمة : عبد الكريم أحمد — مراجعة : عبد المعز نصر

- محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية (جزءان)
القاهرة ١٩٥١

نشأة الإستيطان الصهيونى فى فلسطين

(١٨٣١ — ١٩١٤)

للدكتور عبد العزيز محمد عوض

مدرس التاريخ الحديث
كلية الآداب — جامعة الرياض

استمرت هجرة اليهود إلى فلسطين على شكل جماعات قليلة فى أوائل النصف الثانى من القرن التاسع عشر، ثم شهد الربع الأخير منه تحولا خطيراً فى عدد ونوعية المهاجرين اليهود(١)، ذلك أن نسبة كبيرة منهم كانت من الشباب الصهيونى الذين يملأ جوانحهم الشعور القومى ويعتبرون أنفسهم معيدى بناء الوطن القومى اليهودى(٢).

وهكذا بدأ الاستيطان الصهيونى فى فلسطين على أسس استهدفت تحويل فلسطين إلى وطن يهودى، وتمثلت بامتلاك الأراضى وانشاء المستعمرات عليها وإحياء اللغة والثقافة العبرية؛ هذا وقد مرت حركة الاستيطان الصهيونى فى فلسطين بمرحلتين(٣) هما :

١ — مرحلة الاستيطان غير المنظم وتنتهى بسنة ١٩٠٠.

٢ — مرحلة الاستيطان المنظم وتبدأ بسنة ١٩٠٠.

وتعود أهمية سنة (١٩٠٠) إلى أن البارون أدموند دى روتشيلد(٤) تخلى فى هذه السنة عن إدارة المستعمرات التى أسهم فى تمويلها وتنازل عنها إلى جمعية الاستعمار اليهودى « Jewish Colonization Association » أو الأيكا I. C. A.(٥).

أولا : مرحلة الاستيطان غير المنظم . وامتازت بسيطرة مشاريع الاستيطان الفردية التى تمثلت بالجهود والمساعى التى بذلها بعض المتحمسين من اليهود وغيرهم ، واتخذت طابعاً خيرياً ، وكان الدافع لها غالباً العطف على فقراء اليهود ومد يد العون والمساعدة لهم ، ولم تكن هذه الجهود منظمة، حيث لم يكن هناك من شيء يربط بينها سوى العطف على اليهود ، ومن أشهر المشاريع الفردية .

— مشروع مونتفيورى :

تقدم السير موسى مونتفيورى (Sir., Moses Montefiore) بمشروع لتوطين اليهود فى فلسطين أثناء الحكم المصرى لبلاد الشام (١٨٣١ — ١٨٤٠) واجتمع من أجل ذلك مع محمد على باشا وولده إبراهيم فى سنة ١٨٣٧ ، ويتلخص عرض مونتفيورى برغبته فى الحصول على أراضى مئة أو مئتى قرية لمدة خمسين عاماً على أن يدفع لمحمد على ربحا يتراوح بين ١٠ ٪ و ٢٠ ٪ من إنتاجها على أن يكون دفع جميع المبالغ فى الاسكندرية وبشرط إعفاء الارض والقرى التى ستمنح من الضرائب التى يعرضها الباشا (محمد على) أو حكام المقاطعات التى تتبعها القرى(٦) . لكن محمد على لم يوافق على المشروع .

وعندما عادت بلاد الشام ثانية للحكم العثمانى فى عام ١٨٤٠ جدد مونتفيورى جهوده لتنفيذ المشروع ، فزار الآستانة عدة مرات، واستطاع أن يحصل من السلطان عبد المجيد على فرمان في سنة ١٨٥٦ م بالإذن بشراء

قطع من الأراضى بالقرب من القدس ويافا ، فأنشأ فيها بساتين وأسكنها عائلات قليلة من المستوطنين اليهود[٧] . لكن مشروع مونتفيورى لم يلق نجاحاً ، على الرغم من اهتمامه به وزيارته فلسطين أكثر من سبع مرات حيث أبقت السلطات العثمانية مشروعه مجمداً[٨] .

وهكذا تحفظت الدولة العثمانية إزاء مشاريع الاستيطان اليهودى فى فلسطين منذ البداية؛ وكانت قد رفضت من قبل مشروعاً تقدم به «بالمرستون» حث فيه السلطان العثمانى على تشجيع هجرة اليهود إلى فلسطين . كما سبق حصول مونتفيورى على فرمان ١٨٥٦ م ، وصول جماعة من اليهود المغاربة فى سنة ١٨٠٠ يقدر عددهم بثلاثين عائلة استقرت فى قرية شفا عمرو قرب الناصرة ، واشتغلت بزراعة الحبوب وقد تلقت هذه الجماعة مساعدات من بعض اليهود والمسيحيين الانكليز ، لكنها فشلت فى الزراعة وانتقلت إلى حيفا حيث اشتغلت فى التجارة ، هذا ويعزى فشلها فى المجال الزراعى لعدم اشتغالها فى الأعمال الزراعية من قبل[٩] .

مشروع لورنس أوليفانت[١٠] (Laurance oliphant.) :

تقدم لورنس أوليفانت عضو البرلمان الإنجليزى فى سنة ١٨٧٩ بملاحظات إلى الباب العالى حول إسكان المهاجرين اليهود فى جوار القدس بزعم أن المقصود من ذلك هو إعمار البلاد والقيام بخدمة سياسية للدولة العثمانية وإتاحة الفرصة أمامها لإظهار ماتكنه من عطف للطائفة اليهودية التى لاقت الاضطهاد فى كل مكان ؛ فاختارت بسبب ذلك الهجرة إلى ملجأ أمين وجدته فى الأراضى العثمانية . وأن الثروات التى سوف يحضرها المهاجرون اليهود معهم ستجعل من المكان الصحراوى القاحل فى فترة وجيزة من الزمن أرضاً عامرة ، تكون بدورها وسيلة لإعمار المناطق المجاورة لها وبذلك تعطى الدولة الدليل القاطع على نواياها الإصلاحية وتظهر للعالم بأنها تغتنم

كل فرصة لتحقيق الإصلاح الذى يرجع القصور فى تطبيقه إلى الضيق المالى فقط .

وبعد أن قدم لورنس أوليفانت لمشروعه بهذه الملاحظات خلص إلى القول ، بأنه يطلب السماح لجماعة من اليهود العثمانيين لإنشاء شركة عثمانية خالصة تقوم بإعمار لواء القدس وتطوير أمور الصناعة والتجارة والزراعة فيه وذلك كله يخدم سياسة الحكومة العثمانية أمام الدول الأجنبية(١١). وخلاصة مشروع أوليفانت كما وصفه كتابه « أرض جلعاد » تتضمن فصل منطقة البلقاء عن لواء نابلس ليستطيع اليهود من رعايا السلطان استغلال أراضى البلقاء بواسطة الأموال والخبرات والصناعات التى سيحضرونها معهم وستبيع الدولة الأراضى الأميرية هناك بثمنها وستأخذ الضرائب عنها فى كل عام ، كما ستبعد البدو عن المنطقة . وتباشر نفوذها الفعلى فى المناطق الصحراوية المجاورة ، بالإضافة إلى إعمار البلاد وعطف العثمانيين على اليهود(١٢) . ولكن مشروع أوليفانت فشل فى نيل موافقة السلطان(١٣) .

وإلى جانب هذه الجهود الفردية وجدت جمعيات يهودية فى أوروبا ، فقد تشكل الاتحاد الإسرائيلى العالمى (الإليانس) فى باريس عام ١٨٦٠ وهو منظمة يهودية عالمية لحماية وتحسين أحوال اليهود واستطاع فى عام ١٨٧٠م افتتاح أول مدرسة زراعية بالقرب من يافا سميت مكفا إسرائيل . وفى سنة ١٨٧١ تأسست فى لندن مؤسسة مماثلة للأليانس سميت الاتحاد اليهودى الانكليزى .

وأسس يهود روسية « جمعية محبى صهيون » . كما تأسست جمعيات ومنظمات أخرى فى سائر المدن الأوربية . وقد تنافست هذه الجمعيات فى تأسيس فروع لها بهدف جمع الأموال لمساعدة اليهود على الاستيطان فى فلسطين ، وقد قامت هذه المؤسسات بجهود لتشجيع الهجرة اليهودية

إلى فلسطين عن طريق تأسيس المستعمرات والمدارس الصناعية والزراعية[١٤] .

لكن المساعدة الأقوى جاءت من البارون ادموند دى روتشيلد الذى أسس على نفقته الخاصة سبع مستعمرات ، كانت من أوائل المستعمرات اليهودية فى فلسطين ، كما أنشأ صندوقاً للتوسع فى أعمال الاستيطان . وذلك بتأهيل المستوطنين وشراء الأراضى وبناء البيوت وإرسال المدربين الزراعيين لتعليم المستوطنين أعمال الفلاحة وزراعة الكروم التى قامت عليها صناعة الخمور التى أصبحت صناعة أساسية فى بعض المستعمرات[١٥] .

وفى سنة ١٩٠٠ تخلى البارون ادموند دى روتشيلد عن إدارة المشروع ونقل الأرض ووسائل الملكية الأخرى إلى جمعية الاستعمار اليهودى فى لندن وأعطاها أيضاً عشرة ملايين دولار إضافية للاستمرار فى تنفيذ المشروع[١٦] . وبذلك قدم البارون أدموند وابنه جيمس مساعدات سخية شملت مستعمرات بتاح تسكفا ، ريشون لزيون ، زكرون يعقوب ، وروشبينا[١٧] ومستعمرات أخرى .

وسنتحدث عن بعض المستعمرات التى تأسست فى المرحلة الأولى للاستيطان الصهيونى فى فلسطين .

— مستعمرة مكفا إسرائيل . وتأسست فى سنة ١٨٧٠ وتعنى بالعبرية « أمل إسرائيل » وكان شارل نيتر قد تقدم باقتراح للسفارة العثمانية فى باريس باسم الاتحاد الإسرائيلى العالمى لإنشاء مدرسة زراعية فى لواء القدس .

وبعد أن أجرى الباب العالى اتصالات مع والى سورية بخصوص الأراضى والاعفاءات المطلوبة ، وبعد البحث والمذاكرة مع شارل نيتر تبين للجنة مجلس شورى الدولة أن المدرسة تستهدف ترقية الزراعة والفلاحة فى البلاد على أساس

فنى ، لذلك اقترحت الترخيص للمدرسة باشغال (٢٦٠٠) دونم تؤجر للجمعية مع إعفائها من ضريبة العشر لمدة عشر سنوات . وعلى أن لا يتجاوز البناء الحد الذى يحتاجه طلاب المدرسة وهو ستون طالباً عثمانياً ، وعلى أن المدرسة تحت إشراف نظارة المعارف العثمانية ١٨) .

وقدرت الدولة ثمن الأراضى بمبلغ ثمانين ألف قرش . ومدة الامتياز خمسة وعشرون عاماً على أن يتم إنشاء المدرسة خلال سنتين من تاريخ صدور الارادة (٢ صفر ١٢٨٦ هـ) وألا تعتبر الدولة الاتفاق لاغياً(١٩) ، وقد تم تنفيذ المشروع ؛ ولكن المدرسة أخلت بشروط الاتفاق فى آخر العهد العثمانى عندما حصرت القبول فى اليهود الأشكنازيم أما اليهود السفارديم والعرب فلم يستفيدوا منها إلا فى حالات نادرة(٢٠) . فقد كان الهدف من مكفا اسرائيل تزويد المستوطنيين اليهود بالخبرة الزراعية وتقديم التسهيلات لهم(٢١) ، ويعتبرها المؤرخون اليهود أول مستعمرة زراعية يهودية فى فلسطين(٢٢) ، وفى التسمية إشارة واضحة لمطامع اليهود فى فلسطين فى ذلك الوقت المبكر نسبياً .

وقد نمت هذه المستعمرة بسرعة فكانت تشغل فى سنة ١٨٧٤ حوالى ٣١٢٠ دونماً ، (٥٢٠ دونماً زيادة عما ورد فى الامتياز) . وكانت تستخدم الفلاحين العرب فى أعمالها الزراعية ، ولكنها فى نفس الوقت كانت تلقى معارضة الفلاحين فى القرى المجاورة والذين لم يرحبوا بها ، وحدثت مشاكل حول حدودها ، كما اعتدى الفلاحون على مزروعاتها ، وأتلفوا قسماً منها(٢٣) ذلك أن الفلاحين لم يرحبوا بوجود مؤسسة أجنبية تتوسط قراهم ، وقد عرفت هذه المستعمرة لدى عرب فلسطين باسم مستعمرة نيتر نسبة إلى شارل نيتر مؤسسها .

— مستعمرة بتاح تكفا (١٨٧٨) وتعني بالعبرية « باب الأمل » .

قام بتأسيس هذه المستعمرة جماعة من يهود القدس استطاعت تملك قطعة أرض إلى الشمال من مدينة يافا(٢٤)، وذلك بعد ثماني سنوات من تأسيس مستعمرة مكفا اسرائيل. وقد أصبحت بتاح تكفا فيما بعد من أوسع وأنجح المستعمرات اليهودية في فلسطين، رغم تعرض أوائل المستوطنين لحمى الملاريا(٢٥)، ومرورها بأزمة مالية خانقة في سنة ١٨٨٥ تمكنت من إجتيازها بفضل المساعدات المالية التي تلقتها في أعقاب زيارة حاخام اليهود الأكبر في لندن وزيارة مندوب «جمعية محبي صهيون». فقد سجلت هاتان الزيارتان مرحلة جديدة في مستقبل هذه المستعمرة(٢٦). التي يشير اسمها أيضاً – باب الأمل – إلى أمل المستوطنين اليهود في نجاح مشاريعهم الاستيطانية.

هذا ويجدر بنا ونحن بصدد الحديث عن الاستيطان غير المنظم أن نشير إلى الجهود التي بذلتها «جمعية محبي صهيون»(٢٧)، والتي تبنت فكرة إستيطان فلسطين وإحياء اللغة العبرية فيها. وبذلك نبتت أولى بذور الصهيونية السياسية، وفي سنة ١٨٩٠ عرفت الجمعية باسم «جمعية مساعدة المزارعين والمهنيين اليهود في فلسطين وسورية، وكانت برئاسة ليون بنسكر(٢٨).

وتمثل نشاط «جمعية محبي صهيون» في فلسطين بإقامة مستعمرة «ريشون لزيون» – الأولى في صهيون – قرب يافا في سنة ١٨٨٢ ويمكن اعتبار هذه المستعمرة بداية الاستيطان الصهيوني. الفعلي لفلسطين(٢٩). ثم تأسست في نفس العام مستعمرتا «زكرون يعقوب» – ذكرى يعقوب – إلى الجنوب الشرقي من حيفا وروشبينا – حجر الزاوية – في الطريق بين طبرية وصفد وكان سكانهما من يهود رومانيا.

وقد أصبحت المستعمرات الصهيونية السابقة بالإضافة إلى مستعمرة «رحبوت» التي تأسست في سنة ١٨٩٠ بالقرب من «ريشون لزيون» من

أوسع المستعمرات الزراعية فى فلسطين وأكثرها أهمية على الرغم من أن المستوطنيين الجدد فيها لم تكن لديهم الخبرة الزراعية(٣٠) . وهكذا تمكن اليهودمع أوائل الثمانينات من القرن التاسع عشر من تأسيس ثمانى مستعمرات زراعية فى فلسطين لم يتجاوز عدد المستوطنين فيها ألف نسمه(٣١) . وقد لاقت هذه المستعمرات صعوبات كثيرة سواء كان ذلك من قبل السكان العرب أو من السلطات العثمانية . لكن معظمها تلقى مساعدات مالية وفيرة .

ثانياً ـ مرحلة الاستيطان المنظم :

قررت الحركة الصهيونية فى مؤتمر بال (أغسطس ١٨٩٧) التخلى عن الاستيطان غير المنظم الذى يدعمه بعض المتمولين اليهود لأغراض دينية وخيرية ، والأخذ ببرنامج إستيطان منظم له أهدافه السياسية الواضحة التى تحظى بتأييد جماهير اليهود(٣٢) . وذلك بعد أن لمست الحركة الصهيونية عدم نجاح الجهود التى بذلت لتأسيس المستعمرات الزراعية فى فلسطين خلال الفترة (١٨٨٢ – ١٨٩٧) رغم الإعانات المادية السخية التى قدمها أغنياء اليهود فى أوربا لأسباب منها :

ـ إن كثرة من اليهود وجدت فرصة جديدة للهجرة إلى الولايات المتحدة.

ـ إن الهدف الذى كانت تسعى الصهيونية لتحقيقه ألا وهو بناء الأمة اليهودية فى فلسطين وهو العامل الوحيد الذى يجعل إستيطان فلسطين أكثر إغراء من غيرها لم يكن واسع الانتشار بين يهود أوربا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

ـ عدم التنسيق بين جمعيات الاستيطان المختلفة والتى تأسس منها بمجهودات فردية . وفشلها فى تحقيق الاكتفاء الذاتى للمستعمرات نظراً للصعوبات التى واجهت مشاريعها .

وفى سبيل الاسراع بالاستيطان المنظم ، عملت الحركة الصهيونية على إيجاد الأجهزة والأدوات والتى كان الهدف منها تعميم عملية الاستيطان وتمويلها والاشراف عليها والتأكد من أنها لن تلقى مصير التجارب التى سبقتها(٣٣) .
ولتحقيق هدف الحركة الصهيونية وهو كما عبر عنه المؤتمر الصهيونى الأول « السعى لإيجاد وطن قومى لليهود فى فلسطين يضمنه القانون العام » . اتخذ المؤتمر القرارات التالية(٣٤) :

- توطين عدد مناسب من اليهود فى فلسطين يختارون من بين الزراع والصناع ورجال الأعمال .
- تنظيم اليهود محلياً ودولياً وفقاً لقوانين كل دولة .
- تنمية الوعى القومى اليهودى وتقويته .
- الحصول على الموافقات الحكومية الضرورية .

وقد استغرق الإعداد لأدوات الاستيطان الصهيونى فترة فى الوقت ، نظراً لانشغال هرتزل فى أجزاء اتصالاته مع السلطان عبدالحميد الثانى ولعدم استقرار الرأى لدى الحركة الصهيونية فى عهد هرتزل(توفى فى يولية ١٩٠٤). على استيطان فلسطين فى ناحية أخرى(٣٥) . فقد ظهر مشروع استيطان العريش وسيناء ثم مشروع أوغنـــدا ، وكان هرتزل يرى أن الاستيطان اليهودى لفلسطين على نطاق واسع ومنظم لا يمكن البدء منه قبل الحصول على براءة الاستيطان(٣٦)، التى تضمن لليهود الحقوق القانونية والعامة ، لذلك لم يشأ هرتزل ترك الحركة الصهيونية تنتقل إلى المرحلة العملية قبل تأمين الاعتراف الرسمى لها .

وبعد وفاة هرتزل الذى تزعم « الصهيونية السياسية » — والتى كانت ترى عدم الشروع فى استيطان فلسطين قبل الحصول على براءة من السلطان العثمانى تأذن بالاستيطان وتعترف صراحة بأنه يهدف إلى خلق كيان سياسى

ثم بذاته — سيطرت « الصهيونية العملية » التي كانت ترى أن الاستيطان لا يتطلب الموافقة المسبقة من السلطان العثماني . ثم جاءت خطة جديدة دعاها حاييم وايزمن « الصهيونية التوفيقية » التي أقرها المؤتمر الصهيوني الثاني (١٩٠٧) وتدعو إلى استمرار التسلل البطيء وتنظيمه ورعايته حتى إذا ماقامت في فلسطين مستعمرات يهودية نشيطة ، استطاعت الحركة الصهيونية أن تضغط على السلطات الحاكمة لإصدار البراءة المطلوبة ثم الحصول بعد ذلك على الضمانات الدولية اللازمة لحماية الاستيطان الصهيوني في فلسطين(٣٧).

وفي المؤتمر الصهيوني التاسع في هامبورغ (ديسمبر ١٩٠٩) أعلن ماكس نوردو تخلي الحركة الصهيونية عن فكرة المطالبة ببراءة الاستيطان قائلا « ... وبمنتهى الاحترام نودع فكرة البراءة في محفوظات الصهيونية السياسية ونقلع عن الحديث عنها بعد اليوم »(٣٨) .

وفي المؤتمر الصهيوني العاشر (بال أغسطس ١٩١١) سيطرت الصهيونية العملية على المؤتمر وتخلت عن فكرة الحصول على البراءة التي كان هرتزل يرى وجوب الحصول عليها قبل المباشرة في الاستيطان . ولما تقدم من أسباب سبق البارون أدموند دي روتشيلد الحركة الصهيونية في إيجاد جمعية تتولى تنظيم الاستيطان اليهودي في فلسطين .

— جمعية الاستعمار اليهودي : — عمد البارون أدموند دي روتشيلد إلى تغيير أساليبه الإدارية بعد أن لمس عدم نجاح مشاريعه الزراعية في فلسطين ، فتنازل في أول يناير ١٩٠٠ عن إدارة المستعمرات التي كان يشرف عليها مثل بتاح تكفا ورحوبوت وريشون لزيون وزكرون يعقوب(٣٩) إلى جمعية الاستعمار اليهودي التي تأسست خصيصاً لهذا الغرض ، فأخذت في مساعدة المدارس اليهودية الصناعية والزراعية(٤٠) ، كما قامت الجمعية بطرد المستوطنين غير المناسبين ، وعملت على توسيع أراضي المستعمرات وتنظيم إدارتها بحيث

تكتفى ذاتياً . ونتيجة لهذه الإجراءات سخط كثير من المستوطنين اليهود على الإدارة الجديدة وهاجروا إلى استراليا وأمريكا(٤١) .

ونالت جمعية الاستعمار اليهودى معاضدة بريطانيا ، فأصدرت سفارتها فى استانبول تعليمات إلى القنصل البريطانى فى القدس بالاستمرار فى تقديم الحماية البريطانية لمشاريع الجمعية فى متصرفية القدس(٤٢) وقد تفرعت عن الجمعية مؤسسات زراعية ، وكان من بين المهام التى أنيطت بها شراء الأراضى وتدريب القادمين الجدد من المستوطنين على الزراعة والإستفادة من الأساليب الزراعية الحديثة فى المستعمرات(٤٣) .

هذا وقد قامت الجمعية أيضاً بتزويد المستوطنين بكل ما يلزمهم لتكوين أنفسهم فى المستعمرات من بناء ورأسمال وعقار ، وكان على المزارع اليهودى دفع كامل قيمة المزرعة ، ولا يستطيع أخذ سند التسجيل « الطابو » قبل تسديد جميع الأقساط(٤٤). وبذلك كانت الجمعية تبيع الأرض فى نهاية الأمر إلى المزارع اليهودى بعد أن يدفع ثمنها على أقساط طويلة الأجل أو تمنحه حق استئجارها لفترة طويلة(٤٥) .

واختلفت جمعية الاستعمار اليهودى عن غيرها من أدوات الاستيطان المنظم ، من حيث استخدام مستعمراتها للعمال العرب لملاحظة الكروم وفلاحة الحقول وقطف العنب والبرتقال وغير ذلك من الأعمال الزراعية التى تعتمد على وفرة الأيدى العاملة . ولذلك كانت العلاقات بين المستوطنين اليهود وجيرانهم العرب ودية نوعاً ما . وهذه الحالة تختلف تماماً عنها فى المستعمرات الصهيونية(٤٦) كما سنرى .

أما أجهزة الاستيطان الصهيونى فكان أهمها :

ـ الوكالة اليهودية : وترجع نشأتها إلى مؤتمر بال (١٨٩٧) وهى الجهاز

الذى يشرف على حركة الاستيطان ويعنى بإسكان المهاجرين فى المتسعمرات ومن الأسس التى انتهجتها الوكالة اليهودية فى فلسطين : اشتغال المزارع بنفسه ، ومعنى ذلك أن لا يعطى المزارع من الأراضى زيادة عما يستطيع زراعته هو وعائلته فقط دون أن يتلقى مساعدة فى العمل من الخارج . وقد بقيت مستعمرات الوكالة اليهودية غير مكتفية ذاتياً(٤٧) .

— الصندوق القومى اليهودى ؛ « الكارن كايمت » .

تعود فكرة إنشاء مصرف قومى يهودى إلى المؤتمر الصهيونى الأول فى بال (أغسطس ١٨٩٧) . وقبلت الفكرة فى المؤتمر الصهيونى الرابع الذى انعقد فى لندن (أغسطس ١٩٠٠) بهدف شراء الأراضى فى فلسطين ، وقد سجل المصرف فى لندن باسم « الكارن كايمت » فى سنة ١٩٠٤(٤٨) وتمكن الصندوق من امتلاك حوالى خمسة عشر ألف دونم من الأراضى فى منطقتى يافا والجليل فى سنة ١٩٠٥(٤٩)

ومهما يكن من أمر فإن مساحة الأراضى التى أصبحت فى عهدة الصندوق لم تتجاوز مساحتها قبيل الحرب العالمية الأولى عشرين ألف دونم ، ومن بين المستعمرات التى مولها الصندوق القومى اليهودى مستعمرات دجانيا ، وبنى شمن وخلده . وتلخصت سياسة الصندوق « بالسعى لاسترداد الأراضى بالشراء ، على أن تصبح الأراضى التى فى عهدته فى حالة وقف دائم . كما كان من بين واجبات الصندوق تزويد المهاجرين الجدد بقطع مناسبة من الأرض للسكن والاستثمار (٥٠) .

هذا وقد اشترك الكارن كايمت مع الكارن هايسود — الصندوق التأسيسى اليهودى فى انفاق مبالغ طائلة لانشاء المستعمرات ، ويبدو أن تسديد جميع النفقات لم يكن ممكناً ، كما لم يكن ثمة ضرورة تدفع «الكارن كايمت» إلى طلب تسديد النفقات ، فهو لم يبع الأرض للمستوطنين اليهود ، بل لم يكن بمقدور أحد من المستوطنين دفع فائدة المبالغ التى صرفها الصندوق على الأرض

التى يستغلها . واشترط « الكارن كايمت » فى عقود الإيجار استخدام اليهود فقط ، كما اشترط أيضاً أن لا يستلم الأرض أحد غير اليهود ولم يعط المزارع اليهودى المستأجر من « الكارن كايمت » مستندات تؤمن له الزراعة أو تبين شروط الايجار ، وعلى أى حال فإنه لم يكن بحاجة إلى تشريع يضمن له حق البقاء فى الأرض(٥١) .

مما سبق يتبين أن الصندوق القومى اليهودى قد حرص عند ابتياع الأرض على اعتبارها ملكا جماعياً للشعب اليهودى ، واستهدفت الحركة الصهيونية من ذلك إظهار اليهود بمظهر الأمة الواحدة ذات الملكية الواحدة ، لأن مبدأ الملكية الجماعية – من وجهة نظرها – يقوى التضامن بين الأفراد ولأن الملكية الخاصة التى تقوم على حافز الربح قد تغرى اليهودى ببيع أملاكه إلى غير اليهود أو استخدام الأيدى العاملة غير اليهودية لرخصها ، وكل ذلك يتناقض مع المخطط الصهيونى الذى يرى أن الفلاح اليهودى هو الذى يجعل الأرض يهودية ، حتى أن الصندوق القومى اليهودى لم يكتف بابتياع الأرض باسمه بل سعى لامتناع أصحاب الملكيات الخاصة من اليهود بتحويل ملكياتهم الخاصة إلى ملكية عامة أو على الأقل الامتناع عن استخدام العمال العرب فى أعمالهم الزراعية ؛ لذلك اشترط الصندوق قصر الاقراض والمساعدة الفنية على الفلاح اليهودى الذى يستخدم العمل اليهودى فقط فى أرضه(٥٢) . وكانت مستعمرة دجانيا (تأسست ١٩٠٩) على بعد أميال وإلى الجنوب من بحيرة طبرية أول مستعمرة صهيونية « كبوتس » طبقت فيها سياسة الصندوق القومى اليهودى(٥٣) .

– الصندوق التأسيسى اليهودى : « الكارن هايسود » .

« بينما كان «الكارن كايمت» مختصاً بشراء الأراضى فإن «الكارن هايسود» . كان مختصاً بالخدمات العامة ولاتخاذ الوسائل العلمية للاستيطان(٥٤) . وكانت

نفقات الصندوق الأساسية كثيرة جداً ، وزاد رأس المال المصروف فى كل مستعمرة على قيمتها ، ونصت المادة السابعة فى عقود الصندوق :

« أن يتعهد المستعمر ، ما دام لم يسدد السلفيات المعطاة له بأن يقيم فى الأرض الزراعية ، وأن يقوم بذاته أو بمساعدة عائلته بجميع أشغال الفلاحة اللازمة فى مزرعته ، وأن يتعهد أيضاً بأن يستأجر عمالا من اليهود فقط إذا، أو كلما اضطر لاستخدام عمال »(٥٥) .

— المصرف اليهودى للمستعمرات .

كانت غاية المصرف العمل فى فلسطين وسوريا وفى أى جزء فى العالم إذا رأت الحركة الصهيونية أن مصلحة الشعب اليهودى تستدعى ذلك ، وفى المؤتمر الصهيونى الثالث فى بال (أغسطس ١٨٩٩) حددت أهداف المصرف بدقة أكثر فأصبحت « من أجل إخراج وتحسين وإدارة الاستعمار فى الشرق لاسيما فى فلسطين وسوريا وسائر أنحاء العالم ، وفى المؤتمر الصهيونى السابع فى بال (يوليو/ أغسطس ١٩٠٥) وتحت تأثير الأغلبية التى تنادى باستيطان فلسطين حدد مجال نشاط المصرف فأصبح منحصراً فى فلسطين وسوريا وسائر أنحاء تركيا الآسيوية وفى شبه جزيرة سيناء وفى جزيرة قبرص(٥٦) » .

— الشركة الإنكليزية الفلسطينية :

تأسست فى لندن فى يناير ١٩٠٢ ، وكان رأسمالها مئة وعشرين ألف جنيه استرلينى ، ومركزها الرئيسى يافاولها فروع فى القدس(٥٧) والخليل وبيروت وصفد وطبرية وفروع أخرى فى المستعمرات الصهيونية الرئيسية(٥٨) .

ولما لم يكن هدف هذه الشركة الربح المالى ، بل البحث عن الامتيازات لمشروعات اقتصادية ، فقد حرصت على مساعدة الحكومة العثمانية بقروض مقابل الحصول على امتيازات للحركة الصهيونية فى فلسطين ورفع القيود عن الهجرة اليهودية .

وتتلخص أغراض الشركة فى إيجاد مكان فى فلسطين لليهود والمهاجرين فى أقطار أوربا الشرقية لممارسة حقوقهم الكاملة ، وخلق نواة يهودية فى فلسطين قادرة فى المستقبل على التزود بالقيم والتقاليد اليهودية . والنهوض بفلسطين كى تحتل مكاناً مرموقاً يليق بالشعب اليهودى(٥٩) .

ولما طلبت الشركة منحها ترخيصاً للعمل فى يافا باعتبارها مؤسسة تجارية رفض رئيس المحكمة التجارية فى يافا طلبها (٦٠) ، وعندئذ تدخل القنصل البريطانى فى القدس لدى المتصرف الذى أوعز بدوره إلى قائمقام يافا لإبلاغ رئيس المحكمة بأنه يتحمل مسئولية تأخير تسجيل الشركة ، باعتبار أن ذلك يفسح المجال أمام المداخلات الأجنبية(٦١) . وقد قاطع العرب فى يافا هذه الشركة ورفضوا التعامل معها إلى أن أوقفها جمال باشا عن الاستمرار فى العمل فى أوائل عام ١٩١٦ (٦٢) .

— شركة تطوير الأراضى الفلسطينية المحدودة :

وافق المؤتمر الصهيونى السابع المنعقد فى لاهاى (أغسطس ١٩٠٧) على تأسيس هذه الشركة(٦٣) وتم تسجيلها فى ٢٠ يناير ١٩٠٩ ، وكان هدفها الرئيسى تشجيع استيطان اليهود فى فلسطين بشراء قطع من الأراضى وإعدادها للزراعة(٦٤) ، وقد تعاونت هذه الشركة مع أجهزة الاستيطان الصهيونى الأخرى ، فكانت تعمل على استصلاح الأراضى لحساب الصندوق القومى اليهودى ، ثم تسلمها عند الطلب وبدوره يسلمها إلى الصندوق التأسيسى اليهودى لإسكان المهاجرين اليهود فيها(٦٥) .

إدارة المستعمرات:

تنوعت أساليب إدارة المستعمرات اليهودية بتنويع أنظمة الاستيطان اليهودى فى فلسطين ، فلقد كانت التشكيلات الاجتماعية فى المستعمرات متنوعة

منذ البداية ، فكان هنالك أملاك للأفراد ومستعمرات تعاونية يكون العمل مشتركا فى بعضها وفردياً فى أخرى . ومستعمرات اشتراكية قليلة العدد لا يتقاضى العامل فيها أجراً بل توزع فيها الأعمال والحاجيات حسب المفهوم الاشتراكى ٦٦ .

ويعود هذا التنوع فى أساليب إدارة المستعمرات إلى أن عدداً من اليهود جاءوا إلى فلسطين بوسائلهم الخاصة ، فاستغلوا المزارع التى اشتروها بأموالهم دون مساعدة خارجية ؛ كما وجدت مستعمرات فيها مستوطنون يمتلكون الأرض ويدفعون أقساطاً سنوية إلى الجمعية اليهودية التى ابتاعت الأرض أصلا. ووجدت مستعمرات أخرى تدار بموجب نظام تعاونى خاص ، فيما يتعلق بشراء الأدوات وغيرها من وسائل الإنتاج وتسويق المنتوجات(٦٧) . فمثلا شكلت تعاونيات لتصدير البرتقال وبيعه وكذلك كان مزارعو الكروم يرسلون إنتاجهم من العنب إلى مصانع الخمور الكبيرة فى « ريشون لزيون »(٦٨) .

وقد قام بإدارة المستعمرة مجلس منتخب من أصحاب الأملاك تألف من سبعة أعضاء رأس أحدهم المجلس وتولى آخر الأعمال الكتابية فيه وكانت وظيفة المجلس القيام بكافة إحتياجات المستعمرة . وإلى جانب المجلس ، وجد المختار وهو رئيس المستعمرة ، وتقاضى راتباً شهرياً ، وتمتع بصلاحية طرد الفلاحين ومعاقبتهم ؛ ووصف مؤلف معاصر للمستعمرات الصهيونية فى فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى صلاحيات المختار بعد زيارته لمستعمرة بتاح تكفا « ... وهو لا يرضى بأقل وسيلة أو سبب يخل بالشكل العبرانى فى ملبس — بتاح تكفا — فهو الحاكم والآمر والمالك الوحيد لهذه القعبة تحت اسم مستعار ، ويتعذر على أى شخص غريب كان أن يعيش أو يتحرك فى القصبة ما لم يكن بإذن المختار — وعلى علم منه ، وليست هذه الحالة خاصة بملبس وحدها ، بل هى عامة فى جميع المستعمرات اليهودية . ا. هـ. ثم وصف الروح

العبرية القوية فى المستعمرة » . . . لا يدور على الألسنة بعناد تام إلا كلمات عبرانية . . . فلا شىء فى جميع الأطراف غير العبرانية . . . الأوجه جميعها عبرانية » ا . هـ(٦٩) .

وذهبت الحركة الصهيونية إلى أبعد من ذلك فكانت مستعمراتها شبه حكومة لها دوائر للادارة والمالية والزراعة والتعليم(٧٠) ، كما كان للحركة الصهيونية فى المستعمرات محاكم ومجالس اشتملت على القضاة والشهود وسلطات التنفيذ والادارة(٧١) . ويستأنف المستوطنون اليهود مشاكلهم لدى هيئات الاستيطان التى مر ذكرها حتى لا يرجعوا إلى السلطات العثمانية فى شىء فى خلافاتهم .

وقد أدرك السكان العرب فى يافا كل ذلك فأبرقوا فى فبراير ١٩١٤ إلى الصدر الأعظم يبلغونه أن الصهيونيين «حكومة داخل حكومة» فهم يعتقلون الأهالى فى مدرسة ودار بلدية تل أبيب ويعاقبونهم بالضرب والسجن(٧٢) . وهكذا كان سكان جميع المستعمرات من اليهود ولا أثر للموظفين العثمانيين أو أى مظهر إدارى عثمانى آخر فيها ، بل كان كل شىء فيها عبرانياً بحتاً(٧٣) . فالمستوطنون لا يخالطون ولا يستخدمون أحداً من غير اليهود ولهم بريدهم الخاص ، كما ظهرت السمات اليهودية بارزة فى الأسواق والأحياء التى سكنها اليهود فى مدن فلسطين(٧٤) .

أما إدارة المستعمرات الصهيونية فقد اتخذت أشكالاً متعددة اعتمدت على نوع كل مستعمرة . وبصفة عامة كان فى فلسطين ثلاثة أنواع من المستعمرات الصهيونية هى :

١ — مستعمرات ذات صفة قومية ، وملكيتها للحركة الصهيونية ، وعمل فيها المستوطنون اليهود بأجر ، وقد تولت الهيئات الصهيونية المختصة بمشاريع

الاستيطان الاشراف على إدارتها لصالح الحركة الصهيونية ، وهى التى تدفع جميع النفقات وتحصل على جميع الأرباح ولا تعطى للعامل سوى الأجر مع توفير المسكن والخدمات الأخرى له .

٢ — مزارع تعاونية أو جماعية « كيبوتزيم »[٧٥] ويتقاضى العمال أجورهم فيها حسب الإنتاج بالإضافة إلى توزيع جزء من الأرباح السنوية عليهم . وقد جرت التجربة الأولى للمزارع التعاونية فى مستعمرة الشجرة فى عام ١٩٠٨ عندما تسلمت جماعة من العمال أرض المزرعة لاستثمارها مدة سنة واحدة . وتولت الجماعة أيضاً مسئولية توزيع العمال بين أفرادها ، وقد أظهرت الأرباح النهائية قدرة العمال على تنفيذ المشاريع الجماعية ، وفى العام التالى قامت تجربة مماثلة فى مستعمرة دجانيا ، بعد أن اختلفت جماعة من العمال مع مدير المستعمرة فيما يتعلق بأساليب إدارة المستعمرة وأضربت عن العمل فى عام ١٩٠٩ ؛ فقام المسئولون فى الحركة الصهيونية بتسليم قسم من أراضى المستعمرة إلى فريق من العمال المضربين كمتعهدين جماعيين للأراضى . ثم استبدل فى العام التالى فريق العمال بآخر ، حوّل المزرعة إلى « كيبوتز » دائم .

وبذلك كانت « دجانيا » أول كيبوتز فى فلسطين ، ثم رأت الحركة الصهيونية فى المزارع الجماعية « الكيبوتزيم » وسيلة مثالية لاستخدام أعداد كبيرة من المهاجرين واستيعابهم بربطهم بالأرض وبالتنظيمات العسكرية والعمالية ربطاً محكماً ؛ فتعهدتها وشجعتها[٧٦] وعملت على تطويرها .

٣ — قرى تعاونية أو جماعية « موشافيم » :

رأت جماعات أخرى من العمال أن العمل الجماعى التام والشامل فى المزارع الجماعية « الكيبوتزيم » حالة متطرفة تعوق حرية الفرد ، وكان العمال المتزوجون أكثر إحساساً بذلك ، ربما لأن الحياة الزوجية تقوى

الميول الفردية من ناحية ولأن « الكيبوتز » لم يأخذ بعين الاعتبار انضمام العمال المتزوجين إليه ، لذلك بدأ نوع جديد جمع بين نظامى المزارع الجماعية والفردية فبدأت حركة «الموشافيم» مستوطنات العمال الزراعيين فى المناطق المجاورة للمستعمرات القائمة والتى بحاجة لأيدى عاملة ذات خبرة زراعية ، وتم ذلك أولا فى بئر يعقوب ١٩٠٧ ثم فى عين غانم ١٩٠٨ ولخالات يهوذا (١٩٠٨) وكفار معلل ١٩١٤ .

وكان القصد فى حركة « الموشافيم » اقامة أحياء عماليـــة يقوم فيها العمال الزارعيون ببعض الأعمال الزراعية الخاصة بهم ، ويعملون أيضاً بأجر فى المستعمرات المجاورة ، لكن التجربة أثبتت قصورها ، لأن أسلوب المزارع الصغيرة التى كانت مصدر رزق ثانوى للأعضاء العاملين بأجر فى المستعمرات القريبة ، كان غير كاف اقتصادياً إلا إذا منح كل عضو قطعة من الأرض تكفيه لكسب عيشه ، ففى مستعمرة عين غانم وزعت حصص الأرض بالتساوى بين جميع الأعضاء بغض النظر عن قدراتهم المالية(٧٧)؛ واستهدفت الحركة الصهيونية تشجيع « الموشافيم » لايجاد ارتباط كامل بين اليهودى والأرض وذلك بالعمل الدائم فيها ، وسعياً لأن تصبح كل مستعمرة مستقلة ذاتياً كتعاونية للمنتجين الزراعيين .

هذا وقد واجهت المستعمرات اليهودية فى فلسطين مشاكل كثيرة منها :

١ ــ مقاومة السكان العرب : وقد ارتبطت هذه المقاومة بإحساس السكان بأخطار المطامع الصهيونية فى فلسطين ، وبنمو الوعى القومى عندهم وإن كان وئيداً ، فبينما استطاع اليهود القدماء من سكان المدن وبخاصة فى المدن الأربع (القدس ، الخليل ، صفد ، طبرية) التعايش مع السكان العرب . . رفض الصهيونيون من سكان المستعمرات الزراعية فكرة التعايش أو الاندماج فى المجتمع العربى ، ذلك أنهم حملوا معهم فكرة جديدة ، تمثلت بتأسيس مجتمع يهودى كوسيلة لاحياء الثقافة العبرية(٧٨).

وهكذا جاء المستوطنون الصهيونيون إلى فلسطين بدافع تأسيس وطن خاص بهم، تمهيداً لإقامة دولة يهودية تجتذب مع الزمن جمع يهود العالم، ولذلك لم يستسيغوا فكرة التعايش الدائم مع السكان لأنهم يريدون أن تكون فلسطين خالصة لهم وحدهم .

٢ ــ مقاومة السلطات العثمانية : والتى لم يكن بإمكانها النظر بعين العطف لوجود استيطانى صهيونى فى جزء مهم من أراضيها ، لذلك فرضت القيود المتلاحقة لمنع الهجرة اليهودية ولمنع تملك اليهود للأراضى فى فلسطين غير أن سلاح الرشوة والتحايل على القوانين والاهمال مكّن اليهود من شراء قسم من أراضى فلسطين ، وإن كان يبدو قليلا ، لكنه كان نواة الوجود الصهيونى فى فلسطين .

فقد حصل اليهود فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر على فرمانات من السلطان بتملك قطع من الأراضى ، لكن معظمها كانت بطرق غير مشروعة ، مما دعا حكومة السلطان عبد الحميد إلى التشدد فى تنفيذ قراراتها بمنع اليهود من امتلاك الأراضى فى فلسطين ، ففى عام ١٨٩٣ شكا اليهود الانكليز فى القدس من القوانين العثمانية التى أصدرها الباب العالى بمنع اليهود من ابتياع العقارات الثابتة (الأبنية والأراضى) أو نقل ملكيتها من يهودى لآخر . ولكن تحت ضغط الحكومة البريطانية على الدولة العثمانية ، غضت السلطات العثمانية فى فلسطين الطرف عن بعض الصفقات(٧٩) .

وفى عام ١٨٩٦ أجازت الدولة العثمانية لليهود الذين استوطنوا البلاد قبل أبريل ١٨٩٣ تملك العقارات الثابتة . لكنها ظلت متشبثة بقرارها عدم السماح للشركات اليهودية فى خارج فلسطين بشراء الأراضى أو إجراء معاملات نقل الملكية إليها(٨٠) ، ثم عادت الحكومة العثمانية فى عام ١٩٠٤ فتمسكت بقرار منع بيع الأراضى والعقارات فى فلسطين إلى اليهود من جميع الجنسيات ،

لأن معظم اليهود الأجانب كانوا يأتون إلى فلسطين بغرض شراء الأراضى والإقامة الدائمة فيها[٨١] .

وفى آخر عهد السلطان عبد الحميـــد وضعت السلطات المحلية العثمانية صعوبات أمام تملك رعايا الدول الأجنبية ، ومنعت انتقال الأراضى إلى الأجانب حتى ولو كان البائع أجنبياً ، بسبب رغبة الدولة فى منع إقامة المستعمرات اليهودية فى فلسطين[٨٢] . واتبعت الحركة الصهيونية خطة لنزع ملكية الأراضى من أصحابها العرب ثم التخلص من الفلاحين ، على أن يتم تنفيذ ذلك بسرية ، وإبعادهم عن الأرض بتوفير فرص العمل لهم خارج فلسطين وإغلاق مجالات العمل أمامهم فى فلسطين ، حتى يضطروا للنزوح عنها ، ولا يفكروا فى العودة إليها فى المستقبل ، وكان هرتزل يرى أنه لا بأس إذا اعتقد أصحاب الأرض من العرب أنهم يغشون الحركة الصهيونية ببيعهم الأراضى بأسعار أكثر من قيمتها الحقيقية ، فإن الأراضى لن تعود إليهم مرة ثانية[٨٣] .

وبإلقاء نظرة على عدد المستعمرات اليهودية التى قامت فى فلسطين حتى عام ١٩١٤ يتبين ازدياد عددها باستمرار فبينما كانت خمس مستعمرات فى عام ١٨٨٢ ضمت (٥٠٠) يهودى ارتفع عددها فى عام ١٩٠٠ إلى اثنين وعشرين مستعمرة ضمت (٥٢١٠) من اليهود ثم تضاعفت فى عام ١٩٤٧ فبلغت سبعاً وأربعين مستعمرة ضمت (١١,٩٩٠) يهودياً . وتلاحظ العلاقة بين ازدياد عدد المستعمرات ونشاط الهجرة اليهودية بعد عام ١٨٨١ .

وفيما يلى جـــدول يبين عدد المستعمرات اليهودية[٨٤] وسكانها[٨٥] ومساحتها[٨٦] فى مرحلتى الاستيطان المنظم وغير المنظم :

	المستعمرات	سكان المستعمرات	سكان المدن	المساحة بالدونمات
	مستعمرة	نسمة	نسمة	
١ ــ مرحلة الاستيطان				
غير المنظم	(٢٢)	٥٢١٠	٤٤,٧٩٠	١٥٧,٠٧٣
٢ــ مرحلة الاستيطان				
المنظم	(٢٥)	٦,٧٨٠	٢٨,٢٢٠	١٦٣,٩٨٤
المجموع ...	(٤٧)	١١,٩٩٠	٧٣,٠١٠	٣٢١,٠٥٧

وفى الجدول السابق يتبين استمرار ازدياد عدد المستعمرات فى فلسطين على الرغم من عدم شرعية وجود معظمها ، فقد كان الترخيص بالإقامة وامتلاك الأرض أو السماح بالبناء يناله اليهود بالرشوة أو بالتحايل على القوانين العثمانية[٨٧] .

٣ ــ انتشار مرض الملاريا ، واجهت صعوبات الملاريا المستوطنين الأوائل ، وحالت دون تقدم الاستيطان الصهيونى فى البداية حيث لم تتخذ إجراءات فعالة لتجنب الإصابة بالملاريا ، لاسيما وأن المستوطنين لم يعتادوا مناخ فلسطين ، فتعرضوا للإصابة بها فى بعض المناطق[٨٨] . ولكن أمكن التغلب على الملاريا بعد تطهير المستنقعات وتجفيفها وزراعة أشجار الكينا بكثرة ، واتخاذ تدابير وقائية ، وتزويد المستعمرات بالأطباء المتجولين والصيدليات[٨٩] .

٤ ــ انعدام القابلية الزراعية عند أوائل المستوطنين ، وعدم تمكنهم من الاستفادة من التربة ، وقد أثر ذلك على مستعمرات روتشيلد إلى حد كبير[٩٠] ، لذلك فضل استخدام العامل العربى الذى كان يتصف بالجلد والخبرة وقلة الأجرة ، على العامل اليهودى الذى افتقر إلى هذه الميزات . وقد تمكنت هيئات الاستيطان المنظم من التغلب على هذه المشكلة ، فاهتمت

بالأساليب الزراعية الحديثة وشكلت شركات من أجل تسويق المنتوجات الزراعية[٩١] .

٥ — لم تحقق الحركة الصهيونية نجاحاً عملياً كبيراً فى خلال السنوات العشر الأولى من تأسيسها ، فحتى عام ١٩٠٧ لم تكن قد خطت خطوات كبيرة لدفع جهاز المستعمرات إلى الأمام ، وفى المجال السياسى كانت جهودها أقل نجاحاً ، فقد فشلت الحركة فى الحصول على تسهيلات حكومية وضمانات دولية لاستيطان فلسطين . ومع بداية الحرب العالمية الأولى لم تحقق الصهيونية غير نجاح محدود ، حيث بقى الصهيونيون يشكلون أقلية ضئيلة فى يهود العالم لا تتجاوز ١ ٪ كما أن جميع اليهود فى فلسطين لم يشكلوا أكثر من ٨ ٪ من مجموع السكان ولم يتجاوز ما يملكه اليهود ٢½ ٪[٩٢] من أراضى فلسطين وبقيت الحركة الصهيونية عاجزة عن الحصول على اعتراف سياسى بها سواء كان ذلك من السلطات العثمانية أو أى من الدول الأوروبية .

الحـــواشى

(١) سينشر لى بحث فى العدد الثالث من مجلة كلية الآداب — جامعة الرياض . بعنوان « هجرة اليهود الى فلسطين . وموقف الدولة العثمانية منها » .

أما موقف عرب فلسطين من الهجرة اليهودية والاستيطان الصهيونى فقدسبق أن كتبت فيه بحثاً نشرته مجلة مركز بحوث الشرق الأوسط . (القاهرة) العدد الأول ؛ بعنوان (الحركة العربية فى متصرفية القدس) . لذا اقتضى التنويه .

(٢) تقرير اللجنة الملكية لفلسطين ، ص ٦٦ .

(٣) يذهب البعض الى الأخذ بتقسيم آخر ، باعتبار الفترة (١٩٠٠ — ١٩٠٨) فترة انتقال بين الاستيطان المنظم وغير المنظم . وبذلك يكون الاستيطان الصهيونى قد مر فى ثلاث مراحل . انظر :

Esco Foundation For Palestine. p, 52. and see also; Palestine Economic Society. p. 6.

(٤) أدموند دى روتشيلد : أحد أغنياء اليهود المشهورين فى باريس ؛ قدم مساعدات مالية جمة للمستعمرات اليهودية فى فلسطين ، فاشترى لها الأراضى وبنى البيوت فيها وأرسل المدربين لتعليمهم الزراعة ... الخ .

(٥) أصبحت تعرف بعد عام ١٩٢٤ بالبيكا (P.I.C.A.) وهى الأحرف الأولى من (جمعية الاستعمار اليهودى الفلسطينية) :

Palestine Jewish Colonization Association.

(٦) Sokolow. Nahum, History of Zionism. vol. I. p. 116 and see also, Bentwich, Norman., Palestine of the Jews p. 23.

(٧) Bentwich, Norman., England in Palestine. pp.5-6.

(٨) F.O. 78/1448, No 44. Jerusalem,, 17th Nov, 1859.

(٩) Hyamson, Albert., Palestine, The rebirth of an ancient people. p. 96. and see also; conder, Claude Reignier., Tent work in palestine. Vol. II, p. 327.

(١٠) اتصفت سيرة لورنس أوليفانت بالغرابة والطرافة ، فقد كان سياسياً وفيلسوفاً ومبشراً وصحفيا ورحالة ونائبا فى البرلمان في آن واحد . كرس جزءاً من حياته للتعرف على العالم وأنهى رحلاته بالاقامة فى فلسطين فى مدينة حيفا ، وقد وجدضالته فى الصهيونية كوسيلة لتطوير وتصنيع فلسطين واستغلال أراضيها البور بأموال اليهودية العالمية ، وكأداة لترسيخ النفوذ البريطانى على طريق الهند ، وقد نشر كتابين عن فلسطين هما أرض جلعاد . وحيفا . انظر : أنيس صايغ : الهاشميون وقضية فلسطين ، ص١٨ — ١٩ .

(١١) أرشيف استانبول : داخلية ، وثيقة رقم ٦٤٣٠٤٤/٥ فى ٢٢ شوال١٢٩٦هـ.

(١٢) Oliphant, Laurance. 9 The Land of Gilead. p 504.

(١٣) The Jewish Encyclopedia. Vol IX. pp. 393-94. (Article. « Oliphant »).

(١٤) F.O. 195/2884., No 71 Jerusalem., 21st Dec. 1900

(١٥) The Historical connection of the Jewish people with Palestine. p. 28.

(١٦) Curtis, William Elerog., Today in Syria and Palestine pp. 827—28.

(١٧) Hyamson, Albert M., Palestine Old and New. pp. 39—40.

(١٨) ، (١٩) أرشيف استانبول : مجلس مخصوص ، وثيقة رقم ١٠٩٣ فى ٢ صفر ١٢٨٦ هـ ، ١٩ ذى القعدة ١٢٨٦ هـ .

(٢٠) فلسطين : العدد ١٦٨ — ٦٧ فى ٤ أيلول ١٩١٢ .

(٢١) The Historical connection of the Jewish people with Palestine. p. 27. and see also Oliphant, Laurance.. Haifa . 288.

(٢٢) Hyamson., op. cit. p. 35.

(٢٣) Conder, Claude Reignier.; op. cit. p. 327.

(٢٤) Esco Foundation for Palestine. p. 51.

(٢٥) Hyamson, Albert.. Palestine Old and New. p. 36. and see also; sokolow. op. cit p. 329.

(٢٦) Gliphant. Lanrance., Haifa. p. 286.

(٢٧) انبثقت الجمعية عن اجتماع يهودى عام عقد فى مدينة (كوتز). فى ألمانيا بالقرب من الحدود مع روسيا ، حيث تقابل عدد من اليهود يمثلون جميع الفئات اليهودية فى مختلف الأقطار وقرروا استيطان فلسطين زراعيا ونظموا جمعيات جديدة ، واستعانوا بالأموال ليشتروا فى فلسطين أرضا وليؤسسوا فيها مستعمرات نشيطة . انظر :

Menuhin, Moshe., The Decadence of Judaism in our Time. p. 29.

(٢٨) الان تايلر : مدخل الى اسرائيل — مترجم — ص ١٤ .

(٢٩) Williams, Rushbrook., The State of Israel. p. 24.

(٣٠) Hlyamson., od. cit. p. 37.

(٣١) Mandel, Neville., Turks, Arabs and Jewish Immigration into Palestine, (1882 - 1914). pp. 83—84.

(٣٢) بعد اختتام مؤتمر بال ذكر هرتزل فى يومياته (... لو أردت أن أختصر مؤتمر بال فى كلمة واحدة ، وهذا مالن أفعله : لقلت فى بال أسست الدولة اليهودية ، ولو قلت ذلك اليوم لقابلنى العالم بالسخرية ، ولكن بعد خمس سنوات على وجه الاحتمال وبعد خمسين سنة على وجه التحقيق سيرى جميع الناس هذه الدولة) .

(٣٣) فايز صايغ : الاستعمار الصهيونى فى فلسطين ، ص ٩ — ١١ .

(٣٤) Halperin, Samuel., The political Worldof American Zionism.d, 6.

(٣٥) ان تردد هرتزل فى اختيار المكان الأنسب لليهود لازمة منذ كتب (الدولة اليهودية) فى سنة ١٨٩٦ فقد طرح اختيار فلسطين والأرجنتين ثم أجاب) سنأخذ مايعطى لنا وما يختاره الرأى العام اليهودى . انظر :

Herzl, Theodor., The Jewish State. p. 95.

(٣٦) استعمل هرتزل كلمة Chapter بمعنى الوثيقة اى البراءة للترخيص بالعمل .

(٣٧) فايز صايغ : الدبلوماسية الصهيونية ، ص ١٠ .

(٣٨) Stein; Leonard., The Balfour Declaration. p. 64.

(٣٩) جون هوب سمبسون : فلسطين ، ص ٥٧ — ٥٨ .

(٤٠) كان الاقبال على المدارس الصناعية أكثرمنه على المدارس الزراعية ، حيث لم يستطع كثير من خريجى المدارس الزراعية الحصول على عمل لهم فى فلسطين ، انظر :

F.O. 371/326. No 40321/62 Jerusalem 16th Nov. 1907.

(٤١) F.O, 78/5208. No 10 Commercial, Jernsalem. 17th May 1901.

(٤٢) F.O. 226/228., Const. 18th July 1906.

(٤٣) جامعة الدول العربية : الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، ص ٧ .

(٤٤) Simon. M , Land Settlement in Palestine. p. 22

(٤٥) جون هوب سمبسون : فلسطين ، ص ٧٥ .

(٤٦) المرجع السابق ص ٥٤ .

(٤٧) حتى عام ١٩٣٠ لم يكن بين مستعمرات الوكالة اليهودية من دفعت شيئاً إزاء المبالغ التى أنفقت عليها من الصندوق القومى اليهودى « الـكارن كايمت » .

— انظر المرجع السابق ص٦٢ .

(٤٨) نجيب نصار : الصهيونية ، ص٤٥ .

(٤٩) F.O. 195/2199. No 53, Jerusalem, 25th. Nov. 1905.

(٥٠) Granovsky, A., Land problem in Palestine. p. 2, 6 and 67.

(٥١) جون هوب سمبسون : المرجع السابق ، ص ٥٤ ، ٦١ .

(٥٢) أنجيلنا الحلو : عوامل تكوين إسرائيل ، ص ٥١ — ٥٤ .

Weingarten, Murray, Life in a Kibbutz. p. 13. (٥٣)

The Ency clo pedia Americana, Edition., 1963. (٥٤)
Vol. 16. p. 11.

(٥٥) جون هوب سمبسون : فلسطين ، ص ٧٩ — ٨٠ .

(٥٦) نجيب نصار : الصهيونية ، ص ٤٣ — ٤٤ .

(٥٧) تأسيس فرع الشركة فى القدس فى سنة ١٩٠٥ من أجل تقوية مصالح اليهود فى المدينة ، وقد ساهم كثير من اليهود الذين لاعلاقة لهم بالصهيونية فىالشركة بهدف النهوض بالعمل اليهودى فى فلسطين ، انظر نجيب نصار : الصهيونية ، ص ٤٥ .

Sokolow., History of Zionism. Vol II. p. 373. (٥٨)

Hyamson, Albert. The British consulate in (٥٩)
Jerusalem. pp. 581—582.

F.O. 195/2355. No 38. Jerusalem, 6th Sep. (٦٠)
1907.

F.O. 195/2255. Jerusalem., 3rd Sep. 1907. (٦١)

رسالة من المتصرف على أكرم قائمقام يافا ، ومالبثت الحكومة المركزية أن طردت رئيس المحكمة التجارية ، وعينت آخر بدلا منه . انظر :

F O. 195/2255. No 53. Jerusalem 22rd oct. 1907.

Bentwich, Norman., Palestine of the Jews· p. 185. (٦٢)

(٦٣) فلسطين : العدد ٢٧١ — ٦٨ فى ١٣ أيلول ١٩١٣ .

Sokolow. op. cit. vol. 11. p. 371. (٦٤)

(٦٥) جون هوب سمبسون : فلسطين ، ص٥٧ .

(٦٦) تقرير اللجنة الملكية لفلسطين ، ص ٦٤ .

Polson, Newman., The Middle East, p. 24. (٦٧)

Hyamson, Albert., Palestine. old and New p. 41. (٦٨)

(٦٩) محمد رفيق ومحمد بهجت : ولاية بيروت — القسم الجنوبى — ص ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢١٥ .

(٧٠) الكرمل : العدد ٣٣٥ فى ٢٣ أيار ١٩١٣ .

(٧١) فلسطين : العدد ٢٨٢ — ٧٩ فى ٢٢ تشرين أول ١٩١٣ ، وانظر العدد ٢٨٣ _ ٨٠ فى ٢٥ تشرين أول ١٩١٣ .

(٧٢) الكرمل : العدد ٤١٩ فى ٧ نيسان ١٩١٤ وانظر فلسطين العدد ٣٠٨-١١ فى ١٨ شباط ١٩١٤ .

(٧٣) فلسطين : العدد ٣٢٥-٢٨ فى ٦ حزيران ١٩١٤ .

(٧٤) الهلال : السنة ٢٢ ج ٧ (أبريل ١٩١٤) ص ٥١٨ .

(٧٥) كيبوتزيم : جمع كيبوتز وتعنى جماعة .

(٧٦) عبد الوهاب كيالى : الكيبوتز أو المزارع الجماعية فى إسرائيل ، ص١٩ _٢٥ .

(٧٧) ابراهيم العابد : الموشاف « القرى التعاونية فى اسرائيل ، ص ١٠ _ ١٢ ، ص ٤ _ ٤٤ .

(٧٨) تقرير اللجنة الملكية لفلسطين ، ص١٨ .

(٧٩) F.G. 195/1806. No 19. Jerusalem.: 29th Abril. 1893. and see also. F.O.195/1786. No 278 Const., 23rd July1893.

(٨٠) رسالة من متصرف القدس إلى القنصل الانكليزى مؤرخة فى F.O. 195/2028 ٢٤ ربيع الآخر ١٣١٦ .

(٨١) F.O. 195/2175., No 63. Jerusalem, 1?th oct. 1904.

(٨٢) F.O·195/2287.. No 1 Jerusalem., 11th January 1978.

(٨٣) Zohn, Harry., The Complete diaries of Theodor Herzl. Vol. I. pp. 88—89.

(٨٤)(٨٥) Statistical Abstract of Palestine, (1944—1946)

(٨٦) Sokolow. op· cit. Vol. II. pp. 329—331.

(٨٧) Lowenthal, Marvin., The Diaries of Theodor Herzl. p. 276.

(٨٨) Granovsky, A., Land problem in Palestine. p. 79 and see also.; Kurt, wilhelm., Roads to zion. p. 187.

(٨٩) محمد رفيق ومحمد بهجت : ولاية بيروت _ القسم الجنوبى _ ٢١٠ .

(٩٠) Curtis, William Eleroy., Today in Syria and Palestine. pp. 328 – 9.

(٩١) Jewish Agency for Palestine. p. 28, 36.

(٩٢) فايز صايغ : الاستعمار الصهيونى فى فلسطين ، ص ١٤ _ ١٥ .

مصادر الدراسة

تعتمد هذه الدراسة أساساً على الوثائق البريطانية المحفوظة فى مكتب السجلات العامة فى لندن خلال الفترة (١٨٤٠ – ١٩١٤) . كما تعتمد على بعض الوثائق العثمانية المحفوظة فى أرشيف رئاسة الوزراء فى استانبول ، وعلى عدد من الدوريات العربية الصادرة فى فلسطين فى فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى مثل جريدة فلسطين (يافا) وجريدة الكرمل (حيفا) . كما استفدت من المراجع التالية :

— Bentwich, Norman., England in palestine. (London, 1932).

— Palestine of The Jews. past present and Future. (London, 1919).

— Conder, Claude Reignier., Tent work in Palestine.(London, 1878).

— Curtis, William Eleroy.· Today in Syria and Palestine. (U. S. A.., 1903).

— Esco Foundation for Palestine., A study of Jewish, Arab and British policies. Vol. I. (U. S. A.,'1947).

— Granowsky, A., Land problem in Palestine (London, 1926)

— Land Settlement in Palestine (London. 1930).

— Halperin; Samuel., The Palitical World of American Zionism. (U. S. A., 1961).

— Herzl; Theodor., The Jewish State. (New Ydrk, 1946)

— Hyamsan, ALbert M., Palestine old and New. (London,1928)

— Palestine The rebirth of an ancient people. (R.S. A., 1919 .

- The British Consulate in Jerusalem (London, 1939.

- Kurt William., Roads to Zion. (New York,?)

- Lowenthal, Marvin.. The Diaries of Theodor Herzl (N. Y., 1956).

- Mande, Neville., Turks, Arabs and Jewish immigration into Palestine. 1882 - 1914. Middle Eastern Affairs No4. pp. 77-708 (OX ford, 1965).

- Menuhin, Moshe., The Decadence of Judaism in our Time. (New York, 1965).

- Oliphant, Laurance., Haifa. or life in Modern Palestine. (London, 1885).

- The Land of Gilead. (London, 1880).

- Palestine Economic Society., The Communistic Settlements in The Jewish Colonisation in Palestine. (The-Aviv. I927).

- Polson: Newman ; E.W., The Middle East (London,1727).
- Rushbrook; Williams L. F., The State of Israel (London,?

- Sokclow, Nahum., History of Zionism. 2 Vols. (London, 1919).

- Stein, Leonard., The Balfour Declaration. (London, 1961).

- The Jewish Agency for Palestine , The Historical connection of the Jewish people with Palestine. (Jerusalem, 1927).

- Weingarten, Murray., Life in a Kibbutz (Jerusalem 1962).

- Zohn, Harry., The complete diaries of Theodor Herzl. 5 vols, (U. S. A., 1960).

- إبراهيم العابد : الموشاف ، القرى التعاونية فى إسرائيل (بيروت ، ١٩٦٨) .

- ألان تايلر : مدخل إلى إسرائيل (بغداد، ١٩٦٥) .

- أنيس صايغ : الهاشميون وقضية فلسطين (بيروت ، ١٩٦٦) .

- بريطانيا العظمى : تقرير اللجنة الملكية لفلسطين (القدس ، ١٩٣٧) .

- جون هوب سمبسون : فلسطين ، تقرير عن الهجرة ومشاريع الاسكان (القدس، ١٩٣٠) .

- عبد الوهاب كيالي : الكيبوتز والمزارع الجماعية في إسرائيل (بيروت، ١٩٦٦) .

- فايز صايغ : الاستعمار الصهيوني في فلسطين (بيروت ، ١٩٦٥) .

- محمد رفيق ومحمد بهجت : ولاية بيروت - القسم الجنوبي - (بيروت، ١٣٣٥ هـ) .

- نجيب نصار : الصهيونية (تاريخها ، غرضها ، أهميتها) ، حيفا ، ١٩١١ م .

وَثائِق وَنصُوص

أضواء جديدة على حرب دارفور (١٩١٦)

من ذكريات « اللواء » على موسى

تقديم : للدكتور محمد المعتصم

مدير اذاعة ركن السودان

« كاتب هذه الصفحات ضابط مصرى اشترك فى الحرب كأركان حرب للحملة التى جردتها الإدارة البريطانيـة فى السودان لغزو سلطنة دارفور والإطاحة بحكم السلطان على دينار . هذا الضابط هو على موسى وكان وقتها يحمل رتبة الملازم أول .

ولد الضابط المصرى على موسى فى مدينة طما من أعمال محافظة سوهاج فى نوفمبر ١٨٨٩ . وتخرج فى المدرسة الحربية عام ١٩٠٩ ، والحق بالعمل فى السودان .. وقد ظل هناك حتى عام ١٩٢١ .

وفى خلال تلك الفترة حصل على رتبتى الملازم أول واليوزباشى (نقيب) وتقلد عددا من الوظائف أهمها نائب مأمور مركز الأبيض ومأمور مركز الرهد فى كردفان وأركان حرب حملة جبال النوبا وأركان حرب حملة على دينار عام ١٩١٦ . ثم قائد لقسم أورطة سودانية فى أعالى النيل ونهر السوباط .

وقد رأت الإدارة البريطانية أن تتخلص من ارتباطاته الوثيقة بأبناء السودان ونشاطه الوطني الذي لم تستطع مصادرته .. فأصدرت عام ١٩٢١ أوامرها بطرده من عمـــله في السودان وعودته إلى مصر . وفي مصر أمضى بضع سنوات مبعدا عن العمل ثم أعيد إلى خدمة الجيش .. وظل يتدرج في وظائفه حتى وصل إلى منصب مدير عام سلاح الحدود وأحيل إلى التقاعد عام ١٩٤٤ برتبة « لواء » .

والصفحات التي يرويها اللواء علي موسى . . تتحدث عن فترة هامة في تاريخ وادي النيل . . وحلقة من حلقات كفاح أبنائه للتخلص من قيود الاحتلال الأجنبي الذي جثم على صدر مصر والسودان في آن واحد في أوائل الثمانينيات من القرن المـاضي . هـذه الفترة التي استمرت أكثر من ثلاثة أعوام .. وأخذت وقائعها وأحداثها في إقليم دارفور .. والتي انتهت بنجاح سياسة الاستعمار الإنجليزي في ضم هذا الإقليم المتسع الأرجاء إلى إدارتها في وادي النيل .

وكان دور الضابط المصري علي موسى في هـذه المرحلة ذا اتجاهين . الأول : ويمليه عليه واجبه كضابط يطيـع أوامر رؤسائه وينفذ تعليماتهم كموظف مسئول في غرب السودان ثم كأركان حرب للحملة التي أعدتها الإدارة البريطانية لغزو إقليم دارفور والقضاء على سلطنة علي دينار . أما الاتجاه الثاني : فهو واجبه كشاب وطني من أبناء وادي النيل اعتقد أن الأمل أمامه كبير للدخول في معركة حربية مع الاستعمار الانجليزي منتهزا فرصة انشغال بريطانيا في الحرب العظمى الأولى داخل أوربا وخارجها .

وفي مطلع عام ١٩١٦ . . تم تكوين الحملة التي أعدتها الحكومة في الخرطوم لغزو دارفور على النحو الذي ترويه الصفحات . وكان قوامها قيادة انجليزية يتولاها الأميرالاي كيلي بك ومعه مجموعة من الضباط الإنجليز ..

ثم قوة مصرية تضم عدداً من الضباط والجنود وذلك بغرض احراج موقف المصريين أمام أبناء السودان عامة وغربيه خاصة وإظهارهم بمظهر المتعاون مع الإنجليز ضد السودانيين . وعزّ على الضابط على موسى أن تكون مصر مخلب قط فى هذه المؤامرة . . وكان وقتها يباشر عمله كأركان حرب لتلك الحملة . . فقرر هو وبعض رفاقه من الضباط المصريين الاتصال بالسلطان على دينار . . وتدبير أمر انضمام قواتهم لقواته ساعة بدء الهجوم .. وبذا تنكشف صنوف الحملة الحكومية . . ويمكن القضاء عليها بسهولة .

ولعل أهم ماترويه هذه الصفحات . . الدور الكبير الذى قام به ضابط مصرى شاب هو الملازم أول محمد عبدالموجود فى سبيل نجاح فكرة انضمام القوات المصرية لقوات السلطان على دينار فقد تطوع هذا الرحل ليذهب بمفرده إلى معسكر على دينار متحملا بعد المسافة ومشقة الطريق وخطورة المهمة فى سبيل نجاح هدف وطنى . لقد دفعه الحماس والإيمان بضرورة طرد القوات الأجنبية من مصر والسودان . . والتخلص من العدو المشترك الذى يسعى إلى أن يحارب المسلم شقيقه المسلم .

وكان إيمـــان الضباط المصريين راسخاً بأن السلطان على دينار سوف يرحب بمعوتهم ويعمل على تنفيذ ما كلفوه بإبلاغه إياه وخاصة أنه سبق أن رحب بالدعوة التى وجهها إليه أنور بك من قبل الحكومة التركية فى ٣ فبراير عام ١٩١٥ — يدعوه فيها إلى الوقوف بقوة فى وجه الإنجليز والفرنسيين والروس أعداء الدين الإسلامى والذين يحاربون الخلافة الإسلامية . ودعاه باسم الدين أن يزود عن معاقله . ولما كانت دعوة الضباط المصريين تهدف أساساً إلى حرب الإنجليز . . وعدم قتل المسلم لأخيه المسلم فقد كان من المتوقع ألا تخيب سفارتهم إلى على دينار .

ولكن الذى حدث كما ترويه مذكرات اللواء على موسى : « هو أن

المخابرات البريطانية التى انتشر رجالها فى صفوف السلطان على دينار .. وكان بعضها من أبناء السودان أنفسهم . . استطاعت إقناع السلطان بأن رسالة الضابط المصرى إليه ماهى إلا خدعة حربية وأن المقصود منها هو احتلال دارفور دون أن تسفك من القوات الغازية دماء تذكر . وقبل السلطان – كما وضح فى هذه الصفحات بعد ذلك – نصيحة مستشاريه الذين كانوا من المخابرات الإنجليزية . . فرفض مهمة الضابط محمد عبد الموجود واحتجزوه أسيراً إلى أن وقعت الواقعة .

وحينما صدرت الأوامر للقوات الحكومية بالتقدم .. تصدى الضباط المصريون الذين كانوا فى مقدمة الحملة لهذه العملية . . وأطلقوا الإشارات المتفق عليها .. والتى كانوا قد أبلغوها للسلطان على دينار عن طريق رسولهم الملازم أول محمد عبد الموجود . . ولكنهم فوجئوا برصاص قوات السلطان تنهال عليهم . . ففهموا على الفور أمر الخطة التى وضعوها لم تنفذ من جانب على دينار . . وأن هناك من الأمور ما عرضها للفشل . . فاضطروا آسفين للرد على النيران بالمثل . وتساقط الضحايا من الفريقين بأعداد كبيرة . . ونجحت خطة السياسة الاستعمارية فى أن يقتل المسلم أخاه المسلم .

ولم يفطن على دينار إلى صدق نوايا الضباط المصريين وخطتهم فى الانضمام إليه والتعاون معه للقضاء على القوات الانجليزية إلا بعد فوات الأوان فلم يستطع أن يفعل شيئاً إلا أن يكرم مبعوثهم الملازم أول محمد عبد الموجود .. ويعيده معززاً مكرما إلى حيث سهل له طريق الهروب إلى الحدود الليبية .

« والملازم أول محمد عبد الموجود كما تروى هذه الصفحات وكما يذكر المعاصرون من معارفه من أبناء صعيد مصر . ولد فى عام ١٨٩٠ .. وأتم

تعليمه الابتدائى ثم رحل إلى القاهرة حيث دخل المدرسة الحربية وتخرج فيها ملازماً ثانياً . وكان تفوقه فى دراسته وسعة اطلاعه وحفظه للقرآن الكريم عوامل فى تفوقه وامتيازه . ولما كان ترتيبه الأول عند التخرج فقد ألحق بالعمل بسلاح السوارى (الفرسان فيما بعد) . وعند تعيينه بالسودان .. ألحق بإحدى وحدات الهجانة . ولم يستقر به المطاف فى منطقة بعينها أكثر من شهور قليلة . . كانت الإدارة البريطانية تنقله فى أثرها إلى منطقة أخرى لما تبادر إليها من معلومات عن وطنيته ومعاداته للاستعمار . واستقر به المقام فى أوائل عام ١٩١٦ فى مديرية كردفان ضابطاً بمركز الأبيض ، وظل هناك حتى تطوع ليكون رسول الضباط المصريين إلى السلطان على دينار ليبلغه خطتهم التى سبق الإشارة إليها . وتروى الصفحات تفاصيل هذا الدور إلى أن قتل فى نهاية عام ١٩١٦ على أيدى عربان الصحراء وهو فى طريقه إلى الأراضى الليبية » .

إن هذه الحادثة التى ترويها الصفحات التى كتبها الضابط المصرى اللواء على موسى عن محاولة اتصال القوات المصرية بقوات على دينار فى حرب دارفور لم ترد فى أى من الكتب أو الأبحاث التى سجلت تاريخ ووقائع هذه الحرب . وهو بهذه الرؤية التى كان أحد أبطالها يكشف الستار عن سر خطير من أسرار هذه الحرب . . يفتح المجال أمام الباحثين ورجال التاريخ لمتابعة البحث فى هذه الموضوعات . . والضابط المصرى — أمد الله فى عمره — يضع نفسه أمام المسئولية التاريخية عن هذه الرواية ، وهو على استعداد لمزيد من الإفاضة والشرح لطلاب البحث التاريخى عن أدوار حرب دارفور عام ١٩١٦ .

* * *

وثمة حقيقة أخرى هامة تكشف عنها هـــذه الصفحات . . وهي

الاستعدادات الكبيرة من جانب السلطات الإنجليزية والمسئولة عن الإدارة فى السودان لتجهيز حملة لغزو دارفور والقضاء على سلطنة دينار . وقد بدأت بخطة وضعها اللورد كتشنر لهذا الغرض تبلورت فى محاولة استمالة على دينار لجانب الإدارة البريطانية فى السودان . . وذلك حين أعلن عام ١٩١٣ عن موافقة الحكومة على قيام سلطنة فى دارفور يتولاها على دينار الذى يترك له حكم البلاد الداخلى . . وتمده الحكومة بمستشارين . . كما يعين عنده مقيم معتمد من لدنها . غير أن على دينار رفض هذا العرض لما فيه من تدخل سافر فى سلطاته وشئون سلطنته .

ولجأت الحكومة إلى وسيلة أخرى لتقليص نفوذه حين أوعزت إلى بعض القبائل القوية داخل دارفور وخارجها بمعاداة على دينار . فهى من ناحية تكشف أسرار قوية ومن ناحية أخرى تشغل باله فى قمع تحركاتها وعدوانها . هذا إلى جانب الزيارات المتتالية التى قام بها كبار المسئولين الإنجليز فى السودان إلى منطقة الغرب فى رحلات تفتيشية واستطلاعية على النحو الذى ترد به الصفحات التى سجلها اللواء على موسى . . والتى تؤكد مدى عناية حكومة الخرطوم الإنجليزية آنذاك فى دراسة خصمها على دينار دراسة وافية قبل الإقدام على شن هجوم عليه .

* * *

وبعد . . فهذه مقدمة موجزة للمذكرات التى كتبها ضابط مصرى . . عاصر أحداث حرب دارفور عام ١٩١٦ بين قوات الحكومة فى الخرطوم وقوات السلطان على دينار . وقد اختار لها صاحبها على موسى اسم « صفحات فى تاريخ حرب دارفور » وهى مكتوبة بخط يده وتقع فى خمسة عشر صفحة من الحجم الصغير . . وهى مودعة بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية .



صفحات فى تاريخ حرب دارفور

مقدمة التمهيد لغزو دارفور

١ — السلطان على دينار كان فى عهد المهدية بالسودان مبعداً عن دارفور ومحددة إقامته بأم درمان طول مدة حكم الدراويش بزعامة الخليفة عبد الله التعايشى الذى تولى الحكم بعد وفاة محمد أحمد المهدى فى سنة ١٨٨٥ (هذا ما سمعناه من كبار المعاصرين) .

٢ — وعقب انتصار الجيش المصرى واسترجاع السودان بالتغلب على قوات الخليفة فى واقعة كررى بأم درمان انتهز الفرصة على دينار وهرب إلى دارفور فى سنة ١٨٩٨ واستولى على السلطة ببلاده من السلطان هارون واستمر يحكم البلاد مستقلا عن حكومة السودان استقلالا ذاتياً ، ولسابق صلته بالفريق رادولف سلاطين باشا السويسرى الجنسية والذى كان سابقاً مديراً لمديرية دارفور التى كانت تابعة للحكومة المصريه قبل ثورة المهدى وكان سلاطين أيضاً أسيراً بالسودان لدى المهدى ثم التعايشى عدة سنوات بأم درمان وقد اعتنق الدين الإسلامى نفاقاً منه وكان دائم الإقامة بالمسجد ويقف على باب المسجد ينادى بالصلاة عند قدوم الخليفة للمسجد وعلى صلة تامة بجميع أفراد القبائل بالسودان ، لهذا قد اتصل بالسلطان على دينار وتحسنت العلاقات وتبودلت الهدايا سنوياً بينهما فكانت حكومة السودان تعتبر هذه الهدايا من مصنوعات سن الفيل والسيوف المذهبة والحلى وغيرها ، تعتبرها جزية منه للحكومة واعترافها بتعيينه ثم ترسل إليه هدايا من أقمشة وبعض المسدسات المطعمة وغيرها أثمن وأكثر من هداياه ، وبهذا استمرت الصلة المتبادلة بينه وبين سلاطين باشا من وقت لآخر على أحسن حال .

٣ ـ وفى سنة ١٩١٣ حصل نزاع بين قوات على دينار وبين رجال قبيلة الزريقات على الحدود وهـــذه القبيلة تابعة له وتقيم فى جنوب غرب دارفور ورجالها فرسان محاربون يملكون آلافاً من الخيول ولهم سيطرة تامة على منطقتهم بين باقى القبائل المجاورة ، وقد احتد الخلاف ونشبت حرب بين رجالها وقوات السلطان على دينار ، سالت فيه دماء غزيرة من قوات الطرفين وانتصرت رجال الزريقات بزعامة شيخهم موسى واد مادبو وهو عم أحمد عقيل زميل لى بسلاح الهجانة بالسودان فى سنة ١٩٠٩ وهو والد الأستاذ عقيل أحمد عقيل الذى درس القانون بجامعة القاهرة ومؤخراً كان نقيب المحامين بالســـودان وتوفى فى أوائل هذا العام سنة ١٩٧٣ .

٤ ـ وعقب انتهاء القتال بين قبيلة الزريقات وقوات على دينار ، حضر مادبو إلى الأبيض عاصمة كردفان فى أول سنة ١٩١٤ ، وأنا كنت وقتئذ نائب مأمور الأبيض ، وطلب الشـــيخ موسى واد مادبو من مدير كردفان الأميرالاى سافيل بك وقال إنه يلتمس أن ينفصل عن حكم على دينار ويتبع هو جميع أفراد القبيلة لحكومة السودان .

٥ - وقد اتصل المدير بالخرطوم يعرض على الحاكم العام التماس الشيخ مادبو وبقى هو منتظراً بالأبيض للرد على طلبه .

٦ ـ وفجأة وفى فبراير سنة ١٩١٤ وصل إلى الأبيض بقطار خاص اللورد كتشنر المندوب السامى البريطانى لمصر والسـودان وبرفقته الفريق رادولف سلاطين باشا مفتش عام السودان ، وقد اســـتقبله بالمحطة مدير كردفان وكبار الضباط البريطانيين والمصريين والأعيان ، وأنا معهم بصفتى وكيل المأمور ، وقد أحضرت له حصاناً يركبه وآخر لسلاطين باشا للمرور

على المدينة وضواحيها والمرافق ويصحبه المدير وكبار الضباط وأنا فى المقدمة لأخلى الطريق ولحفظ النظام .

وقد أقام له الضباط المصريون حفلة شاى بقشلاق الأورطة المصرية وبعد انتهاء الحفلة طلب إلى سلاطين باشا أن أحضر له الشيخ موسى واد مادبو ناظر قبيلة الزريقات الموجود وقتئذ بالأبيض وقال لى أن اللورد كتشنر يريد أن يراه ويقابله بميس الضباط الانكليز بعد الساعة الثامنة مساء .

٧ — وفى الميعاد المحدد أحضرت الشيخ موسى ودخل لمقابلة اللورد كتشنر وأنا انتظرت خارج الغرفة حتى انتهى وعاد ، وقد رافقته إلى سكنه بالمدينة ، ولاحظت أنه غاضب جداً ومنفعل فسألته عن السبب وما حدث فى المقابلة ، فقال : طلب منى اللورد أن أعود إلى دار فور وأكون تابعاً للسلطان على دينار ، فى الوقت الذى كنت أنتظر أن يجاب طلبى كما كنت أسمع هذا من مفتش غرب كردفان المستر ميروك والمستر جيلن والمستر ويلس الذين يعلمون الخلاف والنزاع بينى وبين على دينار وكانوا يستحثوننى على طلب الانفصال واتباع حكومة السودان ، إلى أن قال فكيف يأمر الآن اللورد بغير هذا مع وجود عداء مستمر بيننا ، سال فيه دماء غزيرة ، وكيف يعود وماذا يقول لباقى أفراد القبيلة وقرر لى أنه لن يستجيب لهذا أبداً مهما يكون .

٨ — وفى اليوم التالى عاد اللورد كتشنر ومعه سلاطين باشا بالقطار الخاص إلى الخرطوم ومنها الى القاهرة .

وبعد رحيل اللورد فى فبراير سنة ١٩١٤ حضر إلى الأبيض فجأة أيضاً السير ريجنلد وينجت حاكم عام السودان فى أبريل سنة ١٩١٤ وقد استقبلناه

وزار المدينة وكنت ضمن مرافقيه كالعادة ، وقد استقبل كبار الضباط الانكليز والمصريين والأعيان وخطب فينا وحثنا على القيام بالواجب وعدم التدخل فى السياسة ، وكان يتلو خطبه باللغة العربية من ورقة بيده مكتوبة بالحروف الإنكليزية كاتبها له سكرتيره جاهين جرجس اللبنانى الجنسية حتى يشاع عنه أنه يحسن الكلام والخطب باللغة العربية ، وبعد انتهاء الحفلة عاد فى اليوم التالى إلى الخرطوم ، وكان يمد يده للضباط لتقبيلها ويقول : أنا دائماً أقبل يد الخديوى .

وفى أغسطس سنة ١٩١٤ أعلنت الحرب العظمى وعزل الخديوى عباس حلمى وتولى السلطان حسين كامل الحكم بمصر .

١٠ — وفى أبريل سنة ١٩١٥ حضر للأبيض الأميرالاى شعاته كامل واستقبلناه ، وكان قائداً لسلاح الفرسان بالقاهرة .

وقد دعوناه نحن الضباط المصريين إلى حفلة عشاء بمنزلى وعلمنا أنه جاء بناء على أمر من الحاكم العام لأن المخابرات تقول أن الضباط المصريين فى كردفان يشيعون أخباراً تثير قلاقل وكردفان إقليم منعزل فى قلب الصحراء بعيداً عن ساحل النيل بمسافة ٣٠٠ ميل ، وكان يعتبر منبع الفتن الكثيرة وكان مقراً للمهدى الذى ظهر فيه سنة ١٨٨٢ ومنها تحرك ويخشى من حصول قلاقل وفتنة إلى أن قال إن السردار وينجت قال له : إن الدين الإسلامى يقول : إن الفتنة أشد من القتل — وأخذ ينصحنا بعدم الكلام فى السياسة فى هذه المنطقة الحساسة إلى أن قال ، حتى لا تتكرر مأساة حادثة عرابى وما لحقنا من متاعبها وأضرارها.

فأنا لصلتى به ولأنه كان قائداً لنا أثناء دراستى بالكلية الحربية فى يناير سنة ١٩٠٩ حتى آخر يونية سنة ١٩٠٩ يعلمنا ركوب الخيل وكان رجلا مربياً عطوفاً على الضباط ، فقد قلت له بكل صراحة أثناء الحفلة

والتي كانت تحوى كثير من الضباط ، قلت — إن الإنكليز يعملون على بث التفرقة بيننا وبين الضباط السودانيين .

مما يثير الفتن والمتاعب بيننا ، وضربت له مثل أربعة من كبار الضباط المصريين القدماء ، وزملاء له قضوا فى الخدمة مدة ٢٥ سنة منذ تخرجهم من الكلية سنة ١٨٩٠ حتى الآن سنة ١٩١٥ وهم البكباشى أحمد كامل — البكباشى محمد عبد العزيز — البكباشى حسين راجى — البكباشى محمد حسن الذين اشتركوا فى جميع وقائع السودان حتى دخول الجيش إلى أم درمان ، واستردوا السودان فى سنة ١٨٩٩ ولم يحصل أحد منهم على نيشان تقدير لأعماله ، فرد على وقال : حقيق أنهم ضباط أكفاء وزملاء له ، فقلت له : ولكن الملازم ثانى باباالله أحمد ومدة خدمته عشرون شهراً وقتئذ قد منح نيشان المجيدى الخامس ، والجاويش عبد الله عرب من الأورطة الخامسة عشرة السودانية رقى إلى رتبة الملازم ، ولم يكتفى بهذا بل منح فى ذات الأمر نيشان المجيدى مع أنه يجهل القراءة والكتابة .

أليست هذه الأعمال والتفرقة فى المعاملة ، وهذا التحدى للعدل مدعاة لإثارة النفوس . وطلبت إليه أن ينقل هذا للحاكم العام وسردار الجيش المصرى ، ويقول له ما هو المطلوب من المصريين القيام به لإرضاء الإنكليز عنهم ومعاملتهم بالمثل ، فرد شحاتة بك على وقال — أسكت بلاش هذا الكلام الفارغ ، ووبخنى ، وفى اليوم التالى عاد إلى الخرطوم وكان يظن بعض الزملاء أنه قد يصيبنى ضرراً من هذا ، ولكن بحمد الله لم يحصل لأن الرجل كريم ، وهو أول من كان يظن ويجزم بأن الإنكليز سوف ينتصرون على الألمان ، وفعلا تم هذا وانهزم الألمان وانتصر الإنكليز .

١١ — وفى منتصف سنة ١٩١٥ حضر إلى الأبيض الأميرالاى كيلى بيك

قائد عام الفرسان بشندى وبرفقته المستر هارولد ماكميكل مساعد السكرتير الملكى بالخرطوم ، وكان سابقاً مفتشاً بكردفان بالأبيض دياره ، وتصادف أن دعاه لحفلة شاى فضيلة الشيخ عثمان محمد الخير رئيس القضاة الشرعيين بكردفان ، ودعانى أنا والمأمور توفيق لطفى لحضور الحفلة ، وقد علمنا من المستر ماكميكل بيك لزيارة عرب كردفان حتى مركز السنهود المحدود لمديرية دار فور ولاستكشاف المنطقة ، وفعلا قاما بالرحلة مدة ١٥ يوماً ثم عادا إلى الخرطوم .

١٢ — وفى أول سنة ١٩١٦ أشيع بأن حملة عسكرية كبيرة من قوات الجيش سوف تتجمع فى الأبيض لغزو دار فور .

وفى فبراير سنة ١٩١٦ بينما كنت أقوم بعمل نائب مأمور مركز أم روابة بشرق الأبيض صدر أمر إلى بأنى قد انتدبت أركان حرب حملة النقل لأنضم للقوة التى تشكلت لغزو دار فور ، وعملى هو للنقل بالجمال وتكونت القوة تحت إشرافى من ٤٠٠ عامل ، ٩٠٠٠ جمل وبعض الضباط والجنود لعمل الحراسة أثناء السير بين الأبيض والسنهود ثم دارفود لنقل المؤن والذخيرة والمياه وكل احتياجات القوة لمسافة ٣٠ يوماً بين الأبيض ودرافود وفعلا تجمعت القوة المحاربة من وحدات الفرسان والهجانة والمدفعية وفرقة العرب الشرقية فى كسلا وفرقة العرب الغربية ثم الأورطة العاشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة السودانية والرابعة المصرية .

١٣ — وقامت القوات من الأبيض وتجمعت فى السنهود لغزو دارفود وكنا نحن الضباط غير راضين عن هذا وكان بعض الضباط يصرحون بهذا أمام الجنود ومعهم الملازم محمد عبد الموجود من الهجانة وهو متدين وكذا اليوزباشى محمود ماضى فى فرقة العرب الشرقية وهى من عربان بنى عامر أهالى كسلا والقصارف وهم « متدينون ودائما أغانيهم تواشيح دينية وآيات

قرآنية والملازم عبد الرحمن العرفي وكيل مأمور السنهود وله صلة برجال علي دينار الذين يترددون على السنهود للتجارة وقد قرر مفتش السنهود له بالقيام للأجازة السنوية حتى عند عودته يقوم المأمور بالأجازة فقام ومن بعده صدر أمر إلى الملازم محمد عبد الموجود بنقله إلى الخرطوم لخلاف بينه وبين البكباشي ماكاين وكان عبد الموجود هذا من أهم الضباط الذين نعتمد عليهم في أعمالنا لهذا قيل بأنه بدلا من قيامه إلى الخرطوم يعود بعد مسيرة يوم ضمن حملة السفر إلى طريق دارفود وقد قبل واستعد وأعطيته خريطة تفصيلية عن دارفود وتعليمات وبوصلة ونظارة ميدان وساعة وجمل لاستعماله ثم خادم مخلص يرافقه في سفره وفعلا قام وبعد يومين تصادف أن التقت به داورية شرطة في قسم السنهود أمباشي ونفر وقد افهمهم بنيته وعدم موافقة الضباط محاربة على دينار المسلم وأنه قائم للإتصال به واخطاره بما يتم عند اللقاء للسلام وعدم ترضية لرغبة ألا يفكر وسفك دماء بريئة من المسلمين وطلب منهم أن ينضموا إليه فامتنع الأومباشي وأراد أن يقبض عليه وشهر في وجه السلاح مهدداً بقتله إلا أن عبد الموجود وهو الضابط الماهر في الرماية أسرع وقتل الأمباشي ففر الجندي زميله وكذا خادم عبـــد الموجود وسار عبد الموجود في قلب الصحراء بمفرده إعتمادا على الله وعاد الجندي للسنهود وأبلغ بالحادث وفي الحال قبض على اليوزباشي محمود رياض الذي كان أحد الضباط المدعو عزب سليم من الفرسان قد بلغ الصاغ حافظ رمضان من الفرسان وأركان حرب القوة قيادة الأميرالاي كيلي بيك بلغه ما كان يتحدث به اليوزباشي محمود رياض أمام عساكره من أنه مخالف للدين أن يحارب المسلمون بغرض ترضية لرغبات الانكليز بلغ عنه عزب سليم هذا إلى حافظ رمضان الذي بلغ رئيسه كيلي فصدر الأمر بالقبض عليه فورا ووضع في كلابش حديد تحت حراسة ضابط وعشرين عسكري من الهجانة ونقل إلى الخرطوم ومنها إلى القاهرة وعلى أنه بحال وصوله نقل إلى قشلاق قصر النيل

وسجن به تحت حراسة جنود انكليز حتى سنة ١٩٢٠ دون أى تحقيق ثم طلب إلى الملازم محمود أبو المجد من المدفعية بالقيام فوراً إلى الخرطوم لإحضار فصيلة مدفعية الانضمام إلى القوة بالسنهود وفعلا قام وبحال وصوله الخرطوم قبض عليه وترحل إلى القاهرة حيث أودع سجن قصر النيل ثم حمل بقيام القوات غرباً إلى دارفور لغزوها دون تأخير خشية من حدوث مفاجأة من على دينار بعد هروب عبد الموجود ووصوله إليه وهو الضابط المعروف بقدرته وشجاعته وإيمانه القوى والصياد الماهر فى صيد قطعان الفيله وكان يهاجمها وعلى بعد خطوات ليقتل بعضهما فيفروا من وجهه ويعود هو سالماً وبحيازته أسنانهما وهذا معلوم عنه لهذا عجلت الحملة بالسفر للغزو وكانت التعليمات منا إلى عبد الموجود لتبليغها إلى السلطان على دينار بأنه بحال التقاء القوتين لن يحصل قتال بل ينبغى على الضباط الانكليز وعددهم لا يتجاوز الثلاثين ضابطا ويعلن هذا بجميع المديريات للقبض على الانكليز بكل مديرية واحتجازهم رهائن حتى تجلو بريطانيا عن القطر المصرى والسودانى وفى شهر مايو سنة ١٩١٦ قامت القوة والتقت فى منطقة برنجية بقوة على دينار وبدلا من التلاقى السلم بدأت بالجرى لشدة الهجوم فردت عليها قواتنا بأشد من المدافع والبنادق وتناثرت القتلى حتى أن قائد قوات على دينار المدعو رمضان ورببيه هجم على قواتنا بشدة حتى قتل على بعد خطوات فى صف نيراننا وانتهت الحملة بإنهزام قوات على دينار وكانت مفاجأة مخالفة لما كنا نبغى نتيجة خيانة كما علمنا ذلك أن السلطان على دينار لم يستجب لطلبات محمد عبد الموجود لأن الشيخ بشير واد نصر الشايقى ومن أهالى حلفاية الملوك بالخرطوم بحرى والتاجر بالفاشر وعلى صلة بالسلطات حذره من الاستجابة لطلبات هذا الضابط لأن أولاد الريف (أى المصريون) يريدون أن تمتنع عن الحرب حتى يحتلوا بلادك ويحرموك من الملك فامتثل لنصيحة بشير واد نصر ولم يوافق على طلبات عبد الموجود ولما هزم طلبه واعتذر له وقال له يا ولدى أنه آسف لعدم الموافقة على رأيه ثم أعطاه حملة

وطلب إليه السفر شمالا إلى ليبيا لمقابلة السيد أحمد إدريس السنوسى بالكفره وإخطاره بالحادث للمساعدة .

وأما هو أى السلطان فقد عزم على الرحيل جنوباً حتى يستعد لما يريده الله .

وأما الشيخ بشير واد نصر الشايق قد ركب جواده هو ومن معه واستقبل المستر هارولد ماكيكل وهنأه بالانتصار ، وهذه الحادثة معلومة لكل من بالفاشر وقتئذ واستمر على صلة بالمستر ماكيكل الذى تعين فى الحال للقيام بأعمال مدير دارفور حتى وصل إليها الأميرالاى سافيل بك مدير كردفان وتعين ماكيكل وكيلا له برتبة قائمقام، وأصبح بشير واد نصر عامل المخابرات الأول بدارفور ولولا خيانته ما سفكت دماء بريئة ويستقر الموقف على أحسن حال لصالح الإسلام والمسلمين .

١٤ ــ أما السلطان على دينار فقد أعد حملة ورحل من الفاشر لجهة الجنوب بعيداً من الجيش المصرى ، إلا أن قوة من الهجانة بقيادة الأميرالاى هدستون بيك قائد عام الهجانة ومعه المستر جيلى المفتش المدنى بالفاشر اقتفى أثره واستمر يطارده من مكان لآخر بضعة أيام حتى لحق به ذات يوم فى الفجر ، وفى أثناء أداء على دينار صلاة الفجر هجم عليه بضرب الرصاص حتى قتل هو وبعض من معه ، وعادت الحملة وانتهى تاريخ على دينار .

١٥ ــ وهذا التصرف من الأميرالاى هدستون أغضب كبار رجال الخرطوم وعلى رأسهم حاكم السودان سير وينجت باشا لأنهم كانوا عازمين على طلب اعتماد مالى آخر من حكومة مصر للصرف منه على حملة أخرى والباقى من الاعتماد يضاف لميزانية حكومة السودان كالمتبع لاستنزاف مالية مصر كما يحصل دائماً .

ولهذا صدرت الأوامر بإبعاد هدستون هذا عن الخدمة بالجيش فوراً وإعادته إلى بلاده وحرمانه من الخدمة بالجيش المصرى ، يتمتع بمرتب مجزى كالمتبع مع الإنكليز ، يحضر ملازم بريطانى وفى الحال يمنح رتبة بكباشى ومرتب كبير زيادة عما يعطى لمثله من المصريين .

١٦ — أما محمد عبد الموجود الذى كان من أبناء قرى طهطا والرجل الذى جاهد وسافر أياماً وشهوراً منفرداً فى قلب صحراء وعرة دون أى عون إلا الاعتماد على نفسه وثقته بالله خدمة للوطن ، فقد قامت داورية أخرى برقم ٢٧ (أ) لأن حملة القوة الأولى للحرب كانت تسمى بالداورية ٢٧ .

قامت هذه الداورية بقيادة هدستون بيك ومعه المستر جيلان مفتش الفاشر ومعهم فى الحملة السابقة لى الملازم أول عبد المجيد صدقى والملازم أول من الإشارة بالهجانة محمد طلعت ووصلت بعد بضعة أيام إلى منطقة قبيلة البديات شمال شرق دارفور ، وبإحدى القرى علم للداورية بأن الملازم محمد عبد الموجود توفى بها ودفن وقدم لقائد الحملة سرج جمله ونظارته ويد حلته وباقى ملابسه ، ولما سأل عن سلاحه المسدس والبندقية والذخيرة قيل بأنه لم يوجد معه غير ما تقدم والواقع المعلوم أنه قتل حتى يستولوا على سلاحه لأن هذه القبائل دائماً تعتز بالسلاح للدفاع عن النفس بين باقى القبائل ولا يعتز الواحد إلا بسلاحه وقدرته على الحرب ولهذا قتلوه لأنه مسافر منفرداً وليس معه إلا جمله وكان أمر انهزام على دينار قد انتشر بين القبائل وعلم مآله وقتله .

وهكذا كانت نهاية حياة المجاهد محمد عبد الموجود ضحية وخيانة الشيخ بشير واد نصر ولولا هذه الخيانة التى منعت السلطان من الاستجابة لمطالب محمد عبد الموجود لاستقر الحال وتحقق المرغوب بالسودان من استتباب الأمن والسلام منذ سنة ١٩١٦ وكفى الله المؤمنين القتال .

وكانت الخمور وشراب المريسة محرمة فى عهد السلطان على دينار وكان يحكم البلاد بموجب أحكام الشرع الإسلامى . وبمجال تولى المستر ماكميكل الإدارة المدنية بالبلاد أباح شرب الخمور والمريسة والدعارة وجعل ضريبة رخصة المريسة السنوية عشرة قروش فزادت الجرائم والعربدة ليل نهار وانصرفت الأهالى من الصالح إلى الطالح .

الخلاصة

١٧ – من تتبع هذا التصرف قبل قيام الحملة ومن تعداد الزيارات والاستطلاعات والإيحاء إلى الشيخ موسى ماربو بطلب بالتحرش بقوة السلطان وطلب تبعيته إلى حكومة السودان ثم الأمر إليه بالعودة إلى تبعية السلطان مما جعله يرفض ، وزيارة كيلى بك ومعه المستر ماكميكل إلى المنطقة ودراستها والذى تعين فيها بعد قائداً للحملة ومعه ماكميكل ضابط سياسى بها كل هذا كان للتعرف على قوة على دينار القتالية وبث التفرقة بينه وبين الرزيقات وغيرهم كل هذا يدعو إلى أن الإيقاع بعلى دينار كانت حملة مدبرة انتهت بانهزامه وقتل الكثير من رجاله وانتصار قوة الجيش المصرى بحكومة السودان ، ولو كان امتثل إلى رأى محمد عبد الموجود لما حدث كل هذا القتل وفشلت الخطة التى كنا نبغيها منعاً من سفك الدماء وتخلصنا من الحالة القائمة بالسودان .

١٧ – وأذكر أنه كان لبشير ود نصر هذا شقيق يدعى حمزة ود نصر الذى تعين بالحملة التابعة لى ضابطاً برتبة ملازم ثانى دون سابق خدمة أو مؤهلات وأيضاً قريب له جندى بذات الحملة جاويش يدعى أحمد محمد صالح تعين ضابطاً وهم جميعاً أولاد عم اللواء حامد صالح الملك وأخيه اليوزباشى محمد صالح الملك من الشايقية بحلفاوية الملوك وعرفت اللواء محمد رأفت أنه كان يوزباشى يخدم فى الفاشر فترة من الزمن وكان معه اليوزباشى محمد صالح الملك الذى كان يتجسس على الضباط المصريين ويبلغ عنهم الانكليز بالفاشر .

أما اللواء حامد صالح الملك عندما كان يوزباشى فى سلاح البيادة الراكبة بأم درمان وعقب قتل السردار استاك باشا فى نوفبر سنة ١٩٢٤ وصدرت الأوامر البريطانية بإخلاء السودان من الضباط المصريين والجنود فقد تعين حامد صالح الملك وجنوده فى البيادة الراكبة حرس على جميع الضباط المصريين الذين تم تجمعهم بالخرطوم لترحيلهم إلى القاهرة حتى لا يتصلوا بأى من الأهالى وقام بعمله فى حراسة الضباط فى حين أن بعضاً من الضباط السودانيين عندما علموا بهذه الأوامر أى ترحيل الضباط المصريين وجنودهم من الخرطوم قاموا مع بعض من الجنود السودانيين وهاجوا بالسلاح قوة الجيش البريطانى بالخرطوم وتبادلوا معهم النيران وقتل البعض من الطرفين احتجاجاً واعتراضاً على هذا التصرف، المخالف لمصالح البلاد والعباد ومنهم الملازم حسن فضل المولى وعلى البنا والسيد فرج والمعز وتحاكموا بعضهم بالإعدام والبعض بالسجن ١٥ سنة ، وقبلوا هذه الأحكام دون أن يستجيبوا لولاية الإنكليز وهذا نوع من حب الوطن والدين والإخلاص فى العمل للحقيقة والتاريخ ، ولو أن بعد هذا حضر للقاهرة فى سنة ١٩٤٨ الأميرالاى حامد صالح الملك على رأس قوة سودانية واشترك فى حرب فلسطين مع الجيش المصرى ورقى فيما بعد إلى رتبة اللواء وهو وجميع أفراد أسرته الضباط من الشايقية وهم كثير يحصلون على معاشهم هم ومن بعدهم أفراد أسرهم من الحكومة المصرية ، ولكن هذا ما يدونه التاريخ لأفراد من الشايقية بخلفاية المكوك بالسودان .

نقد الكتب

اسم المؤلف : Samuel Rolbant

عنوان الكتاب :

The Israeli Soldier; A profile of an Army.

الناشر : Thomas Yoseloff, London, 1970

عرض : محمد عبد الرءوف سليم

يدرج هـــذا الكتاب – ضمن قائمة طويلة من الكتب التى أصدرتها إسرائيل ، أو ساهمت فى إصدارها ، أعقاب يونيو ١٩٦٧ بهدف إيهام الرأى العام العالمى بأن إسرائيل تمتلك قوة ضاربة لاتقهر .

وكان المثقفون العرب بعد قراءة هذه الكتب أو بعضها – تزداد معاناتهم من داء التمزق النفسى والوجدانى الذى انتابهم بعـــد المواجهة العربية الإسرائيلية الثالثة ، غير المشرفة .

لم يكن هناك يأس ولكن واقع الهزيمة كان مريراً .

وكان تحت الرماد جمر .

والآن – وقد استعدنا ثقتنا بأنفسنا بعد أكتوبر ١٩٧٣ ، علينا أن ندرس أبعاد الصراع العربى بأسلوب جديد . إن ذلك يضعنا أمام معضلة صعبة ، نريد من جهة أن نضع نصب أعيننا حقيقة الموقع الذى ننطلق منه فى دراستنا لمجتمع يناصبنا العداء ، ومن جهة ثانية ، نشترط على أنفسنا عدم الابتعاد عن نطاق الموضوعية ومعطيات الواقع الراهن ، حتى يتسنى لنا بالتالى فهم المجتمع العدو على حقيقته .

ولابد من الإشارة إلى أن هناك دراسات عربية ما زالت ترزح تحت

وطأة التكهن ، وتنساق وراء الأهواء والعواطف ، وتتردى فى منزلقات تفسيرية خطرة للغاية . فإما أن يكون هناك مبالغة فى تقدير قوة العدو ، وإما أن ينتابنا الغرور فى تقدير قوتنا .

والكتاب الذى نعرض له الآن - يحوى الكثير عن أسس بناء الجيش الإسرائيلى والنظم العسكرية الإسرائيلية . ورغم أن مؤلفه — صمويل رولبانت — كتبه وقت أن سادت بين الإسرائيليين نشوة الانتصار السريع الذى حققوه فى يونيو ١٩٦٧ ، إلا أن هناك قضايا ومسائل تبرز ماثلة للعيان أمام قارىء الكتاب .

أما صمويل رولبانت ، فقد درس العلوم السياسية فى جامعة لندن ، وعين عضواً فى المجلس الاستشارى للتعليم فى القوات العسكرية البريطانية أثناء الحرب العالمية الثانية ، كما حاضر فى مجموعات من أفراد الجيش الثامن الأمريكى وقت أن كان مرابطاً فى بريطانيا .

وقد عمل صمويل رولبانت فى القوات الاحتياطية بالجيش الإسرائيلى كضابط معلم ، وحاضر فى المبعوثين من الخارج للدراسة فى الجامعة العبرية فى مادة « الحضارة الإسرائيلية » ، فضلا عن أنه ألقى محاضرات فى الأكاديمية التعليمية التابعة للجيش الإسرائيلى بالقدس .

وقد صدر لصمويل رولبانت بعض المؤلفات باللغة العبرية ، كان آخرها كتاب بعنوان « دولة إسرائيل فى المجال العلمى » ، وقد نشر فى ١٩٦٨ .

وقد تدخلت مقننات معينة فى تشكيل طبيعية تكوين الجيش الإسرائيلى ، منها العمق الاستراتيجى لدولة إسرائيل . وقد سعى بعض المفكرين إلى تعريف الاستراتيجية بأنها فن تحريك القوات ، كما أن جوهر العمق الاستراتيجى يكمن فى خلق حيز واسع من الأرض والبحر بين القواعد

الرئيسية التى تمون وتسير عجلة المجهود الحربى . وقد أصبح العمق الاستراتيجى ضروريا للنجاح فى أى حرب حديثة تستخدم فيها القوات الميكانيكية والجوية والصاروخية ، كما أن العمق الاستراتيجى يساعد فى العمل كمخفف صدمة لامتصاص الضربات المعادية حتى تتهيأ الفرصة لتوجيه الضربات المضادة .

وقد كان لظروف إسرائيل من ناحية شكل الدولة وحجم القوة البشرية، وكونها محاطة بدول معادية أثره فى كيفية بناء الجيش الإسرائيلى .

ذلك أن رقعة إسرائيل - قبل يونيو ١٩٦٧ - بلغ اتساعها ٢٠,٧٠٠ كم٢، تمتد على مدى طولى يصل إلى ٢٦٥ ميلا ، كما أن إجمالى طول حدودها البرية يبلغ ٥٩٠ ميلا . وكان عرض أوسع جزء فى تلك الرقعة ٧٠ ميلا ويقع جنوبى بئر السبع . ويأخذ هذا العرض فى الانكماش فى اتجاه الجنوب حتى إيلات على شكل مثلث حيث يبلغ ستة أميال تقريبا . ويصل أدنى عرض لها إلى ١٤ كم فى المنطقة المحصورة بين قلقيلية فى الضفة الغربية لنهر الأردن وتل أبيب .



وهكذا أصبحت الدولة تعيش على شريط طويل من الأرض يقل عرضه فى بعض الأجزاء إلى درجة كبيرة الأمر الذى لا يوفر لها العمق الاستراتيجى الكافى .

وتزداد المشكلة حدة إذا وضع فى الاعتبار أن المدن الكبرى ليست بعيدة عن الحدود . فتبعد حيفا حوالى ٢٥ ميلا عن أقرب نقطة على الحدود مع الأردن ، بينما تبعد تل أبيب ١٢ ميلا فقط .

ولو نظرنا للطاقة البشرية الإسرائيلية ، نجد أن تعداد إسرائيل الذى بلغ حتى نهاية ١٩٦٣ ما يقرب من ٢٫٤٠٠٫٠٠٠ نسمة لا يسمح بالاحتفاظ بقوات عسكرية ذات حجم كبير .

أما من الناحية الاقتصادية ، فإن إسرائيل لا زالت حتى الآن تعتمد فى معادلة ميزانيتها على المساعدات الخارجية . ويمكن القول أن افتقار إسرائيل إلى الموارد الطبيعية لن يمكنها من بناء اقتصاد متين فى وقت قريب . ولا شك أن ذلك لن يسمح بتوفير النفقات المالية اللازمة لإنشاء قوات ذات حجم كبير .

من هذه اللمحة السريعة يتضح بجلاء أن الهالة التى أحاط مؤلف الكتاب الجيش الإسرائيلى بها ترتكز على أساس هزيل .

ويتعرض المؤلف للأسس العسكرية لتكوين جيش «الدفاع» الإسرائيلى ، فيشير إلى منظمة هاشومر ، ثم الكتائب الصهيونية الثلاث التى تكونت أثناء الحرب العالمية الأولى ، والتى تحولت فيما بعد إلى المنظمة العسكرية الارهابية المسماه بالهاجاناه أى « قوات الدفاع » . وكان يقوم على إدارتها مجموعة منتخبة من قيادات الوكالة اليهودية فى فلسطين، والمجلس الوطنى ليهود فلسطين « فأد لئومى » . ثم اعتمدت الخبرة العسكرية ليهود فلسطين قبل ١٩٤٨ على المنظمات الارهابية الأخرى - الإرجون واشترن وغيرها ، وعلى اليهود الذين تطوعوا فى صفوف القوات البريطانية أثناء الحرب العالمية الثانية .

وفى صيف ١٩٤٢ ، وعندما كان روميل يتجه بقواته نحو مصر ، نشأ تعاون بين القوات العسكرية البريطانية والهاجاناه . فقد درب البريطانيون مجموعات طلائعية يهودية على أعمال الكوماندوز ، ونتج عن ذلك تكوين قوة ضاربة متحولة . كذلك دربت مجموعات يهودية أخرى على الهبوط بالمظلات ، والاتصالات اللاسلكية ، والأعمال التخريبية . يضاف إلى ذلك أن بعض يهود فلسطين دربوا على العمل كطيارين فى القوات الجوية الملكية البريطانية ، وقد شارك هؤلاء فى مراحل مختلفة فى أوربا أثناء الحرب العالمية الثانية ، وعلى ذلك فلم يكن غريباً أن تكون نواة القوات الجوية الإسرائيلية من ٩ طائرات ، وخمسة وعشرين طياراً - دربوا قبل قيام دولة إسرائيل بأعوام .

وهكذا — فإن المؤلف يكشف دور البريطانيين فى وضع أسس التكوين العسكرى الإسرائيلى ، فقد تركوا المنظمات الإرهابية اليهودية فى فلسطين تمارس عملها ، ثم سمحوا لبعض الشبان اليهود بالتدريب العسكرى على أحدث فنون القتال أثناء الحرب العالمية الثانية ، كما شاركوا عمليا فى خلق نواة القوات الجوية الإسرائيلية .

وقبيل نشوب القتال عام ١٩٤٨ ، أعلن عن تشكيل جيش الدفاع الإسرائيلى ، بعد أن اندمجت مختلف المنظمات والعصابات الإرهابية والجمعيات السرية اليهودية إلى جانب اليهود الذين دربوا فى الجيش البريطانى أثناء الحرب العالمية الثانية .

وقد بدأت السلطات الإسرائيلية فى أعقاب قيام الدولة فى تنظيم القوات الإسرائيلية بهدف القضاء على الصراعات والمنازعات على السلطة بين المنظمات الإرهابية المختلفة .

وتتخذ الخدمة العسكرية فى إسرائيل أربعة أشكال هى الخدمة الدائمة ، والخدمة الإجبارية ، وخدمة الاحتياط ، وخدمة الدفاع المدنى .

أما الخدمة الدائمة ، فتضم الضباط وضباط الصف والفنيين الذين يقبلون الخدمة بالتطوع لمدد طويلة بالقوات المسلحة الإسرائيلية . ويكون هؤلاء أساس الجيش الإسرائيلى، ويتولون قيادة الجيش ، وتدريب القوات المحاربة، والإدارة والأعمال الفنية التى تحتاج لمستوى عال من الخبرة ، ومنها دراسة وتطوير النظريات الحربية بما يتفق مع الاستراتيجية الإسرائيلية .

ويخضع جميع المقيمين فى إسرائيل بصفة دائمة لقانون الخدمة العسكرية الإجبارية . غير أن العرب لا يجندون ، وإنما يقبل تطوعهم فى حدود ضيقة جداً .

وقد نظمت وحدات الاحتياط على أساس إقليمى لتسهيل التعبئة ، ولها

كادر صغير من الأفراد النظاميين يتكون من القائد والكتبة وأفراد الصيانة. وتنقسم وحدات الاحتياط إلى وحدات الخط الأول وتضم الاحتياطيين حتى سن ٣٩ سنة ، ووحدات الخط الثانى وتضم الاحتياطيين حتى سن ٤٥ سنة .

ولما كانت طبيعة الصراع العربى الإسرائيلى تفرض حاجة الإسرائيليين إلى توجيه ضربة مفاجئة للعرب تبعاً لنظرية «فرض السلام بالقوة العسكرية» التى نادى بها بن جوريون ، ووجوب أن تكون المواجهة المسلحة مع العرب خارج حـــدود الدولة الإسرائيلية بسبب ضحالة العمق الاستراتيجى الإسرائيلى، فإن مبدأ سرية التعبئة يصير على درجة بالغة الأهمية مع الإسراع فى إنجاز التعبئة السرية قبل تسرب أخبارها إلى الخارج .

أما خدمة الدفاع المدنى — أو الحرس الوطنى — فينتظم فيها الرجال فقط من سن الخامسة والأربعين حتى التاسعة والأربعين . وتشكل منهم فرق الإنقاذ والإسعاف وإطفاء الحريق التى يكونها جهاز الدفاع المدنى الخاضع لإشراف وزير الداخلية .

على أن اعتماد الجيش الإسرائيلى أساساً على المدنيين ، وخوض هـذا الجيش قتالا طويلا ، من شأنه أن يشل الاقتصاد الإسرائيلى ، ويلحق بالبلاد خسائر مادية جسيمة .

اسم المؤلف : Amos Perlmutter

عنوان الكتاب :

Military and Politics in Israel; Nation—Building and Role.

الناشر : Epansion, London, 1969.

عرض : محمد عبد الرءوف سليم

عاموس بيرلمتر كاتب صهيونى من مواليد تل أبيب ، حصل على درجة البكالوريوس ، ثم نال درجتى الماجستير والدكتوراه من جامعة كاليفورنيا ، وعمل عضواً فى لجنة الطاقة الذرية التابعة لوزارة « الدفاع » الإسرائيلية . ثم عمل باحثا زائراً فى معهد الدراسات الدولية فى جامعة هارفارد بين عامى ١٩٦٥ و ١٩٦٧ ، ثم باحثا زائراً فى مركز الشئون الدولية بنفس الجامعة . ونشرت له دراسات فى بعض الدوريات المتخصصة مثل Middle East Journal & World Politics وقد اشترك عاموس مع موشى لوزاك — الأستاذ بالجامعة العبرية بالقدس — فى وضع كتاب عن الفروق بين الشخصيات العسكرية والمدنية فى إسرائيل .

وفى الكتاب الذى نعرض له الآن ، يناقش عاموس مسائل هامة ، قل من تعرض لهـــا بالتفصيل الذى عالجها به ، وهى تحديد العلاقة بين القوى العسكرية والاتجاهات السياسية فى إسرائيل . وينتهى إلى أن القيادات العسكرية تدين دائماً بالولاء للسلطة المدنية ، وإلى أن الروح العسكرية تمكن الصفوة المحنكة والمجربة من أن تلعب دوراً هاماً فى الحياة المدنية ، حتى أن

بعض العسكريين القدامى أمثال موشى ديان وإيجال آلون وغيرهما بروزا بنجاح فى الحياة السياسية فى إسرائيل . أى أن الحياة اليومية فى المجتمع الإسرائيلى — منذ تكوين دولة إسرائيل — هى نتاج تواؤم عملى بين القيادات المدنية والعسكرية .

غير أن القلم يلتوى بالمؤلف ، فيقوده إلى مسالك متشعبة ، تغرق القارىء فى تفصيلات فرعية عن التكوينات العسكرية الإسرائيلية منذ مطلع القرن الحالى ، والمراحل التى مرت بها حتى تكون الجيش الإسرائيلى الحالى .

ومع نشوب الثورة الفلسطينية الكبرى (١٩٣٦ — ١٩٣٩) ، بدأت الهاجاناه ، بقيادة إسحق ساده ، توسع من قاعدة نشاطها بحجة مساعدة القوات البريطانية على قمع الثورة .

وفى هذه الأثناء تكونت قوة محاربة للحراسة الليلية حملت اسم Ha—Nodedat وهى أول وحدة عسكرية تكونت من شباب الكيبوتزات ، واستخدمتها قيادة الهاجاناه فى الأعمال الانتقامية الوحشية أثناء مهاجمة مراكز الثورة العربية .

واستمر التعاون البريطانى فى المجال العسكرى حتى قامت الحرب العالمية الثانية ، فتلقى عديد من الشبان اليهود تدريبات عسكرية على أحدث فنون القتال ، وقد أشرف بن جوريون — المسئول عن الدفاع والأمن فى الوكالة اليهودية فضلا عن مسئوليته كرئيس للهاجاناه — أشرف على هذا التدريب .

وفى نفس الوقت ، تكونت فى فلسطين منظمات إرهابية يهودية منها « الأرجون زفاى لئومى » ، و « لئومى حاروت إسرائيل » أى « المحاربون من أجل حرية إسرائيل » ، و « شترن » ، و « البالماخ » .

ثم عمل إسحاق ساده على تكوين كتائب يتفرغ أعضاؤها للعمل

العسكرى ، وتكون نواة الجيش الإسرائيلى ، فساعده جولومب – قائد الهاجاناه وقتئذ – وموسى سنيه رئيس أركانها .

غير أن النواة الحقيقية للجيش الإسرائيلى كانت من رجال البالماخ . فأثناء حرب ١٩٤٨ كان ثلاثة من أعضاء البالماخ من بين إثنى عشر ضابطاً يهودياً يحملون رتبة لواء ، كما كان إيجال آلون آمراً للجبهة الجنوبية التى كانت مكونة من ثلاث كتائب من رجال البالماخ ، كذلك كان عشرون من رجال البالماخ من بين خمسة وأربعين ضابطاً يهودياً يحملون رتبة عقيد ، وكان من بين الضباط اليهود الذين حملوا رتبة مقدم وملازم أربعين فى المائة من رجال البالماخ . يضاف إلى ذلك أن ثلاثة من ضباط البالماخ تقلدوا على التوالى منصب قائد عام الجيش الإسرائيلى وهم موشى دايان (٥٣ - ١٩٥٧) ، وإسحق رابين (٦٣ – ١٩٦٧) ، وحاييم بارليف أوائل عام ١٩٦٧ وفى الأعوام الأربعة التى تلته .

وقبل إعلان قيام دولة إسرائيل ، عمل بن جوريون على توحيد المنظمات العسكرية الإرهابية فى فلسطين فى جيش منتظم تلافياً لحدوث صراعات على على السلطة فيما بينها . وبعد تكوين دولة إسرائيل ، أصبح بن جوريون رئيساً للوزراء ووزيراً للدفاع ، فعمد إلى تحديد مسار العلاقة بين السلطات المدنية والعسكرية . وقد اشترط بن جوريون لتوليه وزارة الدفاع أن يدين الجيش بالولاء للحكومة ، وأن يتوقف أعضاء الهاجاناه عن ممارسة نشاطهم بصفة عامة ، وأن يكون من حق السلطات المدنية - وليست العسكرية - تقرير حالة الحرب أو السلم فى إسرائيل ، كما يكون لوزير الدفاع حق إصدار الحكم النهائى فى مسائل الصراع بين المدنيين والعسكريين ، وحق التحكم الدائم فى تحديد مستويات ضباط الجيش مهنياً ، كما أن صنع القرار فى مسائل السياسة الخارجية والنواحى العسكرية ، يتم عن طريق لجنة ائتلافية من المدنيين والعسكريين يختارهم وزير الدفاع ويرأسهم .

وفى الوقت نفسه عمل بن جوريون على إبعاد الجيش عن الحياة الحزبية ، فتولى بنفسه سلطة الموافقة على التعيينات والترقيات فى رتب الجيش العسكرية الكبيرة .

غير أن السياسة التى انتهجها بن جوريون لتلافى أى صراعات قد تحدث بين القيادات العسكرية والمدنية ، أحدثت ردود فعل عنيفة بعد تخليه عن الحكم عام ١٩٥٣ ، نجم عنها تضاد عنيف فى الآراء حول اختصاصات وزير الدفاع فى مواجهة قيادة الجيش الإسرائيل وبصفة خاصة رئيس أركانه ، والبناء التنظيمى للجيش ، وطبيعة السلاح الذى يستخدمه ، وأبعاد الحرب التى يمكن خوضها مع العرب . وقد طفا ذلك التضاد على السطح مع تولى لافون منصب وزير الدفاع خلفاً لبن جوريون ؛ رغم أن جذوره كانت ضاربة فى أعماق الدولة الإسرائيلية منذ قيامها .

لقد كان هناك اتجاهان مختلفان حول الصراع العربى الإسرائيلى : إتجاه مبنى على استخدام القوة العسكرية ، ويقوده محور بن جوريون — دايان ، واتجاه قوامه الأمل فى إيجاد تقارب إسرائيلى — مصرى ، ويقوده موشى شاريت . غير أن الأحداث السياسية التى مرت بها منطقة الشرق الأوسط وقتئذ قوت من مركز بن جوريون ، وقد حددها المؤلف فى عدة نقاط هى : فشل التقارب المصرى الإسرائيلى ٥٣ — ١٩٥٤ ، وتولى عبد الناصر السلطة كاملة فى مصر فى أواخر عام ١٩٥٤ ، وإحجام الدول العربية عن الاشتراك فى حلف بغداد ما عدا العراق ، وحرمان إسرائيل من الاشتراك فيه ، وفشل سياسة دالاس فى الشرق الأوسط بشكل أدى إلى تقوية القوى التقدمية العربية بقيادة عبد الناصر ، ونجاح مصر فى كسر احتكار السلاح ، ومساندة الاتحاد السوفيتى للعرب ، وإغلاق قناة السويس فى وجه الملاحة الإسرائيلية ، ثم بدء الصراع بين سوريا وإسرائيل على تحويل مياه نهر الأردن .

ويقول المؤلف أن هذه الأحداث أبرزت احتمال قيام الدول العربية بعمل عسكرى عربى موحد ضد إسرائيل . حقيقة أن المعتدين فى إسرائيل استبعدوا حدوث هذا الاحتمال ، إلا أن الرأى انتهى إلى ضرورة استخدام الجيش

فى تأكيد السلام لإسرائيل ، من خلال استخدام «عاقل وحكيم» للقوة المسلحة، وكان ذلك يعنى - حسب مفهوم بن جوريون - قيام قوات إسرائيلية مدربة بأعمال انتقامية مركزة ضد الخطوط الأمامية العربية ، مع مواكبة ذلك بالاستعداد لحرب شاملة مع العرب . وقد كانت هذه الأفكار تموج فى مخيلة بن جوريون حين عاد إلى منصبه كوزير للدفاع فى ٢٢ فبراير عام ١٩٥٥ ، وحين عاد لرئاسة الحكومة فى ٤ نوفمبر من نفس العام . وكان الموقف حسب تصوره تحده ثلاثة أبعاد رئيسية هى : أن التغيير الجذرى فى قوى الشرق الأوسط يجرى لصالح العرب ، وازدياد قوة عبد الناصر بعد عقد صفقة الأسلحة التشيكية ، وتبنى الاتحاد السوفيتى للسياسة المساندة للعرب . وقد عمد بن جوريون - فى مواجهة هذا الموقف - إلى توسيع قاعدة الجيش الإسرائيلى، والقيام بهجمات عسكرية مركزة وقوية ضد نقاط الحراسة الأمامية المصرية ، والتوسع فى الصناعات الحربية على أمل ردع القوة العسكرية العربية النامية .

ويؤكد المؤلف أن عامى ١٩٥٥ — ١٩٥٦ ، كانا عامى الإعداد للصدام مع المصريين ؛ لقد أراد بن جوريون أن يفاجىء العرب بعمل عسكرى واسع النطاق ، ثم كانت حرب السويس التى كان الاشتراك الإسرائيلى فيها فرصة عظيمة بالنسبة له .

وبعد تخلى بن جوريون عن الحكم ، فسدت العلاقة بين قيادة حزب الماباى والعسكريين ، فعمد بن جوريون إلى مساندة موشى ديان - تلميذه المخلص - غير أن ذلك لم يخفف من حدة الخلاف بينه وبين ليفى أشكول حتى استقال دايان من منصبه كوزير للزراعة فى وزارة أشكول .

ومهما يكن من أمر هذا الكتاب ، فإنه يحدد أبعاد العلاقة بين المؤسسة العسكرية والمؤسسات المدنية فى إسرائيل ، وذلك أمر بحاجة إلى مزيد من الدراسة والبحث ، بشكل يفيد فى التعرف على التناقضات الأساسية فى المجتمع الإسرائيلى .

Humphrey Trevelyan: The Middle East in Revolution.
Mac Millan, London 1970.

يقع هذا الكتاب فى ٢٧٥ صفحة ومؤلفه لورد تريفليان لعب دوراً بارزاً فى السياسة البريطانية بالشرق الأوسط فى فترة من أدق فترات تاريخ المنطقة فقد كان سفيراً لبريطانيا فى مصر ١٩٥٥ - ١٩٥٦ ، وفى العراق من ١٩٥٨ - ١٩٦١ ثم استدعى من التقاعد ليشغل منصب المندوب السامى فى عدن ١٩٦٧ ليتولى ترتيب جلاء القوات البريطانية من هناك . ومن ثم شهد المؤلف فترة حرب السويس التى كانت ذروة الأزمة السياسية بين مصر وبريطانيا ، وطرد من مصر بسبب تلك الحوادث ثم شهد حكم عبد الكريم قاسم بالعراق حتى نزول القوات البريطانية بالكويت فى ١٩٦١ واتهمه عبد الكريم قاسم بتدبير ثورة كردية ضد نظام حكمه .

والكتاب عبارة عن مذكرات اللورد تريفليان فى المواقع التى مثل فيها بلاده فى المنطقة ، وقد قسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام : أولها بعنوان « القاهرة ١٩٥٥ - ١٩٥٦ » وثانيها بعنوان « بغداد ١٩٥٨ - ١٩٦١ » وثالثها بعنوان « عدن ١٩٦٧ » وكل قسم ينقسم بدوره إلى عدد من الفصول يعالج كل منها حدث بذاته . وقد اعتمد المؤلف فى هذا الكتاب على تجربته الذاتية وقد ذكر فى مقدمة كتابه أنه التزم الموضوعية التامة فيما عالجه من حوادث وخاصة أنه لا يميل إلى اتجاه سياسى معين قد يؤثر على أحكامه .

والكتاب بالغ الأهمية لدارسى تاريخ العرب المعاصر ، فرغم تأكيد المؤلف على التزام الموضوعية إلا أن الكتاب يمثل وجهة النظر البريطانية فى أدق فترات تاريخ المنطقة ، ولا غنى للمؤرخ من الاستفادة به فى غيبة الوثائق البريطانية الخاصة بتلك الفترة .

د . رءوف عباس

Aaron S. Klieman : Foundations of British policy in the Arab World : The Cairo Conference of 1921.

The Johns Hopkins Press, Baltimore and London 1970.

يقع هذا الكتاب فى ٣٢٢ صفحة ، ومؤلفة عمل محرراً لمجلة الشئون الدوليـــة Journal of International Affairs ونال درجة الدكتوراه فى الشئون الدولية من جامعة جون هوبكنز ثم أصبح محاضراً بجامعة تل أبيب . والكتاب عبارة عن رسالة الدكتوراه التى حصل بها المؤلف على الدرجة العلمية ، وقد اعتمد فى كتابة بحثه على الوثائق البريطانية المودعة بدار المحفوظات العامة PRO أو بوزارة الهند India Office وهى أوراق بجلس الوزراء البريطانى وأوراق وزارة المستعمرات ووثائق الخارجية البريطانية المتعلقة بالموضوع وهى جميعاً وثائق لم يسبق نشرها ، هذا بالإضافة إلى الوثائق المنشورة الخاصة بالحرب العالمية الأولى ، والعديد من المذكرات التى كتبها بعض من شاركوا فى صنع الحوادث فى تلك الحقبة سواء من العرب أو الإنجليز أو الفرنسيين أو اليهود ، وبعض الأوراق الخاصة كأوراق هربرت صمويل المودعة بدار الوثائق الإسرائيلية وأوراق دافيد لويد جورج وبلفور والفرد ملنر ، وأوراق وايزمان الموجودة بإسرائيل ، كما أجرى المؤلف مقابلات خاصة مع بعض كبار الموظفين البريطانيين الذين شغلوا مناصب بالمنطقة خلال الفترة السابقة على عقد مؤتمر القاهرة ١٩٢١ .

وقد عالج الكتاب الأفكار المتواترة الخاصة بالبلدان العربية والتى برزت خلال الحرب ، ثم موقف مؤتمر السلام من البلاد العربية ورد الفعل

فى المنطقة ، ثم التمهيد لمؤتمر القاهرة باجتماع عقد فى لنـدن ، ثم مؤتمر القاهرة ١٩٢١ ، وقد ناقش المؤلف أوضاع العراق وفلسطين وشرق الأردن فى فصول مستقلة بذاتها ، ثم أنهى بحثه بخلاصة عالج فيها تأثيرات مؤتمر القاهرة على مجرى السياسة البريطانية بالمنطقة خلال فترة ما بين الحربين والحرب العالمية الثانية فيذهب إلى أن أصول المشاكل المعاصرة التى يعانى منها الشرق الأوسط ، مثل : عدم الاستقرار السياسى ، وأزمة المؤسسات الديمقراطية ، والنزاع بين الساسة العرب وبعضهم البعض ، والصراع العربى الإسرائيلى إنما تضرب بجذورها فى تلك الفترة المبـكرة الحاسمة .

د . رءوف عباس

أنباء ومؤتمرات

أنبــــاء ومؤتمرات

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

١ — ندوة عن المؤرخ المصرى « ابن إياس »

أقامت الجمعية هذه الندوة فى الفترة بين ١٦ — ٢٠ /١٢ / ١٩٧٣ وألقيت فيها البحوث الآتية :

١ — الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم :
المؤرخ المصرى ابن إياس

٢ — الأستاذ محمد عبد الله عنان :
إبن إياس والفتح العثمانى لمصر

٣ — وفد الجمعية العراقية للتاريخ والآثار :
إبن إياس ومنهجه التاريخى

٤ — الأستاذة الدكتورة سيدة كاشف :
مكانة ابن إياس بين مؤرخى مصر فى العصور الوسطى

٥ ـ الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور :
التدهور الاقتصادى لدولة المماليك فى ضوء كتابات ابن إياس .

٦ ـ الأستاذ الدكتور حسن أحمد محمود :
البعثات الدبلوماسية لدولة سلاطين المماليك كما وصفها ابن إياس .

٧ ـ الأستاذ الدكتور عبد المنعم ماجد :
التعبيرات الحضارية عند ابن إياس .

٨ ـ الأستاذ الدكتور عبد الرحمن سعد :
ابن إياس واستخدام الأسلحة النارية فى ضوء ما كتبه فى كتابه بدائع الزهور .

٩ ـ الأستاذ الدكتور عبد العزيز محمد الشناوى :
ابن إياس والسنوات الأولى من الحكم العثمانى .

٢ ـ الموسم الثقافى :

وقد أقامت الجمعية حفلين لتأبين علمين من علماء التاريخ فقدتهما البلاد فى العام الماضى .

* الحفل الأول بتاريخ ١٩٧٤/١/٢١ لتأبين المرحوم الأستاذ الدكتور أحمد فخرى وألقى خطاب التأبين الأستاذ الدكتور محمد جمال الدين مختار .
* الحفل الثانى بتاريخ ١٩٧٤/٢/٢٥ لتأبين المرحوم الدكتور حسن عثمان وألقى خطاب التأبين الأستاذ الدكتور محمد محمود السروجى .

المحاضرات العامة :

(١) الدراسات العربية فى اليابان :
للدكتور رءوف عباس حامد بتاريخ ١٩٧٤/٢/١١

(٢) تطور أندونيسيا الحضارى وأثر الإسلام :
للأستاذ فؤاد محمد شبل بتاريخ ١٩٧٤/٣/١١

(٣) سياسة نورى السعيد الخارجية :
للدكتور فاضل حسين بتاريخ ١٩٧٤/٣/١٨

(٤) الفكر السياسى عند ميكافلى :
للدكتور عبد الكريم أحمد بتاريخ ١٩٧٤/٣/٢٥

* * *

٣ - ندوة عن المؤرخ المصرى « عبد الرحمن الجبرتى وعصره » :

أقامت الجمعية هذه الندوة فى الفترة بين ١٦

ومثلت فيها الجامعات المصرية وعدد من الجامعات العربية كما حضرها بعض الأساتذة الأجانب وهم :

ميكى وترو (جامعة طوكيو) ، روجر أوبن (جامعة أكسفورد) ، كارل براون (جامعة برنستون) ، أندريه ريمون (مدير المعهد الفرنسى للبحوث العربية بدمشق) مارسدن جونز (الجامعة الأمريكية بالقاهرة) .

قدم ٣٨ بحثا ووزعت على أعضاء الندوة ، وقرئت ملخصات لعشرين بحثا فى جلسات الندوة المسائية وفى الجلسة الختامية أصدرت الندوة عدة توصيات أهمها طبع كتاب عن « عبد الرحمن الجبرتى وعصره » يضم مجموعة الأبحاث التى قدمت للندوة وكذلك طبع مؤلفى الجبرتى « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » وكتاب « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » طبعاً علمياً محققاً بعد مراجعة مخطوطات الجبرتى الموجودة فى مختلف مكتبات العالم .

وقد اشتركت الجمعية العراقية للتاريخ والآثار بوفد كبير قدم بحثا عن الجبرتى ، كما أهدى إلى مكتبة الجمعية ميكروفلم عن أحد مخطوطات الجبرتى

الموجودة بمكتبة المتحف الوطني ببغداد كذلك اشتركت في الندوة الجمعية التاريخية السورية بحمص وحضر رئيسها الأستاذ محمد الدروبي . وقد شرع في جمع البحوث المقدمة وإعدادها للطبع .

٤ – معجم المؤرخين المصريين :

أقر مجلس إدارة الجمعية مشروع وضع معجم يضم ترجمة لأعلام المؤرخين المصريين وشكلت لهذا الغرض عدة لجان بدأت في مباشرة عملها .

٥ – مؤتمر « التطور الحضاري لمنطقة الشرق الأوسط في مطلع العصر الحديث » .

رحبت الجمعية بالدعوة التي وجهها إليها مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس للاشتراك معه في تنظيم وعقد هذا المؤتمر وشكلت لهذا الغرض لجنة مشتركة والمأمول أن يعقد المؤتمر في ديسمبر ١٩٧٥ . وستدعى إليه مختلف الجامعات ومراكز البحوث المهتمة بهذا الموضوع .

جمعيات تاريخية عربيه جديدة

١ – الجمعية التاريخية الأردنية (عمان) :

أنشئت بعمان ، بعد أن تشكلت لجنة تحضيرية لهذا الغرض برياسة وزير التربية السابق ، بشير الصباغ ، وتم وضع نظام الجمعية .

وقد نظمت الجمعية بالاشتراك مع الجامعة الأردنية مؤتمرا عن « تاريخ بلاد الشام » عقد في عمان في الفترة بين (٢٠ – ٢٥ أبريل) نيسان ١٩٧٤ حضره عدد كبير من الباحثين العرب والأجانب ، وقد دعي السيد الأستاذ الدكتور رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية لهذا المؤتمر لانشغاله في ندوة « الجبرتي » بالقاهرة . والمأمول أن يقوم اتصال بين الجمعيات

التاريخية العربية والجامعات العربية ومراكز البحوث بها حتى يتم التفاهم على التنسيق بين مواعيد الندوات والمؤتمرات التى تعقد فى العواصم العربية حتى يتسنى لأكبر عدد من الباحثين حضورها .

٢ — الجمعية التاريخية الجزائرية :

تأسست فى عاصمة الجزائر فى بداية هذا العام (١٩٧٤) ومقرها المكتبة الوطنية الجزائرية - شارع فرانز فانون - الجزائر . وللجمعية مجلة بعنوان « مجلة تاريخ وحضارة المغرب » ، وهى المجلة التى خلفت « المجلة الآفريقية » التى كانت تصدر فى عهد الاحتلال الفرنسى .

والجمعية التاريخية الجزائرية تضم أساتذة من الجامعة ومن خارج الجامعة ممن يهتمون بالأبحاث التاريخية .

رسائل جامعية

أولا : رسائل الماجستير

١ — جامعة القاهرة

كلية الآداب — قسم التاريخ

١ — أحمد رمضان أحمد محمد حسن

شبه جزيرة سيناء فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر

تقدير ممتاز ١٩٧٣/٣/٣٠

إشراف : الأستاذ الدكتور عبد الفتاح عاشور

٢ — نوال عبد العزيز مهدى محمد

الحركة العمالية وأثرها فى تطور التاريخ السياسى فى مصر

١٨٩٩ — ١٩٢٥

تقدير ممتاز ١٩٧٣/٩/١٠

إشراف : الأستاذ الدكتور محمد أحمد أنيس

٣ — مصطفى على أحمد السيوفى

تاريخ التجارة الخارجية فى مصر إبان الحكم العثمانى

١٥١٧ — ١٧٩٨

تقدير مقبول ١٩٧٣/١٢/١٢
إشراف : الأستاذ الدكتور محمد أحمد أنيس

٤ — السيد محمد عشماوى

الفكر السياسى والاجتماعى عند سلامه موسى

تقدير : ممتاز ١٩٧٣/١٢/١٢
إشراف : الأستاذ الدكتور محمد أحمد أنيس

٥ — عبد المجيد محمد أمين الكاشف

تاريخ الحزب الوطنى فى مصر تحت زعامة محمد فريد

تقدير : جيد جداً ١٩٧٣/١١/٨
إشراف : الأستاذ الدكتور محمد أحمد أنيس

٦ — إبراهيم حسن سعيد

الجيش فى عصر سلاطين المماليك

تقدير : ممتاز ١٩٧٣/١٠/٦
إشراف : الأستاذ الدكتور سعيدعبدالفتاح عاشور

٢ — جامعة الإسكندرية

كلية الآداب — قسم التاريخ

١ — محمود سعيد عمران

حملة جان دى برين الصليبية على مصر (١٢١٨ — ١٢٢١ م)
(٦١٥ — ٦١٨ هـ)

تقدير ممتاز، بتاريخ ١٩٧٣/٥/٢١
إشراف الأستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف

٢ — وسام عبد العزيز فرج
العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية فى
عهد الامبراطور ليو الثالث الأيسورى
(٧١٧ — ٧٤٠م/٩٨- ١٢١ هـ)
تقدير ممتاز ، بتاريخ ١٩٧٣/٧/٣
إشراف الدكتور عمر كمال توفيق .

٣ — جامعة عين شمس

كلية الآداب – قسم التاريخ

١ — محمد فضيل الكبيسى (عراق) تحقيق ونشر مخطوطة الحدائق الوردية
فى مناقب الأئمة الزيدية لأبى عبد الله حميد الزيدى اليمانى .
ممتاز ، بتاريخ ١٩٧٣/٨/٢٥
إشراف الأستاذ الدكتور حسن حبشى .

٢ — عبد الحليم محمد حسن : دراسة فى وثائق العمل من البردى البلطمى
جيد جداً ، بتاريخ ١٩٧٣/٨/٢٨
إشراف الأستاذ الدكتور مصطفى عبد العليم

٣ — محمود رزق محمود : العلاقات بين ارتباط أمير حصن الكرك وصلاح
الدين الأيوبى حتى واقعة حطين .
جيد جداً ، بتاريخ ١٩٧٣/٨/٣٠
إشراف الدكتور حسن حبشى .

٤ — رياض رشيد الحيدرى (عراق) الآشوريون فى العراق (١٩١٨ — ١٩٣٦)
ممتاز ، بتاريخ ١٩٧٣/٦/٢٨
إشراف الأستاذ الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى .

٥ — بهجت حسين عبد الله (فلسطين) لدار القدس تحت الحكم العثمانى ١٨٤٠ — ١٨٧٣ .

جيد جداً ، بتاريخ ١٥٧٣/٧/٧

إشراف الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

٦ — ناطق صالح مطلوب : نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التكرورى تحقيق ودراسة .

ممتاز ، بتاريخ ١٩٧٣/١٢/٢٣

إشراف الأستاذ الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى والدكتور محمود اسماعيل

٢ — كلية البنات — قسم التاريخ

١ — سلوك العطار

حركة المقاومة فى المغرب الأقصى منذ الحماية حتى سقوط الخطابى ١٩١٢ — ١٩٢٦ م

تقدير ممتاز ، بتاريخ ١٩٧٤/٢/٤

إشراف الأستاذ الدكتور صلاح العقاد

٢ — عائشة على السياف : دولة البعاربة فى عمان وشرق أفريقيا

تقدير جيد جداً ، بتاريخ ١٩٧٣/٩/٩

إشراف الأستاذ الدكتور صلاح العقاد

٤ — معهد الدراسات والبحوث العربية

قسم البحوث والدراسات التاريخية

١ — محمد كمال يحيى حامد

الاتحاد السوفيتى وفلسطين حتى قيام إسرائيل

تقدير جيد ، بتاريخ ١٩٧٣/٦/٢٦

إشراف الأستاذ الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى

ثانيا : رسائل الدكتوراه

١ ــ جامعه القاهرة

كلية الآداب ــ قسم التاريخ

١ ــ خاشع عباده المعاضيدى
الحياة السياسية والتنظيمات الادارية والمالية فى بلاد الشام فى العصر الفاطمى
تقدير : مرتبة الشرف الأولى، بتاريخ ١٦/٧/١٩٧٣
إشراف : الأستاذ الدكتور محمد جمال الدين سرور

٢ ــ عطية أحمد محمود القوصى
تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الاسلام حتى سقوط العباسية
تقدير : مرتبة الشرف الأولى، بتاريخ ١٠/٩/١٩٧٣
إشراف : الأستاذ الدكتور أحمد السيد دراج

٣ - على محمد بركات
تطور الملكية الزراعية فى مصر وأثره على الحركة السياسية ١٨٤٦ — ١٩١٤

تقدير : مرتبة الشرف الأولى، بتاريخ ١٩٧٣/٩/٢٤
إشراف : الأستاذ الدكتور محمد أحمد أنيس

٤ ـ حامد زيان غانم زيان
العلاقات بين جزيرة صقلية ومصر والشام إبان الحروب الصليبية ١٠٩٦ – ١٢٦١
تقدير : مرتبة الشرف الأولى، بتاريخ ١٩٧٣/١١/٣
إشراف الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

٥ ـ عبد الأمير هادى العكام
الحركه الوطنية فى العراق ١٩٢١ – ١٩٢٣
تقدير : مرتبة الشرف الأولى، بتاريخ ١٩٧٣/١١/١٦
إشراف : الأستاذ الدكتور محمد أحمد أنيس

٦ ـ محمد عبد الفتاح عليان
الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى عهد دولة بنى رسول باليمن
تقدير : مرتبة الشرف الأولى ، بتاريخ ١٩٧٣/١١/٢٦
إشراف : الأستاذ الدكتور محمد جمال الدين سرور

٧ ـ حسن عيد على ريان
دور إمارة الأردن فى السياسية العربية ١٩٣٩ – ١٩٥١
تقدير : مرتبة الشرف الثانية ، بتاريخ ١٩٧٣/٩/١٠
إشراف : الأستاذ الدكتور محمد أحمد أنيس

٢ ـ جامعة الاسكندرية

كلية الآداب ـ قسم التاريخ

١ ـ اسمت محمود غنيم

العلاقات السياسية بين الدولة البيزنطية وجزيرة كريت الإسلامية (٧٢٧ - ٩٦١ م / ٢١٢ - ٣٥٠ هـ).

تقدير مرتبة الشرف الأولى، بتاريخ ١٩٧٣/٦/١١

إشراف الأستاذ الدكتور عمر كمال توفيق

٣ ـ جامعة عين شمس

١ ـ كلية الآداب ـ قسم التاريخ

١ ـ محمد عيسى عبد الله صالحية

روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح لعيسى بن لطف الله بن المطهر ـ دراسة وتحقيق

مرتبة الشرف الأولى

إشراف الأستاذ الدكتور حسن حبشى .

٢ ـ فضيلة عبد الأمير الشامى

الخلفية لحركة القرامطة وتأثيرها الاجتماعى والسياسى فى المجتمع الإسلامى وزمن الخلافة العباسية .

درجة دكتوراه فقط بتاريخ ١٩٧٣/٩/٢

إشراف الأستاذ الدكتور حسن حبشى .

٣ ـ رأفت عبد الحميد

أثناسيوس فكره وعلاقته بالدولة البيزنطية

مرتبة الشرف الأولى مع التوصية بطبع الرسالة على نفقة الجامعة، بتاريخ ١٩٧٤/٤/٢٩ م

إشراف الأستاذ الدكتور عبد المنعم ماجد .

٢ ـ كلية البنات ـ قسم التاريخ

١ ـ فاطمة مصطفى عامر

أهل الذمة فى مصر من الفتح الإسلامى حتى سقوط الدولة الفاطمية

مرتبة الشرف الثانية بتاريخ فبراير سنة ١٩٧٣

إشراف الدكتور على حسنى الخربوطلى .

٤ - جامعة الأزهر

كلية اللغة العربية ـ قسم التاريخ

مصطفى محمد رمضان

دور الأزهر فى الحياة المصرية إبان الحملة الفرنسية ومطلع القرن التاسع عشر .

مرتبة الشرف الأولى ، بتاريخ ٢١/١/١٩٧٤ م

إشراف الأستاذ الدكتور عبد العزيز محمد الشناوى

(42) Cf. Herodote II, 175-6 (trad. op cit., p. 189-190).

(43) Cf. Herodote II, 129-132 (trad. op. cit, p. 156-158).

(44) Cf. Id., II, 170-171 (trad. op. cit., p. 186-187).

(45) Passage de Strabon, XVII, 23 (trad. H. I. Jones, Londres 1949 p. 73).

(46) Strabon, XVII, 18 (trad. Jones, p. 67).

Univ. Mus. Bull. Phil. 9 (1942), p. 13-17 — Otto, Biogr. Inschr., p. 14, 33, 52, 54, 91 - 92, 106, 127 (28) Jélinkova, ASAE 54 (1957), p. 261, 266 - 269, 282 n. 12 ; de Meulenaere, Herodotos, p. 85 n. 53, p. 87 n. 16, p. 92 n. 42, p 117 n. 17 et dans BIFAO 63 (1965), p. 24 n. d ; Bresciani, Studi classici e Orient. vol. 16 (1967), p. 277 n. a, c ; Posenèr, Revue de Philol. vol. 21 fasc. 2, p. 125 n. 2 ; Voir aussi textes de Statue du Brit. Mus qui faisait primitivement partie de la collection d'un marchand d'antiquités, pour la bibliegraphie, voir note 18.

(37) Cf. Textes du temple d'Hibis — Davies, op. cit., p. 12 pl. 4 (IX) — Gamer - Wallert, Fische und Fischkulte im alten Agypten (Agyp. abh. 21) (1970), p. 90 pl. IX fig. 1; voir aussi Statue d'Alexandrie no 26298 (voir pour la bibliogrophie note 14); Statue de Delos A 379 (voir note 15).

(38) Voir Ghassinat, Mysterè, fasc. I, p. 127 - 8, fac. II, p. 706, 716-17 — DGI, 11, pl. 15 — loret, RT 4 (1883), p. 31.

(39) Voir Pap. géogr. de Tanis (époque Ptolémaique) — Griffith, Two Hierol. pap. from Tanis, p. 22 pl. 11 (28) cité par Schott, RdE 19 (1967), p. 103 n. 2 — Gamer - Wallert, op. cit, p. 90 — Montet, kemi 11 (1950), p. 97; voir aussi chassinat, Edf. I, p. 331, 104-6 — t. IX, pl. 15 PM. VI, p. 146 (219-222).

(40) Voir Pap. Tebtynis (époque Ptalémaique) au Museé de Florence — Botti, dans AAe 8 (1959), p. 7 ro A, I. 17 - 19 — Pap. Amherst (même époque) — Newberry, Amherst, p. 45 - 6 pl. 16, 18 Fragment IV col 3 ; voir aussi Pap. géogr. de Tanis — Griffith, op. cit., pl. XI fragm. 28 ; textes d'Edfou — Chassinat, Edf. I, p. 331, I. 4 8 — t. IX, pl. 15 - PM VI, p. 146 (219-222) — Montet, Géogr. I, p. 85.

(41) Cf. Hérodote II, 169 (trad. Legrand, p 185).

Cette stéle, dateé de l'an 7 d'Alexandre II, commémore la restitution, par Ptolemée I, des biens enlevés par Xerxes aux temples de Bouto ; Dans le texte, le roi s'enquiert de savoir comment les divinites dr Bouto out exercé leur protection contre l'attentat commis par l'annemi Xerxes.

(26) Cf. Baillet, op. cit., p. 63-5 n. 6.

(27) Champollion, Lettres écrites d'Egypte et de Nubie ; 1862, pl 1 — Habachi, ASAE 42 (1943), p. 372 fig. 96 — Mallet, Neit, p. 76.

(28) Voir les representations sur la fragment du naos no E. 5818 de Bruxelles cf. n. 10 (pour la bibliogrophie).

(29) Voir aussi le meme document de Bruxelles et ajouter les textes d'Edfou — Chassinat, Edf. IV, p. 25 — t. x pl. 94 — PM. VI, p. 157 (290).

(30) Voir textes d'Edfou, note précedente.

(31) Voir textes de Statue de Vatican 196, pour la bibliogrophie, cf. note 22.

(32) Voir Brugsch, Thes., p. 620 (5) ; DGI, 111, pl. 45 — Dümichen, Zur Geogr. des Alten Agyp., p. 47 — PM. VI, p. 99 (66 - 71).

(33) Voir Pap. de leyde T. 32 (époque romaine) — Stricker, OMRO 31 (1950), p 56, 57, 61 - Schott, RdE 19 (1967), 107 n. 1.

(34) Voir textes de Statue de Vatican 196' pour la bibl. voir note 22.

(35) Voir texte de Stèle du Brit. Mus. 1427, pour la bibliographie voir note 17.

(36) Voir textes de Statue de Musée de Philadelphie 42-9-1 — Ranke, MDIAK 12 (1943), p. 112 - 138 pl. 24 - 5 - et dans

(19) Statue louvre 663 — Otto, MDIAK 15 (1957), p. 206-7 — de Meulenaere, BIFAO 62 (1964); p. 153 n. 6 — Jelinkova, ASAE 55 (1958), p. 113 (20).

(20) Statue de Florence 1784 (1923) — An. EPHE Ve sec. 1969-1970, p. 381 voir aussi Statue ancienne collection Golenischeff no 1389 – Touraiev, Coll. Golenischeff (Stat. et Statuettes) en russe, p. 51 (66) — Jélinkova, op. cit., 125 (10).

(21) Voir de Meulenaere. BIFAO 60 (1960), p. 117 - 119 pl. 12 — Sauneron, Esna V' p. 285-6 n. 5 (Statue en possession du comte A. de Beaumont-Bonelli à Naples).

(22) Cf. Posener, Domin. Perse, p. 2-26 — Botti - Romanelli; Mus. Gregor. p. 32 - 39 pl. 27-32 (40) — Tulli, Misc. Gregor., p. 211-2S0 — Jelinkova, ASAE 54 (1957), p. 252 n. 2 et p. 285 n. 40 ; et dans ASAE 55 (1958), p. 110 (13) ; de Meulenaere, BIFAO 62 (1964), p. 162 (18) et dans, Herodotus, p, 61 n. 54 ; Daumas, BIFAO 56 (1957), p. 50 ; Gardiner, JEA 24 (1938), p. 157 – 8 (1) ; lefebvre, Essai sur la médecine, p. 19 ; Otto, Die biogr. Inschr., p. 127 (30) ; Jonkheere, les médecins de l'Egypte, p. 32 – 3 (20), et p. 94 (20) ; Michailidis, ASAE 43 (1943), p. 101 — ;z Klasens, JEOL 10, p. 339 – 49.

(23) Cf. Baillet; le régime pharaouique, p. 77 n. 2.

(24) Cf. Posener, op. cit., p. 175.

(25) Voir Stèle Caire CG. 22182—Kamal, Stèles Ptolémaiques, p. 170 pl. 56 (pour la bibliographie, cf. p. 171) ajouter : Urk 11, p. 18 — Anderson, Sphjnx I5 (1912), p. 101 et 103 — de Meulenaere, Herodotus, p. 61 n. 53 — Gauthier, LR IV. p. 202 (14), 208 (3), 214 — Bouché - leclercq, Hist. des lagides I, p. 104-109 — Baillet, op. cit., p. 73 n. 1 — Golenischeff, Rec. d'etudes egypt. dédieés à la mémoire de Champollion, p. 7I1 (8).

(12) Voir les inscriptions de la Statue Caire 27 / 11 / 58 / 8 — Bresciani, dans Studi Classici e Orientali vol. 16 (1967), p. 275—8 ; de Meulenaere, le surnom egyptien, p. 20 (24).

(13) Passage d'Herodote 11, p. 175 - 6 (trad. Ph. le grand, Paris 1936 p. 189—190); voir aussi Baillet, le regime pharaonique, p. 76 n. 5.

(14) Voir Statue d'Alexandrie no 26298—Document communiqué par Mr. le professeur J. yoyotte, cité par leclant, dans Oriéntaliâ 30 fasc. 1 (1961), p. 94 ; de Meulenaere, op. cit., p. 25 n. 7.

(15) Voir l'inscription du temple d'Hibis — Davies, Hibis, p. 25 pl. 33 — Schott, RdE 19 (1967), p. 109 n. 5 - Brugsch, Reise nach der grossen Oase, pl. 26, 1. 28 - le même auteur dans Dict. géogr. p. 1175 ; et dans Thes., p. 634 et p. 679 ; Mallet, Neit, p. 9 n. 3 ; voir aussi Statue de Delos A 379 — leclant - de Meulenaere, Kemi 14 (1957), p. 34—42 pl. 3 a-c ; PM VII, p. 403 (Cette Statue date de la XXX e dyn. ou du début de l'époque ptolémaique).

(16) Cf. Hérodote 11, 170 - 1 (trad. le grand, p. 186—7).

(17) Stèle de Brit. Mus. 1427—An EPHE Ve sect. 1969-1970, p. 279 - Budge, A Guide to the Egypt. Gall. (Sculpture). p. 224 pl. 29.

(18) Statue du Brit. Mus. (elle faisait primitivement partie de la collection d'un marchand d'antiquités du Caire et appartient maintenant au Brit. Mus.), voir Criffith—Gardiner, Naukratis 11, p. 81 (1) pl. 23 (1 a — c) — Petrie—Gardiner, Naukratis I, p. 94, 115 - Maspero, ZAS 22 (1884), p. 80 (84) — Habachi, ASAE 42 (1943), p. 388 — Jélinkova, ASAE 54 (1957), p. 260 - Posener, Revue de Philol. 21 fasc. 2 (1947), p. 124 n. 5 — PM. IV, p. 51.

(2) Voir Habachi, ASAE 42 (1943), p. 379 seq. cf. aussi Drioton-Vandier L'Egypte, p. 575 seq ; de Meulenaere, Herodotus, p. 66

(3) Voir Stèle de Copenhague no 7097 — Mogensen, Inscr. hierogl, du Musée Nat. de Copenhague, p. 38—9 pl. 18 (29).

(4) Cf. Habachi, op cit., p. 379 fig. 100.

(5) Cf. Gauthier, ASAE 34 (1934), p. 129—130.

(6) Voir Borchardt, Stat. Und Statuett. 111, p. 5-7 —Daressy, RT 16 (1894), p. 46 - 47 (C) ; Breasted, AR IV, § 981 - 983 ; An EPHE, Ve sect. 1969—1970, p. 380. Ce document sera publié dans le BIFAO.

(7) Cf. LD 111, 274 h. i -LD Texte I, p. 4 -PM IV, p. 49 — Habachi, O. C. p. 397 fig. 109 ; l'auteur pense que ces blocs étaient erigés par le roi, dans le temple de Neith, pour commémorer la Célébration d' un festin, par exemple le Heb—Sed.

(8) Voir Gauthier, ASAE 22 (1922), p. 199, 210 - dans LR IV, p. 109 notes 5 ; cf. aussi Daressy. ASAE 2 (1901), p. 239 — Jequier, les temples ramessides et Saites. pl. 78 (5) ; le même auteur, l'Architecture 11, pl. 7 (B2) ; PM IV, p. 48 - 49 et p. 71.

(9) Obelisqu d'Urbino et de Rome, cf. Müller, ZAS 79 (1955), p. 146 fig. I et p. 148 fig. 4 - 5 ; Gauthier, LR IV, p. 109 (16) A—B ; PM VII, p. 411 (7).

(10) Fragment de naos no E. 5818 du Musée de Bruxelles — Capart, Mém. Acad. roy. de Belg. 19 (1924), p. 1 - 26 pl. 1 - 3 ; Speleers, Rec. des Inscr., p. 87 - 8 ; Gauthier, DG IV, p. 76 ; PM IV, p. 48.

(11) Cf. Drioton-Vandier, op. cit., p. 597.

Des témoignagés des auteurs grecs font allusion aux tombeś des rois de la XXVIe dynastie dans l'enceinte du temple. On sait que les renseignements fournis par les auteurs grecs quant à la civilisation, à l'histoire Egyptienne, débutent avee Hérodote qui a parcourt l'Egypte aux environs des aneés 450 avant J. C. (fin de la 1 ere domination perse) et se poursuivent jusqu' à Horapollan qui vécut dans la 2 eme moitie du V eme siecle après J. C., c'est à dire que la période est très vaste. Tous les renseignements fournis ne le seront pas par observation directe et il est bien evident que le 11 eme livre des Enquètes d'Hérodote reste, comme toute, la source intarissable des meilleurs informations. En ce qui concerne notre sujet, nous avons; grâce à lui, des connaissances relativements précises sur les tombes des rois saites. situeés dans le temple même de Neith,(41) sur les travaux effectués dans ce temple par Amasis,(42) sur la présence de la Statue d'une vache sacré agnouillée, sur le lac sacré,(43) le tombeau d'Osiris.(44)

Strabon qui a vécu plusieurs années à l'Alexandrie, vers l'an 20, donne de fort interessantes précisions géographiques sur Sais(45) dont il determine la situation, sur la tombe de Psammetique I.,(46) l'image qui l'on peut se former de Sais en combinant les donnees de plusieurs documents et celles des auteurs grecs est celle d'une grande cité du Delta occidental à la XXVIe deynastie.

NOTES

(1) Aujourd' hui Sa el Hagar sur la branche canopique du Nil. la ville est ancienne et adorait la deésse Neith. Mais elle n' a joué un rôle politique important qu' â partir du VIII siècle avont notre ère. Elle devint capitale à la XXVIe dynastie, dite saite.

leur personnel et leurs revenus afin qu'on y puisse à nouveau célébrer le culte et présenter des libations ; il se rend en personne dans le temple de Neith pour se prosterner devant la statue de la deésse et faire une grande offrande aux dieux de la ville ;[23] il fait aussi retablir lécole du temple.[24]

Nous ne possédons pas de documents relatifs à l'activité architectural des rois Ptolemaiques à Sais, mais le prestige de la ville reste grand et Ptolemeé I1 y convoque un synode sacerdotal[25] qu'il place sous la protection de la dame de Sais.[26]

Champollion, sur la base de la description d'Hérodote. a essayé de déterminer le plan du grand temple de Sais ; ce plan permet d'avoir une ideé de l'ensemble, c'est pourqnoi nous pensons qu'il est interéssant de l'examiner de très près ; [27] nos documents ne l'infirment certes pas, mais ils y ajoutent quelques petites precisions. L'alleé de statues dans le temple s'appelait "Mert,"[28] la porte principale "la porte du ciel; "[29] on se purifiait dans "la Maison du matin "[30] avant d'entrer dans le sanctuaire ; dans l'enceinte du temple étaient quatre Maisons correspondant aux quatre points cardinaux : le Res -net au Sud, le Meh - net au Nord, la Maison de Rê à l'Est, la Maison d'Atoum â l'Ouest ;[31] il existait aussi le château des tissus de Lin[32] avec la Salle du tissage[33] et la Maison de Vie ;[34] mais il nous est impossible, Jusqu à plus amples informations, de situer ces derniers bâtiments. Nous avons quelques renseigments aussi sur les constructions à droit et à gauche du dromos,[35] ainsi que nous l'avions trouvé dans deux documents.[36] IL est fait allusion au lac sacré[37] dans lequel vivaient les poissons sacrés,[38] peut être aussi le lates ;[39] on parle de l'arbre sacré de Neith, l'acacia, dans le Res -nét et Meh—net.[40]

concilier les bonnes grâces du peuple et faire oublier Apriès(11). Nous connaissons de lui la restauration de «la salle du silex» dans le temple de la deésse(12); Selon Herodote Amasis aurait fait construire à Sais, en honneur de Neith, «d' admirables propylées», des colosses, des sphinx(13), il aurait fait procéder à des réparations à l' aide de blocs enormes apportés d' Elephantine; Il ordonna de faire creuser un lac, « sur le bord oriental du territoire agricole-de 68 coudeés de longueur et de 65 coudeés de largeur(14)». Il s'agit, sans doute, du lac sacré, dans l'enceinte du temple, auquel on fait allusion dans deux documents(15) et dont parle, Herodoté(16). Une donation est faite en faveur du temple : c'est une etable(17). Un gouverneur de sais assure qu'il surveille les travaux de restauration : il s'agit alors de la reconstruction d'une chapelle sur le côté Est du dromos conduisant au temple de Neith; nous ne savons pas exactement sous quel roi le fonctionnaire en question vivait, mais ce fut en tous cas sous un souverain de la XXVIe dynastie(18). Ajoutons que certains rois saites se faisaient enterrer dans l'enceinte du temple de Neith et qu'ils avaient des prêtres attachés â leur culte, tels Psammétique I(19), Amasis(20): un «chef des chanteurs du temple » est connu sous Nechao(21).

La Statue du Vatican 196, à laquelle on se réfère souvent, est riche en dètails à proprement parler historiques(22). On sait qu' on y parle de «barbares» établis dans le sanctuaire de la deésse; il s'agit, sans doute, de l'armée perse que Cambyse garda avec lui pendant tout son séjour en Egypte. Ces gens ont crée des troubles dans le pays entier, sans excepter le nome saite car ils ont osé envahir et s'installer dans l'enceinte du temple. Sur l'ordre de Derius, les envahisseurs sont expulsés et les lieux sont purifiés. Darius lui-même fait rendre aux sanctuaires de la ville

Les activités des rois de la XXVI dynastie a' Sala

Par

Dr. Ramadan EL SAYED

On sait qu' à la XXVI[e] dynastie pharaonique, Saïs[1] devint la capitale, la résidence préferée des rois et qu' elle fut couverte par eux de beaux monuments[2]. On sait aussi que les temples de Sais furent l'objet de reconstruction, agrandissements et restaurations; les blocs et quelques monuments restants en font foi. Ainsi, Psammétique I a dédié un terrain en faveur du temple de la deésse Neith[3]; des monuments dédiés par Néchao, il reste des blocs en faveur de « Neith qui est en tête du Château du roi de Basse Egypte»[4]; de psammétique II nous avons un socle de sphinx sur lequel Neith est citée[5]; On sait aussi, par les inscriptions de la Statue Caire CG. 658 que ce roi a completé l'oeuvre de ses prédécesseurs en construisant de nouvelles Chapélles pour Neith, des obelisques et qu' il a fait procéder à la restauration de la barque sacrée[6]. Certains blocs, provenant du temple portent le cartouche du roi[7].

Le roi Apriès a dédié des colonnes à « Neith qui est en tête du château du roi de Basse Egypte» et à « Neith dame de Sais»[8]; lui aussi a fait« construire des obelisques[9] ainsi qu' un naos pour les divinités du temple de Neith à Sais[10].

Mais le roi qui se montra le plus actif constructéur fut, sans conteste, Amasis; peut-être voulait-il favoriser Sais pour se

" The Tomb of a Much Traveled Theban Official, " J. E, A. 4 (1917), 28—38, pl. 6—9.

(82) H. W. Helck, op. cit., p. 76.

(83) F. Bisson de la Rocque, Tod (1934 à 1936) (Fouilles de l' Institut francaise, 17), Cairo, 1937, I, p. 61.

(84) Ibid., v. I, p. 10, 14; 25, 62 - 79, pls. 18 - 21.

(85) Winlocck, op cit., p. 25.

(86) Winlock, " The Theban Necropolis in the Middle Kingdom," in A. J. S. L. 32 (1915), p. 4.

(87) Ibid., p 5.

(88) Winlock, The Rise and Fall of the Middle Kingdom at Thebes, p. 19.

(89) Habachi, (see note 76 supra), p. 37, 38, fig. 16, 17.

(90) According to W. C. Hayes, " The Middle Kinkdom in Egypt, " (Cambridge Ancient History) v. I ch. XX, p. 52.

(71) Recueil des Travaux, 14, 26; 32 pl. LIV. T. Säve-Söderbergh, Aegypten und Nubien; Ein Beitrag zur Geschichte alt-aegyptischer Aussenpolitik, Lund, 1941, p. 54.

(72) Statue of Nb - hpt - Re in Karnak dedicated by him; likewise statue of Antef son of Ikwi, cf. Stock op. cit., p 71.

(73) Protection decree for Dayr al-Bahri, as a result of this, the temple was later called " House of Month of Khakawre," cf. Winlock, The Rise and Fall of the Middle Kingdom in Thebes, New York, 1947, p. 81.

(74) Winlock, op. cit, p. 44.

(75) Winlock, op cit., p. 43.

(76) L. Habachi, in Mitteilungen der Deutschen Archäol gischen Institut, Abteilung Kairo, 1963, p. 16 - 53, p. 44, fig. 20, 21.

(77) H. Winlock, op. cit., p. 82 ff.

(78) Cf. L. Habachi, Ann. Serv. 55 (1958), 167 - 190.

(79) H. Winlock, op. cit, p. 45.

(80) Cf. H. Keee, Des Priestertum im aegyptischen Staat vom Neuen Reich bis zur Spätzeit, (Probleme der Aegyptologie 1) Leiden, 1953, for his discussion of the role of the Second Prophet in the Eighteenth Dynasty as a government appointee,p. 11 - 18; likewise the Sshmw hb, p. 30 ff., and the religio -political implications of his office.

(81) H. W. Helck, " Zur Reichseinigung der 11. Dynastie " in Z. A. S. 80 (1955), p. 76; Clère-Vandier, Textes de Premiere Intermediare et de la XI eme Dynastie (Bibliotheca Aegyptiaca 10), Brussels, 1948, p. 44; H. W. Helck, loc. cit.; Gardiner,

(51) Loc. cit.

(52) Loc. cit., Gr. 25, 2; Gr. 25, 3, 4.

(53) Ibid., Gr. 25, 3.

(54) Op. cit.; p. 9.

(55) H. Brnnner, op. cit., p. 17, line 10; n. b. " - i " is restored.

(56) R. Anthes, op. cit , gr. 25, dated to Nhri's seventh year.

(57) R. Anthes, ob. cit., gr. 16.

(58) H. Stock, op. cit , p. 63. Anthes, op. cit., p. 52, gr. 23.

(59) H. Brunner, op. cit.' p. 15.

(60) Eg. Kees cites an inscription of Hnkw of Dayr al-Jabrawi, Urk. 1, 78; (Kees, op. cit , p. 88).

(61) Ibid., p. 92.

(62) And even later, cf. Hekanakht's allusion to "men eating men."

(63) Loc. cit.

(64) Anthes, op. cit., p 88.

(65) Anthes, op. cit., p. 89; gr. 14. 3.

(66) Cf. Wni's title " overseer of the tenants "; loc. cit.

(67) Helck, op. cit , p. 122 - 130.

(68) Anthes, op cit , p. 86; gr. 2', 2.

(69) Ibid., p. 88; gr. 26, 3; pp. 81 - 85.

(70) L. Habachi, " God's Fathers and the Role they Played in the History of the First Intermediate Period, ' in Ann. Serv. 55 (1958), 167 - 190.

(35) Möller, A. Z. 56, 36.

(36) A. Scharff, op. cit., p. 6.

(37) There appears to be no allusion to any royal " Heiratspolitik ".

(38) W. Golénischeff (ed.), Les papyrus hieratiques Nos. 1115, 1116A et 1116B de l'Ermitage Imperial a St.- Petersbourg, (St. Petersburg) 1913, pl. 10 line 44.

(39) Golénischeff, op. cit., pl. 10 line 38.

(40) Golénischeff, op. cit., pl. 11, 61 - 69.

(41) A. Gardiner, op. cit., p. 27, par. 15, 63, emends " beautiful. "

(42) A. Gardiner, op. cit., p. 27, par. 14.

(43) A. Gardiner, op. cit., p. 29, par. 18.

(44) Ibid., p. 29, par. 20.

(45) Golénischeff, op. cit., pl. 12, 88 - 90.

(46) A. Gardiner, op. cit., p. 30, note 4.

(47) W. Hayes, " The Middle Kingdom in Egypt, " The Cambridge Ancient History, Vol. 1, chápter XX, p 44 - 45.

(48) H. Brunner, Bie Texte aus den Gräbern der Herakleopolitenzeit von Siut, (Agyptologische Forschungen), Gluckstadt, 1937, p. 27 - 28.

(49) Ibid., p. 39.

(50) R. Anthes, Die Felseninschriften von Hatnub, Leipzig, 1928, p. 91.

(22) W. Hayes, " Royal Decrees from the Temple of Min at Coptos," in J. E. A., 32 (1946). 3 - 23. Also cf. R. Weill, Les decrets royaux de I'Ancien Empire égyptien, Paris, 1912.

(23) H. Stock, op. cit , p 20; Kees, Beiträge 11, 591; Gunn, Ann. Serv. 25, 242 ff.

(24) H, Stock, Ioc. cit,; Urk. 1, 282, 26.

(25) See also W. H. Hayes, op cit,, p. 14.

(26) Urk. 1, 297.

(27) Urk. 1, 302.

(28) G. Farina, Il papiro dei re restaurato, Rome, 1938, col. 4, 12 (VII); 4, 21 (VIII). Cf. Abydos list, kings Nr. 42, 45 (Nfrkare Khndw), 49 (Nfrkare Trrw), 54. Also H. Stock, op. cit., p. 29; p. 41 - 42.

(29) Firth - Gunn, Teti Pyramid Cemeteries, p. 188, Pl. 27B.

Also see A. Scharff, "Der historische Abschnitt der Lehre fur König Merikare," in Sitzungsbericht der Bayerischen Akademie der Wissenschaft, 1936, Heft 8, p. 7, note 3.

(30) H. Stock, op. cit., p. 43.

(31) H. Kees, " Aus den Notjahren der Thebais ", in Orientalia 21 (1952), pp. 86 - 97.

(32) H. Kees, op. cit., p. 88.

(33) H. Kees, op. cit., p. 87, Also cf. Vandier, Muallah, text 5, pp. 185 - 6.

(34) H. Kees, op. cit., p. 89.

(7) H. Stock, Die Erste *Zwischenzeit* Aegyptens (Studia Aegyptiaca 2 – Analecta Orientalia 31), Rome, 1949, p. 31.

(8) G. Jequier, Le Monument funéraire de Pépi 11, 1 – 111, Cairo, 1936 - 40, tables 48 - 51,

(9) Urk. 1, 280.

(10) Ibid., 117; Borchardt, Denkmäler 1, pl. 24.

(11) H. Stock, op. cit., p. 6.

(12) Ibid., p. 11.

(13) A. M. Blackman, The Rock Tombs of Meir, 1, 1V, V (E. E. F. and E. E. S. Archeological Survey, 23nd, 25th, and 28th Memories), London, 1914, 1924, 1953; 1V pl. 4a.

(14) Urk. 1, 280.

(15) Cf. Norman de Garis Davies, The Rock Tombs of Sheikh Said (E. E. F. 10), London, 1901.

(16) Jéquier, loc. cit.

(17) They are preserved on the west and north walls. Are they possibly for funerary ceremonies ?

(18) H. Stock, op. cit., p. 6.

(19) Ibid, p. 14; the long reign of Papi 11 apparently allows enough time for such a large number of viziers and it is thus not absolutely necessary to hypothesize a further subdivision of the vizirate.

(20) Urk. 1, 131/25.

(21) W. Helck, Untersuchungen zu den Beamtentiteln des aegyptischen alten Reichs (Aeg. Forsch. 18), Gluckstadt, 1954, p 89 - 91.

Such policies differed according to the nature of the various Egyptian states that arose, flourished, and fell during this period. Certain variables, however, seemed to remain relatively constant the function of the temples, and the feelings of personal independence, to which any governmental policy perforce must adapt itself. The solutions for its problems that the First Intermediate Period found, are significant, for it is on their basis that the Middle Kingdom; and to a large extent, the New Kingdom state was founded. In spite of its uneven nature, juxtaposing artistic decline and literary flowering, the First Intermediate Period was a necessary period of transition, characterized by " great vigor "(90) and led to a more " open " society, one fitter to confront the problems of its age.

FOOTNOTES

(1) The term " feudalism " is hereafter used, advisedly, as there is profound disagreement on the definition of the word. Cf. Rushton Coulborn (ed.), Feudalism in History, Princeton, 1956.

(2) Eg. Sir Alan Gardiner, The Admonitions of an Egyptian Sage, Leipzig, 1909, par. 2, 1; 1 - 5; 9, 3, etc.

(3) Ibid, par. 7, 2 - 3; p. 54.

(4) Ibid, par. 7, 8; 7, 10 - 9, 2.

(5) Ibid, par. 10, 3 - 10, 6; 11, 2 - 11, 10.

(6) Ibid, par. 12, 12 - 14; 13, 2 - 5.

other than a few theophoric names by private individuals. It appears, thus that Month was the national god during this period, by evidence of theophoric names, Mntw-htp, of the Eleventh Dynasty kings.

There was probably a similar religio-political reason for the veneration of Hathor of Dandarah. Winlock states a cause and effect relationship between Hathor and Dayr al-Bahri in that "So many court ladies were priestesses of Hathor that their burial at Dayr al-Bahri rendered the place sacred to Hathor."(87) Such reasoning, however, appears exceptionable, as one has examples of Wahankh offering to Hathor(88) certainly prior to the queens' burial at Dayr al-Bahri, which seemed to have prompted an argument on Winlock's part, of post hoc ergo propter hoc. Be this as it may, the region early became sacred to Hathor.

Hathor was, in addition, honored with temples in those areas where she was a local goddess - e. g. Dandarah where Nebhptre dedicated a small kiosk to her, and at Jabalayn, where as above mentioned,(89) blocks have been found where Pharaoh is shown smiting his enemies, an important allusion to the war of Unification. Thus, it is seen that the common policy of the assiduous building of temples was an integral part of Eleventh Dynasty religious policy, as it had been in the Old Kingdom, and was to be in the Middle Kingdom and New Kingdom on a gigantically incresed scale, likewise continuing under the Ptolemies and the Romans.

Thus in an admittedly dim way, certain aspects of social policy may be discerned during the First Intermediate Period.

One significant aspect thereof in the reign of Nebhptre is that of geographical distribution, no temple having been found north of Abydos. Although any conclusions to be drawn from this would be, by necessity, argumenta ex silentio, one is forced to ask not simply whether there was a conscious policy of preferment for the south, but whether there was a definite withholding of patronage from the north. In this regard two interesting biographies of officials indicate a policy of toleration. One Antef-Nakht[81] spent years in the "house of Khty" and a certain Khty mentions that he was in the "house of the northern one". Hence, as Helck points out,[82] it is apparent that there these were reemployed Heracleopolitan officials. Thus, although it would be risky to hypothesize religious policy on what one knows from this Eleventh Dynasty policy towards presumably useful former Heracleopolitan officials, nevertheless this should be cited as an illuminating example of the epparent tolerance of the period.

The question of relations between the royal house and the two Theban gods Amon and Month is of importance in conjunction with religious policy. As early as the Fifth Dynasty attention had been paid to Month by Wsir-k',.f whose cartouche has been found on a rose granite pillar discovered under the pavement of a temple to Month at Tawd[83] Nebhptre himself rebuilt this temple to Month[84] and Winlock has observed that Nebhptre's mortuary temple at Dyr al-Bahri was itself built just opposite the Karnak temple of Month[85] Amon, however, was considered by Winlock to have been a local Theban god as early as the Fourth Dynasty, and cites to that end a triad statue from the Mycerinus temple.[86] There is, however, apparently no evidence for the worship of Amon until the Twelfth Dynasty

On the other hand at Thebes, there is possibly a democratizing tendency to be observed if the graves found in the northern and southern triangular courts at Dayr al—Bahri are indeed those of private individuals, buried within the king's funeral complex([75]).

A policy of great interest during this period is either the possible identification of the king with various gods or the apotheosis of the dead king himself. The former seems probably the case at Konosso([76]), where there is a Min figure, unnamed save with the cartouches of Nebhptre It is clear that, at least subsequently, a cult of Nebhptre existed at Dayr al—Bahri; both from the priests' graffiti described by Winlock([77]). and from the above-mentioned protection decree of Sesostris III, at the mouth of the Bab al-Husan. A parallel custom, however, of deification and reverence of private individuals is attested in this period, to which, on the one hand the case of the deified Hekayeb may be cited([78]), and on the other hand, the fact that the tomb of Akhtoy at Dayr al-Bahri was venerated at least down into the reign of Ramesses II([79]).

In addition to personal apotheosis, the kings of the Eleventh Dyansty were like all Egyptian rulers of every period, vitally interested in religious matters. Following, and perhaps developing the practice of the Old Kingdom, the temples tended to act as subsidiary agents of adiministration,([80]) particularly those removed from the general vicinity of the capital. An examination of the monuments of the Eleventh Dynasty kings reveals, accordingly, some interesting aspects of religious policy.

independence characteristic of the age. It follows that policies of the Old Kingdom and those of Thebes were thus to be similar for two reasons; firstly, that Thebes felt itself, likewise, the legitimate heir of the Sixth Dynasty and was able to model its conduct accordingly, to an extent that was impossible in the feudal north. And secondly, that both the Old Kingdom and Thebes share the common factor of being centralized states with cehtralized authority, and hence from similar types of authority, similar types of policy tended to be forthcoming.

The need to legitimize itself was an early characteristic of the new dynasty at Thebes. Wahonkh Intf placed a statue of himself and of his father in the temple of Hekayeb at El ephantine(70) which act being of both a religious and a political nature. Likewise Nebhptre is shown sacrificing to three ancestors on some blocks found under houses of the Ptolemaic period at Jabalyn(71). It is, parenthetically, of interest that most of our king - lists similarly seem to be the result of a desire to legitimize the newly risen royal house; that at Karnak and Abydos being to legitimize Thothmes III and the Nineteenth Dynasty respectively. It is possible that the attentions paid Nebhptre by Sesostris I(72). and Sestoris III(73) may be ascribed to a similar need.

An interesting phrase is used by Winlock in describing the nobles' tombs at Dayr al - Bahri(74) namely that "the Dayr al - Bahri valley was parcelled out among the nobles like gigantic saff.". This was according to Egyptian mortuary tradition, which dictated that adherents be buried near their lord. whereas the great northern nomarchs not being buried near their nominal Heracleopolitan sovereign indicates clearly the relatively more feudal nature of that Kingdom.

keeper of clothes, then overseer of the store-house, overseer of the garden,[66] reporter and finally became an overseer of ships.

Care for the religious life of the state and maintenance of the temples also fell now into the sphere of the local nomarch, Nomarchs appear early as "overseers of priests" of their nome, the origin of which combination of functions—nomarch and religious leader has been explained at lenth by Helck[67]. As mentioned earlier, Ankh.ty.fy claims to have been "called by Horus" to reestablish order in the Seat of Horus nome. More singnificantly, at Hatnub[68]· Djhwty-nakht V states that he is : "head of the entire temple. whose place Thoth has promoted." Nevertheless there is evidence that the temple and nomarchal estates were indeed kept separate[69], There is evidence that the nomarch actually performed ritual service in the temple, mainly from revealing epithets of the nomarch. Bearing in mind the use of royal epithets, "may he live eternally," etc. in general. then, one may conclude that the nomarchs had early assumed religious roles formerly in the Old Kingdom and subsequently in the Middle and New Kingdoms, solely exercised by the king.

It appears, then, that authority in the Heracleopolitan area was essentially feudual and the state itself a federation of powerful nome-groupings under the loose sovereignty of the Heracleopolitan kings. Thebes, on the other hand. seems to have begun from one—nome nucleus and to have developed a relatively centralized state throughout the appreciably smaller amount of territory it controlled. From this it followes that policies similar to those of the Old Kingdom were to be expected inasmuch as such were possible in view of the increased feelings of individual

of Asyut. Tfibi of Asyut speaks of « his troops »[55] and describes in some detail the efforts he expended in stopping the Theban attack of Intf wahankh. It is painfully obvious that the burden of defense had fallen upon him fallen upon him alone. Later in the period, toward the end of the Tenth Dynasty, Nhri of the Hare nome was entrusted with the defense of the residence itself, and was expressly ordered by the king[56] to raise a troop His son kay recounts how he raised a troop[57] and states, " I was its (the city's) . . . . . in the swamp, no men being with me, save those of my following, namely, Medjoi, Nubians, Kushites, and Asiatics (?) ". Frequent mention of hryt mrt nt pr-nsw,[58] "the bitter atrocities of the king's house," as one of the banes of the local nome, indicates that no protection could be expected from the royal house, whether the pr-nsw be that of the Theban royal house or that of Heracleopolis.

The local nomarch then assumed not only the task of local defense in large part, but also other domestic matters formerly performed by the royal house. The tomb inscription of Akhtoy I, nomarch of Asyut,[59] informs us that irrigation was now in the hands of nomarchs. The formula of " nourishing one's city " reappears again and again in nomarchal inscriptions,[60] whereas Ankhty·fy of Muallah boasts not only of nourishing Muallah, but even of sending grain as far north as Thinis.[61] The spectre of famine haunted Egypt during this period[62] and one finds Akhtoy I closing his borders, a logical precaution in years of famine.[63] From the Hathub texts, in addition, one learns something concerning local administration. Three departments of the local nome are known, the c-hnwty, rwyt, and crrt.[64] The above-mentioned Netruhotep has lef tus his career[65] beginning with

his liegelord with a certain affection.(48) Akhtoy I, his grandfather, informs us that he himself was made nomarch while a youth of a cubit's height, and was taught swimming with the king's children, all of which is evidence for a policy of court education of the children of the nobility, a common policy in the Old Kingdom and likewise in later periods of Egyptian history (49)

Evidence for the nomes' governments' taking over many functions formerly exercised by the national government is forthcoming from various sources, the main ones considered here being quarry graffiti from Hatnub, the tomb inscriptions of Asyut, and the tomb inscriptions of Ankh·ty·fy of Mucallah. Almost interesting primary consideration is the relationship of the local nomarchs to the royal house. Spatial proximity to the Residence was an important factor. Graffiti at Hatnub indicates that a certain Netjeruhotep; a native of the Hare nome, served as royal messenger.(50) Under nomarchs Nhri and Djhuty-nakht V expeditions were sent for "a sarcophagus for the royal house."(51) The normarchal titulary is also unique in the Hare nome for including titles indicating relationship to the king.(52) Likewise direct commands of the king are mentioned(55) before the "knbt" of the entire land. On the negative side, however, are traits like appending phrases like "may he live prosperous and healthy" and "may he live like Re eternally" to the nomarchs' names. At the beginning of the First Intermediate Period the type of graffito changes abruptly from that of a simple report of the journey to paean of praise for an individual usually, but not necessarily, the local nomarch.(54)

An important constituent of authority during the First Intermediate Period was control of troops. For many years the main support of the Heracleopolitan monarchs was the nomarchs

monuments for the god. It is (something) which makes the name live on for him who does it," but the presence of such counsel interposed between rhe recruiting of soldiers[42]. and the beginning of specific advice concerning prospective relations with the south[43] seems to indicate that this instruction to build monuments was, for the ancient Egyptian, very pragmatic advice, baving little of the aura of luxury which the modern world associates with such works; for King Akhtoy, presumed author of this "instruction" could not have been completely unaware of the general propaganda value of monuments.

The balance of the "Instruction" consists of specific advice concerning relations with the north and south. In a very corrupt passage[44] a policy of colonization is described[45]. "Behold, I drove in my (?) mooring—post in the region(?) which I made on the East, from (??) the boundaries of Hebenu to the Horus – Way, equipped with cities, filled with people of the best of the entire land, so as to repel their (the Asiatics') attack". Gardiner notes that[46]. Hebenu is to be located in the neighborhood of Zawiyat al—Mayitin while the ways of Horus is apparently a synonym of the fortress town of Tjaru (Sile) near Quantarah, There is thus evidence, and more explicity infra, that peace and order were again being established at least in the northern part of the kingdom and that the concept of royal anthority, essentially that of a "primus inter pares," was current in the First Intermediate Period, and persisted into the Middle Kingdom, more and more tenuously up until the suppression of the old feudal nobility by Sesostris III[47] and his subsequent reorganization of the state.

Akhtoy II of Asyut, who accompanied the new king Merykare as he entered the "seat of his fathers," often speaks of

hed of court aristocracy, particularly in the north is one of the most distinctive features of the First Intermediate Period, and seems to indicate a definite re-orientation of the Egyptian ruling class and, consequently, of Egyptian society as a whole.

With the rise of the Heracleopolitan Ninth and Tenth Dynasties, one is again able to discern concepts of state policy. In this regard the famous "Instruction of Merikare," which survives to us only from late copies, the earliest identified by Möller on paleographic evidence to the reign of Amenophis II(35), but obviously composed during the First Intermediate Period by reason of language and content(36) is our most articulate source. The historical sections of this document have long been the backbone of our knowledge of the history of the Heracleopolitan period in its last stages. Of special interest, also here, is the strictly speaking non-historical portion of the text. For the Egyphian the text was undoubtedly an entirely logical entity, and accordingly it is useful to remember that distinctions subh as historical versus non—historical are basically of modern generic classification, deriving from modern—western frames of reference.

Policies followed earlier, namely, feudal relationships(37), with nobles, cultivation of religious institutions, and the exploiting of tradition are all mentioned. The famous passage (38) "Great is the great one whose nobles are great. Strong is a king who has nobles in attendence." Or in more general terms; "Respect the nobles and prosper thy people."(39) Religious duties are also enjoined upon the young king Merykare(40). and the building of monuments occupies an important place, The first inclination is to suspect the motivation for the building of monuments is mainly spiritual, cf. Golenischeff par. 63, "Make (beautiful(41)

justification, "Epigonendynastien." Even during the Heracleopolitan period the fame of the Sixth Dynasty seems to have remained, as witnessed by Merykare's building of his pyramid near that of Tty at Saqqarah, this shortly before the collapse of the Heracleopolitan state(29).

A concomitant feature of the above - mentioned political unrest, found in the Admonitions, is the spectre of social turmoil--the fall of great families and the rise of men of humble birth, The names of various kings of the Abydos king list-Djdw, Trrw. etc,led Stock(30) to comment that "Die in der Abydosliste auftackende Geburtsnamen Nbjj, Shmay, Khndw, Trrw, Ppi-snb, Annw deuten auf eine absinkende, gleichsam burgeliche Welt hin, der die memphitische Tradition und die ursprunglich aus der Verwandschaft zur6. Dynastie geschopfte Kraft rasch entschwindet," A reevaluation of the role of Ankh.ty.fy of Muallah(31) by Kees, paints a portrait of an arriviste war—lord - cum—nomarch who invaded the Seat of Hourus nome UE II) at the invitation of Horus(32) who, as nomarch, boasted that(33) "when someone steps on my tail, like on that of a crocodile, the South and the North this entire land, is in terror", Ankh.ty.fy apparently boasted with some reason as at this period his tomb is one of the most luxurious in the "Head of the South." It is to be noted that three types of security are sought after in the First Intrmediate Period(34); land, cattle, and ships; the last of which could be vital in transporting grain during the periods of famine which came all too frequently during this period. The fact that Ankh.ty.fy. was buried at Mu allah rather than at Hieraconpolis, the nome capital parallels a similar displacement of cemeteries in the Hare nome (from sheikh Said to al—Barshah), all indicative of us urpation of office in the nomes. This mixture of bourgeois provincialism and what remai-

control gradually slipped from the king's hands and the end of the Old Kingdom, the end of the authority of an absolute god-king was over, to return, only in a modified form, after generations of turmoil.

From the limited amount of epigraphic material that has come down to us from the immediate successor dynasties of the Old Kingdom, the Seventh and Eighth, it appears that the two abovementioned policies of the Old Kingdom, namely cultivation of the nobillity by gifts and marriage, and building religious points of support, were followed inasmuch as the contemporary weakness of the royal house would permit. The Coptos decrees provide our main source for policy in this regard. Here the main policies of Pepi II were carried out. In Urkunden 299(25), a Ninth Dynasty king Netjerbaw identified with Neferkauhor names Idy of Coptos as "overseer of Upper Egypt."

Another decree of the same king to Shmay(26) apparently father of Idy, decrees that the former's wife, Nbty, is to be known as the "King's eldest daughter," evidence of a continuation of the general policy of cultivation of the nobility and intermarriage. A third decree of Neferkauhor(28) is for the care and protection of his hwt—k,' which reminds one of the similar decrees of Pepi II, Neferkare.

With the breakdown of cenfral authority so vividly described in the "Admonitions," a third line of policy which is characteristic of various unstable periods of Egyptian history, now appears, namely the search for legitimacy. The throne name of Pepi II Neferkare was apparently very popular and borne by several kings of this period(28). From the multiple occurence of this one name Neferkare, Stock calls these two dynasties; with some

Neferkare—Ia nhw, surnamed Byw. There was thus, evidence for the division of the land into at least two administrative units and, if both the ubiquity of the title "tjaty" in the subsequent period and the parallel common holding of the title "overseer of Upper Egypt" are any indication, perhaps the vizierate was likewise further subdivided.

The Sixth Dynasty, in addition, undoubtedly fellowed a definite religious policy continued from that of its predecessors. The "Niwt m,' wt" of Harkhuf(20). are perhaps to be considered in connection with the various "Niwt," possibly originally to be considered foundations serving as collecting points for royal tribute and to be considered the bases of the later nomes in Lower Egypt(21). Be this as it may, this state policy of founding points of support for the royal house in both Upper and Lower Egypt seems to be parallel to a similar religious policy; namely the founding of religious communities, which would be presumably loyal to the king in gratitude therefor(22). Thus the Sixth Dynasty apparently attmpted to create a broad base of partisans among both the secular and religious leaders of the country.

The proper implementation of these policies was undoubtedly vitiated by the long reign of Pepi II, towards the end of which, as a very Old man he would have ceased to have exercised effective control over the state. In the Coptos decrees there are intimations in the very wording that decrees might not be carried out(23). Stock has noted the institution of the "overseer of the residence" who would presumably have corresponded, to a great extent; to a the Merovingian Mayor of the Palace. It is apparent that the King himself often was not consulted, usually to the predictable detriment of the royal house(24). Thus ultimate

link in his chain of reasoning remains the identification of Iby as a son of Khwi, done on the basis of the subsequent occurrence of the names Khwi and Djau as descendents of Iby, all of which is, admittedly an excedtionable reconstruction.

The nomarchs of Meir, often bearing basileophoric names including the name Pepi, were granted the title "overseer of upper Egypt in the middle nomes"(13) which, when compared with the titles of Khwi,(14) indicates an attempt to simultaneously placate the nobility and "divide et impera." The luxury of their tombs and their distance from the Residence foreshadows the following feudal age. To these we may compare likewise the nomarchal tombs to the north, at Sheikh Said,(15) built by the rulers of the Hare nome whose tombs, although poorer than those of the Serpent Mountain nome (Dayr al - Jabrawi) also imply by their very existence the progressive decentralization of the state, particularly when compared with the Fourth Dynasty practice of burial in the vicinity of Pharaoh.

The second policy of interest here, namely the fragmentation of the vizirate, is most graphically illustrated in the mortuary temple of Pepi II Neferkare(16). In the antechamber of this temple, Neferkare appears either standing with a stick in his hand, or sitting, because of reduced wall space over doorways, while before him are rows of gods, officials and even a group of slaughterers(17). Heading the rows of the officials are the vizier of Upper Egypt Idy, brother of Djau,(18) and son of Khwi of Abydos, on the south wall, and on the north wall, appropriately enough, is the vizier of Lower Egypt Ihy – Khnt, likewise heading a group of bowing officials. We have, however, additional viziers attested for Lower Egypt(19). Khabaw — Hnmw, Hnw, and

There seem to be several lines of policy followed by the kings of the Sixth Dynasty to bolster their authority and combat incipient feudalism – all of which in general tended to weaken the power—position of the royal house. It has been argued that the policy or familial alliances was greatly furthered by the need of Pepi I Meryre to cultivate support, a need resulting from his struggle with his predecessor Userkare(7). Complementing the policy of familial alliances was the attempt of kings of the Sixth Dynasty to link powerful families to them by outright gifts. Another poliey which one should think detrimental to the royal cause, that of the fragmentation of the vizirate, was also actively persued, our clearest example being found in the mortuary temple of Pepi II(8). The third aspect of the political situation affecting the two above – mentioned policies and to an extent the result of the same, was the deterioration, which occurred at the end of the long reign of Pepi II Neferkare, occasioned in part, apparently by the king's increasing old age. It is not to be intimated, however, that the above-mentioned lines of policy were originated by the Sixth Dynasty itself, rather the significance of such a delineation rests in the extremes to which such policies were carried, and in the spectacular results that such policies apparently generated-namely the collapse of the Old Kingdom.

As above mentiond, possibly because of dynastic conflicts, Pepi I Meryre married into the family of khwi of Abydos. His name is found listed both in the Coptos protection decree of Pepi I as "prince and overseer of Upper Egypt,"(9) and on some door jambs from Abydos(10) mentioning his two sistars, Pepiankhnes and Meryreankhnes, the mothers of Merenre and Pepi II Neferkare respectively(11). Stock has reconstructed the possible ramifications of this family into the Serpent Mountain nome(12) but the weak

Perhaps the fullest statement attested, which itself deals with the "Weltanschauung" of the Fifth Dynasty is that found in the Admonitions of Ipuwer, who describes critically the confusion immediately attendant upon the death of Pepi II Neferkare. Although the historical details presented are indeed of interest, the main importance of this document for the present discussion derives from two considerations; firstly that the recently departed Siyth Dynasty and the Old Kingdom in General was alreidy beginning to acquire a halcyon and hence exemplary aura, and secondly the consideration that intellectual life, including a tradition of social criticism, was sufficienlty developed to produce such a social critique. A picture of past domestic tranquility is juxtaposed against the civil strife of the present(2). Social turmoil and disrespect for authority(3) give one information in a negative way and confirm monumental evidence that the Old Kingdom was indeed a relatively highly centralized State, with an appreciable gap between the rich and the poor(4). A society in which tradition was an overweighing element of public life was shown by Ipuwer to have come to an end(5).

Of more ultimate importance, however, for the subsequent history of the First Intermediate Period is the fact that a generation so close to the Sixth Dynasty could have possessed such an articulate social conscience and produce such a document at all. There is evidence of direct confrontation of authority(6), although it must be admitted that all passages referring to the royal house remain somewhat obscure. This critical prophecy, in its very existence, is evidence for an attitude towards royalty that had undoubtedly begun much earlier, and perhaps could ultimately be traced, in part, to the rise of the cult of Re in the Fifth Dynasty. It antepenumbrates the individual independence so characteristic of the First Intermediate Period.

CERTAIN ASPECTS OF SOCIAL POLICY IN THE FIRST INTERMEDIATE PERIOD

By

Khalid El-Dissouky, PH. D.
History Department, College of Girls,
Ein-Shams University

Authority, and more specifically those policies that tend to the increase or decrease thereof, are all—important constituents of all societies, including that of Pharaonic Egypt. It is axiomatic that as a society changes, so will its polices and concepts of authority change. Within the continuity of Egyptian cultural tradition, the First Intermediate Period was a time of profound social change, the results of which determined in many respects the social systems of the Middle and New Kingdoms. For this reason, with a certain amount of oversimplification, and with a limited corpus of information, this discussion is attempted.

It has long been recognized that chronologically the profound social changes of the First Intermediate Period did not occur in a contextual vacuum, The causes for the breakdown in authority at the end of the Sixth Dynasty reach back deep into the Old Kingdom, the beginning of tomb construction in the provinces in the Fifth Dynasty being only one harbinger of the coming decentralization(I). In the Sixth Dynasty these forces toward decentralization come into clearer focus and one can begin to discern traits of the subsequent Intermediate Period, all of which renders a closer scrutiny of the Sixth Dynasty desirable.

EGYPTIAN HISTORICAL SOCIETY

EGYPTIAN HISTORICAL REVIEW

Vol. 21

Cairo (A. R. E.)